
القيادة
والأزمة
الحضارية
جميل كاظم المناف

دار الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(٢٠٥)

١٩٨٠

جميل كاظم المناف

القيادة والأزمة الحضارية

الأهداء

- الى نسر الامة العربية ••• : ـ
- لقد طال اغترابي في العزلة الابقة •••

وها أنذا اعود اليكم ايها البحر الزاخر ، وعيناي تذرفان بالدموع •••

- كل شيء هنا ينقاد اليك ، متحببا ، طائعا ، لانك الحقيقة مجسدة ، كأنك ينبوع ماء وسط صحارى الظمأ •••
- لكن عزلتي كانت سعيدة لانها عزلة الكائن الذي يراقب سريرته وسريرة الآخرين ، وخير حكمة للمرء ان يبصر نفسه ويبصر الاخرين ، وحكمتي أن لا أضيع وسط دوي الاجراس •
- واذا تكلمت فأني اكلم النسر الذي ينقل الصخور ليخلق جبلا من صنع ـ الكـــل ـــ ••
- لقد تجاوزت حدودي ، لكني معذور" لاني عشت بين الناس بقلب اسد ، ولم اعرف مداراة الثعالب •
- وعندما عرفت قلبك الكبير أقدمت مجتلدا غير هيابٍ لأعرض احجاري عليك ، لعلها تجد لها مكانا في جبلك العظيم •••

- لقد أراني عقلي انك تعرف الدنيا، وتزن الزمان بمقياس غير مقياس الناس الاعتياديين ، ومن يقس الزمان بمقياس العظمة والرحمة ، يجد في الهواء الطلق رائحة الحياة الزاخرة بالحقيقة ....

- انا مدين بالشكر لك لانك علمتني ان العالم ليس بغيضا ، وحكمتك ان تعلمنا وتتعلم منا ...

- وفي هديك أريد ان انصب ميزاني . في جبلك الاشـم الشامخ ، لعلي أصنع شيئا .

- ان شجاعتك الحرة عاطفة لي كفردٍ ولشعبي وامتي مهماز دافع ، وهي سعادة الدنيا وعرفان بالمستقبل ..

- وليس للذرى المنفردة ، وهي انتم ، من رغبة في الحياة الا معانقة اغوار شعبها وامتها . وبوصفي واحدا من هذه الاغوار الواهبة ، اضع نفسي بين ايديكم لعل الذرى تعانق الاعماق ،

- لقد علمتنا ايها النسر ، ان لا نحترم ابناء الافاعي والشك ، وانك لرجل موغل في علمه ، فتزدري كل متصاغر او متملقٍ او آبق ، والتصاغر شيمة المستأجر والمرتزق ، وانت تعرف الناس من سيمائهم ...

- وهذا المؤلف دليل كبرياء وكرامة ليست متصاغرة ، لانها ترفع الجبين الى الاعالي وتكتسب الرفعة من النسر وكواهله الصلبة .

- والحق ايها النسر المعلم ان الفكر الشجاع متعلق بكم لان الشجاعـة تعشق الشجاعة .. وهذه مكرمة منكم علمتنا اياها حينما كسرت الانهر وسقيت الارض .

● علمتنا تصاريف الحدثان والقدرة على التحكم في الزمن وصنع التاريخ ..
وعلمتنا ان الانسان وسيلة وغاية ..

وعلمتنا ان لا نخجل من انفسنا وان نواجه العالم بوجه غير مقنع ، وسبرت اغوارنا ، وبعثتنا شعبا في طور النقاهة ، ومن ثم لبسنا ثياب العافية ، وبدأنا نكتسب القوة والشهرة ومواجهة الشمس واجتياز الموانع .. ووهبت لنا الحياة مجدا .. وهل هناك شيء أشرف من ذلك ؟

وليس لي كفرد الا التمتع بلذة صنع الحياة مع شعبي ، فلذة الصنع تخلق الحب ، وليس لأحد الحق في ان يكون معلما الا أنتم في هذا المجال ، فأنتم بحق صناع الانسان ... ويا لشقائنا اذا لم تتعلم حكمتكم ..

● انظروا .. الى امتنا العربية ، وقد باتت تتبع مسالك الشجاعة وصنع التاريخ والحقائق وسط عالم يتاجر بالسلع والارباح ويقف فوق كل دمنة حقيرة ليمتص منها اقذار الشهوة ، وانتصبت الاطماع الاستعمارية ترصد الرزق وتتقلد القوة القاهرة زهوا وشغفا .. ووسط هذه الكومة من الحقارات العالمية .. صنع النسر لنا قاعدة غير قاعدة الآخرين فويل لنا اذا لم تتبع خطاه .. وويل لنا من انفسنا اذا مالت الى اللذائذ العابرة وخلت من الشدة والقسوة على ذاتها ..

فيا ايها النسر .. هذا صدق ما أشعر به ، وهو عهد" وعقد واتحاد الى المرتقى .. اما انت فبحر عظيم والجماهير الكادحة تحتاج اليكم وانها لأعظم غبطة ان تكون قائما في ذاتهم .

المؤلف

مقـــدمـة

١ ـ ملاحظات اوليـة

اقترحت على نفسي قبل عدة سنوات ان اقوم بوضع كتب تشرح نظريات البعث كما وردت في الكتب الاساس وفي افكار القادة والمناضلين ولكني عدلت عن ذلك ، لأن هذا الباب مطروق،ثم فكرت بوضع تاريخ البعث وضرب الامثلة والاستشهادات على طريقة « تيتوس ليفي »[1] ، بيـد انني عدلت عن ذلك ايضا ، لأن التاريخ لا يعيد نفسه ، فكل عصر له احداثه المميزة ، مع ان الناس في غالبية العصور تميزوا بنفس الرغبات لكنهم اختلفوا ثقافة واتجاها وتطلعات ثم ان القانون التاريخي ليس دائما حالة جبرية ولا حالةاختيارية ، يعمل الناس بموجبها في الحقل السياسي ، لذا فأن الاستدلال على ان القوانين الطبيعية في بحث البطولة والتاريخ والنظريات من ناحية السلوك السياسي امر قائم في كل آن ومكان أمر خطأته الاحداث ،

ونفس المقياس تقاس به مقولة ان التاريخ حالة اختبارية او محض مسألية تجريبية ، ذلك ان التاريخ عوامل متفاعلة كما ذهب الى ذلك ابن خلدون[2] فبناء الامم ليس قائما على مساق واحد كما تذهب الى ذلك الفلسفات الواحدية الجانـب ،

---

(١) تيتوس ليفي اوليفوس ٥٩ ق م ـ ١٧ ب م مؤرخ روماني مشـهور بأدب وافكار الاغـريق استقى منه نيقولوميكيـافيلي منهجيته في الامير ـ والمطارحات ـ ،

(٢) المقدمة ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت

كما ان البطولة ليست دائما بطولة الفاتحين او الطغاة من امثال شارل الخامس او ملوك الغزو الصليبي او النازيين والصهاينة ، والقول ان البطولة عمل واقعي بحت هو قول مناف للحقيقة ، ذلك ان البطولة عمل اخلاقي وانساني ايضا .

وهذا هو الدافع الذي جعلني التجيء الى الربط بين بطولة القيادة السياسية للحزب والثورة والاعمال الاخلاقية والممارسات النضالية وهذا الكتاب مقدمة من اجزاء أخر قد اتمكن من انجازها .

٢ ـ الدولة والجماهير

تقوم غالبية افكار الفلاسفة والمنظرين والباحثين القدامى والمحدثين في الدولة على اساسين لا ثالث لهما ، **الاول :ــ** ان الدولة مؤسسة اقتصادية او **قومية او طبقية** ، ومن اهم الذين اشتهروا بهذا الراي **جوهان غوتليب فيخته** ١٧٦٢ ــ ١٨١٤ ــ الذي اعتبر الدولة مؤسسة قومية لتفتح نشاط الفرد ، وهذا ينطلق من نظرة قومية استعلائية ، اما هيغل فقد ذهب الى القول بأن الحقيقة الالهية المطلقة ، تتجسد في الدولة ، ويجد **كارل ماركس** كما هو معروف ان الدولة ذات تكوين طبقي .

ولا نود هنا استعراض اسماء الذين ذهبوا الى هذا المذهب او ذاك ، لكننا نذكر ان الدولة استخدمت في التاريخ لغايات شتى ، فأستخدمها الكردينال **ريشيلو** ــ ١٥٨٥ ــ ١٦٤٢ للطغيان وكانت فلسفته في الحكم سيادة التاج سيادة مطلقة ، وهناك عدة امثلة تاريخية قديمة ومحدثة عن ذلك .

الثاني :ــ ان الدولة محايدة ، فوق الطبقات وهذه النظرية لها انصارها ومفكروها تبدأ **بجان جاك روسو وبنثام وروبرت اوين** المبنية على اخلاقية ميتافيزيقية **وماكس شتيرنر** والخ القائمة . وفي ظل وضع كهذا كانت **نظرية البعث في الدولة** تربط الدولة بالوضع الاجتماعي والقومي ، وتربطها بالمعرفة والوعي والصراع الطبقي والنشاط العملي لممارسة الامة لدورها في التاريخ .

فتعتبر ان نشاط الانسان العربي في الحياة السياسية وحياة الامــة هو الذي يحدد دوره ، والدولة هنا تمتاز بصفة الواقع المباشر لكنهــا بعكــس **الهيجليــة والماركسية** لا تتحول الى ــ وثن ــ يعبد لانها كائنة بالجماهير ومــن اجلهــا ، فالدولة مؤسسة قائمة بالمجتمع ومن اجله ولا انفصال لها عنه ..

والدولة في نظر البعث ليست مؤسسة تحل محل الطبقة ولا الطبقة تحل محل المجتمع .

ان غاية الدولة لدى البعث ان تقوم بصيرورة الجماهير . والجماهــير ليست اداة الدولة انما هي واقعها وغايتها ، وبذا تكون الدولة مسؤولة في الديمقراطية ومسؤولة في سايكولوجية الانسان الاجتماعي .

● اما الجماهير فهي ليست قوى للانتاج كما يذهب الى ذلك الماركسيون انما الانتاج هو اداة الجماهير . ذلك ان الانتاج اداة للوعي ، وهو في نفس الوقت اداة للانسان في ان يكون انسانا ، اما ان يتحول الانتاج الى وسيلة لقمع الوعي وتحديده ، فهذه نظرية وصلت اليها الستالينية التي حولت الانسان الى التقنين وصادرت وعيه لصالح الانتاج والتطور التاريخي وجعلت الارتباط بينه وبين الدولة ارتباطا قائما على الطاعة العمياء ، وهو طغيان مبطن باللفظية الثورية والمادية الجدلية والنظرية الشمولية .

● الجماهير اذن حقيقة العالم الملموس ، فلا يمكن الخروج بالحقيقة الى عالم الواقع اذا جعلنا السلعة فوق الانسان ، فالانسان هو سيد السلعة وبذلك ربط البعث بين الوعي والانتاج ، وبين الجماهير كرافد ثوري والتطور الثوري والتغير الموضوعي كعملية اجتماعية وقومية .

٣ ـ الدولة والثــورة :

الدولة والثورة ، كما واجهها البعث مسألة ذات علاقة بالواقع العربــي والعالمي المنظور ، وقد ربط المناضل القائد صدام حسين بين الدولة ومهامهــا والثورة ومجالها ، وبذا قلب النظريات الشائعة في هذا العصر ، فلم يحــول

الدولة الى اداة تخطيطية فوقية ، كما فعل بعض المذهبيين الستالينيين ، ولم يحولها الى اداة تبعوية ـ من التبعية ـ للطبقة الرأسمالية • ولم يصنفها في اطار الفعل الفردي المحض بل ربطها ربطا محكما بالحزب كأداة للجماهير وبالجماهير كصانعة للثورة في الوقت الذي جعل الثورة وسيلة لاكتشاف نفسها من خلال كونها ذات صيرورة متزامنة مع الجماهير وقائمة بها • ولهذا ركز المناضل القائد صدام حسين على بناء الثورة من خلال بناء المجتمع ، فالمجتمع يكتشف الثورة والثورة تكتشف المجتمع ، وهذا اغناء للفكر الثوري واضافة جديدة •

٤ ـ الاعتبارات :

على ضوء هذه الاعتبارات وضعت هذا الكتاب ودرست فكر البعث ونهجت منهجا خاصا وابتكرت اسلوبا لا ريب انه يعد ترجمة لنهج الثورة والحزب ، يحمل بصمات جهد مميز اذ يعتمد على تقصي الامور واعطاء ابعادها تفسيرا علميا ، لأن عمق مبادىء البعث لا يكمن في الممارسة العملية ـ البراكسيس ـ فحسب ، وانما في الايديولوجيا وحصانتها ، فالمعرفة لا تقع نواتها في خارجها كما هو الحال لدى المعرفة الرأسمالية التي تناقض نواتها . انما المعرفة الثورية لدى البعث تنسجم وتتوافق مع نواتها وخصائصها ،

وهذا اعتبار اول ، **اما الاعتبار الثاني** ، فهو ان البعث اداة بطولية لشعبه ولذاته ، وبذا فأن مجموعة الامثلة المستقاة في هذا الكتاب ليست احتمالية انما هي مصداق للتوافق بين الايديولوجيا والممارسة •

الاعتبار الثالث :ـ ان آراء البعث في القضايا السياسية العربية والمحلية والدولية اثبتت صحتها وهذه امور جديرة بالتقصي العميق • ولم يكن في وسعي ان افعل ذلك في هذا الكتاب ، فقد يكون ذلك في كتاب لاحق ، ولكن جل ما وصلت اليه ، هو اني استهديت ببعض المواقف ••

الاعتبار الرابع :ـ استشفاف للحوافز والدوافع التي هي العامل الاساس في فهم المغزى السياسي والفكري والتاريخي والقول بأن هناك حدا فاصلا بين الحوافز والدوافع وبين الاعمال قول مناقض لذاته ٠ وعليه فأن البعث وحدة متكاملة ٠

الاعتبار الخامس :ـ هو ان البعث في مصادره الاساس نابع من وعي الجماهير العربية وليس كائنا خارجها فهو والحالة هذه يندرج ضمن قائمة وعي الانسان العربي بذاته ووجوده وقدراته ٠ وهو ـ اي البعث ـ اداة ذلك الانسان لابراز حضارته وفعله في العالم المعاصر وهو سعي الى استكمال الانسان العربي مقومات كيانه الحضاري ، وبذلك فالبعث يبقى دائما صيرورة نحو البناء الحضاري في الحقب التاريخية التي رافقت الاربعينات وحتى يومنا هذا وللحقب القابلة ، وهذا السعي الحضاري من خصائص الوضع العربي وقدرة البعث كحزب واداة للشعب العربي على الاستنهاض والثورة والفعل ٠

ويتضمن الكتاب فصولا عن الازمة الحضارية للامة العربية والحزب كأداة للنهوض الحضاري ٠

واعتقد ان غالبية ان لم اقل كل الافكار العظيمة نشأت ونبعت وترعرعت في الازمة وقد اخالف على هذا ، لكن الكثيرين يوافقونني على ما ذهبت اليه ، والامثلة على ذلك واضحة ، اذ ان الوجود العربي قبيل الاسلام كان مأزوما بذاته وواقعه فجاء الاسلام ليطلق الطاقات العربية من أزمتها وينتصر على أزمة الوجود ٠

ولا أريد ضرب امثلة من العالم المعاصر فهي ماثلة للعيان ٠

الاعتبار السادس :ـ هذا الاعتبار يتجسد في البطولة فالبعث بطولة في الازمة ، وقد ابرز البعث مناضلين شجعانا كالمناضل القائد صدام حسين ، والبعث ايضا سعي الى البطولة وامتحان لها والبحث عنها في استحداث الوقائع او لمنع وقوعها ٠

٥ ـ **المنهجية السياسية :**

تعتبر المنهجية السياسية مدخلاً الى معرفـة مفهوم الدولة والجماهير والسلطة والحزب والقيادة والاقتصاد والخ ، وقد حاولت ان اعطي تصورا لهذه المنهجية في حدود علاقة المنهجية بالممارسة ، والايديولوجيا بالعمل وذلك ضمن صيغة البحث وطريقة الاسلوب التي اتبعتها وارتباط ذلك بالتحويـل الاقتصادي والاجتماعي • ولم انطلق من علم السياسة الوصفي الذي يعتمد في تفسير المنهجية السياسية على ما يقوم به السياسيون ، وانما زاوجت بين الايديولوجيا وبين الممارسة ، بين الفكر والواقع ، بين الممكن المستطاع وبين المتصور ، والمنهجية كتقديم وتعريف تقوم في احدى مهماتها على المعرفـة الاصيلة والعمل الذي هو محك لها ، واذا كان تبرير المعرفة في المنهجية يعود الى المجتمع والتاريخ والاقتصاد والقومية والامة والشعب والطبقات • فأن واقع المنهجية يعود الى العمل فالعمل هو المفسر الحقيقي للمعرفة المنهجية ، اما القيادة فهي بانية الجسر الموصل بين المعرفة والعمل • وكما يقال في المثل « الحق هو الذي تراه حتى ولو كنت لا تؤمن به » •

وهناك في فقرات الكتاب بعض الاشارات الى « الضرورة » التي تقرر العمل وتنشأ في الحوافز والمعتقدات ، وفي تفسير التاريخ ان وقائع الاختبار اثبتت ان الضرورة تسعى الى الحق اذا كانت مستندة في اولياتها اليه ، غير ان التمييز بين الضرورة الباطلة والضرورة الحقة أمر لازم ، ذلك ان هناك كثيرا من الضرورات اثبت التاريخ بطلانها ، ولما كان البعث ضرورة حقة في المنهجية والمسؤولية ، فأن ضروراته العملية ذات استعداد في الحق لانها قائمة فيه •

٦ ـ **المســـؤولية :**

المسؤولية قبل كل شيء موقف ذاتي ازاء النفس والقوم والمجتمع ، والمسؤولية ذات تأثير في المنهجية السياسية بل هي جذر المنهجية ، فلا منهجية بلا مسؤولية • وهذا الربط بين الذاتي والموضوعي هو الذي يجسد ملكـة القيادة السياسية لدى البعث ، وتكثر مآثر هذا التجسيد بقدر ما تتوافـق

الصله بين آفاق المنهجية وعواملها ومواقف الشخصيات القيادية آزاء النظرية والواقع الموضوعي .

وليست هذه المآثر منظورة من شبابيك الطموح القومي والاجتماعي فحسب انما هي ايضا منظورة في الملاحم التي يحفظها التاريخ للبعث وقيادته التاريخية .

ومن أهم خواص المواقف في المسؤولية هي الايجابية الذاتية للقيادة ازاء الاحداث والقدرة في صنعها ، والموقف المسؤول بحد ذاته مؤسس على معرفة الحقيقة . وهذا موقف عقلاني ، والايجابية هنا ليس دخولا في عالم الفعل فقط بل دخول في السيطرة على الفعل وذلك ما يؤثر في التاريخ تأثيرا عظيما .

٧ ـ الايمـــان :

الايمان امتحان انساني للمسؤولية ولما كانت المعتقدات هي منبع الايمان فأنه ليس اسلوبا سكولاستيكيا او استقصائيا ، انما هو اعتقاد وميل انساني، وقد جسد البعث هذا الايمان بأهدافه في الحرية والوحدة والاشتراكية ، وعلى الرغم من ان الايمان البعثي واجه مقاومة عنيفة الا انه امتلك الجرأة والاقدام والتحدي وهذه صفات ملازمة للثورية او على الاصح ــ ارادة الايمان ــ وهو نوع من الاصرار على المنهجية وتثبيت مسؤوليتها .

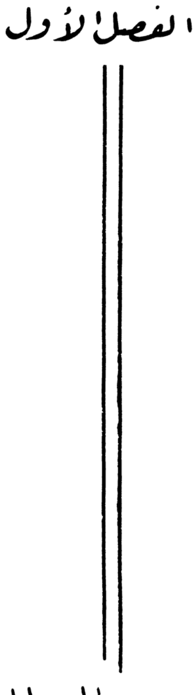
واعزو في كتابي هذا الى البعث امورا في مصادر افعال الرجال مما يجعلني اميل الى تأثير القيادة في صنع الاحداث وفي نفس الوقت تأثير المنهجية في القيادة التي تنسجم مع منهجيتها ، وبذا نحصل على تأثير متبادل في الجهود الرامية الى اثر فعل القيادة في التاريخ واثر فعل المنهجية في القيادة ، وهكذا تكون الوحدة الجدلية بين القيادة والنظرية ، وماذا تعني هذه الوحدة هنا ؟.. انها تعني ليس حصيلة حسابية ، النظرية + القيادة ، تساوي الفعل ، ان هذه مقولة هندسية مسطرية وهي ضرب من الفرضية ، لكن الذي اعنيه وحدة جدلية ، فالبعث منظومة من النظرية والفعل ، متكاملان وموحدان ، وترتبط هــذه المنظومة ارتباطا وثيقا بمشروعية تناسبها ..

لكنا نرى ان الفعل الذي يواجه القيادة يظل مسألة ذات خصوصية مميزة ، لأن القوة الموجهة للفعل وان كانت مستمدة من المنهجية والنظرية والجماهير الا انها قوة ذاتية ضمن القواعد المنطقية للترابط بين ما ذكرته انفا ، وهذا الربط تتوثق عراه كلما كانت آفاق منظومة المنهجية والقيادة متوافقة بالمعنى الايديولوجي والمعنى الاختباري ، وقد جسد البعث هذا التوافق وقام به .. والالتزام المعرفي ـ الايماني هو مرساة النظرية والفعل من الوجهتين المنهجية المحض والعملية ،

لا ريب ان هذا الكتاب يضع عناوين عدة لفصوله ، ولا اود استعراض تلك الفصول ولا الطرائقية التي يسير في مسارها فهذا امر ادعه للقراء ، وحسبي انني شرحت دوافع عملي ..

بغـداد ج ، ك ، م

الفصل الأول



الرجال والحدث التاريخي

المبحث الاول : مصـادر الافعـال

يلازمنا اهتمام كبير عند بحث الاحداث التاريخية • وغالبا ما نلجأ الى تفسير الاحداث بالنظريا توالمذاهب والقوانين ، الا أننا ننسى الذين صنعوا الاحداث ترجيحا للموضوعية او تقربا من العلم الذي يؤكد أن العصر ينتج أناسه على شاكلته ، لكن العلم ذاته يؤكد أن الاحداث لا تصنع بمعزل عـن الانسان • ولذلك فان الموضوعية تشير الى الرجال الذين صنعوا الاحداث ، وأنه لصحيح القول أن الاهتمام العاطفي اللاهب الذي يتجسد في أحقية الفعل التاريخي يعكس الطابع الدرامي للحدث ، ومن هنا فان مصادر أفعال الرجال العظام ليست فوق التاريخ ، انما هي في داخله ، لأن تلك الافعال نماذج لوقائع، وباستطاعة الباحث استكناه ما هية تلك الوقائع من خلال التفاصيل •

واذا كان الرجل العظيم في القرون الوسطى والعالم القديم هو الملك الفاتح المدمر أو القائد المغامر العنيف مما جعل البربرية سمة لازمة للقيادة الى جانب القسر والعنف مثال ذلك **الامبراطوريـة الرومانيـة وبركليس الهلينـي وقياصرة بيزنطة والاسكندر المقدوني** ، فان الرجـل العظيم في عصرنا هو الذي يسيطر على مفهوم قيمة الحياة ويعطي لقومه قيما عليا وينتصر على تناقضات الواقع ليعطي نموذجا في الحوافـز المدركة حين تظهر هذه الحوافز منسقة ومدروسة • يضاف الى هذا ان الرجل العظيم هو الذي يمتلك موقعا نفسيا عاليا من تاريخ قومه وعالمه ومجتمعه • وابرز ميزتين فيه القوة في معرفة اللحظة الحرجة في الحدث ، والغبطة في تناول الفعل •

ان ذلك الحافز في حياة العظام يولد القناعة الاخلاقية ، ويولد الاعجاب بالواجب • وهذه هي أخلاقية عملية ، أما الاخلاقية الجمالية ، فهي تنقسـم مبدئيا الى قسمين :ـ

١ ـ الافكار العامة المتداولة في العصر ونجد فيها التعميمات التي تعبر عما هو مطروح اجتماعيا وقوميا ودوليا ، ويرتبط الرجال العظام بهذه الافكار ضمن مفاهيم دقيقة وعالية التعبير • ويحس الرجل العظيم بكامل حريته في هذا المضمار اذ أن فكرته واضحـة وضوحا تاما عن عالمه وقومـه ومجتمعـه •

٢ ـ يلوح التخصص المبدئي في امكانات مجتمعه والهدف الاساسي الذي يوجه سلوكه مسيطرا عليه ، ونجده في بداية كل عصر بطولي من العصور المتميزة الا أن « الحراك » هو سمة البطل ، ذلك الحراك المتميز بنظرة كونية عميقة مقبولة ضمنا من مجتمعه وأن بدت ازاءها بعض العقبات والمعوقات الا أن سمة البطل الانتصار على تلك العقبات والمعوقات • والحقيقة الاساسية في ذلك ، هي منابع الفعالية لديه ، التي تفرض التفاصيل على شكل مبادىء ، تتحول بدورها الى وقائع مادية حياتية ، والفرض هنا ليس قسريا بالمعنى الجبري ، وانما جدليا بالمعنى الثوري ، وتتحـول تفاصيل هذه الفعالية الى تعبير عن مسائل معاشة في حياة المجتمع تتميز بالتناقض العنيف مع القديم المتهرىء الا أنها تبرز وفاقا عاما مع القديم الانساني والجديد المتغلغل في التطور والتقدم •

* يمتلك الرجل العظيم روحية شفافة ضرورية ونفاذة في معرفة الطبيعة البشرية ، وهذه الروحية هي لديه مثل الهواء الذي تتنفسه • وهي تسيره الى الاعماق في حقل تخصصه •

* وفي حقل النظرية السياسية مثلا يمكننا ملاحظة هذه الروحية مجسدة في البطل القيادي الذي يرى نطاق تطبيقاته في مجال حيوي ضمن البعد الزمني الدقيق ، وتتقدم في هذا المضمار لدى البطل فكرة التأسيس الحياتي للمسئولية ضمن دوائر المجتمع ، حتى تنتشر هذه الروحية في مراكز المسئولية المتعددة اذ أن هناك نزعة عملية للربط بين القيادة ونتائج أعمالها • وذلك استقراء قياسي دقيـق •

* يقدم النمو المستمر للنظرية السياسية في مجالات الواقع خلاصة رائعة عن تاريخ الرجال العظام ويمكن اعتبار امتزاج الفكر السياسي بالواقع العملي نصرا للمرحلة الاولى وسنجد كيف تمتزج الافكار بالعمل في ظل الزعامة المقدامـــة .

المبحث الثاني : المعنى الآفـل

تتميز الحضارات الرومانية والهيلينية القديمة بميزتين أساسيتين :ــ

أولاهما : انها تمثل ذروة العصر الاقطاعي وبقايا عصر الرق وخاصة في الامبراطورية الرومانية والحضارة الهيلينية، اما الحضارات الفرعونية والبابلية والآشورية فقد كانت ذات سمات انسانية مغايرة للعصر الاقطاعي نظرا لما جاءت به من مبادىء انسانية ومن أشهر ما جاءت به شريعة حمورابي التي سيجيء ذكرها ، مما جعل البطولة ذات بعد ارستقراطي أو عسكري عنيف قاسٍ وطاغ . وهي حظوة لبعض الافراد ، فالذي يكون بطلا عليه أن يكون فاتحا يمتلـك عددا كبيرا من العبيد والمال والثروة واذا نظرنا الى جمهورية (أفلاطون) نجد أن مصدر البطولة لدى الاغريق متأتٍ من ايجاد التوازن بين العبودية والحرية وتلك ميزة ترنو الى اشباع مثالي أكثر مما هي واقع عملي حي . وخـلال الحضارة لرومانية نجد شيشرون وقيصر اتفقا على أن البطولة تعني تميـز الجماعة المتحضرة عن الجماعة المتوحشة في النظام الطبقي السائد أنئذ . وعليه كان القادة قساة غلاظا سواء نحو مواطنهم أو نحو عبيدهم الا ما اقتضـته ضرورة التوازن الاجتماعي .

وثانيهما : ان البطولة في الحضارة الاغريقية والرومانية الكلاسيكية تعني الفتح وما يرافقه من سلب ونهب واجتثاث جسدي وافناء . ويلوح هذا التقليد اكثر انسانية لدى المجتمعات الرومانية والاغريقية وهي تشبيه بين طرفي الحبل حيث يجذب الوحش الطرف الاول ويجذب الانسان المثالي الطرف الثاني . فالقوة الروحية انذاك لدى البطل هي قوة الفعل المادي الكاسح البدائي القاسي

العنيف ، ويحدثنا التاريخ كم كانت فتوحات القياصرة والاباطرة **وايتكا وجنكيز خان واتيلا وكاليغولا** متوحشة وضارية . اما في العصر الوسيط فقد كان **كروميل ونابليون** مثال البطولة التي ادخل عليها عنصر الاصلاح او نشر المبادىء ، الا أن كروميل ونابليون حملا سمات الحضارة الرومانية القديمة وسمات التركيب الطبقي الجديد للرأسمالية التجارية الناشئة ، فسقط نابليون في الغزو لاستعماري وسقط كروميل الانكليزي ضحية للطبقة الارستقراطية ونبلاء انكلترا .

ان الزهو والغرور والانانية الطبقية كانت سمات أبطال العصر الوسيط وبذلك كان لأبطال ـ الدفاع عن الوطن ـ مآثر أكثر انسانية من أولئك الفاتحين ، **فصلاح الدين الايوبي** مثلا ، عبر عن فعالية الالهام في دفع المجتمع العربي ـ الاسلامي الى رد التحدي والاستجابة ضده .

المبحث الثالث : المعنى التاريخي

لدى التمعن في النشاط التاريخي تتراءى أعماق « الاحداث » ويعتبر النشاط هذا في جوهره « أفعالا » والصفة الملازمة للتاريخ » تحتم ترتيب حلقاته بنظام ومنطق «لكن هذا الترتيب والمنطق يظلان قاصرين اذا لم يعتمد الكاتب على الصدق ، واذا لم يضع الافعال ضمن الاحداث الانسانية ويعطيها صفتها اللازمة ، فليس كل « فعل » في « الحدث » يتضمن تاريخا انسانيا ، فقد أظهر الوجود الفعال للنزعات البشرية أن عهود الحكام المطلقي السلطة ليست دائما بطولة ، ومثال ذلك في العصر الحديث **هتلر وموسليني** ومن هو على غرارهما فأصدار القرار والاقتدار به ابتداءً من التنظيم السياسي الى التنظيم العسكري والمدني . هو « حدث » وفعل « تاريخي » ، لكنه ليس بالضرورة بطولة ، والا لأعتبرنا اقتدار الكيان الصهيوني واتخاذ بن غوريون لقرار غزوة مصر في العام ١٩٥٦ ، بطولة ، وكذلك قرار عدوان العام ١٩٦٧ ـ حزيران ـ يونيو ، واقتدار أيان سميث ، بطولة ، وكذلك قرارات حكام جنوب أفريقيا .

فالفرق بين بطولة القرار في ــ الحدث التاريخي ، وبين القرار الحدثي فرق في الكم والنوع ، والقياس هنا ليس قياس توسع السـلطة التنفيذيـة وصلاحيتها وانما القياس هو القرار السياسي ضمن جدلية صراع الحقيقة مع البطل المناهض لها ، ومن هنا فان الامر يتعلق بالوضع التاريخي . ففي الحالة التاريخية التي تكون فيها الامة مقهورة أو مستعمرة أو مستغلة (بفتح الغين) بأي شكل من الاشكال فان القرار الحدثي المناهض لهذه الحالة باتجاه التحرر يكتسب سمة بطولية ، ونستطيع ان نضع تأميم القيادة السياسية في العراق للنفط العام ١٩٧٢ في هذا القياس ، فهو قرار سياسي له مغزى تقدمي وثوري في آن واحد ، وكذلك قرار تأميم قناة السويس العام ١٩٥٦ ، كما يعتبر قرار التصدي للكيان الصهيوني بالقوة العربية المسلحة من قبل العراق الذي أعلن استعداد القطر ارسال قواته المسلحة الى الجبهة الشمالية ، قرارا باتجاه الحالة التاريخية لانهاض الامة العربية من الكبوة ودفعها الى الرد على التحـدي الاستيطاني الصهيوني والتحدي الامبريالي الامريكي وسنأتي على أمثلة كثيرة عن ذلك فيما يأتي من فصول .

● الحدث التاريخي أذن ما يقرره القرار ، لكن القرار ليس قيـاسا رومانتيكيا فالمهم هو تطابق القرار مع الحالة التاريخية وأحقية الامة في التطور والتحرر والنمو ورد العدوان . فالفعالية التاريخية ليست تاريخية بالمعنـى البراغماتي ــ الذرائعي ــ انما هي فعالية بالمعنى التحرري والانساني .

المبحث الرابع : الاسطورة والتاريخ

فما الذي نستطيع أن نستنتجه من هذا الاختلاف ؟. يتضح على الفور ان النظرة الاسطورية للبطولة والاحداث التاريخية نظرة تسبغ على التاريخ شرفا ادبيا منسوبا الى اشخاص الهوا جزافا مثل نزعة « هردر »[٢] والناظر **للالياذة والأوذيسه** يجد فيهما ما يمكن تسميته بالبطل «المتحقق» ، والبطل «المتسامي» رغم التراجيديا التي تكتنفهذين العملين الملحميين الخالدين فالنزعة الاسطورية

تسبغ على « رجال الاحداث » سمة الهية ثم تنزع هذه السمة عندما تؤكد اسطورة بروميثيوس الذي سرق النار من الالهة ولكنه حكم بالهبوط الى العالم السفلي وبات يجتر الخطيئة أو مثل سيزيف يدحرج الصخرة الى الاسفل ويعود بها الى القمة ليهبط من جديد « تكرار الحدوث » أما النظرة الجدلية فهي لا تخادع نفسها في ميدان الواقع ولا تستهدف تحسين التاريخ وانما استجلاءه من خلال أقوال القادة وأعمالهم .

المبحث الخامس : الازمة الحضارية

يقرر توينبي في عقيدته في التحدي والجواب ، ان التحدي هو الذي يخلق « رجال الاحداث » وهو لا يعتقد بأن البشر يزدهرون في أسهل الظروف ، وانما على العكس يزدهرون في الظروف التي تتحداهم أشد تحد ، وكلما ازداد ، التحدي صار البشر الذين يواجهونه أشد عظمة[٣] وقد لخص توينبي فكرته بالمحيط القاسي ، وضرب على صحة ذلك أمثلة عدة ، روما ومقدونيا وحضارة الصين القديمة وبيزنطة . ومثال توينبي هذا قد ينطبق على الحضارات الرومانية والاغريقية ، التي انتجت فاتحين لا أبطالا ، أما أمتنا العربية فتعيش تحديا من نوع آخر يجمع الكثير من التحديات ، بل يجمع بين الازمة التاريخية ، والصراع مع امبراطوريات استعمارية كولونيالية آفلة ، بريطانيا ، وفرنسا ، وامبريالية فتية ونشيطة ، واستعمار صهيوني خرج من احشاء الكولونيالية الاستعمارية ، ليكون « غيتو » صهيوني لليهود على شكل دولة . وليمارس تكوين امبراطورية اقتصادية ـ استيطانية ـ تهضم ـ منطقة الشرق العربي والمغرب العربي رويدا رويدا ، هذه الوضعية التأريخية التي تواجه الامة العربية أوصلتها الى الازمة وقد كان لزاما أن يبرز ـ رجال الاحداث ـ لمجابهة الازمة والانتصار عليها ، فبعد التقدم العلمي في سبل المواصلات مشفوعا بالتقدم في استخراج المعادن والثروات النفطية واندحار الاستعمار الكولونيالي ـ الاستيطاني ، ونهوض شعوب العالم وأممه ضد

الاستعمار الجديد ، وتوسع آفاق الثورة التكنولوجية بأبعادها الالكترونية والتكنيكية وانتقال هذه الثورة الى غالبية شعوب العالم . وامتداد المعرفة العلمية في جميع مناحي الحياة أصبح تحدي المحيط القاسي والاستجابة له ليس مسألة ذات بال بعد أن أدركت الشعوب مصادر الثروة والعلم .

انما الازمة الحضارية الآن تتجلى في الاهداف العملية للقوى الامبراطورية الراهنة ، التي تحاول أن تستوعب الامة وتحتويها احتواءً حضاريا بكل تفرعاته الاقتصادية والسياسية والثقافية . وقد بدأ الاستعمار الانكليزي والاستعمار الفرنسي حملات الاحتواء منذ عدة قرون . بل ان فلسفة الاحتواء بدأت منذ أن قامت الحملة الصليبية الاولى سنة ٤٨٩ هجرية ، ولم يسكت الصراع لحظة ، الا ما كان يتخلل ذلك من فترات الاعداد والاستعداد والمواثبة وانتهاز الفرصة الملائمة ولن ينسى التاريخ في معرض الصراع موقعة المنصورة في عهد توران شاه الايوبي ٦٤٨ هـ ــ ١٢٥٠ م ــ فقد جاء الصليبيون بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع ونزلوا دمياط وقتل منهم ٢٠ ألفا وغرق كثير منهم في النيل وأسر لويس التاسع في دار ابن لقمان التي لا تزال باقية الى اليوم »[٤] .

ولا نريد هنا استعراض محاولات الاحتواء منذ القرن الثامن عشر ولحد اللحظة التاريخية الراهنة ، ومتابعة خطوات الاستعمار الاوربي في المغرب العربي والمشرق العربي ، لنشهد الذكريات الدامية ، بدءا من حملات فرنسا ضد الجزائر والمغرب ، واغتصاب انكلترا امارات الخليج العربي في عملية قرصنة واضحة العام ١٨٢٠ ، ولا خطوة فرنسا في حملتها على مصر في تموز ــ يوليو سنة ١٧٩٨ « حينما شاهدت الاسكندرية عمارة بحرية فرنسية بعد ما شاهدت قبل ذلك بأيام عمارة بحرية بريطانية بقيادة أمير البحر نلسن »[٥] .

وانتهاء بتأسيس الوطن ــ القومي ــ المزعوم ــ للصهاينة في فلسطين العربية العام ١٩٤٨ ثم حملة سيناء العام ١٩٥٦ وعدوان حزيران ــ يونيو ــ ١٩٦٧ ، فنحن الان نواجه التحدي الامريكي المباشر في وطننا العربي

« وضرورة العمل على مواجهة التحدي الامريكي ، هي ضـرورة حضاريـة تأريخية ، حتى لا ينتهي الامر بنا الى فقدان شخصيتنا القومية ومقومات حياتنا وحتى لا نضيع مستقبلنا في عالم لا وجود فيه لمن لا مستقبل لهم »[٦] •

وعندما نقول بأن العقل العربي السياسي قد تعلم واستفاد من التجربة فنحن نفكر في جدل الطبيعة في عقل الانسان العربي ، ومن المهم ان نلاحظ ان الانسان العربي استوعب الحضارة التكنولوجية وبدأ بصنع ذاته من خلال اجتيازه للعقبات ، وانتصاره على كل مخلفات الاستعمار من تجزئة قطريـة وتخلف وجهل ومرض وأمية وبالتالي ازالة العقبة الرئيسية الكؤود المتمثلة بالوجود الصهيوني الاستيطاني •

والنقطة الاولى : الان هي « ان الامة العربية لم تواجه صعوبات في حياتها كالتي تواجهها الان ، لكنها في نهضتها الحديثـة ، ومنذ عهـد الاسـتقلال الوطني العام حتى الوقت الراهن ، لم تكن في حال أقدر على التأثير في المحيط الدولي ، وفي خلق مستلزمات النهوض الحضاري وايذاء عدوها في مصالحه ، مثلما هو حالها الان • كما لم تمر بفترة استخدم أعداؤها كل الصيغ المبتكرة في الايذاء ضدها مثل هذه الفترة »[٧] •

النقطة الثانية : ان امة تواجه مثل هذا التحدي احـق بأبـراز رجـال الاحداث ، والزعامات والقيادات ، من خلال عملية التغير التاريخية لدك حصون أعدائها • ولسوف تستمر العلاقة بين الحدث التاريخي والزعامة مـا دامـت وضعية الامة العربية وضعية صراع •

النقطة الثالثة : تجلت هذه القيادة الان في رجالات العراق القياديين **كالاب القائد احمد حسن البكر والرئيس القائد صدام حسين** .. لماذا ..؟..؟..

١ ـ لأن المجتمع العربي يتطلع في خضم صراعه مع الاعداء الى من ينقـذه ـ ليس بمعزل عنه ـ فهذه مقولة اسطورية وخرافية ، فالقائـد بدون الجماهير كالضابط في المعركة بدون جنود ، ولكن بواسطتهم •

٢ ــ لأن الفعل السياسي يزيد الاهتمام بالرجال التاريخيين وبخاصة فيما يتعلق باطار هذا الفعل ضمن المنظور التقدمي لدى الشعب والنهوض به اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا •

٣ ــ ان الانتصار على الصعاب والعقبات يؤهل ــ رجال الاحداث ــ لتبوؤ الزعامة ذلك ان الشعوب تعجب بالاعمال قبل الرجال واذا ما أعجبت بالاعمال فانها سرعان ما تمنح الرجال الثقة وتعطيهم زمام القيادة بدون قسر وبخاصة اذا كانت الاعمال حضارية وتقدمية وتحررية ففترات التأزم التاريخي الشديد تقوم بصنع رجال الاحداث في المخاطر ، واللحظة الحرجة في حياة امتنا تجثم عند عتبة باب كل بيت •

٤ ــ الفرصة التاريخية •• وقد لخصها الرئيس القائد صدام حسين بما يلي : « فالمطلوب منا دائما كأبناء لأمة ننتمي اليها حقيقيا ، وننتمي الى هذا الشعب والى مصالحه وتطلعاته حاضرا ومستقبلا أن نجهد أنفسنا في أن نخلق الفرصة التأريخية للامة ، وليس فقط أن نستثمر أو نستغل الفرصة التي تفتح تاريخيا أمام الامة »[٨] •

والفرصة التاريخية هنا أن تؤمن أن امكانات الامة العربية موجودة لكنها بحاجة الى الظروف المناسبة والشعب هو الذي يخلق الظروف • فالاحداث من صنع البشر والتاريخ ليس كائنا خارجهم ! •

* ومعنى ذلك أن الاحداث هي التي تصنع الرجال التاريخيين ، كما أن الرجال التاريخيين هم الذين يصنعون الاحداث •

* عند الفلاسفة والمؤرخين المثاليين امثال **هردر** ، **وشلجل** ، **ونيبور ورانكه** ، **وهمبولت وكروتشه**[٩] الفعل التاريخي ، صيرورة ذاتية أولية يخلقها الرجال ، وهذا يعني ايقاف حدود الزمن في أفعال الرجال مهما كانت نزعاتها السياسية ، وهذه أسطورية محضة ووضعية محضة تجمع بين افكار مؤرخي الاغريق **كهيردوت وعملية ميكيافيلي** البراغماتية . اما عند **البعث العربي**

الاشتراكي ، فان صيرورة الفعل التاريخي كلية فهي تتصور التاريخ والمجتمع تاريخيا . فالانسان يتميز بالزمنية ، وفعاليته أن يتعمق بالزمن وهذا ركن أساسي من أركان العلم الحديث والصيرورة التاريخية لاية أمة تتضمن اشكال الوعي فيها وأشكال الحياة « اننا نعتقد أن بذور الحياة وامكانات التطور موجودة في أبناء الامة العربية وهي موجودة فيكم أيضا . لذلك لا يمكن أن تجلب عملية الانكسار ميدانيا أو جبهويا اليأس الى نفوسنا وانما الذي يجلب اليأس هو أن نكتشف بأننا نسير بعكس تيار التقدم ، وان الاهداف المطروحة من قبلنا للتعامل مع الحياة ومع الامة من اجل النهوض تسير بعكس حركتها التاريخية ، أما وأن قوانين الحياة تؤكد لنا يوما بعد آخر ان حركتنا وأهدافنا أنما يعبران عن الاتجاه الصحيح لحركة التاريخ ومستقبل الامة الوضاء فان المسألة تختلف »[١٠] .

* فمعرفة الاحداث ، ومعرفة وعي الامة ، ووعي حركتها التاريخية هي استخلاص ما يحدث فيها وعنها في الصيرورة التاريخية .

* « وعلى أساس هذا التحليل الذي نؤمن به ايمانا راسخا ، يرتبط تصورنا لحركة الواقع ومؤشراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء من خلال صلتها بهذه المرحلة أو ارتباطاتها بآفاق المرحلة التاريخية والمسيرة نحو المستقبل ، لذلك فاننا نعتقد أن النصر سيكون للامة حتما »[١١] .

رجل الاحداث وآفاق المرحلة التاريخية واحتمالاتها يؤكد « حتى وان بدت أمامنا بعض الاخفاقات وبعض الانكسارات المؤذية التي تسبب جروحا عميقة للامة نفسيا ومعنويا وماديا أحيانا ، ان قدرا من الضغط الاستثنائي الاضافي في الايذاء وفي الاهانة ضد الامة والشعب يولد انفجارا عاليا استثنائيا كذلك »[١٢] .

* هذا التصور للتاريخ الآني وآفاق المرحلة التاريخية واحتمالاتها يرافقه تصور قياسي ثوري لروح الامة « فلابد أن نستخلص نتيجة أساسية

حاسمة أساسها ، ان الامة العربية تمر الان بمرحلة مخاض لعملية خلق جديد تنسلخ فيها عن القشرة القديمة وتنزع عنها جلدها القديم ، وتعمل على طرد أو تطوير روحها ومفاهيمها السابقة بما يجعلها أكثر قدرة على التأثير »[١٣] ٠

* اذن رجال القيادة في العراق رجال أحداث جسام ٠

*وهم من الموقع التاريخي للنهوض بالامة العربية التي تلتمس آفاق قوتها مرشحون لقيادة الامة العربية وحل معضلاتها القومية والاقتصادية والتاريخية وهم رجال أحداث من الطراز الاول ٠

* وهم ليسوا منقذين للامة بالمعنى اللاهوتي والاسطوري فهذه عملية ميتافيزيقية أبعدت علميا ، انما هم رجال فعل وأحداث يستمدون الطاقة والفعالية من الشعب وأسس معرفتهم تعتمد على الواقع وامكانات الجماهير ٠ وتلك هي المعرفة العملية والعلمية التي تتجاوز التأمل والمثالية ٠

المبحث السادس : المعرفة والتاريخ

* تشكل المعرفة التاريخية لدى ــ رجال الاحداث ــ مفتاحا رئيسيا لنمو الذات من خلال الاندماج بقضايا الشعب والامة ٠ ولكن الفردي هنا يتمايز عن الجماعي من حيث أن العقل الانساني يتميز بميزتين رئيسيتين ٠ فهو كذات مفردة يخضع لتطور روحيته وغبطته وملاذه الذهنية والنفسية وأفعاله العملية ، فالحلم الواقعي هو انعتاق الروح لديه ، ولا يكتمل ذلك الانعتاق الا من خلال الممارسة العملية وهذه المسألة لا تخضع لقانون تاريخي أو جبرية حتمية بقدر خضوعها الى خصوصية الذات وهذه التجربة « لا يفهمها الا الصادقون »[١٤] والمعرفة التاريخية لدى الثوري تختلف جدليا عن المعرفة التاريخية لدى الانتهازي أو السياسي المحترف فالاخير يجد في الفترات الحرجة في أمته وفي نكباتها ومصائبها فرصة للقفز والاستحواذ على السلطة أما المناضل الثوري فيجد في تلك المصائب والنكبات صرخة تنبعث في أعماقه لتدفعه الى

اكتناه الحقيقة والتطور النوعي لذاته من خلال معرفته لسببية الاحداث العامة في أمته ومجتمعه والعالم المحيط به . وهذه الخصائص (كمية) ــ أي قابلة للقياس فالثوري يبني نفسه في صيرورة الزمن نفسها ، ومن خلال مراقبته للنقائض التي تحملها الاحداث ، تسير (روحيته) في نموها فشعوره بالاستلاب يعوضه العمل السياسي السري ، وشعوره بالاغتراب عن الاخلاق الفاسدة السائدة في المجتمع يعوضه بالانتماء للحزب أو الجماعة . وهنا ينمو الثوري ــ ذاتيا ــ نموا روحيا خلاقا « فالكائن الذي يقتصر على النمو الكمي سرعان ما يصير الى مسخ شائه »(١٥) .

فالثوري يتصاعد نفسيا حتى في ظل الازمة والنكبة ، **ولذلك وجدنا الاب القائد احمد حسن البكر والرئيس المناضل صدام حسين ورفاقهم الذين صمدوا ازاء نكسة الحزب بعد ١٨ تشرين في حالة نفسية عالية .. اما المسوخ وادعياء الثورية فقد مثلوا شكلا من اشكال الانحطاط الذاتي والقهقر ، بينما التكامل الذاتي لدى البكر وصدام والمناضلين الصامدين شكل كيفا من خلال القفز الى الصعاب واجتياز العقبات وتحقيق ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ . هنا ظهر** نمط كيفي قيادي جديد، بدا ظاهريا، مصادفة، ومفاجأة، لكنه عميق ومتجذر، وأصيل في الذات والاهداف الموضوعية ، وهنا مكمن الابداع في التاريخ الغني بالصور والتوقعات ضمن السياق التاريخي لحركة الثورة العربية .

« فالقوى الاستيعابية للخطة التاريخية تعطي توافقا قويا مع الاشخاص »(١٦) لكنه افتراض سهل أن نقول ذلك اذا لم يكن لدى الاشخاص المعنيين أو رجال الاحداث ، استعداد ذاتي وتكون روحي ، فمثال الرجال العظام يحتاج الى توافق بين الذات والموضوع لان تفسير العالم المادي وتفسير نفسية البطل ينهاران أمام الممارسة العملية . اذ لا يتأتى الطابع الخاص للبطل الثوري . الا من سمته الثورية العملية ومن تجاوز موقف الحلم الى موقف الممارسة ووعي تلك الممارسة وعيا انسانيا تاما وقوميا تاما فاعتبار البطل الثوري ــ ثوريا ــ يبين تاريخية معرفته الذاتية ونموها وتكاملها الكيفي وتطابقها مع تاريخية

موجوده الوطني أو القومي او الانساني . فالموقف التأملي الروحي هو فعالية ذاتية عرجاء بدون الممارسة العملية وهنا يكمن الفرق بين المعرفة التاريخية للبطل الثوري والمعرفة التاريخية لدى الانتهازي ، اذ أن الممارسة العملية للثوري تطابق الواقع المشخص ، بينما الانتهازي يركب الموجة وبهذا يمكننا فصل ممارسة « رجال الافعال » المحضة عن هذه الصورة الجدلية فرجال الافعال المحضة أمثال هتلر وموسوليني والاميرال نلسون ونيرون كانوا يعاكسون تيار التقدم التاريخي وهم بالمنظار الجدلي ليسوا سوى جلادين ، أما رجال الدولة الاعتياديون فهم اناس اعتياديون وان برعوا في المراتب المدنية والعسكرية، وهذا يقودنا الى نتيجة معاكسة للفهم الكارليلي ، فكارليل في كتابه ــ الابطال وعبادة الابطال ــ يرى أن التاريخ ما أنجز وهو ليس الا مجموعة أعمال ، كما ان هيغل رأى أن التاريخ يتكامل بفضل الدولة المطلقة السلطة .

ولدينا فان الدولة ليست الا مؤسسة مرهونة بوظيفتها الاجتماعية وظروفها التاريخية وارادات رجالها ، ورجال الدولة لا يستثيرون الظروف بصورة ميتافيزيقية ولا يقومون بالاعمال بطريقة اسطورية انما هم محكومون بوضعية اجتماعية وطبقية وتاريخية . كما أن تركيب الدولة وسط بيروقراطية الادارة المرتبطة بها ، تظل حاملة لشعور ــ الاداة ــ وفي وسط هذه الوضعية الداخلية والوضعية الدولية يبرز البطل أو الابطال ضمن قوام ستراتيجية النضال « والنضال هو المبدأ الصحيح عن الامة ، فاننا في النضال نبني أسس حياتنا المقبلة ، وفي النضال تزول عوامل الانحطاط ، وفي جو النضال الجدي لا يبقى نفع خاص ولا تبقى مادة ولا يبقى تنافس حقير ، ولا تبقى أنانيات لان النضال يبنى مستوى جديدا ، أما ان ترقى اليه النفوس أو تسقط من الحساب »(١٧) . ومن أجل ستراتيجية النضال التي هي أداة ووسيلة ينمو المجتمع ويتكامل في ظل الصراع لكي يولد الانقلاب الذي تدعمه الجماهير وتقوم به من أجل مصالحها لان الجماهير الكادحة هي التي تعترض على المؤسسات المتهرئة القائمة وتنكرها « فالانقلاب ليس له الا معنى واحد واضح

وصريح ، هو الصراع والمعاكسة للعقلية والخلق والمصالح السائدة ، والبعث يولد من هذا الصراع »[18] .

* هكذا فان اسباغ القدسية على الدولة كما فعل هيغل الفيلسوف الالماني واسباغ القدسية على رجال الدولة كما ذهب الى ذلك كارليل الانكليزي يوقعان الارباك في النظر الى المعرفة التاريخية لدى البطل ، ذلك أنه بالامكان استخدام ما أضفاه كارليل على رجل الدولة على أي زعيم مستبد وطاغ لاظهاره بمظهر الزعيم ورجل الفعل التاريخي ، كما أنه بالامكان اسباغ الدولة حسب ما جاء به هيغل بالصباغ المطلوبة واسدال وشاح الرضا والعصمة عليها . في حين أن الدولة لا تقوم فقط على شعور الالزام والواجب ، ورجال الدولة ليسوا رجال أفعال مجردة أو عملية محضة ، فالدولة مرتبطة بالطبقة والمجتمع وهي تحول دون الفعالية الانسانية اذا كانت الطبقة مستغلة « بكسر الغين » كالطبقة الاقطاعية أو الرأسمالية ويصبح الفعل التاريخي لرجال الدولة شاملا للبنيان المراتبي الاجتماعي مثلما هو شامل للصراع مع المجتمعات الاخرى سواء بالفتح او الدبلوماسية ، وبذا يتحول التاريخ لدى تلك الدولة الى كائن سياسي أو عسكري او تجاري (المبادلات وعلاقات التصدير) وغالبا ما نجد الكثير من المؤرخين والكتاب يعرفون القائد او البطل بتاريخه الحربي والسياسي ، بينما المسألة أكثر عمقا وأبعد في صناعة التاريخ ، ولنأخذ مثلا على ذلك الاسكندر المقدوني ، فهذا القائد استطاع أن يهزم دارا الساساني في موقعة جوجميلا ، وأن يؤسس امبراطورية مترامية الاطراف وصلت حتى تخوم مصر، لكنها سرعان ما تمزقت واندمجت الحاميات الاغريقية في السكان الاصليين للبلاد ، حتى البطالمة ــ البطالسة ، تمذهبوا بالديانات المصرية القديمة . ومثال آخر هو تيمورلنك الذي اعتمد على قوة البداوة والعسكرية البربرية الذي انتهى الامر بأتباعه الى اعتناق مبادىء الحضارة التي حاولوا تدميرها وبذا ارتد فعله التاريخي الى حجمه الطبيعي حيث تلاشى بسرعة . ومثال ثالث أكثر قربا فهو معاصر ولا تزال آثاره ماثلة لحد الان ، وأعني به الاستعمار . فعندما

هبت أوربا باتجاه الشرق وافريقيا ومكثت قرابة قرن ونصف بزغ في دولها قادة ورجال أفعال وأحداث تاريخية استطاعوا أن يضعـوا في التاريخ تاريـخا لا عقلانيا ، لكن ذلك ارتد عليهم ولم يبق من الحضارة الغربية لدى الشعوب المستعمرة سابقا سوى التكنيك الغربي الذي أصبح عالميا ليس خاصا بأمـة أو شعب،بل على العكس من ذلك أصبحت أفعال دزرائيلي وبلفور وتشمبرلين وتشرشل وترومان وغي موليه وكليمنصو أفعالا مضادة للتاريخ • بينما وجدنا أفعال رجال أحداث في الحضارة العربية كأبي عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد وطارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم دفعت شعوبا بكاملها لاعتناق عقيدة انسانية ويقينا للفكر واسلوب حياة ونظام شريعة ، ابتداءمن سوسيولوجيا البنى والصور الايديولوجية ، وانتهاءً بالعمل الحياتي •• فالفترة البطولية في حياة رجال الدولة القوية لا تعتمد دائما على التأثـير في التاريـخ بالصيرورة العسكرية الفاتحة أو باستغلال الضعفاء ، انما الفعل يكون تاريخيا بالوعـي الانساني والاجتماعي ، لأن الفعل التاريخي لأي قائد او رجل أحداث ••، هو الفعل الذي يقوم للناس وعيا لأنفسهم وواقعهم وتطلعاتهم ضمن صيرورية زمنية محـددة •

* هنا نقف لنسأل هل ان المعرفة التاريخية لدى البطل الثوري تضع حدا للموقف التاريخي القديم المبني على المفاهيم البالية ؟••

قطعا يكون الجواب بالايجـاب ذلك أن الحضارات القديمـة أعطت للعسكرية البربرية سمات البطولة كما أعطت للافعال السياسية المحضة سمة الرسالة ، وأعطت الصفة نفسها لأفعال الاقلية التي تسنمت دست الحكـم فأتقنت الوسائل الحربية واستخدام الدولة كحارس لمصالحها الطبقية فأنقضت على مجتمعها أولا لتروضه وصهرته في بنائها الاجتماعي • ثم وجهت حرابها الى جيرانها وانقضت على المجتمعات البعيدة لتدمرها •

هذه الافعال التاريخية كما تسمى تزرع الشر بأسم البطولة في رحـاب البشرية وهي بهذا تفتح صدرها وتفتح أبوابها لكل من يشابهها في المصلحة •

ومثال حي حديث ومعاش آنيا ، وهي الامبريالية التي ترى أن المصلحة ليست لها وطن (الشركات المتعددة الجنسية) فالامبريالية كوسموبوليتية بطبيعتها . وبطولة الشر تعود فتأكل نفسها في حقب لاحقة من التاريخ .

* ان موضوعنا هنا ليس أن المعرفة بالتاريخ تمنع البطولة الشريرة ، ولكن موضوعنا هو أن البطل الثوري يجد في المعرفة والتاريخ مسوغا في رغبته في أن يعيد للتاريخ حقيقته وقوته الفعالة وذلك لصيق الصلة بالممارسة « ان نظرة حزبنا ليس فيها اصطناع للتاريخ الحديث ولا للتاريخ القديم . وانما هي التحام نظرته بتيار التاريخ – من الداخل – لا نتيجة التطلع اليه – من الخارج – لذلك فان نظرة البعثي الى تاريخ الامة العربية تلقى عليها اضواء ما كان يتاح لها هذا الدور لولا هذه النظرة والتفاعل من الداخل لذلك فنحن لسنا في حاجة الى تزوير التاريخ أو الى اصطناعه من اجل أن نقرأه قراءة بعثية . وانما نحن بحاجة الى أن نفهمه فهما بعثيا ليس غير ، وان ذلك يضفي عليه من الحقيقية ما لم يكن ظاهرا منها »(١٩) .

وفي نص الرفيق صدام حسين حول كتابة التاريخ نجد تكملة منهجية للموجهات الفكرية فكل معرفة سواء أكانت علما أم ظاهرة أم سلوكا أم عملا فنيا أو سياسيا تعتبر تمثلا لجوهر الزمن مع ادراك ونقد جذري مع فكر جدلي للوجود التاريخي السلبي ، أي الموجود التاريخي بجانبه العابر ، اذ أن المعرفة التاريخية للبطل الثوري بما تخلق لنا من مفاهيم ومبادىء تفسح المجال أمام المشروع القومي الانساني – مشروع التكامل بين العقلي والواقعي ، بين تملك الانسان لطبيعته وتاريخه من الداخل .

المبحث السابع : الفكر الثوري والصورة المتكافئة للتاريخ

يدرك المرء أن العقلانية الثورية في معرفتها التاريخية أن التاريخ لا يسير في آلية ميكانيكية ولا يخضع لنسبية مطلقة « فالمؤرخون الباحثون الذين يسمون أنفسهم موضوعيين ربما يعرضون وجهات نظر مختلفة واحتمالات

عديدة لتفسير حادثة واحدة مستقاة من تفسيرات مطروحة أو مستنتجة ويتركون للقارىء أن يستنتج ما يشاء ويبنى من التفسيرات بما يتوافق مع هواه ، ولكن في كل الاحوال يجب أن لا يتعامل البعثي مع التاريخ وعموم المسائل الفكرية والاجتماعية هذا التعامل لانه عندما يأخذ التفسيرات كما هي فان مثل هـذه التفسيرات انما استندت الى حقائق نسبية وبخاصة في الجوانب التي تتعلـق بالحياة الاجتماعية لتلك المرحلة »[٢٠] هنا نجد في حدود التحليل البنيوي أن الصور «التي أعطاها الرئيس القائد صدام حسين للتاريخ صورة (متكافئة) توازن بين عنصرين متكاملين ، النسبي ، والمتكامل ، « وحتى الحقائق المطلقة منها انما هي نسبية أيضا في ارتباطها بالزمن »[٢١] .

ان مصائر الامم والشعوب تمضي الى أمام منتكسة أو منتصرة . فكما تتدفق الانهار وتجرى الجداول وتنبت النباتات والاشجار وتتجدد الطبيعة في صراعها الجدلي ، ترتقى الشعوب والامم او تتمزق وتنحط لاسباب عدة ، سياسية ، اجتماعية ، اتناجية ، طبقية ، أزمة قيادة . وفي اللحظة التاريخيـة الحرجة تتحدد المصائر « لقد كانت اللحظة التاريخية في حياة الثورة العربيـة سلامة الاختيار ولم يكن اختيارا بسيطا لانه لم يكن بين نقيضين فحسـب ، المحافظة والثورة..اليمين واليسار.التجزئة والوحدة،الرجعية والاشتراكية.. بل كان الاختيار أيضا بين ثورة وثورة .. يسار ويسار . ووحدة وحدة . اشتراكية واشتراكية ، بل بين مادة مستغلة مسيطرة ، ومادة نابعة من الروح وتابعة لها .. والروح في تفكيرنا ليست شيئا غيبيا ولا سحريا يناقض منهجنا العلمي ، وانما الوعي وهي الارادة والاخلاق وكل النزعات التي تشدنا الى الخير والجمال والتضحية والبطولة ، وهي الايمان بالحقيقة والعدالة والحرية ، وكان على الحزب التاريخي أن يقول كلمة واحدة أمام كل اختيار محير ، هي الكلمة التي تنبع من الاصالة ومن تجربة الامة فتجعل الافكار المجردة مبدعة حياة وصانعة تاريخ »[٢٢] .

سلامة الاختيار في اللحظة التاريخية الحرجة تتحدد بالمعرفة التاريخية للقيادة وقدرة تلك القيادة على بث الافكار الخلاقة في المجتمع لصنع القوى الدافعة التي تؤثر في التحول الاجتماعي ، ان العامل الواعي لهذه الافكار يتميز تاريخيا عن القوى اللاواعية « وترجع أسباب التحولات العظيمة الى حدوث توافق القوى المشتقة من ناحيتي العالم ، أي الطبيعة المادية والطبيعة الروحية »[٢٣] .

* ان الافكار التاريخية المنبثقة من حاجات الامة تكون لصيقة بالتجدد التاريخي والانبعاث الحضاري ، ولذا فهي لا تتمذهب ولا تتمحور ضمن منظور أحادي الجانب « فكرة هذا الحزب كانت رهانا على اصالة الامة العربية وعبقريتها المبدعة . لم يعتبر الحزب من الضروري ، كما لم يكن بالامكان أن يأتي بالصيغ الجاهزة الكاملة لما يجب أن تكون عليه الحياة في المجتمع العربي المنشود »[٢٤] .

لكن الافكار العظيمة تكون مع هذا ــ ذات تخصص في تجسيداتها المادية فالصورة العامة والتعميم الاسمى الذي ينهض عليها يرتبط بالصورة المجسدة . واقعيا . وهنا تتجلى المعرفة التاريخية للقيادة وبخاصة فيما يتعلق بالواقع والحقيقة ، فتقوم النظرية والممارسة العملية على مفهوم تماس الفكر بالواقع والتصاقه به دون انقياد الفكر للواقع انقيادا تبعيا ، فنطاق الفكر محدد الفعالية الجماهيرية والزمن التاريخي للمجتمع حيث الحركة الجدلية للانتاج وصيرورة المجتمع ، ومعاناة الامة .

* وهنا يكون المقياس والتعبير عنه بواسطة الامور الملموسة . وقد استخدم هذا المقياس الدقيق لتحويل المجتمع ومعرفة نقائصه بالتجربة .. « لتجربة حزب البعث خصوصية . ان هي أهملت أو تجوهلت ، فان ذلك يعرض هذه الحركة الاساسية في مسيرة الثورة العربية لكثير من التشويه والانحراف .. وهذه الخصوصية التي تميز بها الحزب ، هي اقتران الموضوعي بالذاتي في شكل وحدة عضوية فلا يمكن فصل افكار الحزب القومية

والاشتراكية والديمقراطية عن العملية النفسية الداخليـة التي تشكل هـذه الخصوصية »[٢٥] .

* وهنا نصل الى ادراك كامل بأن الايديولوجية الجاهزة الكاملة تؤدي الى تجريد الانسان من الفعالية ، وتؤدي الى اعتبار الانسان آلة انتاجية ، اذن الايديولوجية الجاهزة حتى اذا تزامنت مع الزمن فانها تظل متخلفة عنه وهي لهذا تعكس الواقع لكنها تلزمه ــ أي الواقع ــ بتجريد نظري « من خـلال تصورات مسبقة تخيرتها الجماعات المتسلطة وسلمت بها ، ومن ثم تتوفر عناصر جديدة مع تصورات ملازمة لها ، لتشق طريقها عبر مشاكل ووجهات نظر عتيقة وتقاليد متعددة »[٢٦] .

فمقادير التجريد النظري واللاتزامن التاريخي والتمذهب المحوري وغلالة من الوهم تدخل في تركيب الايديولوجيات الجاهزة ، فتسم الفهم للواقع بفهم أقرب الى الآلية وتجاوز الانسان الفرد والجماعة ــ وسنبحث هذا الموضوع بتوسع واسهاب في الفصل الثالث .

المبحث الثامن : المعرفة التاريخية في الاطار القومي

والمعرفة التاريخية في الاطار القومي والاطار الانساني لدى القيادة الثورية والبطل الثوري تتسم بالحيويـة التقدمية سـواء في السياسة أو في المطامح الاجتماعية وقد أكد حزب البعث العربي الاشتراكي أن الوحدة العربية واقع حي ولذا فهي « ليست نظرية بحاجة الى اثبات »[٢٧] .

من هذه الناحية شخص الحزب أن الاستعمار هو خالق التجزئة والحريص على وجودها وديمومتها باعتبارها وسيلة في ابقاء التخلف وارساء دعائم اشكال الاستعمار الاقتصادي والابتزاز الحضاري والتخريب الثقافي ، كما أن التجزئة خلفت الرواسب الاقليمية والمصالح الطبقية ، ولذا وجد النضال القومي .. ان النضال من أجل الوحدة يصطدم :ــ

أ ـ بالاستعمار العالمي بشتى أشكاله القديمة والحديثة ، وبخاصة بالامبريالية التي هي أعلى قمم الاستعمار ووريثته الشرعية اقتصاديا وثقافيا وتكنولوجيا .

ب ـ بالطبقات المستغلة المستفيدة من أوضاع التجزئة اقليميا ، وكأسلوب للانتاج مبني على الهيمنة وعلى فائض القيمة والارتباط بأي حال من الاحوال مع السوق الرأسمالي العالمي في التعامل الاقتصادي .

ج ـ بالبورجوازية العربية الوطنية التي كانت ولا زالت بفعل التجزئة ذاتها وضعف امكاناتها القومية ولكونها برزت في مرحلة تاريخية كان الاقطاع كأسلوب للانتاج هو السائد في الوطن العربي ـ ولانها تعاملت مع المستعمرين في فترة الاستعمار المباشر ونظرا « لان بورجوازية كل قطر قد نمت بشكل مستقل عن بورجوازيات الاقطار الاخرى فحولت كل من البورجوازيات القطرية التناقضات بينها الى تناقضات اقليمية بين قطر وآخر »(٢٨) .

* وهذه **نقطة أولى** . اما **النقطة الثانية** فهي ، فلسطين محور نضال قيادة البعث التاريخية ، ولا نريد استعراض رأي الحزب والقيادة فيها لأن هذا سيجيء ضمن سياق البحث وفي الوضع المحدد ، بيد أن طروحات الحزب خلال الثلاثين عاما المنصرمة أكدت « أن العقبة الكبرى التي جعلت مجهود البلاد العربية رغم الثورات التي حدثت في ربع القرن الاخير ورغم قيام أنظمة تقدمية في كثير من الاقطار العربية ورغم التبدلات الاجتماعية ، عاجزا عن أن يتكافأ مع العدو الخارجي هي واقع التجزئة »(٢٩) .

ولذا فان « العقلية الوحدوية العلمية تتمثل في المرحلة الراهنة في الرؤية القادرة على الخروج من حدود التجزئة والنظر الى الامكانات والوسائل العربية ومعرفة كيفية استغلالها وتحريكها ودفعها في طريق الثورة »(٣٠) .

وعلى هذا فان فكر البعث في المعرفة التاريخية وعظمة مفتاح تلك المعرفة يأتي دائما مصحوبا بقضية فلسطين والنضال من أجلها وتعزيز العمل الوحدوي العربي بما يضمن حقوق الانسان العربي ووحدته الحضارية وقد اكتسبت هذه المعرفة التاريخية في قيادة البكر والرئيس صدام حسين بعدا وتقبلا فكريا مميزا اذ توضحت وتوسعت وصارت أكثر تخصصا ودقة في الصيغ النظرية والعملية فالكفاءة الشخصية القيادية لهذين الرجلين اضافة الى قدرتهما في تنظيم المجتمع في القطر العراقي وتشخيصهما الصائب لاهداف العدو . والتصدي المتواصل لأهداف الامبريالية الامريكية في المنطقة الى جانب التوكيد على الثقة بالجماهير والايمان بها وتفجير قدراتها الخلاقة في اللحظة المناسبة قد اعطت الجماهير الدور الاساس وغالبا ما يهمل بعض الباحثين دور الجماهير في الازمات التاريخية ، اما المناضل صدام حسين فيؤكد بقوة خلاقة جاءت لتؤكد القدرة على الايمان الكلي بالجماهير ودورها في النضال . وقد ابرزت القيادة السياسية للبعث ان الجماهير ذات فعالية في الازمات . وهذا اقتدار للقيادة السياسية ليس اختباريا او نظريا فحسب بل انه منتزع من الواقع ومجسد للحقيقة « صحيح أن سياسة الترويض كانت رهيبة واستخدم فيها علماء النفس والسياسيون المتخصصون . كل وسائل التقنية المبتكرة في مطابخ الامبرياليين وأعوانهم لترويض الشعب العربي . ولكن مع ذلك فاننا نعتقد أنهم كانوا يدركون بأن رد فعل الشعب العربي لابد وان يكون مهما ، ولكنهم لم يكونوا يدركون أن رد الفعل هذا يكون شاملا وعاصفا »(٣١) .

ان تعيينات المعرفة التاريخية للموقع والمهمة في هذه النصوص هي على الاخص تعيينات قياسية تعرف أبعاد الواقع ومتطلبات الامة . مع ذلك يظل المفهوم التاريخي بحاجة الى الجانب الاجتماعي . فالعبء الملقى على قيادة البعث بكل ثقله لا يتم النهوض به اذا لم ينظم المجتمع تنظيما متكاملا يستطيع معرفة ذاته وقواه وامكاناته ، فالبنيان العام للقيادة لا يدرك مغزاه الا ضمن

الفعالية الاجتماعية العملية ولا قيمة مطلقا للنظرية المعرفية التاريخية المنفصلة عن الفعالية الاجتماعية الا في الاطار المعرفي الاكاديمي او الدراسي ، لأن ماهية القيادة التاريخية هي ماهية اجتماعية . وماهية المجتمع هي فعل ومضمون وسلب وايجاب ، وتأثير وتبادل ، فاذا ضاعت القيادة في الاطار النظري ضاع الفعل وأصبحت معضلات المجتمع راهنة ، وغير قابلة للحل .

وهنا نجد القيادة في البعث ترصد الفعل وتؤكد عليه دون أن تجعله بديلا للنظر أو مناقضا له . ذلك أن الفعل التاريخي الثوري ، هو الذي يغير نظريا وعمليا وهو الذي لا يجعل التقنيات الاكاديمية بديلا عن النظرة الفلسفية الثورية . فعلوم التخصص الاكاديمية ترصد المجتمع رصدا تجريبيا ، لكنها ينقصها الشمول والثورية ، ينقصها نسبة التقدم المعرفي في فهم المشاهدات الدقيقة والتفاصيل الاجتماعية ببعدها التاريخي وضمن حسابات القياس النوعي في الفعل السياسي .

الا أن القيادة الثورية تستعين بالعلوم كافة لتعيد لها أبعادها وعمقها الاجتماعيين داخل اطار النظرة الموحدة دونما التباس .

المبحث التاسع : القيادة والازمة

القيادة في المفهوم اللغوي هي الاخذ بالزمام والسير به نحو غاية مرسومة. والقيادة لدى العرب الاقدمين ، المرشد ، الدليل ، الهادي .

وفي التكوين القبلي القديم تكون القيادة اما بالغلب أو العصبية كما ذهب الى ذلك **ابن خلدون**(٣٢) او الشرف أو الحسب ، او اصطناع الموالي الذين لبسوا جلدة القوم الاصليين وتغلغلوا في أوساطهم . كما هو شأن المماليك والعثمانيين في نهاية العصر العباسي ، أما الغاية التي تجرى اليها القيادة فهي الحفاظ على الملك . ويفرق ابن خلدون بين الرئاسة الطوعية وبين الملك اذ الاولى قائمة على عدم القهر للاتباع أما الملك فهو زائد على الرئاسة لانه التغلب بالقهر .

اما **برتراند راسل** فيعلل ـ السلطان ـ أو القيادة ـ بأشكالها بالمعلولات ـ التأثيرات ـ والمقارنة هنا واردة في المفهوم الكمي عند راسل ولذا فانه يعتقد أن أشكال السلطان تمتد من أدنى مخلوق غير بشري الى أرقى مخلوق بشري لتنتهي الى تزايد السلطان على المادة ، وهو ما ندين به للعلم ، الا ان راسل يرى أن هناك عبقريات بشرية تعتبر استثناء للقاعدة هذه •

ويعتقد راسل أن السلطان ينقسم الى عدة أقسام :ـ

أ ـ القيادة أو السلطة ، التي تعتمد على رضا الناس وهذه سلطة ثورية تقوم ضد سلطان تقليدي وقد ضرب لها عدة أمثلة تاريخية •

ب ـ القيادة او السلطة التي تجيء في البدء معبرة عن مصالح وآراء أقلية محدودة لكنها تنجح في النتيجة بالقبول العام •

جـ ـ القيادة أو السلطة التي تصل الى القمة عن طريق الوظيفة ، وهذا ما نسميه عصريا البيروقراطية • وهي تبرر وجودها بتقمص رغبات ومصالح الاكثرية وهذه تختلف عن غيرها ، لانها تعتمد على التقاليد والموافقة او ما يسمى « بالسلطان العاري » •

د ـ الشكل الرابع من أشكال القيادة أو السلطان هو الشكل العسكري الذي غالبا ما يتخذ شكل طغيان داخلي أو احتلال خارجي « فقد بدل الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر مجرى التاريخ بأسره بفتوحاتهما »(٣٣)•

ولا ريب أن التفوق العسكري أدى ويؤدي الى شكل من أشكال القيادة لكنه شكل التعصب والفتح الاستعماري ـ لاحظ بدايات الفصل الاول من هذا الكتاب ـ •

هـ ـ أما الشكل الخامس من أشكال القيادة فحسب راسل هو السلطان الثوري الذي ينجم عن عقيدة جديدة كالبروتستانتية أو الاستقلال الوطني أو الشيوعية « وفي امكاننا أن تتمثل هذا القول بما وقع في روسيا

ابان النمو التدريجي للحركة الثورية حتى لحظة انتصارها في عام ١٩١٧ »[٣٤] .

وراسل هنا يعطى — رغم دراسته — لكثير من التجارب أمثلة تاريخية نظرية شمولية لا تتصف بالدقة ، فهو يبتعد عن مجموعة الظروف المحيطة بالقيادة الثورية او ما يسمى بالظروف الملموسة ، **ولكنه في الحقيقية تلمس القيادة بأشكالها المتعددة تلمسا عمليا وتاريخيا .**

اما **شبنغلر** فيجد أن رجل الدولة أو القائد المحنك « يجب ان يتميز بفطرة حيوية الى جانب الطاقات العملية »[٣٥] .

ومن الواضح أن هذا الرأي يعتمد على فكرة النشاطية الطبيعية التي ترى ان كل شيء في الحياة يناضل ويكافح لينشطر أو يتوالد ، وتتجلى هنا فكرة الهدف عند القائد أو القيادة اذ لا يختلف اثنان ان ليس كل توالد هو حيوية وفعالية مبدعة ، فاذا كان جوابنا بالتوكيد اصبحت الكلاب والقطط والفئران ذات الفعاليات البايولوجية فعاليات تاريخية ، فتحل الداروينية العلموية[٣٦] كهدف للتاريخ الانساني ، ويصبح هذا بديعا الى درجة أن البشر في الزمن وفي اللازمان ، وبهذا لا يختلف منظف الشوارع عن الفنان المبدع — أما الاحداث فتصبح فعاليات ليست ذات أهمية .

والرد هنا على شبنغلر هو أن الهدف لا يخرج عن الطابع الانساني والفعالية والحيوية ، وحنكة القائد لا تكون مبدعة الا ضمن حكم القيمة التاريخي والحكم الواقعي ، اذ أن نتائج كثير من القادة والقيادات المحنكة والفاعلة أدت الى تعرض الكثير من الشعوب للسلب والنهب والاستعباد والطغيان والاستعمار ومن قبل . العبودية والرق .

وفي عصرنا نجد نتائج اعمال كثير من القادة تؤدي الى ضياع الانسان وغربته حتى في وطنه ، لا لأنها تجعل الطاقات الانسانية « مجمدة » في وضع تقني جاهز فحسب ، كقيادات المجتمع الراسمالية ، **ترومان ، ايزنهاور ، فورد ،**

نيكسون الخ ، ليس لاعتبارها « موضوعية » فقط ، بل بالنسبة لتجميدها للطاقات المبدعة والحيلولة دون تجاوز النظام الرأسمالي لذاته ، وبالتالي لا يضمحل **مفهوم الغربة والضياع والاستلاب** بين الانسان وآثاره من جهة وبين **النظام وقيادته والبنى والصور والايديولوجيا** التي يطرحها في سلسلة وحدة الوجود الواقعي والفكر والانتاج من جهة اخرى ، أما ما قام به **شبنغلر** الذي بعث**فكرة الهدف** لدى القائد فهو توكيد اللا جدوى وهذه ميتافيزيقية في اطار بحثه الحضاري فهو يؤمن بالانسان العملاق روحيا كما ذهب الى ذلك **دوستويفسكي** الكاتب الروسي ، وهو بنظره القائد المحنك ، ان هذا المفهوم يخالف الطبيعة الثورية كما جاء في أدبيات حزب البعث العربي الاشتراكي اذ أن مهمة القيادة أو الطليعة « تأمين الجمع بين ثورية مبدأ الاقتراع الشعبي وحريته في انتخاب الهيئات التمثيلية والمجالس الشعبية ، ان مثل هذه المهمة لا يمكن أن تتحقق الا اذا استطاعت هذه الطليعة تأمين التفاف الاكثرية الساحقة من الجماهير حولها عن طريق اعتبار الجماهير قاعدة الثورة وحاميتها وبالتالي رفض مبدأ الوصاية على الشعب »[٣٧] .

وهذا ما يناقض مفهوم ـ النخبة ـ البورجوازي ، ومفهوم الرجل **العملاق روحيا الذي جاء به شبنغلر** ، فالاول « ينظر الى الجماهير مجرد قطيع منفعل وسلبي تسوقه « النخبة » الى السعادة والعدالة »[٣٨] « مما يؤدي عمليا الى الانغلاق عن الجماهير والتعالي عليها فتنزلق النخبة بالضرورة الى الانعزال عن الجماهير وممارسة دكتاتورية مباشرة عليها عن طريق الارهاب تارة أو تشويه الرأي العام وتكييفه وفق رغباتها تارة أخرى »[٣٩] .

أما المفهوم الثاني فيقود الى المفهوم الفاشستي الى الامثلة الايزوبية Aesopian [٤٠] المصطلح عن راسل ـ حيث البرنامج النازي . ويمثل هذا الشكل من القيادة « حالة الخنازير ، حيث الشرطة والقوات العسكرية . وحالة الحمار والجزر حيث سلطان الدعاية والاعلام ، وتظهر « الحيوانات » المثلة « بقوة التعليم » »[٤١] .

والقيادة لدى البعث هي انفتاح واع متواصل ، فالبنيات المتولدة في القيادة وسياق حركة الثورة والمجتمع لا تنفصل عن القاعـدة فيكون النقد الذاتي من صميم التواصل والترابط العضوي مع الجماهير ، وهذا هو طريق النمو والتخلص من التأثيرات الفكرية البورجوازية والاقطاعيه . في الوقت الذي يعتبر فيه الشعب مصدر السلطات ومصدر الوعي في أي قرار سياسي . اضافة الى هذا فان تحقيق القدرة الجماهيرية ونموها على الصعيد العملـي ينطوي على تثبيت الاسس الواقعية لقيادة الجماهير ذاتها .

واستنادا الى معرفة حزب البعث بالقيادة نستطيع ان ننسب اليه الجمع بين « وحدة القيادة وبين ديمقراطيتها الشعبية » وهذه الظاهرة حادثة سياسية واجتماعية قومية في آن واحد ، فالجماهير التي تبني الحزب والمجتمع وتصنع تاريخها بنفسها لا تسير ضمن أفق غامض ومبهم ، فمهمة الجماهير المشاركة في رسم ستراتيجية العمل وهذا عامل يقع في صميم الواقع الاجتماعي والفردي والتاريخي . وهناك مخططات في علم السياسة ترسم استراتيجية من القاعدة . قوى الانتاج وبنيات العمل + علاقات العمـل والانتاجية + الملكية والفـن والثقافة والمؤسسات الايديولوجية = البنية الفوقية ، فهل ينطبق هذا على الحقيقة الماثلة التي أوجدها حزب البعث ؟؟.

● قبل الجواب على ذلك السؤال لابد من النظر الى وجه العملة الآخر ، وأعني به التشريح الاقتصادي الذي يتبع مخططا ستراتيجيا متمايزا عن المخطط أعلاه ، ثم هناك علم الاجتماع الذي ينظـر الى المخطط الستراتيجي والقيادة من خلال علم وظائف المجتمع .

● مثل هذه المخططات للستراتيجية والقيادة تتجمد على قاعدة واحـدة وتطرح جانبا موقع الجماهير من هذه البنى ، **فالمخطط الاول** الذي رسمه **ماركس** يقود الى تقنية تقود بكل وضوح الى آلية عملياته ــ نسبة للعمليات ــ دون

البحث في الملكية الاجتماعية مما يعطي قدسية للقيادة ، ويجعلها مبررة مع أنها قد تكون قسرية أو ارهابية تباشر القمع على الحزب وعلى قيادته وذلك ما ابرزه المفهوم الستاليني من خلال التجربة .

أما المخطط التشريحي الاقتصادي فهو يكرر الافعال الجماهيرية بمقياس الربح والخسارة مما يؤدي الى جمع التغييرات في مستوى الجماهير في **اطار كمي مادي** ، ونشاهد في كثير من الدول هذه الفعالية بنشاط في الصعيد الاقتصادي وذلك قريب الى النفعية والبراغماتية .

* اما في **المخطط الثالث** الذي يبرز وظائف المجتمع دون غيرها فنرى الاهمية تنصب على المكان والزمان والتركيز على الجزئي والمتداخل . وعلى ما يسميه علماء الاجتماع ــ الوسط ــ صحيح ذلك ، ولكن صحيح أيضا أن المقولات الاجتماعية لا تجعل القيادة مرتهنة بها ، لأن الارتهان بما هو سائد يقود الى الرجعية ، أما القيادة المجددة الفعالة فلا تنكر المكان والزمان والوسط الاجتماعي لكنها تبلغ أعلى مستويات الفعالية الثورية عندما تمارس التحول على الصعيدين السياسي والثقافي ، وتجمع جميع المتغيرات الجزئية لتصبها في كل واحد . اذ تختلف الخصائص بالنسبة للثوري عن الخصائص الخاصة بعالم الاقتصاد أو عالم الاجتماع فالاول يعالج المسألة في اتخاذ القرار من موقع « الفني » والتقني المعتمد على مردودات الانتاج والثروة الخاصة أو العامة ، ولكنه مهما توفرت فيه خصال « المخطط » وخصال المكون لثروات الامة والشعب ، يظل عاجزا عن تفهم الحقائق الاخرى اذ ان روبسبير ولينين(٤٢) لم يكونا عالمين اقتصاديين أو عالمين اجتماعيين، بل كانا رجلي قرار وتصميم خلاقين في الازمة .

والثاني ــ أي عالم الاجتماع ــ شبيه بالاول يتسم بالتحديد الذي يتضمنه طريقه المرسوم ، لكنه يندرج تحت لائحة رجل المعرفة الذي يكتسب الاحترام والاجلال فالحكيم والعالم والاقتصادي يختلف عن طراز الفارس ، بيد ان القيادة في الوقت الراهن وبخاصة القيادة الثورية تجمع بين خصال الحكيم

والعالم الاجتماعي والاقتصادي وخصال القائد العسكري الكبير والدبلوماسي البارع ، ولها كل المهارة في تناول ما تشاء .

المبحث العاشر : القيادة في مفهوم البعث حدث تاريخي

لقد تأرجحت مذاهب التأويل والتفسير يمنة ويسرة في ظهور القيادة كما أسلفنا في خلال العصر الوسيط والمائة سنة المنصرمة ولكن قيام تجربة القيادة في حزب البعث ليس فقط حدثا تاريخيا فحسب ، وانما لأن هذه القيادة مميزة بعدة مميزات . الميزة الاولى :ـ انها حدث تاريخي فريد من زاوية المعنى العقائدي ،والمعنى العقائدي لقيادة الاب القائد احمد حسن البكر ـ والرئيس القائد صدام ، ينبثق من الموجود السياسي الذي تكون فيه . والموجود السياسي هو حزب البعث العربي الاشتراكي الذي ربى هذه القيادة ضمن مراتبها الوضعية وخلفياتها النضالية وأنبل ما فيها من أخلاق وممارسات اضافة الى قيمة السياسة « ـ المسئولية ـ فالحزب هو في الواقع بعث الامة العربية « وقد نشأ ونما في ظل هذا الشعور بهذه المسئولية ، لذلك فقد حمل خلال هذه السنوات الطويلة قدرا من المسئولية لا يمكن حصره ولا يمكن أن يضارعه فصيل آخر من فصائل الثورة العربية »[٤٣] .

فالقابلية النضالية للحزب قد كونت روحية عالية لدى القيادة ـ اضافة الى أن القيادة ذاتها قد تجاوزت نفسها بتأثير فهمها لذاتها أولا ، وبسبب مقادير الادراك الصحيح الذي استكهنته من خلال سنوات المحن والآلام التي مر بها العراق والامة العربية ، الى جانب كونها عاصرت منازعات نظرية تدور في الساحة العربية وتتجاذب الجماهير يمينا ويسارا باتجاهات عقائدية ذات بعد سلفي أو ذات بعد دولي وثالثة ذات صور مشوهة للحركة الثورية العربية، ورابعة تعبر عن مصالح ايديولوجيات او معسكرات او كتل ذات مصالح في الوطن العربي ، وخامسة تعبر عن مصالح الطبقات البورجوازية التي تحولت بفعل الثقل الحضاري وتكامل الامبريالية ـ كومبرادور ـ وكيلا للصناعات الغربية ـ الامريكية .

الميزة الثانية : — ان هذه القيادة اتسمت بطابع مقاومة الاسنعمار بكل أشكاله وورثت ميراثا تركه الاستعمار الغربي ، يتلخص بالتجزئة ، والتخلف ، والجهل ، والفقر ، والمرض ، ودولة غير عصرية ذات تكوين أقتصادي يتسم بالتأرجح . يحتوي عينات اجتماعية واقتصادية مرقشة ، شبه اقطاعية ، شبه رأسمالية ، وقطاعا عاما مترنحا مترهلا كان يخدم بالنتيجة الرأسمال العالمي ، فقد صقلت القيادة ذاتها بوساطة المسئولية الخطيرة التي القيت على عاتقيها وتوضحت معالم طريقها من العام الاول لثورة السابع عشر من تموز سنة ١٩٦٨ ، عندما بدأت باجتثاث شبكات التجسس في العراق والتي هي بداية المواجهة الحقيقية لتطهير الداخل وبناء النظام السياسي والاجتماعي « ان تصفية شبكات التجسس والعمالة كانت أمرا لابد منه لتنظيف الساحة الوطنية من الالغام الكثيرة والخطيرة التي كانت موجودة في كل زاوية من زوايا البلاد »[٤٤].

والحقيقة ان مواجهة الاستعمار في القطر العراقي منذ الايام الاولى للثورة كانت من المهام الصعبة ولكن « فلئن كانت الاخطار كبيرة فان القوة العربية تتزايد وتتنامى »[٤٥] بفعل مواجهة الصعاب والانتصار عليها فالانسان منذ وجد لا يبدع الا من خلال الانتصار على العقبات والصعاب ، لذلك أثبت اعدام الجواسيس وتصفيتهم والجدية في تطهير المجتمع منهم ، ان البداية الشاخصة في المواجهة مع الاستعمار تنم عن تصميم مبدئي لدى قيادة ثورة ١٧ تموز ، وخلال الفترة اللاحقة كانت القيادة الثورية حريصة ويقظة تجاه الاستعمار وعملائه في الداخل : بنفس القدر الذي مارست فيه تحويلا اجتماعيا وثوريا ، فسلامة البنية الداخلية للحزب والقيادة اعطت الدفع الى معالجة القضية الكردية وحلها ديمقراطيا ، وتأميم النفط ، والدخول في حرب تشرين ١٩٧٣ والتصدي لما يحاك للبنان من مؤامرات وبذا أثبتت التجربة أن القيادة ذات حكم موزون وصائب ودقيق بفعل العقلية البطولية التي عليها القيادة وبفعل كون الحزب قد وفر ضمان الفوز بتعميق روابطه الجماهيرية وتنظيمه الفاعل . ولان الجماهير ذاتها قد صنعت قيادتها ، بمعنى أنها أفرزت قيادة حقيقية ، ثورية عن طريق

التلاحم مع حزب البعث العربي الاشتراكي باعتباره أداة للجماهير الكادحة ، وليس سلطة فوقية وكما قال المناضل صدام حسين « كانت الثورة ستتحقق لو لم يحققها حزب البعث العربي الاشتراكي لان الشعب كان سيحقق الحزب والوسيلة التي تحقق له الثورة ، ولكن الشعب سيدفع ثمنا بالغا لو لم تتحقق الثورة في ذلك الوقت وبتلك الصيغة . ولو لم تستمر المسيرة في تلك السياقات التي استمرت بها منذ ١٧ ــ ٣٠ تموز وحتى الان . وربما ستكون خسارته من نمط الخسارات التاريخية بما في ذلك الفرصة التاريخية التي استطاع حزب البعث بدراية وقدرة عالية ، ان يشخصها وأن يستخدم طاقته وطاقة الشعب في الاستفادة منها »(٤٦) .

ومعنى ذلك أن الجماهير التي صنعت الحزب وأصبحت أداته وغايته استخدمت الحزب كأداة ووسيلة لأهدافها الاجتماعية والطبقية والقومية ، استطاعت أن تحول الحزب الى مختبر لصهر النوى ــ جمع نواة ــ وابراز الجيد ، فكانت قيادة البكر ــ صدام ، معلما نضاليا وتاريخيا استطاع بدوره أن يؤثر في شعب القطر العراقي وبقية اجزاء الشعب العربي ، فالقيادة تتعلم من الشعب وتعلمه ، تقوده وتنقاد به ، وقد علمت قيادة الثورة الشعب والامة أن الصراع الطويل الذي يخاض ضد الاعداء من امبرياليين ورجعيين وصهاينة لم يتحول الى متابعة للنصر ونسيان الغايات الاجتماعية ، لأن هذه القيادة تدرك أن النصر هو انعكاس أمين لتحويل الشعب اجتماعيا واقتصاديا ونفسيا وحضاريا الى أداة للصراع .

الميزة الثالثة :ــ ان الرجال العظام الذين يكونون في موقع القيادة لهم وزن في الحدث التاريخي « وفي هذا المجال لا نفتقر الى الاراء الوسط التي لم تعبر عن شيء أكثر بقليل من الايمان الصوفي بأن الرجل العظيم أحيانا وثقل البيئة أحيانا أخرى ، هما اللذان يسيطران على مجرى التغييرات التاريخية»(٤٧) . الا أن تلك الاراء لم تحدد « الاوضاع » التي يكون فيها للرجال العظام ذلك التأثير الحاسم وتلك الاوضاع التي تكون هي صانعة للرجال العظام . وهنا ينطوى

الجواب على سؤال أساسي كما يقول المناضل صدام حسين « هل كان حزب البعث العربي الاشتراكي سيحقق الثورة . لو لم نكن نحن قادته آنذاك ولو لم تكونوا جميعكم موجودين ؟؟.. الجواب : نعم .. ان حزب البعث العربي الاشتراكي كان سيحقق الثورة ، حتى ولو لم نكن نحن قادته ، ولكن هل كان ممكنا أن يحقق الثورة في ذلك اليوم ، وبتلك الصيغة وبتلك الخسائر ، وان تكون مسيرته للزمن المنصرم والحالي بنفس السياقات والنتائج ؟. قد يكون الجواب .. لا .. ولكن الا يكفينا أن يعترف لنا من قبل الشعب والحزب وأطراف الجبهة الوطنية بهذا الدور القيادي المتميز ؟.. بلى يكفينا هذا .. غير أن هذا يجب أن لا يلغي اهميــة العمــل الجماعي وعملية الممارســة الديمقراطية »[٤٨] .

* اذن الحتميات والقوانين تتجمد في الجبري من المذاهب التي تقول ان الرجال العظام هم افراز تاريخي حتمي ، أو أنهم دليل على ذلك الجبر واقرار بخصائصه بينما التجربة البعثية في القطر العراقي اثبتت أن نفحة البطولة والحياة والقدرة على صنع التاريخ تقع بين حدين :ـ

الاول :ـ نضال الامة والشعب العربي عبر مراحل المحـن والنكســات ومواجهة الصعاب واختمار بوتقة المحن والنكسات في نظرة حزب البعث العربي الاشتراكي العميقة وكونه تنظيما سياسيا عقائديا شكل نواة ــ في البدء ــ لصيرورة الطليعة الثورية عبر ممارسة « السياسة الثوريــة التي هي الدواء الشافي لانطلاق القوى السليمة المبدعة في الشعب العربي »[٤٩] .

الثاني : ــ ان رجال القيادة اختمروا في ازمة الامة العربية وصنعوا انفسهم في محنها وآلامها ولا يمكن القول أن رجال القيادة بدون أزمة تاريخية ليس لهم ابداع أو تأثير ، لكن طراز القيادات التاريخية الثورية تجد في الازمــة التاريخية والحضارية بيئة لنمو قابليتها ، والبشر على درجات متفاوتة من القوة والضعف والقدرة على التكيف والنمو . ونقع هنا على فكرة أساسية في الجدل السياسي وهي : ان كل شيء فعل ، وعمل ، **حتى القوانين التاريخية بدون فعل الانسان لا تصبح ضرورة تاريخية .**

واذن رجال قيادة البعث انبثقوا ضمن أزمة الامة وبفعل كفاءاتهم العملية .. هذان الحدان هما مؤشرا المقياس الثوري الذي افسح المجال للمبادرة والامكان ، وكل امكان يشق طريقا مزدوجا ، زيادة في العمل ، وزيادة في المصاعب ، ولذا فالقيادة لا تكتسب الا بالنضال الواعي ضد المصاعب والعقبات والازمات .

وهنا يجب أن لا نضرب صفحا عن الطاقة « الذاتية » من حيث قدرة كثافتها وشدة عزمها ومضاء بأسها ، فحسب الطاقة النفسية تؤتي العزيمة .

صحيح ان الصراعات والتناقضات الاجتماعية وتيارات التوتر العام التي تسود الامة والشعب أكبر من الحافز الذاتي لدى القادة في أي أمة أو شعب . لكن صحيح أن الملاذات الذاتية يجب نشدانها عند الرجال .

ولنستشهد بحالة الامة العربية منذ انسلاخها عن الامبراطورية العثمانية وحتى سنة ١٩٥٠ ، فقد شهدت هذه الامة حالة تمزق وضياع ، كما هو معروف ومتداول وكذا الامر في الصراع الاجتماعي والتناقض الطبقي ، وجاءت نكبة فلسطين العام ١٩٤٨ لتلقي بالتحدي الاستعماري الصهيوني بكل ثقله . فهل انتجت تلك الظروف القيادات اللازمة ؟. وهل جاءت تلك القيادات مطابقة لاوصاف عصرها ، وهل عجزت الامة والشعب العربي عن انجاب الزعماء والقادة ؟.

الجواب على ذلك لا يتطلب هنا القول بنعم .. أولا .. فقد ورث البعث تجارب الجيل الاسبق والقيادات التي تعاقبت على جماهيره ، وهذا الارث انحدر من الماضي القريب في صيغ وبنيات مترسبة لم تزل بعضها ماثلة ، فبقى الوعي الثوري دارسا لها ومتفحصا لكافة جوانبها ، ففي مصر مثلا نجد ، **عمر مكرم واحمد عرابي ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وطلعت حرب** ، وفي العراق ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وفي ليبيا عمر المختار وفي الجزائر ـ عبدالقادر الجزائري وقيادة جبهة التحرير ثم قيادة عبدالناصر بعدئذ والى وقت قريب .

هذه القيادات لا نقول أنها خارجة عن اطارها وظروفها التاريخية وعناصر مكوناتها السياسية والفكرية لانها ـ كغيرها من القيادات ـ ليست وجودا متميزا عن تاريخه ولا متجاوزة لذلك التاريخ الا بالقدر الذي تصنعه بالفعل والعمل ، ولذا فاننا لا نريد اخضاعها لظروف قياسية كما يفعل الافلاطونيون ولا نريد ادخالها ضمن السرد الاسطوري كما يفعل بعض كتاب السيرة لابطال الدراما الشعبية كسيف بن ذي يزن والزير سالم •• وأبو زيد الهلالي وعنترة ابن شداد العبسي •

فتلك القيادات السياسية نشأت ضمن أزمة الامة العربية واتتكس بعضها وتحطم البعض الاخر بفعل القوى الدولية والتآمر الداخلي ، كما لعب الوعي المحدود للطراز الثالث من أولئك الزعماء دورا في الاخلال بالمعادلة لصالح القوى الاستعمارية والقوى المترابطة معها عربيا ومحليا •

ولكن كما يقال ان أي شيء لا يمكنه اخفاء مصدره وسر منبته ، فكل جهد بشري هو فعل ، والفعل اذا أخضع للدراسة العلمية تحددت ماهيته وشكله •

وهكذا اذن نميز بين أمرين ، الظرف ، **الحدث التاريخي ، والانسان القائد** والتمييز هنا ليس انفصالا أو انفصاما يضعف قيمة القائد ، انما القصد هو الوعي الذي ينظم التاريخ ويشترط عليه • وبالنسبة لفعالية القائد المبدع نجده مميزا بالاعمال والطبيعة والابداع قولا والابداع فعلا ، وهذا ما يعطي للقيادة سمتها في الاشتراط على التاريخ والخروج منتصرة من مأزقه ، ربما سيواجهنا من يقول :ـ

المسألة هنا كمقياس عملي هي النجاح العملي ، وبطبيعة الحال ليس كل ماهو ناجح صحيحا تاريخيا ؟ • وحسب السائل ان يضرب أمثالا عدة لنجاح سلطة الكهنة في التاريخ وسلطة السحرة في الحضارات السحيقة وسلطات المغامرين وغيرهم كثار •

● بالطبع ان الجواب على ذلك بالنفي اذ أننا في البدء نفينا صفة البراغماتية ــ الذريعة عن الفعل التاريخي للبطولة • واستشهدنا بالتاريخ الروماني كمختبر لعدد ضخم من الاحداث « المفبركة » كما أن السلسلة الطويلة من الحروب التي قادتها مقدونيا كانت مختبرا للاحداث التاريخية الموسومة بالتزوير والافتعال •

* بيد أن هناك فارقا نوعيا بين الطغيان وبين القيادة التاريخية المشترطة على التاريخ • وهناك فارقا نوعيا وانسانيا وجوهريا بين الافعال « كوقائع » والافعال كحقائق ملازمة لموضوعاتها •

* وهنا بيت القصيد « علينا دائما ان لا ننسى الوسيلة الطريقة التي أوصلتنا الى مواقعنا وننغمس فيمواقعنا الراهنة وفي بعض شكلياتها أو الوسائل غير المشروعة وغير الصحيحة دون أن تتذكر المبادىء والوسائل والصيغ التي جاءت بنا الى مواقعنا الحالية »[٥٠] •

فالقيادة البعثية لا تحمل لواء السلطة التقليدية التي استلمت الحكم بالوسائل المتعارف عليها فلو كانت كذلك لحملت صفة سلطان القصاب ، كما يقول برتراند راسل[٥١] •

هذا السلطان الذي يتسم غالبا بسيطرة الجيش التقليدي أو سيطرة « جهاز الامن » ورجال الشرطة على رعايا أو مواطنين مغلوبين على أمرهم ، اضافة الى تحول جهاز الدولة الى جهاز حيلة وتلفيق ، وذلك مقدمة للسلطة الغاشمة في أكثر من بلد عربي ، يقول غروت Grote « ان جهاز الحيلة الذي كان يؤدي الى خداع الناس وحملهم على الاذعان والخنوع مؤقتا كمقدمة لاستعمال القوة التي تفرض الاذعان قهرا وقسرا كان الاداة التي استخدمها الطغاة »[٥٢] •

« وهناك امثلة كثيرة من هذا النوع ، ان علة عدم وضع الامور في نصابها الصحيح أدت وتؤدي الى تبديد امكانات الامة • والى حالة من الفوضى بحيث

يتجاوز كل جزء من الامة على وظيفة الجزء الاخر ويلغيها وفي حالة كهذه لا يحتاج المرء الى عدو يهزمه ، لانه يكون قد هزم نفسه بيده .. فعند ما يصبح القائد المعلن « والجهة » لاشخاص لا يحتلون شرعيا مركز القيادة ، وعندما يتحول الحزب والمنظمة التي يحكم بأسمها الى مؤسسة شكلية أضعف من أية مؤسسة مدنية أو عسكرية أخرى في المجتمع ، وعندما يشتغل العسكري في الاقتصاد ، ويعمل الاقتصادي في أجهزة المخابرات ، وعندما تصبح النقابة جهاز قمع ، لا تكون النتيجة فقدان الديمقراطية واضطهاد الجماهير حسب ، وانما تكون أيضا حالة من الفوضى الشاملة ، والعجز شبه المطلق في كل ميدان ، ولا يبقى للاشياء معنى وطعم وتنهار ثقة الشعب بكل شيء »[٥٣] .

* هذه الحقيقة كانت « واقعة » بالنسبة الى حكم الساسة المتأخرين الذين كانوا من النوع العسكري أو المدني . ولذلك فالازمة كانت قائمة والحاجة الى القيادة الجماهيرية كانت لازمة تاريخية . ولذا فبذور قيادة البعث كانت مولد ارادة جماهيرية تعبر عن تفتح امكانات عقلية وارادية خلاقة أسهمت اليوم في بناء الدولة وتنظيم المجتمع وتحرير الوطن وصيانة القومية .

* وهي بهذا متجاوزة في غاية وجودها ومقاصدها الاولى ، أهداف ذاتها « كأفراد » الى ما هو أسمى وأوسع وأكبر منها ، ان غاية وجود هذه الامكانات هو بعث الذات العربية وتحريرها من الازمة لتشارك في عملية سيطرة الانسان العربي على مكونات ومقومات ذاته واسهامه الحضاري الانساني ، ولتسهم في عملية اعادة تنظيم المجتمع وتوفير الحياة الحرة الكريمة لا لكل عربي على الارض العربية حسب ، بل لكل انسان لان الرسالة العربية عربية الموقع عالمية الوجود .

* بهذا فان وعي قيادة البعث في العراق لوجود مشكلة « القيادة » العربية ، هو وعي معجز للوجود العربي ذاته ولأزمته الحضارية التي تتطلب حلا عربيا ، ووعيا للمشكلة القومية والاجتماعية والطبقية برمتها لمواجهتها مواجهة ثورية صحيحة وللمحاولة الواقعية لتصيير الفعل عملا يوميا دؤوبا .

المبحث الحادي عشر : قيادة البعث ، الممارسة والحقيقة

يلخص بروز القيادة الثورية ـ للاب القائد احمد حسن البكر ـ والرئيس القائد صدام حسين ، في العراق وعي الجماهير العربية منذ بدء الاستقلال الوطني ولحد تاريخنا الحاضر • وقد ذكرت في البحث السابق أعلاه ان الامة العربية أبرزت قيادات عدة في نموها وصراعاتها مع الاعداء ، ولكن لكل قيادة ظروفها ووعيها وانتماءاتها • ولذا فالقيادة الثورية في العراق « تعتبر المعبرة عن الفعالية التاريخية والاجتماعية للجماعة العربية في رقعة معينة من الارض ، وفترة ما من التاريخ »[٥٤] ولذا فان هذه القيادة تفيض حيوية على الدوام لكونها المعبرة عن واقع الامة وهي لا تستطيع الانفصال عنها لانها قائمة بها ولان الامة وقضاياها محور القيادة الحقيقي وميكانزم وجودها وكما يقول ديتريش شافر Dietrich Shaefer « ان الذي يود أن يفهم تطور أية دولة يجب عليه أن يبحث في أصل سلطتها ونموها واستمرارها »[٥٥] أو النمو في الامة وتوزيع فعاليتها في الزمن وما يوافق ذلك من تغير في نواحي حياتها العملية • ولعل الاشارة الى المتغيرات التي أحدثتها الثورة في بنية المجتمع ومؤسساته وقواعده وانتاجه واقتصاده ، يعد مظهرا لتلك الفعالية التي تساعد على ابراز الترابط بين القيادة والجماهير « ومن خلال هذه الزاوية •• يمكن فهم مدى ارتباط الجماهير بهذه التجربة وثقتها بها ، لا من خلال الشعارات والاهداف المعلنة حسب ، وهي أمر أساسي طبعا ، ولكن بنفس المستوى ، كما اعتقد من خلال الثقة بأن للاشياء معناها الحقيقي ايضا »[٥٦] •

* ان قيادة الاب القائد احمد حسن البكر ـ والرئيس القائد صدام حسين تعد واحدة من أعظم القيادات في التاريخ فهذه القيادة جريئة ومقتدرة ومفعمة الحنان تجاه الشعب وقواه الكادحة ، حصلت على ثقة الجماهير ومحبتها وليس بوصفها وزعت فعالية الجماهير في الاشياء والزمن وعمقت نظرية البعث في التجربة ، حسب ، ولكن عينيها كانتا

مركزتين على فتح عقول وقلوب أفراد الشعب في العراق والامة العربية على معرفة أسس الزمن الحديث بما فيه من حضارات وعلوم وفنون ووسائل •

هاتان العينان كالبحر العظيم تحلمان بأمة عربية موحدة لا سياسيا فحسب ولكن عضويا، وطوال السنوات الماضية اكتسبت القيادة الثورية عطف جماهير الاقطار العربية وحبها وأصبحت بغداد موطن الاحرار العرب وملاذهم ، لا ، بل ان بغداد أصبحت نواة للارادة العربية الفاعلة في الزمن ، واعجازا بطوليا للستراتيجية العربية الثورية ، وهي مدعوة الى تحقيق انتصارات كبرى في العلم والحضارة والنمو الذاتي للجماهير أفرادا وجماعات الى جانب انماء الثقافة العربية الاصيلة المتفاعلة مع المعايير الحضارية المعاصرة • فمنذ أكثر من مائة وثلاثين عاما حذر « امرسون مواطنيه في أمريكا من المحاكاة والتقليد والاعتماد أكثر مما ينبغي ، ثقافيا ، على أوربا »(٥٧) •

✻ ويعلمنا الرئيس القائد صدام حسين في العديد من أحاديثه أن تعميق الثقافة العربية الأصيلة والثقافة العربية الثورية الذي يكشف ما هو أساسي وما هو جدلي في الممارسة « فعلينا لاغراض التطبيق أن نعمل بالحد الادنى الممكن تطبيقه ، ولكن لاغراض التوعية والتثقيف علينا أن نعمل بالطموح المتصل بالافكار التي تحدثنا عنها »(٥٨) •

وهذه ليست تقنية ثقافية جزئية تنقصها الشمولية بل على العكس من ذلك فالقيادة الثورية في القطر العراقي علمتنا ، ان الرصد الاختباري في مستوى التطبيق لقضايا الثقافة الوطنية والقومية يعتمد على مفهوم استراتيجي يأخذ بالاعتبار صيغة الممكن مرحليا ، لكنه لا يكتفي بما هو منجز بل يستثمر الطاقة المبدعة لتثبيت « كلية » شمولية في المستوى التربوي والثقافي ، وتلك الكلية لا تتصف بالاطلاق المحدد الكلي النظرة لانها تأخذ بالحسبان أن الواقع العربي يتجدد عن طريق الخلق الذاتي • وكل تفرعات التجديد والخلق في الحياة العربية المعاصرة تلتقي داخل فكر البعث الذي هو الموجه الستراتيجي لها •

بيد ان ذلك الرصد الاختباري لا يأخذ منحنى تجريبيا ذرائعيا من الناحية العملية لان القيادة السياسية وأساسيات فكر البعث حذرت من هذه النزعة الفكرانية بأن أكسبت الثقافة والتربيةطابعا يتصل بالخصائص الوطنية والقومية فـ « كل فلسفة وبالتالي كل نظرية متفرعة عن الفلسفة تصب فيها بالاضافة الى ارتباطها بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، فانما ترتبط بحالة سايكولوجية سائدة في المجتمع آنذاك ويتأثر بها صاحب النظرية . والحالة السايكولوجية قطعا هي غير مجددة أيضا وانما مرتبطة هي الاخرى بالعوامل التي مررنا عليها . ولذلك فان النظرية ما لم تفهم في ظل أي واقع تكونت سايكولوجيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، لا يمكن تحقق الاستفادة منها بصيغة التفاعل لتكون ذات قيمة حقيقية من أجل صياغة النظرية القومية والوطنية لبلادنا »[٥٩] .

والواقع ان قيادة ــ البكر ــ صدام ، ذات معيار ثوري دقيق في الممارسة العملية لكل الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية . وهي تتميز بالميزات السالفة الذكر لانها فريدة في ميدان نشاطها وعملها وذلك ما يتضمنه سجل الاعمال والمكتسبات المنجزة ، بيد أن هذه الميزات والاعمال والمنجزات لا تجعلنا نقول كما قال هيغل عندما رأى نابليون قرب بلدة ــ يانا ــ انه روح العالم على ظهر حصان ــ فنعكس المقولة ــ انها روح الامة العربية على شكل أبطال ــ اذ أن البطولة هنا يتقاسمها الشعب العربي وطليعته حزب البعث العربي الاشتراكي وقيادته الثورية . وهذه القسمة لا تجوز على ثلاثة أو اثنين ، لأنها واحد وكل لا ينفصم مع عدم نكران الصفات السيكولوجية لافراد القيادة ، على ضوء صنع النفس من خلال نضال العقيدة والنضال الثوري الشاق داخل أزمة الامة العربية وخصائص احتياجاتها لقيادة تاريخية تنتصر على العقبات .

ولذا فالقيادات العظيمة تدرك منطق التاريخ وتستجيب لعوامله ومبرر وجودها انها قائمة في المستوى الكفاحي لوجود الامة العربية ازاء التحدي

الاستعماري الصهيوني والتحدي الامبريالي بكل تفرعاته والوصول بالامة العربية الى غايتها الاساسية في الوحدة الشاملة والحياة الحرة الكريمة « ونحن على ثقة بأن ثورة الحزب في العراق ستسير يوما بعد يوم لتأخذ الطابع الشعبي الجذري لتصبح ثورة الجماهير الكادحة بكل معنى الكلمة ولكي يكون العراق كما أهله التاريخ وكما أهله الحزب محقق الوحدة وبانيها »(٦٠) .

ونجد أن القيادة الثورية في القطر العراقي مؤهلة لتحقيق الكثير من الاعمال العظيمة التي ستنجز في الطريق الى الوحدة العربية ورد تحديات الصهيونية والامبريالية وخلق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد . فهذه القيادة نمت وتنمو من خلال الضروريات العضوية للنمو الاجتماعي النضالي وارتباطها بكفاح الجماهير الكادحة فبواسطة ذلك النمو استجابت لحاجات تاريخية واجتماعية وبوساطة وقوعها ضمن الازمنة «المأزومة» التي ولدت مأساة الامة العربية في التجزئة واغتصاب أرض فلسطين .

ولذلك فانها تصنع أفعالها بالجماهير وتستمد معرفتها منها ، وبطولتها الواقعية هي شرط لممارستها السياسية . وبموجب هذا الرأي فانها لا تستبصر الامور بأعين ميتافيزيقية ، انما بنيتها العملية الاعتماد على الامة وقواها الذاتية ومما تملكه من ثروات بشرية وطبيعية تجعلها في مصاف الامم المتقدمة لو أحسنت استثمارها .

كلمة أخيرة في هذا الفصل :ـ ان رجال قيادتنا يستقون حوافز وجودهم من أمتهم . أما مناقبهم الشخصية فلا ينشرون محتوياتها أو يبسطون جزئياتها ، لانهم عندما ينجزون أهدافهم وأعمالهم ضمن متطلبات الزمن ونضوج العوامل يكونون قد ادمجوا ذاتهم في مراميهم الكبرى .

وأولئك هم رجال من الطراز الاول ، ليسوا مختارين ، أو سوبرمانات ، انما هم رجال المسئولية والافعال والفكر الخلاق والصعاب الجمة .

مصــادر الفصــل الاول

(١) جوزف هورس ـ قيمة التاريخ ـ دراسة فلسفية ، ترجمة الشيخ نسيب وهيبة الخازن ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٤ ، ص ٨٧ .

(٢) انظر هردر Herder Reise journal von 1769 من المؤلفات الكاملة التي نشرها سوفان ، الجزء الرابع ، عن في المعرفة التاريخية ، ارنست كاسيرر ، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

(٣) راجع ص ١٤٩ من سقوط الحضارة ـ كولن ولسن ، ترجمة انيس زكي حسن ، دار العلم للملايين ١٩٥٩ ، ط الاولى .

(٤) ص ٤٩ صراع العرب خلال العصور ، محمد عبدالغني حسن ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ، الطبعة بدون تاريخ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٦) ص ٤ من مقدمة ابراهيم عامر للترجمة العربية لكتاب التحدي الامريكي ج . ج سرفان شرايبر ، ترجمة فكتور سحاب ، مكتبة النهضة ، بغداد ، بدون تاريخ .

(٧) ص ١٢ صدام حسين امتنا والتحدي الجديد ، منشورات الثورة ـ طبع دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٨ .

(٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٩) راجع في المعرفة التاريخية مصدر سبقت الاشارة اليه الفصل الثاني .

(١٠) ص ٢١ ـ ٢٢ صدام حسين امتنا والتحدي الجديد .

(١١) نفس المصدر ، صدام حسين امتنا والتحدي الجديد ص ١٤ .

(١٢) ص ١٤ صدام حسين المصدر السابق .

(١٣) ص ١٢ صدام حسين المصدر السابق .

(١٤) ميشيل عفلق ـ ذكرى الرسول العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص ٢٣ .

(١٥) هنري لوفيفر ـ ماركس وعلم الاجتماع ـ ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعي ، دمشق ١٩٧١ ، منشورات وزارة الثقافة .

(١٦) وليام جيمس عن ـ البطل في التاريخ ، سدني هوك ، ترجمة مروان الجابري ١٩٥٩ .
(١٧) في سبيل البعث ص ٢٣٦ .
(١٨) في سبيل البعث ص ١٧٣ .
(١٩) صدام حسين حول كتابة التاريخ ـ آفاق عربية ص ١٤ العدد ١ أيار ١٩٧٨ السنة الثالثة .
(٢٠) صدام حسين حول كتابة التاريخ ص ٥ المصدر السابق .
(٢١) صدام حسين حول كتابة التاريخ ص ١٥ المصدر السابق .
(٢٢) البعث وتحديات المستقبل ، ميشيل عفلق ص ٨ ـ ٩ دار الحرية للطباعة بغداد .
(٢٣) مغامرات الافكار ، نورث وايتهيد ، ترجمة أنيس زكي حسن ص ٤٥ ، دار مكتبة الحياة بيروت ومكتبة النهضة بغداد ١٩٦٠ .
(٢٤) البعث وتحديات المستقبل ، ميشيل عفلق ص ٩ .
(٢٥) ميشيل عفلق ـ البعث وتحديات المستقبل ص ١٢ ـ ١٣ .
(٢٦) هنري لوفيفر ـ ماركس وعلم الاجتماع ص ٧٥ المصدر السابق .
(٢٧) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس للحزب في تشرين الاول ١٩٦٣ طبع ١٩٦٥ .
(٢٨) بعض المنطلقات النظرية للمؤتمر القطري السادس ص ٣٤ ـ ٣٥ المصدر السابق .
(٢٩) الدكتور الياس فرح ، مستقبل العمل الثوري العربي ص ٨٦ ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٣ .
(٣٠) مستقبل العمل الثوري العربي د . الياس فرح ص ٨٦ ، المصدر السابق.
(٣١) صدام حسين امتنا والتحدي الجديد ص ١٦ المصدر السابق .
(٣٢) راجع مقدمة ابن خلدون ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ص ١٣٤ وما بعدها .
(٣٣) برتراند راسل ـ السلطان ، تعريب خيري حماد ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢ ص ٤٧ .
(٣٤) راسل المصدر السابق ص ٤٩ .
(٣٥) شبنغلر ـ تدهور الغرب .
(٣٦) العلموية ادعاء العلم .

(٣٧) بعض المنطلقات النظرية للمؤتمر القطري السادس ص ٦٢ المصدر السابق .

(٣٨) ص ٦٣ بعض المنطلقات النظرية ، المصدر السابق .

(٣٩) بعض المنطلقات النظرية للمؤتمر القطري السادس ص ٦٣ المصدر السابق .

(٤٠) الايزوبية نسبة الى ايزوب مؤلف الخرافات والاساطير وكان يعيش قبل الميلاد اي في القرن السادس ق . م ، كتب سقراط ما يحفظه من تلك الاساطير الهامش عن راسل المصدر السابق ص ٤٥ .

(٤١) السلطان ، راسل ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤٢) روبسبير أحد زعماء الثورة الفرنسية واشهر اليعاقبة ـ الاتجاه المتطرف ـ واحد اشهر ثلاثة رجال ، دانتون ومارا وروبسبير ، كان روبسبير متدفقا بالتصميم والجرأة واتخاذ القرار الصعب وكان متفهما للحقائق .

(٤٣) طارق عزيز ، ثورة الطريق الجديد ، دار الثورة بغداد ١٩٧٥ ص ٣٩ .

(٤٤) طارق عزيز ، ثورة الطريق الجديد ص ٢٧ المصدر السابق .

(٤٥) ميشيل عفلق ـ البعث والعراق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ص ٤٠ .

(٤٦) صدام حسين ـ الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ، وزارة الاعلام ، ١٩٧٧ ص ١٦ .

(٤٧) سدني هوك ـ البطل في التاريخ ص ٢٨ المصدر السابق .

(٤٨) صدام حسين ، الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ص ١٦ ـ ١٧ المصدر السابق .

(٤٩) د . الياس فرح مستقبل العمل الثوري العربي ص ١٦ المصدر السابق منقولة عن ميشيل عفلق .

(٥٣) طارق عزيز ـ ثورة الطريق الجديد ص ١٦ ـ ١٧ المصدر السابق .

(٥٤) راجع بهذا الصدد :
Arnold Tonynbee An Historian to Religion London 1965.
حول مسألة تكون القيادات في التحدي والرد عليه .

(٥٥) نقلا عن ارنست كاسيرر ـ في المعرفة التاريخية ص ٦٩ المصدر السابق .

(٥٦) طارق عزيز ثورة الطريق الجديد ص ١٧ المصدر السابق .

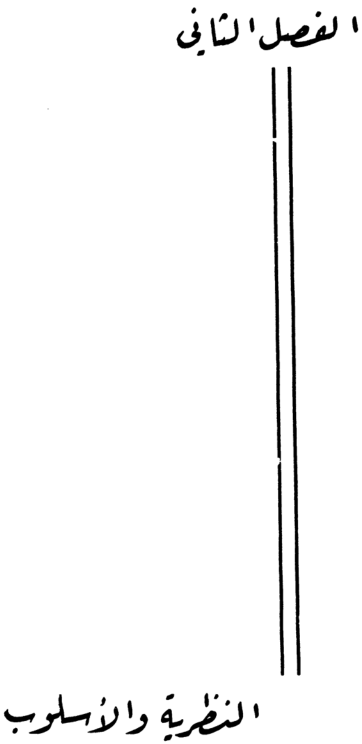
(٥٧) جواهر لال نهرو ـ من السجن الى الرئاسة ص ٤٤٢ طبعة دار العلم للملايين سنة ١٩٥٩ .

(٥٨) صدام حسين ـ مجلة آفاق عربية ، العدد (١) السنة ١٩٧٥ ، ص ٦ كلمة الرفيق امين سر القطر في مؤتمر التربويين العرب .

(٥٩) صدام حسين ـ آفاق عربية العدد ١ سنة ١٩٧٥ ص ٦ المصدر السابق .

(٦٠) ميشيل عفلق البعث والعراق ص ١٠٧ المصدر السابق .

الفصل الثاني



النظرية والأسلوب

المبحث الاول : الاطار وخصائص التجربة

النظرية والاسلوب في نظر البعث العربي الاشتراكي هما : العلمية والثورية ولكن ايديولوجية البعث تعتبر العلمية والثورية جزءا من تراكيبها الكلية وهما سمتان للنظرية والاسلوب فـ « أن أيديولوجيتنا القوميـة الاشتراكية هـي ايديولوجية علمية والعقل العلمي بطبيعته يتفتح دائما على الواقع ويتغذى من كل التجارب ويرفض الاطر المسبقة »[1] .

* نحن اذن نحدد نطاقا معينا للايديولوجية وفي ذات الوقت لا نحـدد ماهية رسمية . نحدد الاطار ليس بطريق مدرسي ضيق ، وانما نحدده بطريق ثوري واسع وفي هذا الجانب يبرز النقد الثوري للمجتمع العربي المتهرىء ، اذ « أن الصفة العلمية لهذه الايديولوجية هي وحدها الكفيلة باخراج المجتمع العربي من عقلية القرون الوسطى التي تنيخ على تحركه وتمنع انطلاقه الحـر المبـدع »[2] .

هنا نرى ان هناك نقطة قطيعة بين أيدلوجية البعث ، والايديولوجيـات الجاهزة مسبقا ، لقد حصلت القطيعة حول مسألة أساسية هي خصائص التجربة العربية . فخصائص الحياة العربية ذات طبيعة جدلية ، ولذا فـ « على ضـوء تجربتنا القومية لتراثنا فسرنا الشيوعية بأنها « رسالـة الامة الروسـية » فالشيوعية نظرية معروفة لاوربا بصورة خاصة وللعالم بصورة عامة وقد وجدت الظروف الملائمة لها في هذا البلد غير المصنع خلافا لقوانينها نفسها »[3] .

« من هذه الانطلاقات بدأ حـزب البعث العربي الاشتراكي حركتـه التاريخية الفكرية والنضالية . فلقـد تبنى العلميـة الا انه رفض بشـدة الاستسلامية العلمية . وقد أدى به هذا المنهج العلمي الى اكتشافات حقيقية في الواقع العربي أصبحت اليوم مسلمات »[4] .

في **الهيغلية** كنظرية جاهزة نجد الدولة هي الاساس وهي التي تمثل التاريخ وتعبر عنه ، بينما نجد الدولة لدى البعث العربي الاشتراكي جزء من المجتمع العربي رغم أنها تضم الاسر والمراتب الاجتماعية والحرف والطبقات والمنظمات والانتاج والنواظم الاخلاقية والفكر والقانون والاجهزة التنفيذية ، لذا فالدولة تتجدد بتجدد المجتمع العربي ، فهي تعبر عن طموحات ذلك المجتمع . والدولة هنا لدى البعث تعبير عن أشكال الوعي العربي للذات فهي سيرورة اجتماعية لا تعين حدا نهائيا ، بيد أنها تعتبر صيرورة محددة بتاريخها .

* وعليه فان معرفة أسس الزمن أضحى الركن الركين لموضوع النضال الجماهيري عند البعث ، ويدعو صدام حسين الى التمييز بين الدولة والحزب اذ أن « مسألة التمييز بين مواقف الحزب كمؤسسة قومية ، ومواقف السلطة الثورية في القطر العراقي مسألة مهمة وتستدعي أعلى درجات التيقظ والحرص على الموازنة التي تضبط الاتجاه في آفاقه السليمة والشرعية .

وهذه المسألة تتطلب استيعاب أرضيتها المبدئية وقواعدها العملية بما يراعي خصوصية الموقع الذي يقف فيه فرع الحزب في القطر المحرر، واختلافها من نواح عديدة عن تلك المواقع التي ما يزال نضال الحزب فيها في مرحلة الكفاح السلبي ، واذا لم تفهم هذه المسألة فهما صحيحا فانها تجر الى أخطاء وأخطار كثيرة »(٥) .

● عند الرئيس القائد صدام حسين وبشكل واضح ودقيق ، تظهر حركة الحزب والدولة بوجهين : **الاول النمو والتكامل** ، ينمو الحزب من صيرورة النضال . أما الدولة فلها بعض خصائصها ، وهذه الخصائص قابلة للقياس « وهذا الموضوع تناوله التقرير السياسي للمؤتمر القومي الحادي عشر بصورة شاملة . وحدد بدقة متناهية في التصور والتعبير المقصود بعملية التمييز ، كما وجه النقد الى اتجاهين خطيرين في هذا الميدان ، أولهما يدعو الى التمييز بصيغة عدم الترابط وعدم الصلة وثانيهما يدعو الى تحويل أجهزة الحزب في

القطر العراقي . وحتى في الاقطار التي ما تزال فروع الحزب فيها تناضل في ظروف العمل السري . الى جهاز تابع ، وهو بمثابة الظل لحركة الدولة ، وما تستدعيه ضرورات تعاملها من خلال الممكنات التي تطرحها ظروف العمــل السياسي بشكل عام والدبلوماسي منه بشكل خاص »(٦) .

* هنا نجد أن الرئيس القائد صدام حسين يميز بين الحزب والدولة في الزمن . وفي السيرورة الكمية ، وليس في النوع ، فللدولة في القطر العراقي أساليبها في التعامل مع الدول الاخرى ولعل ذلك يمثل شكلا من أشــكالا التعامل العملي . أما الحزب فقوانينه جدلية لا يمكنه هنا أو هناك أن يسير في ظل الدولة لانه ان فعل ذلك سرعان ما يصير الى مسخ شائه . « ومخاطــر هذين الاتجاهين تتحدد في أن الاول يجر الى الانفصال عن الحزب وتخريب وحدته . والثاني يقود الى ميكانيكية جامدة ويلحق وفق آلية متعسفة ، المسيرة النضالية لفروع الحزب ، بحركة الدولة ، في القطر الذي انتصر نضال الحزب فيــه »(٧) .

ولكن على الحزب أن لا ينفصل عن الدولة الثورية في القطر العراقي ، لان الانفصال والتناقض معناه تحويل الدولة الى جوهر للحزب بينما هي أداة له . فالنمو اذن يتضمن آمورا زمنية وحالات طارئة وتمييزا لانماط عدة من النضال، بل لعل لكل فرع أساليبه الخاصة في العمل ولا يخضع لقاعدة من الماضي ، لأن النضال غني بالابداع وهو الذي يغني الصورة بالمضمون .

واشارة المناضل صدام في معرض نقده للرأي الذي يقول بأن يتحــول الحزب في العراق الى « جهاز تابع هو بمثابة الظل لحركة الدولة » هو توكيد على أن الدولة هي أجهزة عدة تحتوي المجتمع برمته وحاجات الافراد والطبقات والمراتب الحرفية والفنية ، وهي لهذا أداة لتنظيم المجتمع تنظيما مدنيا تقيس الامور بالمقياس القانوني وحركة الاشياء ، الا ان الحزب هو المجتمع السياسي ـــ اذا سمح لنا باستعارة منطق غرامشي ـــ ولذلك فالحزب هو موجه الدولة وجهازها ومنظماتها ونقاباتها واتحاداتها .

* هنا يبرز مفهوم ظاهرة الممارسة العملية الثورية . فالحزب هو الفاعل في مجتمع الدولة السياسي وهو الموجه الحي لفعاليات الدولة وانشطتها ، بيد أن التطابق بين الدولة والحزب مرحليا غير متاح ، ذلك أن الحزب يلج ميدان النضال الجماهيري والفكر الثوري والتطبيق العملي لانه يناضل عن الوحدة والحرية والاشتراكية وبناء وتكامل المجتمع . انه يرسم خطة ستراتيجية لتطويع النظم والمؤسسات من أجل التطبيق ، أما الدولة فهي تأخذ منحى مختلفا ، الا أنها تعطى للمراحل أهمية معينة ، مما « ينسجم مع الضرورات العملية في التفاعل مع الواقع والخروج منه بمحصلة ثورية ، تخدم نضال الحزب ، وتوفر المستلزمات المطلوبة لذلك »[٨] .

المبحث الثاني : الثورية ، ومميزات الاشتراكية

وفي هذه الصفة العلمية سمة أخرى تختلف عن التمذهب الواحدي الجانب وأعنى بها سمة التكامل ، للثورات الثلاث السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . « لتغيير علاقات الانتاج الاقطاعية وشبه الرأسمالية بعلاقات اشتراكية لتركيزها قاعدة مادية لانطلاق اقتصادي جدي وثورة ضد التجزئة وما تحمله من رواسب في جميع المستويات[٩] الفكرية .. اذ أن أي تغيير اشتراكي في الميدان الاقتصادي « سيكون مبتورا اذا لم يتوافق بثورة علمية على الصعيد الفكري والثقافي وبنضال دؤوب لتحقيق الوحدة »[١٠] ، لتغيير نظرة الانسان العربي الى المجتمع والى نفسه والى قدراته ومصيره . ان أي فصل بين هذه الثورات الثلاث كما تؤكد أفكار حزب البعث العربي الاشتراكي سيؤدي الى خلق مجتمع مشوه وهجين « يتقدم فيه الجانب الاقتصادي ، في حين تبقى الجوانب الاخرى للمجتمع العربي راكدة متخلفة متعفنة »[١١] .

اما الثورية ، فهي الصفة الثانية في النظرية والاسلوب البعثي « لان منطق التفكير القومي الاشتراكي العلمي في التحليل الاجتماعي والاقتصادي هو منطق جدلي ينطلق من قرار وجود تناقض في المجتمع القومي ، ووجود صراع بين

الطبقات يتميز بنزوعه الى تحقيق هدفين في آن واحـد ، الوحدة القوميـة والقضاء على الاستغلال »[١٢] .

وقد يقول قائل ان الهيغلية التي ضربت بها المثل وضعت علما للدولة ولم تضع علما للنضال ، والتاريخ لديها علم اساسي لانه علم الكائن الانساني ؟ فهل وضع البعث علما جدليا يضاهي الفلسفات الاخرى ، حتى يحق لك ولغيرك من الكتاب المقارنة بين البعث كفكر ونظرية وبين القمم الفكرية السائدة .؟

على ضوء هذه التساؤلات وتساؤلات مشابهة تترى ، يحق لنا السـير في السياق في البحث ،

والحق ان مثل هذه التساؤلات مطلوبة بسبب كون ايديولوجيـة البعـث ليست تبسيطية ولا تبشيرية ولا وصفية ، حتى تتهرب من المقارنة أو تتهرب من مسئولية البناء الفلسفي « فالعقلية العلمية ستكون وحدها الكفيلة بجعـل الثورة العربية المعاصرة ثورة كلية يتواكب فيها التغيير الثوري في جميـع مستويات الحياة العربية وجوانبها »[١٣] .

ان ايديولوجية البعث تمتلك مقوماتها العلمية والثورية بشكل يضعها في مقدمة النظريات الثورية في العالم وهي منفتحة على الفكر العالمي وتتفاعل معه ايجابيا بصيغة الاخذ والعطاء . لكن ايديولوجية البعث متميزة بقدرتها المبدعة في الفكر الانساني وفي فهمها على تفسير التراث العالمي تفسيرا جدليا علميا .

وجملة القول أن نظرية البعث تجاوز" للتمذهب الرحوي ــ نسبة للرحى ــ الجامد وتوكيد على الانتماء الانتماء الفكري للحي ، فمثلا يقول **الاستاذ عفلـق** « عندما نقول اننا نحتاج الى اشتراكية عربية ، نقصد فقط أن تراعى الشروط الخاصة بنا كعرب في هذه المرحلة من التاريخ ، ونحن لا نختلف على مبـدأ الاشتراكية وانما على أسلوبها وعلى الموضع الذي يجب أن تحتله من حياتنا ، فلا نقبل أن تكون قوميتنا مرحلـة عارضة طارئـة من مراحـل التطـور الاقتصادي »[١٤] .

تفهم من ذلك ان فكر البعث تفاعل حي مع الفكر التقـدمي في العالم ، لكنه يميز الفرق بين خصوصية الفكر العربي الثوري الذي يغرس أرجله في تربة الوطن العربي ويستمد مقوماته من تجارب النضال ومراحله منذ اللحظة التي اهتدى فيها البعث الى الحقيقة التاريخية ومنذ اللحظة التي نظر فيها الى الواقع الاجتماعي والتاريخي ، وبين الفكر العالمي القائم بتجارب اخرى •

* اذن الوثوقية المذهبية والتجريد الفلسفي ليست من خصائص الفكر الثوري لدى البعث العربي الاشتراكي « فدور حزبنا في المرحلة السابقة وما يزال على الصعيد الفكري ، هو دور الدليل للعمل الثوري للامة العربيـة ، والمبلور لتجربتها المعاصرة ، والمقدم لمسيرتها النضالية والكاشف لانواع الخلل والانحراف والزيف في العمل العربي الثوري أنه دور المعبر عن نضج النظـرة الانقلابية الى الواقع العربي ، والمؤكد على ضرورة الانفتاح والتفاعل الحـر الدائم مع الفكر الثوري التقدمي في التجارب الثورية المعاصرة »[١٥] •

* زد على ذلك أن أكثر المذاهب اتقانا وأبرزها لمعانا وأبعدها عمقا من مذاهب المعرفة لم تنفصل عن التجربة الحضارية لاي أمة من الامم ، ولعـل غالبية ان لم نقل كل الفلسفات ومذاهب المعرفة الاوربية جاءت متأثرة بالتجارب والحضارات التي نشأت في وسطها ، فلو درسنا نظرية ــ **هارولـد لاسـكي** ــ الكاتب والمفكر الانكليزي الشهير ــ في الدولة ــ والاشتراكية ، لوجدناها تحمل طابع البيئة والوسط الذي نشأت فيه اضافـة الى مميزات لاسـكي الاكاديمية باعتباره كان أستاذا سابقا للعلوم السياسية بجامعة لندن »[١٦] •

كما أن **ميكيافيلي كتب** كتابه ــ الامير ــ كمجموعة من الملاحظات حـول التجارب التي عاصرها بنفسه ، فكون مذهبا أراد به احاطة وشمول التجارب الاخرى التي سبقته ، ومن يطالع مطارحات ميكيافيلي التي ترجمت الى العربية يجد أن النتائج التي استنبطها من التاريخ والنظرية العملية التي وضعها ما هي الا صورة الممكنات التي عاصرها يضاف اليها روح السياسي العملي التي اتسم بهـا •

أما افكار الاقتصادي البورجوازي الكبير **آدم سميث** ، فكانت منوطة بتجارب الطبقة البورجوازية والرأسمالية التجارية ، ونفس القياس نلاحظه عند **ـ ريكاردو ـ** الذي أبرز فائض القيمة نتيجة لجهد اكاديمي ومعاصرة لتجارب **حية ومشاهدة ،..**

* وهكذا فان الموازنة بين العمل الفكري والممارسة الاجتماعية والحضارية أمران لا انفكاك بينهما • يضاف الى هذا ان التصورات المذهبية الجاهزة هي « اجمالا تصورات الجماعات والطبقات المتسلطة »[١٧] حتى ان **الكثيرين من المفكرين الثوريين والاشتراكيين نبذوا ضياع النظريات الجاهزة** بين الوثوقية والتجريد •

* **والحقيقة التي نهتدي اليها هي « ان النظرية النضالية لا يمكن أن** تخلق بين يوم وليلة أو خلال سنة أو سنتين ، وانما تتبلور في الاذهان ، وتتركز نتيجة تحولات تاريخية تواجه النضال الجماهيري ويكون مجبرا على تحديد موقف منها • ونتيجة لذلك تأخذ تلك النظرية في النمو والتبلور وتصبح دليلا لتحرك الجماهير الزاحفة نحو أهدافها »[١٨] •

والفكر السياسي لدى حزب البعث ليس تنسيقا للمواد التاريخية الخام كما هو الشأن في الفكر الاكاديمي ، فهو ممارسة تمضي نحو الواقع وتدخل المعضلات الاجتماعية والقومية الحقيقية تبعا لما يحمله ذلك الواقع من ممكنات ومضمرات ، ثم يمنحنا فكر البعث وسائل لمعالجة الواقع بعد تحديد المعضلات وحلها •

* **ومجمل القول أن الفكر السياسي لدى البعث** دراسة نقدية للمجتمع والدولة ومظاهر التخلف السياسي والثقافي والاقتصادي والنفسي • وهو محصلة نقدية لعلوم الواقع الانساني العربي « **ان نقد جميع جوانب المجتمع العربي الراهن وتقاليده نقدا عمليا صارما وتحليلها تحليلا عميقا نفاذا هو وحده** القادر على تهيئة الظروف التي تمكن من اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة والكابحة في هذا المجتمع »[١٩] •

* لهذا نجد الايديولوجيات الجاهزة كالهيغلية والماركسية تنأى عـن الحزب ــ البعث العربي الاشتراكي ــ بمقدار ما تفرضه من آلية نظرية ومذهبية وثوقية ذات مراتبية تاريخية تلتصق بتاريخ زمني له مواصفاته وأوضاعه ، لكنها تقترب منه بمقدار التصاقها بالعلوم الانسانية العامة ، وبمقدار الاتصال بينها وبين المعرفة والزمن .

والخلاصة أن جميع الايديولوجيات الثورية لا تخلو من وجوه الاتصال في معرفة الانسان « ان حزبنا لم ينشأ في عزلة عن التـراث العالمي أو تجارب الانسانية ، لقد نشأ حزبنا في مفترق طرق للحركة الثورية العالمية ، وكان أول الحركات التي ساهمت في نقل ذلك التراث والاستفادة منه »[٢٠] .

المبحث الثالث : الايديولوجيا علم المعاني

الايديولوجيا من أكثر المفاهيم التي تداولها المفكرون ولحد الآن منذ عصر **ديدرو** المفكـر والكاتب الفـرنسي ١٧١٣ ــ ١٧٨٤ ، أي منـذ مذهـب الطبيعيين الذي ضم **فولتير وجان جاك روسو وفلاسفة « الموسوعة » الفرنسية** الذين اشتهر منهم **هولباخ وهلفتيوس ودالامير وكوندياك** .

وقد كانت الايديولوجيا في عصر **سقراط وافلاطون** اقـرب الـى التفكيـر الحر[٢١] أما عند **ارسطو طاليس** فهي مفاهيم مجردة للبناء المنطقي وعلى العموم فالايديولوجيا مجموعة من التصورات والمعاني ، وبذا يمكننا اعتبار **الفـارابي** ايديولوجيا وكذلك **الكندي وابن سيناء والغزالي وابن رشد وابن طفيل** .

الا أن لفظة ــ أيديولوجيا ــ الحديثة هي من صنع « مدرسة فلسفية ــ تجريبية حسية مع ميل الى المادية ــ كان لها شأن ونفوذ ابلغ في فرنسا اواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ــ وفي رأي أصحاب هذه المدرسة ــ ومنهم ــ دستوت دوترامي ــ يوجد علم للمعاني أو للمفاهيـم المجردة ، يدرس نشوءها ويستطيع أن يعيد تركيبها ، بدءً من الاحساسات ، مثال على ذلك : كوندياك[*] .

ـ هذا العلم الخاص بالمعاني يسمى أيديولوجيا ، والفلاسفة الذين نادوا بهذا المذهب كانوا يدعون هم أنفسهم بالايديولوجيين »[٢٢] .

لكن الكلمة استعملت بمدلولات عدة ، فلم تعد تشير الى مفاهيم أو مبادىء وانما أزدادت لتشمل المدلولات الاجتماعية والاسطورية والتصورات الفردية كما لدى علماء ـ علم النفس السببي ـ مثال ذلك تجارب المجتمع الانكليزي ابان عصر الثورة الصناعية وما تفتق عنه من مفاهيم ومدلولات ومدركات وتصورات منطقية ، ومثال ذلك أيضا جميع المجتمعات البشرية حيث تقوم هذه المجتمعات على تصورات ومفاهيم ، وقد ذهب **دوركهايم** المفكر الاجتماعي الى أن المنابع الاجتماعية هي المصادر الايديولوجية للمدركات والتصورات المنطقية .

أما **ابن خلدون** فقد ذكر « ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عند المحسوسات أولا ، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا فتكون ذاتا ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا ، والصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة ، فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا »[٢٣] .

« وذهب **برغسون** الى أن « بنية الفكر تبقى هي لا تتغير » فلا تمايز بين الفكر البدائي والمتحضر الا في المادة والتجربة التي يكتسبها الانسان من مجتمعه .

(*) لقد اطلق نابليون لقب « الايديولوجيين » على اولئك الذين ناهضوا حكمه واعتبرهم مثاليين متوهمين راجع المنهجية والسياسية د ، ملحم قربان ص ١٤٩ .

ولكننا اذا انتزعنا من الانسان تلك القشرة السطحية وجدنا في أعماقه بنية الفكر الصورية كما هي في حالها الاولى »[٢٤] •

* والايديولوجية لها مدلول علمي في رأي بعض المفكرين • اذ أنها مهما كانت فأنها من عناصر المعرفة ، وهذا حضور لاشياء متزامنة مع التاريخ وهي تختلف عن التصور • فالايديولوجية في نطاق بنيات المجتمع ، متولدة عن الوعي الاجتماعي ، والوعي الاجتماعي لا يكون انعكاسا صادقا للواقع الا في احوال محددة •

ولذلك فالايديولوجية تتوسط العلاقة بين الناس ومجتمعهم وانتاجهم ، بوساطة آلة الانتاج والدولة •

من هنا فالايديولوجية قد تضعف الوعي الاجتماعي وتلفه بظلمة دامسة ، أو تنيره ، وهي تارةً تقترب به من الحقيقة وتارة تغلف الوعي بالاضاليل • وتلك سمات الايديولوجية الاجتماعية في نطاق الواقع المتخلف • وأبرز مثال عليها هو سلطان الكهنوت الذي كان له أهمية كبرى في العصور الماضية ، وقد وجد الملوك والاباطرة في الايديولوجيا الاسطورية غايتهم « وكثيرا ما كان شخص واحد يجمع بين عملي الكاهن والملك في آن واحد •• ولقد كان أغسطوس في روحه يمثل الحبر الاعظم •• بينما كان يمثل في المقاطعات الخاضعة لروحه الاله »[٢٥] كل ذلك باسم مذهب يلفه الغموض والاساطير كمجموع كلي • ولعل رجل الطب القديم هو أقدم طراز من طرز تأثير الايديولوجيا ، فالطبيب في الحضارات السحيقة هو العراف والكاهن • وتعتمد قوة تأثيره الايديولوجي على القوى الميتافيزيقية التي يستمد منها قواه وسلطته وقد افترضت الايديولوجية ـ العراف ـ أن تكون كائناته طبيعية وبذلك أكسب تلك الكائنات تفكيرا لا يشترك فيه غيره ـ انظر آلهة الاغريق في كتبهم ـ وقد انتقلت هذه المهنة في الحضارات الاكثر تقدما الى ما نسميهم حاضرا بالبيروقراطيين الذين يخدمون السلطة السائدة من خلال المفاهيم التقليدية •

* للايديولوجيا طابع صوفي فهي وجدت بفضل الكائنات البشرية – المميزة – وذلك ما يجعل هذه الكائنات جماعات ممتازة . وبفضل التقادم الزمني والتراكم الاجتماعي تنسى المجتمعات أصول أيديولوجياتها ، وتتحول الايديولوجيا الى ثقل معنوي مميز يضغط على المجتمع بثقل ساحق فيسوق الناس الى التمثل بالاشياء المجردة التي تتسم بالتقديس المطلق ، فتصبح الايديولوجيا مجرد – تابو اجتماعي بوصفها صورة أو مذهبا في حالات التاريخ اللاحق وتتصف بالرجعية .

● بعد هذا الاستطراد السريع نريد الوصول الى أن الايديولوجيا المعاصرة ذات دور تحرري وتقدمي في حالة كونها أيديولوجيا ثورية ، فنظرية الاحكام لديها كما يقول – كانط « لا يمكن ان تقوم على مجرد التداعي الحسي ، ولا بد أن تكون هذه الاحكام لها أصول وقوانين سابقة في الذهن ، بمقتضاها ترتبط اطراف الاحكام ، ارتباطا كليا وضروريا ، مما يصون قيمة المعرفة العلمية »(٣٦) .

* والتمييز بين الايديولوجيا كأرث حضاري جاء للبشرية عن طريق الفلاسفة والعلماء الذين أبدعوا في المعرفة . والايديولوجيا التي رافقت سلطات الكهنة والملوك والاباطرة والامراء ، أمر تستلزمه ضرورات الاحكام المنطقية ، فالايديولوجيا الثانية تتسم بالعتمة والتضليل لان الذين تولوا الحكم باسم حق التفويض الالهي وفي المجتمعات الاقطاعية والعبودية ومجتمعات الرق والهمجية وفي العصر الوسيط في أوربا ، حكموا بأيديولوجيا خفية عن المجتمعات . واحاطوها بهالة من القدسية والتستر .

أما أيديولوجيا المفكرين والكتاب منذ عصر أفلاطون ولحد الان ، فهي تصورات وأحكام بين محمول وموضوع ، فقال « أفلاطون :– ان الاحكام انما هي ممكنة بفضل قانون المشاركة بين الموضوع والمحمول ، وقال أرسطو ، ان الحكم انما هو ممكن لأن الموضوع يندرج في تصور المحمول لعمومه »(٣٧) .

وعلى العموم فان تعاريف الايديولوجيا متباينة بتباين الفلسفات والمناهج والستراتيجيات الاجتماعية ، الا أن هناك تعريفا متفقا عليه وهو :ـ اولا : ان الايديولوجيا الداعمة للسلطان التقليدي هي أيديولوجيا متراكمة تكدست فيها الاوهام والاباطيل بفعل مرور الزمن الذي راكم فيها التناقضات الاجتماعية وجردها من أصولها ، وهنا نجد المجتمع في حالة ارتكاس وتآكل ولذا فهو يعيش الاوهام بصورة حقائق ويقتات بوعي أبتر مشوش فيظهر الناس وكأنهم في قاعة مظلمة ، ربما في تلك الظروف نجد افرادا يعيشون الوعي بشفافية مرهفة نتيجة لانقلابهم على الواقع الا ان هذه الظاهرة تتمثل في ـ قلة مبدعة ـ .

ثانيا :ـ الايديولوجيا الثورية التي تعتمد اساسا على قلب وعي الكائن الانساني من وعي تقليدي الى وعي انقلابي ثوري، والوعي الثوري يحفز الانسان ويدركه ادراكا آخر ولا يسقطه في قاعة مظلمة أو يدخله في غرفة بيضاء اللون ذات مصباح كمصباح علاء الدين ، وانما يواجهه بمسئوليات عملية وفكرية تنفي اغترابه لانه ظاهريا ملتصق بمجتمع يقبل علاقاته وانتاجيته وقوانينه ، لكنه جوهريا مغترب عن تلك العلاقات والقوانين والانتاج ، فهو واقع في ـ الاستلاب ـ وواقع في أيديولوجيا تفترض فهما خاطئا وتصورا معاديا للتاريخ .

لهذا فالكائن البشري في ظل الايديولوجيا السلطوية المتراكمة انما هو ضرب من التجريد يعتاش بمجموعة من الاخطاء والمفاهيم والتشويهات المعادية للانسان من أجل تثبيت الانسان ذاته كسلعة تباع وتشترى ، والسبب في ذلك ان الحادث الاجتماعي التاريخي هو حادث اقتصادي تحول بفعل الصراعات والتناقضات الى التعامل مع الزمن تعاملا معاكسا للزمن نفسه ، وبذا فقد تاريخية وفقد مبررات وجوده ، ولذا نجد الايديولوجيات الرجعية منغلقة في دائرة الاوهام ومتعلقة بتجارب سابقة اضافة الى افتقارها واقعيا الى الحيوية الاجتماعية والعمل المادي .

* ان دراسة الايديولوجيات تفسح المجال للنقد الجذري للمجتمعات القديمة وبخاصة فيما يتعلق بالحقوق والواجبات والطبقات والانتاج والسلع

والعلاقات الاجتماعية . ولكن الايديولوجيا كما يقول « التوسير » ليس لها تاريخ اذ أنها تفقد تاريخيتها وتصبح مجرد فكر مجرد في الشعور ، ـ

* السياق هذا يقودنا الى أيديولوجية حزب البعث ، باعتبارها علم المعاني البعثية ، هذه الايديولوجية الثورية ، عملية وواقعية وجدلية لانها بعيدة « عن مزالق النزعات التجريدية والاطلاقية الفلسفية وعن النزعات الوضعية والاختبارية الغارقة في الجزئية »(٢٨) .

● وقد كان للنضال الدؤوب الذي استغرق أكثر من ثلاثين سنة ابراز السمة المنهجية لايديولوجية البعث على ضوء محصلة معطيات التحليل الخاص لمعضلات الوطن العربي . وهذا أمر ابداعي بواسطة الفكر ، لكن صعوبة الطريق كما قال المناضل صدام حسين « في أنه طريق جديد بحاجة الى اغناء فكري مستمر ، وبحاجة الى نظرية عمل متجددة دوما بما يجعلها قادرة على استيعاب شروط وقوانين الحياة والمساهمة الجدية في صنعها وتطويرها »(٢٩) .

هذه السمة الصعبة لايديولوجية البعث العربي الاشتراكي ليست ضربا من ضروب التفكير الانطولوجي الذي يقسر الانسان على الانفصال عن أسس معرفته ، والتعامل مع الحياة بنتائجها ، بل هو على العكس من ذلك ضرورة تاريخية تضع المعرفة في حد متكامل مع الواقع وعلى الاخص ان هذه الايديولوجيا البعثية انما هي وجود من خلال الواقع وبه ، ولكنها لا تنساق معه الى حد الانجراف ولا تعلو عليه الى حد أن تكون زبدا فوق سطح البحر ، بل هي كل متكامل في الغوص في الاعماق أو تنسيق وتنظيم حياة الشعب وتحديد مراحل النضال .

وفي هذا الصدد حق للبعث أن يحدد صيغه من خلال عمليات الخلق والابداع .. انه البدء في عملية خلق وابداع ، وهذه ولادة «مبكرة لمنهج جديد في الفكر ولنظرة أصيلة الى الذات والى العالم ولاسلوب جديد وطريقة جديدة في التعامل مع الماضي والحاضر والمستقبل ومع الامة والوطن والعالم »(٣٠) .

وعملية الابداع هذه تدرك الواقع وهي خلاصة نتائج التطور التاريخي لقضايا الوطن والامة . والمباشرة فيها انها ممارسة عملية من قبل الجماهير لذاتها ، ولذلك فهي تخطٍ لمواقف الفيلسوف النظري المتأمل ، وموقف النظرية الجاهزة « لم يكن حزبنا حركة سياسية فحسب ، وانما كان حركة حضارية شاملة بعثت الحياة الجديدة في الامة وفجرت امكاناتها ونفخت روح التمرد على كل ما يعوقها عن التقدم في السياسة والفكر والاجتماع »[٣١] .

* هذه المقتضيات الثلاثة : الممارسة ، وعملية الخلق ، وجعل الجماهير هي المسئولة عن قضيتها ، وضعت حدا نهائيا للتقليد والاقتباس النظريين والممارسة السياسية المحضة ، ولذا فالبعث لا يرى في الاشياء العملية حصيلة أو أثرا من آثار الفعالية المبدعة هي بآن واحد سياسية واجتماعية وفكرية ، حسب ، بل انه يجعل الفعالية الثورية عملية انتقادية والبعث لهذا ينيط عملية تحول الانسان بتحول الظروف والتربية وتحول الذات ، مؤكدا ان الانسان هو الذي يحول الظروف وهو الذي يضع للتربية محتوياتها .

ذكر الرئيس القائد صدام حسين « ان العمل الفكري لا يمكن الا ان يكون موقفا انسانيا »[٣٢] والتساؤل فيما اذا كان بوسع كل موقف فكري انساني بلوغ الحقيقة الموضوعية هو سؤال عملي وليس نظريا . فعلى الانسان الثوري أن يقيم الدليل على أيديولوجيته ــ أي على واقعية الفكرة او النظرية ودقتها وقدرتها في الممارسة .

والمعرفة هنا لا تبلغ مداها الا في ارتباط الايديولوجية الثورية بالممارسة العملية وعملية الخلق « وفي كل الاحوال فان الاقتباس والنقل الالي يفقده روحه وصلاحه ــ يقصد العمل الفكري ــ في حين أن انبثاق النظرية والحلول عن المجتمع الوطني والقومي ، سيجعل النظرية والحلول حالة متطورة نوعيا عن الظروف والمعطيات الدارجة آنذاك ، وبذلك تكون متصلة بالماضي ومطورة للحاضر في الوقت الذي تحتفظ فيه بأسس وشروط النظرة المستقبلية للتطور »[٣٣] .

* وهذا ليس رفضا للنظرية لصالح العمل التطبيقي كما يمكن أن يفسر، بل على العكس من ذلك ، اعتبار الايديولوجيا مسألة عمل ، وهذا بدوره يجعل النظرية خلقا مستمرا، وهذا الخلق أيضا هو الذي يبتعد بالايديولوجية الثورية عن ــ الوضعية ــ فالايديولوجية الثورية لدى البعث هي وعي مستمر لطبيعة الظروف والمكان والزمان وطبيعة العالم المحيط بنا وحركة المصير العربي في كل ذلك •

* لقد كان واجب القيادة البعثية اغناء فهمنا وتعميم نتائج البحوث الثورية وما تنطوى عليه من خصائص تنطوى على نظرة كلية تحتاج الى الجزئيات في الماضي والحاضر والمستقبل ، ولحسن الطالع أن هذا الوعي الايديولوجي الثوري هو وعي بعثي بداهة ، ومما عزز ذلك الوعي لدى القاعدة وميزه عن الوعي الاولي المتردد والوعي العضوي النشاطي ، ارادة التنظيم الحزبي البعثي وارادة القيادة التي اعتبرت أن الوعي الايديولوجي والوعي السياسي الناجم عن دمج النظري بالعملي ، انما هو الوعي التاريخي المطلوب •

فقد ورد في نداء وجه الى ــ الجهاز الحزبي ما يلي « أيها الرفاق •• ان الحركات الثورية لا تعيش وتستمر ثوريتها بمجرد استمرار الارتباط التنظيمي بين أعضائها ، أو تحقيق النضال اليومي ، وممارسة العمل الثوري بين الجماهير فالى جانب ذلك يقف عنصر مواز هو عنصر الثقافة الثورية والتربية العقائدية، وبحيث لا يجوز اغفال عنصر من هذين العنصرين على حساب العنصر الآخر ان المرحلة التاريخية التي تعيشها الثورة الان ، تتطلب تكريس كل الجهود والقابليات والامكانيات لا في مجال التنظيم وحماية الثورة والتخطيط والتنفيذ فحسب ، بل في مجالات الفكر والتربية العقائدية والمعالجات السياسية والجدل الايديولوجي أيضا »(٣٤) •

* هكذا فالروابط الناشئة بين التنظيم الحزبي وبين المجتمع الحي المتفاعل هي جزء من نظرة البعث الايديولوجية الجدلية التي تعيد اكتشاف الواقع باستمرار •

« ان المكتب الثقافي يدعو الى تحويل كل المنظمات الحزبية الى منظمات نضال وفكر وتربية عقائدية في آن واحد ، بحيث يتبلور الجانب الفكري بشكل مواز للجانب النضالي والثوري »[٣٥] .

وقد أفلح الحزب في هذا المضمار ونجح في تحويل نشاطات منظماته الى خلايا أيديولوجية وثقافية وتربوية واجتماعية ، بل ان المجتمع نفسه تحول الى خلية ثقافية بفعل الترابط الوثيق بين ايديولوجية البعث وعملية الخلق الفكري، وقد أكد المناضل صدام حسين أن « العمل الفكري موقف انساني »[٣٦] لكنه فرق بين الاصالة الفكرية المعتمدة على الخلق وبين الاقتباس اذ « ان الاقتباس من شأنه ان يفقد الجهة المقتبسة الاصالة ويفقدها شرطا مهما من شروط التقدم والتطور . لأن الاقتباس يأتي بصيغ وسياقات من العمل معزولة عن حركة التطور الوطني الداخلي ، لانها منقولة نقلا آليا ، وتمثل احدى حلقات البناء الانساني ومعانجاته العقلية لتلك المجتمعات، وهي ان اعتبرت بعض حلقاتها في التصور والحلول ذات طابع عام يتجاوز في تأثيره الاطار الوطني للمجتمع الذي نشأت فيه ، فانها تبقى في اساسياتها وفي المحصلة الاجمالية لتركيب التصور والحلول مصممة على أساس ومحكومة بمعطيات المجتمع الذي وجدت فيه بشكل رئيسي »[٣٧] .

المبحث الرابع : ايديولوجيا البعث والعالم المحسوس

* تركز الايديولوجيات الثورية على العالم المحسوس باعتباره ميدان الفكر النظري بعكس الايديولوجيات التأملية التي تركز على العالم المجرد ـ عالم التصورات كما يقول **ديكارت** ، وهنا نعود الى الممارسة العملية التي تطرقنا اليها مسبقا ، ليس من أجل الاعادة والتكرار ، انما من أجل معالجة هذه المسألة ضمن دعامة المعرفة الثورية للحزب والثورة ، فالاشياء المحسوسة هي دعامة كل نظرية تنظر الى الواقع نظرة علمية وهذا من صميم فكر الحزب « فالابداع في البعث هو أولا في هذا التحول الحاسم والتاريخي من النظرة

الخارجية الى الامة — أي من خلال الانتقـال من وعي الآخـر (الذي هو المستعمر) الى النظرة من الداخل ، أي من خلال وعي الامة لذاتها ولتناقضات واقعها »[٣٨] وتتميز هذه النظرة بما يلي :—

أ — خلق وانشاء عالم الواقع العربي على أساس فعاليات الجماهير لانها الطاقة الحقيقة في التحويل والتغير ، وهذا المحسوس ليس تعريفا دوغماتيـا يقصد به الكسب السلطوي كما كانت تفعل الحكومات الرجعية ، انما هو التزام جدي وعملي بالجماهير ذاتها فالحزب « يهدف الى نقل المجتمع من حالة الى أخرى بواسطة الثورة ، نقله من التأخر الى التقدم ، من الفقر الى الاكتفاء والرفاه ، من المرض الى الصحـة من الجهـل الى العلم »[٣٩] .

● هذا الخلق والتحول الاجتماعي والطبقي بالجماهير وبوساطتها هو ابداع للمجتمع من خلال تاريخه، انطلاقا من طبيعة ثورية أصيلة — فالعمل الملموس في واقع ثورة البعث — ثورة لا تنضب طالما أن ذلك الواقع في متناول أيدي الحزب والثورة ، وطالما كان انسان الثورة ذاته يضع في فكره مباديء الحزب ليكتشف بؤر النور وسعة الابداع الانساني الذي يشمل الواقع الحياتي المعيشي ويشمل العلاقات الاجتماع — والانتاج ، والاشياء ، والسلع ، والاعمال الفنية ، والطبقات ، ووحدة العالم الواقعي الحسية والفكرية ، أي وحدة العمل الثوري السياسي ، الاقتصادي ، ووحدة الثقافة والطبيعة البشرية .

ب — « ان النضال بمعناه الواسع العميق هو السبيل الى بعث الروح العربية وتحقيق الانقلاب العربي .. لماذا .. لان الماضي كان — ابداعا — برر فيه العرب وجودهم كأمة حضارية »[٤٠] .

معنى ذلك أن الروابط الكائنة أو الناشئة بين العرب ، كأناس في مرحلة الانحطاط ، هي روابط تقليدية لا يمكنها اكتشاف واعادة الكائن العربي الحي ، فلقد كان هذا الكائن شيئا من الاشياء الفاقدة الفعالية ، وهو بوصفه موضوعا محسوسا ، مادة للبعث ونضاله ، لذلك فالنضال بمعناه الواسع العميق هو الذي يعيد اكتشاف الانسان العربي لذاته . وذلك النضال هو الذي يمكن الانسان العربي من ممارسة قدرته الذاتية من تفكير وفعالية ووجود ولا ننسى أن تحقيق الوجود الانساني العربي القائم بالنضال يأخذ بالقياس ، الفرد والامة . وهو لهذا يقيس الفرد بمقياس الامـة . فالتفوق الاخلاقي للجيل الذي يقوم بالبعث العربي ، يتطلب بالتأكيد أن يبدى هذا الجيل نشاطا ثوريا متميزا قد لا يكون متوافرا في زمان آخر ، فلا يتم خلق الفكرة العظيمة بانتظار عدد مميز من الناس ، اذ لابد ان تكون الامة كلها مميزة بدءا من الفرد ، لتضع موضع التنفيذ نقلتهـا الحضارية .

جـ ــ والانسان العربي قبل كل شيء ــ وكغيره من البشر ــ هو كائن ذو حاجة ولما كانت غالبية سكان الوطن العربي من الكادحين عمالا وفلاحين وشغيلة الفكر الثوري ، ولما كانت الحاجة تاريخية واجتماعية وطبقية فان حزب البعث « فتح الباب على مصراعيه للجماهير الواسعة المستغلة لدخول المعركة والمسك بزمام مصير الامة »[٤١] .

د ــ واعترافنا بأن الجماهير المستغلة والكادحة هي الاكثرية الساحقة في الوطن العربي وهي التي تعاني العسف والاستلاب الطبقي ، فهي لهذا «لظروفها وأوضاعها التاريخية وقوتها قد هيأتها لأن تكون هي محرك التاريخ . لأن تكون هي المنقذة للامة . لأن تكون طليعة الامة المناضلة وصورتهـا الصادقة »[٤٢] .

هـ ـ ان مقولة البعث هذه تقودنا مرة ثانية الى الحاجة ، فالحاجة الطبقية والحاجة التاريخية ، والثقافية ، بله التقنية والفنية ، لا تكون ممكنة اذا لم ترتبط تاريخيا بالوعي والشعور الاجتماعي ، وهي لا تصير ظاهرة اجتماعية وانسانية عامة اذا لم تتجل في الفرد والمجتمع والطبقات ، لهذا السبب كان الوعي الاجتماعي والقومي لا ينمو الا بنمو الحاجات .. وحاجة الطبقات المستغلة (بفتح الغين) في الوطن العربي هي المقدمة الضرورية للوعي التاريخي المحسوس في ثورة البعث وتلك ثمرة بسيطة وجزئية من ثمرات العقل الفعال .

و ـ تدرس الحاجات الاجتماعية والطبقية في الوطن من قبل البعث على ضوء مصلحة الامة باعتبارها تدخل في الحركة العامة للمجتمع ، لكن ذلك لا يعني تضحية بالافراد « لأن الاشتراكية في نظرة حزبنا فلسفة متكاملة للحياة بكل عناصرها الرئيسية والفرعية وليست معالجات وحلولا اقتصادية فحسب ، وبذلك تتجنب خسارة الانسان الذي هو غاية التطبيق الاشتراكي »[٤٣] .

هذا الجانب في تفهم العالم الملموس هو العنصر الايجابي الفعال . وكانت قوة ما أثبت تأثيره عمليا على النظرية السياسية أو الاخلاق أو الممارسات العملية الانتاجية »[٤٤] مباشرة ، الى حد نبذت فيه كثير من المفاهيم الاجتماعية التي كانت سائدة في العهود السابقة أو بداهات كانت ناجمة عن التخلف والكسل الفكري .

ز ـ بناء الانسان كجزء من العالم المحسوس أمر أساسي في نظرة البعث العربي الاشتراكي ، اذ أن الانسان يكتشف ماهيته من خلال العمل ، لكن العمل ليس غاية للماهية انما هو وسيلة لها ، ولذا سعى البعث الى تمييز الانسان عن العمل وجعل العمل وسيلة لرفاهية العامل وزيادة استمتاعه بوقته وبالسلع التي يستهلكها ، ولو ان العامل بقي مرتبطا بالعملية الانتاجية الرأسمالية لأصيب

بالتشويه والضياع ولم يتميز عن الالة التي يديرها « ان الزيادة في الانتاجية تؤدي الى زيادة في الانتاج وهذه الزيادة تسمح بتوفير المزيد من سلع الاستهلاك للشغيلة ، فاذا ما زيدت الاجور طبقا لقاعدة التوزيع حسب الجهد المبذول ، فان هذه الزيادة،تلتقي بزيادة مقابلة في سلع الاستهلاك..والخدمات الانسانية لا تأتي عن زيادة الانتاجية وحدها ، كما رأينا ، وانما من هذه ومن التوسع الافقي في تطور الانتاج ومن التطور التقني والمعارف والخبرات والتقنية ... الخ »(٤٥) .

هنا يوطد الانسان ذاته في الانتاج وزيادته في منظومة التصيير الاشتراكي بامتلاك الحاجة للالة . والاستمتاع بالرغبات الانسانية في العمل نفسه . فعندما يصبح العمل استمتاعا انسانيا معنى ذلك ان الاستغلال قد نفي جذريا واننا نتجه بسرعة الى تجاوز الحدود والقيود التي وضعها العمل الرأسمالي في التوق الى حاجة « كلية » من خلال العمل السياسي الذي نلزم به أنفسنا بمشاكل ومعضلات المجتمع العراقي أولا والمجتمع العربي ثانيا ، لأن الاول مجال تجربة التطبيق والثاني لا زال في حيز العمل النضالي .

ز ــ في الايديولوجية الثورية لدى البعث العلاقة بين العالم المحسوس والمجتمع من جهة والفعالية التي تشحذ التطور من جهة أخرى ، علاقة جدلية ، فالعمل المنتج استمتاع حسي بالشيء العملي اذا كانت الانتاجية ذات اطار ــ كلي « ان المعرفة الكلية المحيطة بالعملية الانتاجية الموضوعية منها والذاتية وربط هذه المعرفة بالحركة الكلية للمجتمع عن طريق هضم المخطط المركزي واستيعاب المضامين الاساسية لمنهاج الدولة ومنطلقات حزبنا القائد تساهم في وضع العملية الانتاجية في آفاقها المطلوبة وتؤدي الى حسم الكثير من المشاكل والمعوقات التي تعترضها »(٤٦) .

هنا قد يعترض معترض قائلا : ان ذلك معناه احلال النظرية الهيغلية التي تجعل حاجات الدولة ــ كلية ــ اجتماعية ، وهو ما يعتبره البعث ــ مجموع

الحاجات الكلية ؟ ؟ كلا .. ليس هذا هو المطلوب فقد كشفت مناقشة ورقة العمل حول انخفاض الانتاجية ان المخطط المركزي للدولة في القطر العراقي لم يختزل مجموع الحاجات الاجتماعية الكلية . انما أخذ بالاعتبار أن ذلك المخطط المركزي — كائن — في واقع الجماهير وامتداد حاجاتها ، لان الدولة عند البعث مناهضة للمفهوم الهيغلي عن الدولة فالاخير يؤكد على حاجات الادارة القائدة ، بينما مفهوم البعث يركز على تبيان حاجات المجتمع من خلال التنظيم السياسي الجماهيري اذ ان « واقعية المبادىء وما ترسمه من خطط عملية لا تؤدى نتائجها الكاملة في عملية التغيير اذا لم تكن هناك ارادة في التغيير على مستوى شامل وواسع بحيث تكون هذه الارادة محصنة للطاقات الشعبية المعبأة بشكل كامل والموظفة امكاناتها من أجل ذلك »[٤٧] .

ان مجموعة أخرى من القضايا ذات البعد الايديولوجي ستناقش — لكنا نود قول كلمة أخيرة في موضوع الايديولوجيا الثورية لدى البعث وعلاقتها بالنظر الواقعي ، فالممارسة الثورية هي وحدها التي تتجاوز الاطار الجزئي وتتعدى صلات الدولة الى الجماهير لتعيد الوحدة بين وجودها العملي الفكري، كما أن حل النقائض التي يبرزها التطبيق غير ممكن الا بواسطة الجدل بين الحزب وجماهيره وبين الجماهير وطاقاتها العملية .

* وليس هذا ممكنا بواسطة المعرفة الايديولوجية حسب ، أنما هو أكثر امكانا بواسطة العمل الثوري الذي هو البوتقة التي تفرز فيها المعادن والذي هو حساب دقيق للزمن ضمن مراحله الجزئية ، لكنه كليا يمر عبر سلسلة الاجراءات المرحلية ذاتها . وهذه الكلية لا تعني — الاحتواء — الكامل للزمن عبر تعويم الايديولوجية بوساطة الدولة ، بل ان العمل الثوري هو سياق الحركة الاجتماعية ونقائضها ، فيكون النقد الجذري للاستغلال وتجاوز الواقع المتخلف والبنى والصور المتداخلة ، الذاتية أو الموضوعية الموقع من صميم حكم القيمة الثورية ذاتها .

مصـادر الفصـل الثاني

(١) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومـي السادس ص ٢٢ المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ ــ ٢٣ .
(٣) حديث لمشيل عفلق في مجلة آفاق عربية العدد ٨ نيسان ١٩٧٨ ، ص ٦ .
(٤) بعض المنطلقات النظرية ص ٨ .
(٥) صدام حسين عن مواقف الحزب ومواقف الدولة ص ٣ الطبعـة الاولى شباط ١٩٧٨ .
(٦) صدام حسين ، المصدر السابق ص ٤ .
(٧) صدام حسين ، المصدر السابق ص ٤ ــ ٥ .
(٨) صدام حسين ــ عن مواقف الحزب والدولة ص ٦ المصدر السابق .
(٩) ، (١٠) ، (١١) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس ص ٢٣ ــ ٢٤ .
(١٢) بعض المنطلقات النظرية ص ٢٤ ــ ٢٥ .
(١٣) بعض المنطلقات النظرية ص ٢٤ .
(١٤) ميشيل عفلق البعث والاشتراكية ١٩٧٦ ص ٣١ .
(١٥) د . الياس فرح ــ مستقبل العمل الثوري العربي ص ٩ ــ ١٠ .
(١٦) راجع ملخصا لكتاب هارولد لاسكى في كتاب ، دراسات في النظم والمذاهب ١٩٦٢ المكتب التجاري ، بيروت . ص ١٧٨ وما بعدها .
(١٧) هنرى لوفير ــ ماركس وعلم الاجتماع ص ١٤ .
(١٨) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس ص ٥ .
(١٩) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس ص ٢٤ .
(٢٠) بعض المنطلقات النظرية ص ٦ .
(٢١) راجع أفلاطون : جمهورية أفلاطون ، ترجمة حنا خباز .
(٢٢) هنرى لوفيفر ، المصدر السابق ص ٦٥ .
(٢٣) ابن خلدون ــ المقدمة ص ٤٢٨ المرجع السابق .

(٢٤) الفلسفة وعلم الاجتماع ـ د . قبارى محمد اسماعيل ، المكتبة الثقافية القاهرة ، شباط ـ فبراير ١٩٦٩ ص ٣٠ .
(٢٥) السلطان ـ برتراند راسل ص ٥٩ المرجع السابق .
(٢٦) الفلسفة وعلم الاجتماع ، د . قبارى محمد اسماعيل ص ٣٧ المرجع السابق .
(٢٧) الفلسفة وعلم الاجتماع ـ د . قبارى محمد اسماعيل ص ٣٦ .
(٢٨) دور الايديولوجية العربية الثورية في اغناء حركة الابداع العربي ص ٣ ايار ١٩٧٦ .
(٢٩) صدام حسين ، الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ٥ .
(٣٠) دور الايديولوجية العربية الثورية ص ٣ ـ ٤ المرجع السابق .
(٣١) بعض المنطلقات النظرية ص ١٠ ـ ١١ المصدر السابق .
(٣٢) صدام حسين الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ٨ .
(٣٣) صدام حسين الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ٨ ـ ٩ .
(٣٤) مجلة وعي الطليعة ص ٣ أيلول ـ ١٩٦٨ .
(٣٥) وعي الطليعة ص ٣ أيلول ١٩٦٨ .
(٣٦) صدام حسين ، الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ٨ .
(٣٧) صدام حسين ، الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ٨
(٣٨) دور الايديولوجية العربية الثورية ص ٤ المرجع السابق .
(٣٩) مختارات ثقافية ، رقم (٢) القيادة القومية ص ٦٤ .
(٤٠) في سبيل البعث ميشيل عفلق (البعث العربي هو الانقلاب) ص ٦٤ .
(٤١) ص ١١ بعض المنطلقات النظرية .
(٤٢) في سبيل البعث طبعة ٢ ص ١٠٨ .
(٤٣) صدام حسين ، الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ١٢ المرجع السابق.
(٤٤) لاحظ نص ورقة العمل حول العوامل المؤثرة في انخفاض الانتاجية .
(٤٥) شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق دار الثورة ص ٦٠
(٤٦) ملاحظات أولية لتطوير الانتاجية ، شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق ص ٤٥ .
(٤٧) معنى كشف الاخطاء في المجتمع الثوري ، شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق .

الفصل الثالث

الديمقراطية

المبحث الاول : الديمقراطية مدخل أولى

* تعتبر الديمقراطية من أعقد المسائل النظرية التي اختلفت عليها وجهات النظر في النظم والايديولوجيات ، فرغـم أن الديمقراطية مسألـة نسبية ، الا أنها أحتـوت على مسألـة أساسـية ونعنـى بها التمثيـل النسـبي للجماهـير • وقد اعتبـرت الديمقراطية في أثينـا نموذجـا للديمقراطيات القديمة ، كما اعتبر حمورابي مشرعا ديموقراطيا في حضارات الشرق ونموذجا للديمقراطية في حضارتنا البابلية والآشورية القديمة ، لكن الديمقراطية الأثينية احتوت على سمات عصرها وهي سمات اقطاعية ــ عبوديـة بينما حضارات الشرق لم تتسم بالطابع الاثيني والروماني الاقطاعي • وقد تجلى ذلك في العصر الروماني الذي منح التصويت للملاك والاحرار الذين ينتمون الى المـلاك او النبـلاء •

« تضمنت الديموقراطية الاثينية الكثير من العيوب ، ومنها أنها استلزمت في المواطن الاثيني أن يكون من أبوين اثينيين وليس لسواه تملك الاراضي او التمتع بالحقوق المدنية ، وقد كان سكان أثينا لا يزيدون على الاربعمائة الف ، ولكن الرعايا الحقيقيين الذين يتمتعون بالحقوق المدنية لا يتجاوزون الاربعين ألفا»(١) وهذا دليل على ان الديمقراطية في الحضارات الاغريقية والرومانيـة الكلاسيكية ليست الا مسألة صورية فحسب « كان الاثينيون يملكون العبيد ولكن يلوح انهم جعلوا ذلك مستسـاغا »(٢) وكذلـك كان الرواقيـون في الامبراطورية الرومانية قد أدخلوا اصلاحا شرعيا كان الدافع الرئيسي وراءه هو المبدأ القائل ان للطبيعة الانسانية حقوقا ، بيد أنه لم يقم مالكو العبيـد ــ الرحماء ــ ولا أفلاطون الملهم ولا الرواقيون المفكرون بأية محاولة ضـد العبودية ، وانما تقبلوها باعتبارها أمرا من الامور المألوفة ، لقد كانت ضرورة كامنة في أساس المجتمع ، ومثل هذه الضرورة تحد من مدى التعميمات »(٣) •

نرى هنا المرحلة الاولى حيث تجلت المثل المجردة في المدارس الفلسفية التي عالجت الكثير من المسائل الفكرية ، لكنها عجزت عن معالجة أخلاق القوة، رغم أن تلك المدارس الفلسفية وجهت نقدا للنظام كله .

وتعتبر عظمة حضارات الشرق متجلية بصفاتها التشريعية حيث جاءت شريعة حمورابي شاملة بالامور العملية اذ حدت من أخلاق القوة . « ويقول حمورابي في مستهل شريعته » انه جاء يحمي شعبه بقوة « لتوطيد العدل حتى يسود الارض »(*) .

أما الامكانيات المثالية في الحضارات الاخرى وبخاصة الحضارة الرومانية فقد كانت ذات طابع ارستقراطي ، اذ أن القانون الروماني الذي اعتمد على قوانين صولون الحكيم اليوناني كليا وضع سنة ٤٥١ ق . م وتضمنت مساواة نظرية للشعب مع الطبقة الارستقراطية ــ النبلاء ، بعد أن أضيف لوحان للالواح العشرة سنة ٤٥٠ ق . م « مما أدى الى مصادرة واختزال دور الشعب الروماني من قبل السلطة التي استأثرت بحكم البلاد »(٤) .

والقانون الروماني ذي الالواح الاثنى عشر يعتبر متخلفا لو قورن بشريعة حمورابي سنة ٢٠٠٠ ق . م كما يقول ريمون مونيه اذ أن قانون « حمورابي يفوق الالواح الاثنى عشر في التنظيمات الاقتصادية والقواعد الاخلاقية وحقوق الشعب »(٥) .

أما الانماط الاخرى من الحضارات التي وقعت ما بين أفول الاغريق وظهور الاسلام كالحضارة البيزنطية والساسانية ، فقد كانت مسالك الحياة فيها تقاس بمقياس الاوضاع الاجتماعية والطبقية والظروف السياسية رغم أن تلك الحضارات الوسطية كانت مفعمة بالحكمة الا أنها حكمة تجريدية دائبة

(*) راجع د . احمد سوسة ، حضارات العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، وزارة الاعلام ــ العراق ١٩٧٩ ص ١٥١ وما قبلها ــ راجع ايضا نشرة قوانين حمورابي ترجمة وتعليق محمود الامين ، نشرت في مجلة كلية الاداب ١٩٦١ .

الغربة عن العالم الواقعي ، مع أن الحضارة البيزنطية احتوت على بعض مصادر القوة ، وجاءت الحضارة العربية الاسلامية لتبث القوة في العرب وتبعث طاقاتهم وثقافتهم وتجعلهم رواد ثورة جديدة ، والاسلام قضية كبرى ، حضارية وانسانية وقومية فهو « عقيدة ونضال في سبيلها ، وقضية ، هي قضية أمة ، وقضية انسانية ، بل انه قضية أمة بتصور انساني ونضال على أروع ما يكون بأعلى مراحله وبما فيه من تنظيم دقيق وتثقيف »[٦] .

عالج الاسلام الديمقراطية بطريقة الشورى « ولقد سار الرسول الكريم على هذا المبدأ وطبقه طوال حياته »[٧] .

ونظام الشورى ليس كما يتبادر الى الذهن بناءً عفويا ، انما هو تعبير عن مسألة مبدئية في الاسلام . وقد طبق في عهد الخلفاء الراشدين في الامور المتعلقة بالشئون الحياتية والعقيدة والعبادة والحرب والقضايا التجارية والاجتماعية وحتى في بعض الاحوال الخاصة ، الا أن ذلك النظام في جانبه الديمقراطي لم يرد أن يؤطر الشورى ضمن شكل واحد بل ترك الامر لمتطلبات الزمن والظروف .

كما أن الاسلام ساوى في ديمقراطيته بين الناس وجعل المسئوليات الفردية ازاء المجتمع بمقدار العمل ، وجعل كل فرد مسئولا عن المجتمع « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » و « كل امرىء بما كسب رهين » واذا كان المجتمع الديمقراطي الصحيح راهنا هو المجتمع الخالي من الاستغلال الطبقي « فان المجتمع الاسلامي لجدير بأن يتصف بهذه الديمقراطية الاقتصادية ، فلقد أبطل الاسلام قوة الاستغلال وقدس حق العمل »[٨] .

وفي نهاية القرون الوسطى بدأت أوربا محاولتها لبناء الحضارة بعد انسحاب الشرق العربي تحت موجة المغول والترك وسيطرة القوة الوحشية البدائية التركية على مقاديره ، فرنت بذلك غلالات سحب التأخر وانكماش الروح العربي بفعل الاستعمار العثماني ، وبدأت الثورة الفرنسية تهز أركان

أوربا ، وانتقلت القارة الاوربية رويدا رويدا من الحكم الموناركي Monarchte الذي يعتمد على تسلط حاكم واحد بالقوة والجبروت والحكم الارستوقراطي Ariatoeratie — حكم القلة — والحكم الاوليغاركي Oligarehie الاقطاعي ، الى بروز الرأسمالية التجارية حسبما هو معروف وبروز عصر المنفكتورة ، وقد لاحظ المؤرخون أن نشوء الرأسمالية التجارية كان له علاقة وثيقة بنشوء خبرة فنية آلية جديدة « فالتجارب الجديدة التي خلقتها التجارة أوحت بوسائل جديدة للانتاج »[٩] مما جعل الغرب يمد بمصادر قوة جديدة أدت الى الفتوحات الاستعمارية بعدئذ .

* وبصرف النظر عن عوامل الرأسمالية التجارية والكوارث التي اصيبت بها الشعوب الاوربية ذاتها وشعوب الشرق وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على أيدي طلائع الغزو الاوربي ، فان تلك الفترة تعد فترة ازدهار ديمقراطي ، لأن النظام الرأسمالي كان على مستوى البنية السياسية غير متكامل ، ولذلك كان معينا لا ينضب للفردية والصراعات الفكرية والجدل السياسي على نحو اختباري .

وبعد تكامل الرأسمالية في القرنين التاسع عشر والعشرين أصبحت الديمقراطية مزيجا من الوهم والصور اللفظية ، حتى أن الرأسمالي نفسه لم يعد ثمرة المعرفة والمبادرة كما كان حاله في البدء ، وانما أصبح مقننا .

والديمقراطية في عالم اليوم أمر وهمي لأن الفردية ليست أمرا عابثا في المجتمعات الرأسمالية لانها تصب في منابع الشركات الكبرى وتسد ثغرات في الحياة العامة ، بينما يشيد المجتمع البورجوازي عالمه ضمن قوانينه ومبادئه ،

● أردت بهذا الاستعراض العاجل لبعض أوجه الديمقراطية أن اؤكد ان الديمقراطية مسألة نسبية تابعة للنظام نفسه ولقواعده الاقتصادية وجوهر بنائه الفوقي وبهذا فان البنيات الاقتصادية أبرزت معانيها ومراميها في أوربا .. ديمقراطية بورجوازية + مدلولات البيئة الاجتماعية وتطورها واتجاهاتها .

* وتبرز في المجتمعات البورجوازية الديمقراطية ظاهرة أساسية وهي أن تلك المجتمعات تعيش حقيقة رمزية ، وأعني بها جعل المظهر فوق الحقيقة بحيث لا يتطابق المظهر مع الحقيقة ، ففي مجتمعات لا توجد فيها مساواة تكـون الديمقراطية ضربا من الخيال ، او مظهرا لحقيقة رمزية ، اذ أن منتجي السلع يقعون تحت طائلة الاستثمار حيث يلعب توزيع العمل دوره في ايجاد الفروق بين الانتاج وفائض القيمة ، فالعامل المعاصر في أوربا وأمريكا واليابان لا يمتلك الا قوة عمله ، ولما كانت قوة العمل الفردية تتحد مع الاخرين لتتمكن من الانتاج فان الاسهام الذاتي تنعدم وسائل التمييز فيه • وبذلك يصبح العامل « غريبا » وسط الحشود ، وهذا نكران جوهري لذاته •

واذا أردنا التعبير بكلمات أخرى قلنا أن الانتاج الرأسمالي قد حـول الديمقراطية الى مظهر رمزي « ومهما يكن تفكير الجماهير فان سياسة القوة تظل ذخيرة للخبراء المكلفين بها »[١٠] •

ومن اليسير على المرء أن يفهم أن العلاقة بين الديمقراطية البورجوازية ومظهرها علاقة شكلية ، فالحقيقة الديمقراطية في تلك الدولة معتمة الى حد أن ممارسة الانتخابات يكون تعبيرا عن شكل موضوعي زائف •

والرأسمالية الاحتكارية المنبثقة من تجميع رؤوس الامـوال : حولت ديمقراطية الدولة الرأسمالية التجارية المبنية على شعار ـ دعه يعمل دعه يمر ـ الى صور وبنى دوغماتية للحفاظ على مرتكزاتها الاقتصادية الاساسية مستعينة بكل منجزات التكنولوجيا والاتمتة والالكترونيات المصنعة ، فأختلف مفهوم الطبقة تتيجة لذلك وزداد غموضا وحور عن معناه الاصلي عما كان عليـه في زمن الرأسمالية القائمة على التنافس الحر •

وبذلك حولت مفاهيم الديمقراطية لصالح الرأسمال الاحتكاري وتوسعت الطبقة الوسطى بضرورات الثورة التكنولوجية ومع كـل قدرات الرأسمالي الاحتكاري في طرح صور وايديولوجيات في الفن والثقافة لاملاء ثغرات واقعة

ظلت الديمقراطية في صورتها النظرية والواقعية وسط الغموض والتلفيقات والافتعـــال .

* وبهذا يمكننا القول أن الديمقراطية راهنا عبارة عن أفعال اجتماعية سديمية تقوم ضمن الحاجات والمناقشات والمماحكات التي يطرحها الرأسمال الاحتكاري وبوسعنا أن نستخدم التعليق الفينومينولوجي لهوسرل[11] الذي يحلل البنية بالظاهرة ، فالشيء يزدوج الى كيف وكم ، الى مادة وصورة . واذا كانت الديمقراطية في ظل الرأسمال الاحتكاري صورة لمادة ، فان تلك الصورة المثالية البراقة مناقضة لمادتها ــ التطبيق ــ فالديمقراطية الغربية والامريكيــة بوجه خاص لها وجهان ممتزجان ، لكنهما متباينان ، فبينما تنسب الصورة الى الواقع باعتبارها متعادلة معه تعادلا علائقيا في الدعاية والاعلام ، نجد الواقع مباينا للصورة ، اذ أن الواقع باعتباره قائما على مرتكزات طبقية ينفصل عــن مظهره ، وبهذا ينفي الواقع صورته ، فتبدو الديمقراطية الغربية والامريكيــة هيكلا فارغا لا محتوى له .

أن هذه الثنائية تبرز التعارض بين عنصرين يبدوان في طور الاحالة في وضع منسجم لكنهما ينافي أحدهما الاخر ، اذ تنوب الصورة مناب الواقــع وينوب المجرد عن المحسوس ، بينما يظل الاخير راكسا في واقع يختزل المظهر ويبتعد عنه ، فالخصائص النوعية للعمل الاجتماعي بعناصرها الاجمالية والجزئية ذات تناقض كمي مع الصورة ، ولذلك لا يمكن معرفة الديمقراطية البورجوازية للرأسمال الاحتكاري الا بتتبع حركة العمل الاجتماعي الجدليــة وتحديــد متناقضاتها وجملة القول هنا أن الديمقراطية الغربية والامريكية صورة شوهاء لذاتها وهي فارغة المحتوى ، ولذلك تظل تدور في صور مثالية ، بينما تجتاح خصائص العمل الاجتماعي ، الطبقات والفئات » .

« هكذا بالضبط تستبد الاوثان الاقتصادية (من سلعة وذهب ورأس مال) بالكائنات البشرية »[12] .

* ما الذي سنقوله بعد تحليلنا الموجز لواقع الديمقراطية الغربية ــ الامريكية عن الديمقراطية لدى حزب البعث ؟. بطبيعة الحال أكدت التجارب والدراسات الحضارية أن الديمقراطية ليست نموذجا واحدا ولا هي ــ وصفة ــ طبية ، انما هي حصيلة قواعد ومرتكزات أي نظام ومفاهيمه ومبادئه .

ومفهوم الديمقراطية في حزب البعث العربي الاشتراكي ينطلق في البدء وفي النهاية من مفهوم الحرية . وهذا المفهوم « يتضمن أيضا الربط بين مفهوم التحرر الذاتي والموضوعي ــ للفرد والامة ، وبين مفهوم بعث الشخصية الفردية والاجتماعية ، أي أن هناك بعدا ــ حضاريا ــ لمفهوم الحرية ، فثورة الحرية تهدف الى خلق الانسان المناضل المبدع . والى خلق المجتمع ذي الرسالة الانسانية »(١٣) .

هذا المفهوم يرفض الديمقراطية الغربية لانها بنيت على قواعد ومرتكزات اقتصادية مغايرة للمفهوم الثوري الذي يبغي ارساء دعائم ديمقراطية شعبية اذ أن « تحقيق الديمقراطية بعكس ما قد يتصور البعض غير متوقف على وجود المؤسسات الديمقراطية أي الانتخابات وحق النقد »(١٤) .

فمنطق الديمقراطية الغربية لا ينجح في الاستقراء ولا في الاعلان عن ذاته بأوصافه المعقدة وفي غير أرضه وفي خصائص اجتماعية واقتصادية منافية لمرتكزاته ، اضافة الى أن ذلك المفهوم ــ كما أسلفنا ــ لا يحتوي في تطبيقاته واقعا انسانيا ، ومن المفارقات أن يحاول البعض الدعاية لهذا المفهوم بينما تطبيقاته في أرضه تعصف بها الانواء والاعاصير .

ان الممارسة الديمقراطية لا تنجح الا اذا وجد التفكير والسلوك الديمقراطي « والا اذا توفرت النظرة العلمية . وخلاصة النظرة العلمية التي تقوم عليها الديمقراطية ، هي ان يعتبر الانسان معتقداته احتمالا للحقيقة وليست الحقيقة المطلقة ، فيبقى احتمال خطئها واردا دوما باعتبار أن الآراء لا تتحول الى حقائق علمية الا اذا قام عليها الدليل العلمي ، أي الا اذا مرت عليها بمراحل البحث والمعرفة في الطريقة العلمية ، ان النظرة العلمية توجب

الا نقطع بصحة حتى نتائج العلوم الطبيعية ، فالعلوم الطبيعية نفسها في تطور ، فما اعتبر قانونا علميا قبل قرون ثبت خطؤه اليوم ، وما يعتبر اليوم حقيقة علمية قد يتغير في المستقبل »[١٥] .

ان هذه النظرة هي النظرة العلمية الصحيحة وهي قطعا نتيجة لدراسة النظم وتطوراتها وهي دراسة علمية دقيقة،فمقاييس النظم ذاتها في تغير مستمر فلو عدنا الى الوراء قليلا ، أي الى فترة الحرب العالمية الثانية لوجدنا المقاييس تختلف عما هي عليه الان ولوجدنا حلفاء الامس أصبحوا أعداء اليوم ، وان الدول التي كانت عظمى انتهى بعضها الى مستوى الدرجة الثانية .

كما وجدنا شركاء الامس يبتلع بعضهم بعضا ، وبينما كانت المانية الهتلرية تجتاح أوربة الشرقية أضحت المانية حاضرا ضمن دولتين ومعسكرين ، أما اليابان فكلنا نعرف ما وصلت اليه في نهاية تلك الحرب وما وصلت اليه اليوم من قوة اقتصادية قد تصبح في الثمانيات قوة حربية في عداد الدول الكبرى ناهيك عن النزاع الصيني ـ السوفياتي وأبعاده السياسية والقومية الى جانب التغيرات في آسيا وأفريقيا وبروز العالم الثالث ونظم رأسمالية الدولة ؛ واشتراكية الدولة وأزمة الحضارة الغربية وقيادة فرنسا للوحدة الاوربية وبروز التكتلات الاقتصادية الدولية ، وما رافق ذلك من مصادمات ومتغيرات لتحقيق النظريات والمذاهب والاراء الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

* وهكذا فان الديمقراطية جزء من هذه المتغيرات وهي كغيرها من المفاهيم تخضع للتطور ، ولذا فالديمقراطية التي ينشدها حزب البعث العربي الاشتراكي هي من صميم مواضعات ونضال الشعب والامة ، وهي نظرة علمية شاملة .

« ان الحركة الثورية الحديثة بحاجة الى ترسيخ النظرة العلمية كأساس للعلاقات الديمقراطية في داخلها وللعلاقات الديمقراطية مع جماهير الشعب المنظمة »[١٦] .

* والعامل الديمقراطي الثوري يهيء اطارا عاما يتسع لاساليب الحياة الجماهيرية التي تحكمها مبادرات تنظيمية موضوعية اذ أن « من الاسباب الرئيسية التي دفعت الحركات السياسية بشكل عام والثورية منها بشكل خاص الى الاهتمام بالعمل الديمقراطي هو أن الاحزاب الثورية تتجاوز في طبيعة عملها الاطار السياسي وتضع في صلب اهتماماتها الاطر الاجتماعية والفكرية والاقتصادية وحتى الدينية للجماهير التي تشكل مادة عملها الرئيسية . ومن طرف آخر نجد أن الارتباط المباشر للمشاكل المهنية والعائلية والاجتماعية العامة بحياة الافراد والجماعات يجعل المشاغل السياسية تقع في دائرة المحيط لا في مركز اهتمام المواطن . وذلك ما عدا الحالات الطارئة التي تتعرض فيها الامة ككل ومصير المجتمع بأسره لأخطار مباشرة .

لذلك كان لابد للعمل الحزبي أن يأخذ شكلين من العمل والنشاط ، أحدهما مباشر يتجلى في صيغة العمل السياسي الذي يحمل اسم الحزب وطابع الحزب المباشرين . أما الشكل الاخر فيتجلى في صيغة العمل الديمقراطي والواجهي الذي ينطلق من الارتباطات المهنية والاجتماعية والفكرية المباشرة للمواطنين كتمهيد لتحقيق الارتباط السياسي وربطهم بالحزب ، أي صيغة العمل الثقافي والمهني وصيغة النشاط المشترك ذي الطابع الفكري أو الفني أو الرياضي أو الديني أو النسائي أو الطلابي أو الفلاحي .. الخ »[١٧] .

في هذه الحالة نجد الديمقراطية لدى البعث ليست صورة سياسية كما هو الوضع في الديمقراطية البورجوازية ، وانما هي خاصة سياسية ملازمة لمضمونها وهذا ما يتجلى على مستوى العلاقة الصحيحة بواقع الجماهير نفسها ومستوى العمل الاجتماعي وتناقضاته الداخلية ، وهذه سمة ذات حراك جدلي يستوعب الواقع الاجتماعي ويرتفع به الى صعيد الممارسة النضالية ، وهنا تولد الصورة والمضمون في سياق واحد بعيدا عن النظام التحكمي الذي أبرزته ديمقراطية اليونان الاثينية وبعيدا عن الرواقية الطبيعية المنادية بالمذاهب الحرة[١٨] التي وجدت في مدنية الغرب الحديثة في بدايتها صورا مباينة لمضامينها .

* من الناحية العملية نجد الديمقراطية الغربية في استقطابين لا ثالث لهما صورة مجردة ينتفع بها خالقو المضمون ويتمتعون بثمار ذلك المضمون من (مال وذهب وآلات ونفوذ وسلطات) وبنية تعزل الجماهير عن المضمون وتجعلها ملحقة بالفريق الاول .. خالقو المضمون .

مستوى الصورة خاص بالمنطق والاعلام ، ومستوى المضمـون خاص بعلاقات الانتاج وفائض القيمة ، ان النزاع بين البورجوازية التي تملك وسائل الانتاج وقوة العمـل والآلات والرساميل الثابتة والمتداولة وفائض القيمـة والاجور والسلع ودوران السلع : التجارة ، وبين الطبقات الاخرى ، العاملة ، والخدمية ،والوسطى (والاخيرة عادة ما تكون متذبذبة) يجعل الاســاس الموضوعي للديمقراطية يختزل صوره ، بل يلغيها ، لأن للصورة ذاتها قوانينها الصريحة تارة والخفية تارة أخرى والمكتومة ثالثة . فالتفاعل بين البنى والصور يخضع لمضامين نشوء الوظائف والاعمال في الديمقراطية البورجوازية .

أما الناحية العملية في الديمقراطية الشعبية لدى حزب البعث ، فنجـد المضمون ليس منعزلا عن صورته اذ تتساوى قيمة العمل الانساني مع التعبير السياسي والاجتماعي والثقافي اضافة الى دور التفاعل بين الصورة والمضمونات بين الوظائف الاجتماعية وعملية نشوئها ونموها وتكاملها .

ان الديمقراطية الشعبية لدى البعث تصل الايديولوجية الثورية بضروراتها من خلال الممارسة للعمل النقابي والمهني والعمالي والفلاحي والطلابي والنسوي واتحادات ونقابات الشرائح الاجتماعية الاخرى كالمهندسين والاطباء والمحامين والمعلمين الخ ، وهذه الضرورة لا تتوسل بوسائل مجردة بتراء مقطوعة الجذور كالديمقراطية البورجوازية ، انها محددة في أحوال معينة تمام التحديد ، فحين لا تحجب الممارسة الثورية أي سحب تصبح الديمقراطية مباشرة دون وسـيط والديمقراطية والبنيات الاقتصادية ــ الاجتماعية تنير المجتمع وذلك ما يجعـل « الشفافية » الاجتماعية واضحة كل الوضوح ، ويزيل « العتمة » التي ولدتها عهود الرجعية والاستعمار .

المبحث الثاني : الديمقراطية المثل الاعلى

ان التحام فكر البعث بالواقع متأت من اعتماده على المعاناة النضالية وصياغة التجارب التاريخية والسياسية والاقتصادية صياغة نظرية علمية « بواسطة المنهج العلمي التاريخي الجديد الذي التزمه ، لذلك كان التحامه بالواقع أقوى من التحامه بالصيغ النظرية .. وبحركة الواقع أكثر من المظاهر السكونية الجزئية السطحية المعبرة عنه »[١٩] .

وبفضل هذا المنهج أوصت الدراسات التي أعدتها مكاتب الحزب بالالتزام الكلي بالديمقراطية « والمهم في هذه القضية هو أن الوضع الثوري الذي ينتج عن الوصول الى الحكم عبر النضال الثوري العنيف يكمن خطر الانزلاق في الدكتاتورية بدون ارادة الحركة الثورية التي تهدف لتحقيق ديموقراطية صحيحة »[٢٠] .

فالديمقراطية الشعبية هنا وان كانت محددة نظريا الا ان الممارسة الثورية تبقى آفاقها مفتوحة على الممكن وهو بالذات التحديد العلمي من الناحية الجدلية ، فأقتلاع « السالب » الاجتماعي والسالب التنظيمي ، هو الذي يولد « الموجب » ويحدده تحديدا دقيقا ، وبالتالي تتحدد الديمقراطية ليس على أساس الحتميات على صعيد ما أنجز تاريخيا ، وبالنسبة للمستقبل فهي تطمح بالكثير وتبدع وتغتنى من خلال قيادة الحزب للمجتمع ، ومن خلال تجاوز ما كان ناقصا في المجتمع نفسه .

* ولو نظرنا الى نظرة الحزب الديمقراطية للتنظيم لوجدنا نظرة انسانية وجدلية في آن واحد ، وهي تطبيق صارم على ـ الذات ـ التنظيم ـ قبل ان تطبق على المجتمع ، ففي التنظيم يسترد الانسان كيانه الذاتي والفردي الواقعي ويتعرف على نوعيته ف « حزبنا مطالب بأن يربى الانسان العربي ، وهذا لا يربى بالتنظيم الآلى ، بل بهذا الاحترام لشخصيته وكفاءة كل عضو ولأخطاء ونواقص كل عضو »[٢١] .

* والكائن الانساني في البعث ــ داخل التنظيم ــ يتخلص من الضياع باتتمائه لقوة اجتماعية ذات فعالية مؤثرة (الشــكل السياسي) عندئذ فقط يتعرف على حريته الانسانية بصورة فعلية ،

« فتأكيد المعنى الجدلي المتكامل للحرية المتمثل بهدف ــ اعادة بنــاء الشخصية العربية وتحويلها الى طاقة حرة مبدعة ــ والتركيز على أن ــ الحرية معركة داخلية وخارجية حاسمة وثورية جذرية ــ وان الحرية تنطلق من النضال من ــ استعادة القدرة على متابعة طريق الثورة في الحياة العربية ــ وكذلك النظرة الجدلية الى علاقة الفرد بالمجتمع والعوامل الذاتية بالعوامل الموضوعية المتجاوزة للمنظارين الليبرالي والجموعي ، والتأكيد على الاساسين ــ الاجتماعي والخلقي ، للدولة في مفهوم البعث • والنظر الى الحرية كعملية ــ تجدد دائم ــ عبر نضال مستمر وجوهري يطلق الطاقات الفردية والجماعية ، ويحقق الوحدة الداخلية للشخصية كل ذلك يعني ان الحرية في البعث هي تعبير عن وعي الامة لذاتها ولضرورات المرحلة التاريخية ، واختبار حر لوسائل تحررها »[٢٢] •

لنلاحظ أثناء قراءتنا لتلك النصوص الفارق الذي يشدد عليه البعث بين الحرية بمفهومها الليبرالي والجموعي التي تجعل الانسان ملصقا أما الى العوامل الذاتية أو العوامل الموضوعية فيضيع الكائن في الديمقراطية الليبرالية في الرمز وفي الديمقراطية الجموعية في الموضوع ، وبين الديمقراطية البعثية التي توحد بين الذاتي والموضوعي •

ان العلاقة بين الديمقراطية والانسان في البعث علاقة صحيحة ، علاقــة « وعي للضرورة كما أنها وعي للذات »[٢٣] بينما تلك العلاقــة في النظــام الديمقراطي البورجوازي علاقة انفصام ، فالدولة تضع الانسان في القمة لكنها تقننه ، ترصفه كرقم من مجموعة الارقام الدائرة في دولابها الكبير ، وبهــذا يكون الانسان أفرادا أو جماعات بعيدا عن ذاته : ذلك لأن الحياة السياسية تكون كماشة سحق للذات ، وتنصب نفسها ــ فوق ذلك ــ اداة مرشدة ومعلمة بوساطة مناقبيات الاعلام والفن والادب التابع لها ، والديمقراطية الغربية قبل

كل هذا سياسة ودولة تباشر الامتياز القانوني ضمن مجموعة من الخصائص الوضعية المميزة .

* وينتج عن هذا أن الناس في النظام الديمقراطي البورجوازي يجدون تناقضا بين الشيء ونواته ، بين الديمقراطية الصورية التي تروج للحرية وحقوق الانسان وحرية التعبير والمعتقد والكتابة والصحافة والخ ، وبين علاقات الانتاج التي تناقض الصورة وتشترط عليها ، فيبدو الشيء ضد نواته ، وتبقى الصورة أقرب الى الحلم .

يمكن تقدير قيمة فكر البعث في الديمقراطية بصورة عامة بملاحظة مفاهيم الديمقراطية في التنظيم الحزبي أولا وفي المجتمع الذي يبنيه البعث في القطر العراقي ثانيا ، ولنلاحظ أيضا ان النواة هنا لا تختلف عن مظهرها ، ومعنى ذلك أن الديمقراطية في المجتمع - أي عند ممارسة او استلام أي حزب للسلطة في أي مجتمع - غير مباينة للديمقراطية داخل ذلك الحزب ، انما هي مرتبطة عضويا ، ومتوقفة التطبيق في المجتمع على - النواة الداخلية - للديمقراطية فالجانبان ملاصقان لبعضهما البعض ، ومتوالدان من بعضهما .

وبهذا فلا يمكن فهم ظاهرة ديمقراطية البعث في المجتمع اذا أخذت بنفسها - لوحدها - بل يمكن فهمها اذا درست بارتباطاتها التنظيمية غير القابلة للانفصام مع محيطها الاجتماعي التطبيقي ، وباعتبار التطبيق الديمقراطي في المجتمع مشروطا بنواته ، والممارسة الديمقراطية داخل التنظيم تكشف حقيقة الالتزام الفكري وجدية ذلك الالتزام ومدى تشبع أعضاء الحزب به وانعكاسه في اخلاقياتهم وسلوكهم « لقد ظهر من التجربة العملية أن قضية الديمقراطية في العمل الثوري تشكل المعضلة التي حملت في احشائها كثيرا من الصعوبات والمتاعب ، فالعمل الثوري من جهة يتطلب مستوى عاليا من الانضباط والطاعة وروح التضحية والسرية في الامور التي يمكن أن تتحقق بدون تركيز السلطة وتحديد المسئولية والاختبار الطويل للاعضاء وبدون الحذر الشديد .. ومن جهة أخرى لابد للحركة الثورية لاجل أن تتقدم وتحافظ على مبادئها ، ولاجل

أن تمنع الاستبداد بالرأي والارهاب والدكتاتورية من تحقيق درجة معينة من الديمقراطية في تنظيمها •

انها تحتاج لكلا هذين العنصرين ، والمشكلة التي تواجهها كل حركة ثورية هي كيفية المزج بينهما دون التفريط بأحدهما على حساب الاخر »[٢٤] •

ويتحدث المناضل شبلي العيسمي عن هذه الظاهرة فيقول « لو رجعنا الى منتصف الخمسينات حيث تمكن الحزب من الاضطلاع بدور اساسي وكبير في اسقاط الحكم العسكري الذي أقامه أديب الشيشكلي في القطر السوري ولاحظنا كذلك ما لقيه الحزب من التفاف جماهيري واسع واقبال كبير على الانضمام الى صفوفه وبخاصة في سورية والاردن ، لوجدنا أن قيادته التي استنزف النشاط السياسي جل وقتها وجهودها ، وقد أصبحت عاجزة عن توفير التثقيف الفكري والسياسي لقواعد الحزب العريضة المتزايدة ، فضلا عن عجزها عن تحقيق الانضباط والتنظيم المحكم لهذه القواعد •• كان من الطبيعي في حال كهذا أن يحدث نوع من الارتباك والفوضى وأن تبرز في الوقت نفسه الحاجة الى المزيد من الضغط والتشديد في تطبيق النظام الداخلي ومعالجة الامور الحزبية •

ومن هنا ظهر اتجاه يطالب بالمزيد من الشدة والانضباط الحديدي والالتزام بالاوامر الحزبية الى حد المبالغة والتطبيق الحرفي ، بما يشبه الانضباط العسكري •• ظنا من أصحاب هذا المنطق أن هذا هو السبيل الفعال للخروج بالحزب من واقعه التنظيمي المتردي وربما كان بعضهم متأثرا بأنظمة ونماذج معروفة لدى عدد من الاحزاب السياسية في أنحاء مختلفة من العالم •

غير أن الاستاذ ميشيل عفلق مؤسس الحزب وأمينه العام كان منذ وقت مبكر قد أشر بعض الاسس والمنطلقات النظرية للتنظيم تعبر عن منحى آخر متصل بفلسفة الحزب وعقيدته وتضفى على التنظيم طابع الاصالة والارتباط بأهداف الحزب الرامية لتكوين الانسان العربي الحر المبدع الخلاق •

ففي عام ١٩٥٥ « قال ان مهمة الحزب غير مهمة الجيش ، والحزب هو مؤلف من افراد أحرار لا يمكن أن يكون آلة أو كالالة • اذن ففكرة التنظيم في حزبنا متصلة بفلسفة الحزب نفسها ويصعب أن نفصل فكرة التنظيم عن الفكرة الاساسية التي تقول بالحرية •• فالعضو ليس جزءا من الحزب • هذا تعبير خاطىء ، العضو هو الحزب بصورة مصغرة ، والفرقة ليست جزءا ولكنها الحزب بصورة مصغرة •••

واذا كان التنظيم على الاسلوب النازي أصاب الالمان بضرر فانه يصيب العرب بأضعاف هذا الضرر »[٢٥] •

وقد عالج المؤتمر القومي الثامن نيسان — ابريل — ١٩٦٥ ظاهرة الديمقراطية في التنظيم وانتقد المعالجات غير المنضبطة « وانعدام المقاييس الحزبية في الاختيار والعمل واحلال المقاييس الشخصية محلها ، وفي الانغلاق على الذات »[٢٦] •

واعتبر المؤتمر نكسة الحزب في ١٨ تشرين ١٩٦٣ ذات علاقة أساسية بتلك المقاييس التي اتسمت باللاديمقراطية وعدم التمسك بالانضباط الحزبي وعدم التمسك بمنطلقات الحزب النظرية ، كما ان اهمال الجماهير — الانغلاق على الذات — كان يخلو « من العلمية ومن فهم صحيح للثورية يتناسى ويتجاهل سياسة المراحل في تحقيق الثورة »[٢٧] •

« وكان هذا الانغلاق في الحقيقة دليلا على عقلية لا يمكن أن تؤدى الى انفتاح على الجماهير • فالذي ينغلق على رفاق النضال لا يمكن أن ينفتح على الشعب »[٢٨] •

ان تعرضنا لهذه المسألة يقودنا الى تعميق الحديث عن مفهوم الديمقراطية ازاء المجتمع ومعاناة التجربة الثورية واستخراج الصيغ الصحيحة من قلب التجربة فقد أكد الحزب منذ نكسة ١٨ تشرين ١٩٦٣ ان الديمقراطية داخل التنظيم هي المقياس الاصيل للثورة والالتزام • وتعد معالجة الحزب لكافة

الظواهر التي ظهرت في التنظيم معيارا لديمقراطيته ووضوحا لظروفه التاريخية والسياسية والنفسية .

« لقد مرت على الحزب ظروف وعوامل كانت تدفعه الى ترجيح المركزية وممارسة المزيد من الانضباط والتشديد ، وذلك عند ظهور بعض النزعات الفردية الانتهازية أو القطرية أو عند ظهور الفوضى والتسيب في منظماته الحزبية لسبب أو آخر ، وقد مرت من جهة ثانية ظروف وعوامل أخرى دفعت الحزب لترجيح الديمقراطية والتركيز عليها . وحدث هذا في الفترات التي كانت تظهر فيها محاولات التفرد والاستخفاف بمبدأ القيادة الجماعية من بعض القادة وكذلك في نهاية عهد الوحدة بين مصر وسورية وبعد انفصالها حيث تبين لقواعد الحزب أثر الممارسة الفردية بانتكاس الوحدة وبتعطيل دور الجماهير .

ومهما يكن من أمر فان التمادي في استخدام المركزية على حساب الديمقراطية يقود الى منزلق الممارسة الفردية والدكتاتورية وهذا بدوره يؤدي الى ظهور الباطنية والنفاق والانتهازية والتكتلات التي تنفجر عند ظهور الفرص السانحة وحتى في حالة السيطرة عليها يستمر ضعف الشعور بالمسئولية بين الاعضاء ويفقدهم الجو السائد .. حرارة العمل والنضال . ويستل منهم روح الاندفاع الطوعي ، ويقتل فيهم عنصر المبادرة والابداع فيتحولون الى مجرد أدوات ضعيفة »[٢٩] .

* من هنا فان أي نمط من أنماط السلوك المعادي للديمقراطية غير صالح في التنظيم ، ولعلنا نجد هذه ــ الجوهرية الديمقراطية ــ وثيقة العرى في الحزب حتى في الظروف الصعبة . وهذا تمسك بالاقطاب الفكرية والمادية . وليس هذا افتراضا أو خيالا ، انما هي طاقة فعالية أثبتت التجارب صدقها ، أما الافتراض الزائف للديمقراطية فيجد في الوصف متعة أعلامية وفي النظرية تفسيرا للوصف ، وهذا بحد ذاته كذب حتى على النظرية ــ اذا كانت تلك النظرية علمية ــ كما هو الحال في الكثير من الاحزاب ..

* ولا شيء يمكن أن يوضح خطر الانفصال بين النظرية والواقع في مسألة الديمقراطية لدى الاحزاب والحركات الثورية اكثر من الارنباك الحاصل من التخلي عن المنطلقات النظرية • اذ أن حقيقة النظرية تكمن في علاقة الحقيقة بينها وبين الرابط الموضوعي ، وذلك الرابط هو الذي يعتبر قيمة ذاتية للنظرية نفسها ، فتكون النظرية حقيقة عندما تنكشف قيمتها الذاتية موضوعيا ويكشف نموذجها الواقعي عن تطبيق مسند الى النظرية ، لكنه يكمل جوانبه ويمتلىء بمختلف النشاطات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية بمقدار طاقته في تمثل تلك المستويات التي يبرزها المجتمع وعوامله المركبة ، وبمقدار كون تلك الطاقة قادرة على تطوير مستويات المجتمع ثوريا ودفعها الى الاحسن •

والديمقراطية في البعث على مستوى التنظيم ليست ذات رابطة موضوعية وذاتية فحسب ، حسبما أثبتت التجارب والمحن والنكسات والانتصارات • انما هي اتحاد بالجانب العملي للشعب أيضا ، فقـد اتحـد الجانب الموضوعي لديمقراطية البعث بعد ثورة ١٧ تموز — يوليو — ١٩٦٨ من خلال التعامـل الثوري الديمقراطي والانجازات الكبيرة والمكاسب الاقتصادية وهذا تشابه بين الحقيقة النظرية وبين كينونة العمل الثوري الرابط الموضوعي لهويـــة البعث • والهوية تتجلى عندما توضع النظرية موضع التطبيق •

المبحث الثالث : الديمقراطية في الممارسة

فعل التطابق الديمقراطي بين النظرية وصيغ التطبيق مر بأساليب عدة اذ ان المرحلة الابتدائية للتجربة في البعث موصلة بواقع المراحل كما أن معظم النهايات أو معظم معالم النمو تتعلق بالبدء، بيد أن المراحل اللاحقة تكون أبعد غورا لسبب بسيط وواضح وهو أن الحالة النظرية تتمخض عند التطبيق على جانب الاحتواء الاجتماعي فتتسع القاعدة • وهذه الوضعية تجعل الحقيقة النظرية تطابق الواقع شيئا فشيئا ، مع اختلاف في الدرجات والانماط • وبالديمقراطية ميزت الحقيقة النظرية نفسها بصدقها ذاته بوساطة تغلغلها في الواقع والاقتراب

منه أكثر فأكثر ، وجذب الواقع اليها ـ مع استثناءات تقتضيها الظروف ـ وهذا تأصيل للاستمرارية والأستدامة وتأصيل للتطابق بين الحقيقة والمظهر .

« والذي يبدو هو أن البحث النظري وصياغة النظم الداخلية لا يكفي لحلها ـ يقصد المسألة الديمقراطية »[٣٠] .

اذ « أن مسألة الديمقراطية من المسائل بالغة التعقيد ، وتبقى بحاجة الى الرعاية منكم جميعا كل من موقعه وبالممارسة الصحيحة لها .. حيث لا يكفي أن نهتم بها اهتماما نظريا ، لان حزبنا لم يعد حركة ثورية سرية يتعامل أعضاؤها مع المواطنين ويتفاعلون معهم أو يوعونهم بالاساليب المعروفة في العمل السري. وانما أصبحت المبادىء موضوعة على المحك ، صارت في التطبيق ، والتطبيق بحاجة الى وعي خاص.وبحاجة الى رعاية،وبحاجة الى معاناة،كل واحد منا عليه أن يتذكر بأن الممارسة الديمقراطية لا تأتي عن طريق ممر واحد ، كما أشرنا في بداية الجلسة وانما يجب أن تكون بممرين ، الادنى في علاقته مع الاعلى ، والاعلى في علاقته مع الادنى ، أي يجب ان يؤمن الادنى مع الاعلى بالممارسة الديمقراطية ويطبقها ، لا لأغراض أو لظروف آنية ، وانما بوصفها أحد القوانين الاساسية في الثورة ومبادىء الحزب ، اذ ان بعض المواطنين وبعض الحزبيين لا يذكرون الديمقراطية الا عند ما يظلمون من الجهات الحزبية أو الرسمية الاعلى منهم مرتبة .

ان كل واحد منا عندما ترتج مفاهيمه في ممارسات الصيغ الصحيحة للديمقراطية وللعلاقة بينه وبين الناس الذين يعملون بمعيته ، والذين هم أدنى منه في الواقع الوظيفي أو الحزبي ولا يعالج ذلك ، معالجة صحيحة ، بالعودة الى أساليب وصيغ الديمقراطية . ومنها العمل الجماعي . فانه لا يكون ثوريا حقيقيا ولا مبدئيا صميميا »[٣١] .

* نجد في هذا النص مفهوما للحقيقة يتطابق مع مظهره دون أن يترك الجوانب المركبة ، الجوانب المعقدة من مسألة الديمقراطية ، فهو يتوغل في العمق

ويكشف عن النموذج الجزئي الذي هو نواة النموذج الكلي الشامل ــ التعامل مع الشعب ــ فعلاقة الادنى بالاعلى ، والاعلى بالادنى هنا نمــوذج مصغــر لمدركين أساسيين ،

المدرك الاول : العلاقات بين الحزبيين وما تتضمنه من مواقف ذات تماس بالواقعيات الملموسة .

المدرك الثاني : العلاقات بين الحزبيين والشعب ، وهذه العلاقة مركبة ولا تحتمل الحصر ، لأن كل حصر فيها هو حصر مضلل ، وهكذا فالمدرك الاول يعطينا نموذجا للقيمة الموضوعية والذاتية باعتبار العلاقات بين الادنى والاعلى، والاعلى والادنى يجب أن تكون علاقات نموذجية ، بعد حذف عناصر الارتباك وشطب عناصر اللاموضوعية .

أما المدرك الثاني فيعطينا التعامل كأسلوب حياة ، التعامل ضمن واقعيات معاشة وملموسة وتحمل المعاناة والجهد في تحويلها وتثويرها،والادراك الملموس لكل مظاهر الواقع والمعاناة لغرض التحويل ليس محفوظا ذهنيا ، وانما هــو قطب نظري وقطب تطبيقي يراد به تغيير الموجودات الممكنــة الى موجودات عملية وفعلية .

* هنالك تتميز ضمن أي نمط من أنماط العلاقــة تبــدو الديمقراطية بمظهرها الفعلي داخل وعاء Receptacle البعث . وذلك التمييز يخضع للتقدير لا بقفزة الخيال وانما بمدركات النظرة الثورية العلمية « في أي وقت وفي أي مكان ، على الثوري ــ بالاضافة الى الاعتبارات المبدئية التي يجب أن لا ينساها ــ أن يتبادل الموقع ، مجازا ، مع الادنى ، فيقلب الصورة ، ويتصور نفسه عندما يكون هو الادنى موقعا ، وهو المظلوم ، هو المدير العام ، وليس الوزير ، وهو المواطن وليس مديرا عاما ، وهو العضو الحزبي في الرتبة الادنى، وليس الآخر الذي في الاعلى ، ويتصــور كيف يمكــن ان يعالج مسألــة العلاقة »[٣٢] .

* في هذا المقتطف من الرئيس القائد صدام حسين نجد المثل الذي ضرب في أعلاه متطابقا مع المدرك الموضوعي للديمقراطية ولذلك فهو يتضمن دلالات ذاتية ، فالانماط المضروب بها المثل مظهر واضح وبارز في المظهر العيني ، وحقيقة النمط تلك مباشرة وفعلية ..

ولما كانت مباشرتها تجعلها في موقع المسئولية فانها شكل من أشكال الموجود الذاتي للحزب المشتمل على تفسير « الفكرة » بتعبيراتها ، بسلوك أعضاء الحزب وانصاره ، وبهذا المعنى فحقيقة الوصف واضحة يراد بها — التطابق مع المحتوى الموضوعي .

ان الحصول على مثل هذا التطابق يخص ليس جدلية نظرة البعث في الديمقراطية حسب ، بل يخص التنظيم الجماعي والافراد المنخرطين فيه بوجه خاص ، وليس ذلك متأتٍ من نظرة توفيقية كما هو الحال في الاحزاب الفاشية، وانما متأتٍ من كون الديمقراطية السياسية في البعث تشتمل على التماثل بين الفكر والسلوك .

وبمقارنة ديمقراطية البعث مع ديمقراطية الدولة الجموعية المعتمدة على الفلسفة الماركسية نرى تلك الاخيرة تطالعنا بارادة الدولة التي يختزل فيها الحزب دور الطبقة والشعب وتختزل اللجنة المركزية دور الحزب ، ويختزل القائد دور اللجنة المركزية . تجلى ذلك في العهد الستاليني وفي عهود أخرى ، فمؤسسات الدولة الجموعية التي هي من قبيل التمثيل السياسي والمهني والنقابي والاجتماعي تنقح الافراد وتنقح النشاطات ومن تنقيح الى آخر نصل الى التجريد الذي تضطلع به القيادة لتحقيق مركزية صارمة يتحول فيها العمل السياسي الى عمل واقعي بحت . فتصبح النظرية الفلسفية عكازا يتوكأ عليه القادة ويستنبطون منه مجموعة آراء انشقاقية تلائمهم مما يؤدى الى وضع يحمل النظرية والاجزاء الخاصة بالتطابق على الرف .

وتشترك الوقائع التاريخية المستجدة والواقع الاجتماعي المشخص والطابع المجرد للاستيعاب النظري والتصورات المدعمة بمواضعات محسوسة على التجريد الفلسفي القديم للنظرية ، مما يطبع الواقع بطابع التراص والهدفية الملحة التي لا تعير وزنا للديمقراطية[٣٣] بل لا تعير وزنا للنظرية التي تدين بها في جانبها الانساني •

ويبدو ان المنزلق الديكتاتوري سهل وبسيط في حالة كون القيادة طموحة الى حد تجسيد عبادة الشخصية وعبادة الفرد ، وهنا لا تبدو في صميم التنظيم عقلانية واضحة تنعكس على المجتمع ، بل تصبح العقلانية ــ منظمات مهنية محترفة وبيروقراطية دولة واجراءات بوليسية •

وهنا تصبح الديمقراطية في الداخل ــ التنظيم ــ الخارج ــ المجتمع ــ مقولة جوفاء تستمد المواضعات من العمل السياسي والعمل الانتاجي ليس غير ، ضمن تصورات خادعة لبلوغ الكلية المنجزة •

● وفي موقف انساني معارض للمفهوم الستاليني نجد ديمقراطية البعث ترتكز على ديمقراطية حقيقية فيقول المناضل صدام حسين « من السهل استعمال المطرقة في الصناعة واستعمال الفأس والمسحاة في الزراعة . أما التربية فلا مجال فيها لاستعمال طريقة الفأس والمسحاة والمطرقة ، لأن الجهد كله يتركز أحيانا في جزء من ريشة الفنان »[٣٤] •

وريشة الفنان هنا بمعناها الانساني تجد التعبير في فعاليات التنظيم ذاته أزاء نفسه ــ كتنظيم ــ وازاء المجتمع • وبهذا يمكننا اطلاق تعبير الجمال في الديمقراطية البعثية فحين يتعامل الحزب وتتعامل الدولة مع المجتمع ومع الجيل الجديد بريشة فنان • يلزم الحزب نفسه وتلزم القيادة نفسها بمدركاتها وحين يتم التعامل بهذه المدركات يكون الشكل البسيط من الجمال التربوي للديمقراطية البعثية التي تضاف اليها مجمل التعاملات الانسانية في المجتمع •

فالعمل الديمقراطي ينشيء تركيـزات الشـعور بالواجب ويربط ذلك، الشعور بالحقوق ، واذا كانت هناك تعارضات فان هذه التعارضات يتم استيعابها بالسلوك وكمال التوافق العملي بمقاييس تأخذ بنظر الاعتبار نسبية الوسائل الذاتية الامر الذي يؤدي الى انسجام التركيب النهائي مع تراكيب الاجزاء .

هنا نجد عاملين أساسيين ، الاول : تنوع التفاصيل في التعامل ، والثاني : القدر النسبي للزمان والمكان والاوضاع الاجتماعية والاشخاص والتنـوع النوعي .

في المجال الاول يجد الحزبي نفسه في آفاق التعامل الاجتماعي معتمدا على أسلوب المرونة فيدفع ضريبة من سلوكه أو كما يقول المناضل صدام حسين « أما السلوك فان ضريبته ما زالت مستمرة ، وان تغير شكلها ، وهي ضريبـة الانسجام مع الجماعة ، على حساب الخصوصيات المتعارضة مع مسيرة ومصلحة المجتمع والتي يعبر عنها ـ بكذا ـ في الميدان الاشتراكي ، و ـ بكذا ـ في ميدان التربية الوطنية أو في ميدان النضال القومي . لذلك نـرى أنـه ليس بالضرورة أن يقود الانسجام في الافكـار الى كل الصـورة المطلوبـة في التفاصيل »[٣٥] .

هذا التصور كل واحد للحقيقة الديمقراطية ، فهو يشف عن الطواعيـة المتضمنة للسلوك أو الجانب الحياتي من عنصر التنوع في التعامل الديمقراطي ، ولذلك فهو ليس قناعا او حجابا للصورة كما هو الحال في ديمقراطية النظام الرأسمالي انما هو تكيف مع المواضعات الاجتماعية بأساليبها من أجل تصعيد الفهم الثوري ، وقد لاحظنا أن الرئيس القائد صدام حسين في تحديده للعلاقة بين الادنى والاعلى ، والاعلى والادنى ـ فيما سبق من سطور ـ قد انتقد ما يسمى بالكيان القائم بذاته حسب تعبير الفلاسفة[٣٦] ودعى الى الفعالية الثورية في التعبير عن قضايا المجتمع في التصور والسلوك ، وتعيينه هذا مستمد من نظرية البعث التي تؤكد ان لا انفصام بين مصلحة الحزب ومصلحة المجتمع .

وقد ذكرنا هذه المسألة عدة مرات لكننا نذكر هنا أن ما يجعل الديمقراطية في البعث ممكنة اجتماعيا ليس عامل الاجبار أو القسر ، انما الطواعية والاقناع وهذا المبدأ العام يعتمد على المشاعر المتطابقة مع العمل ، والعمل نفسه يتجلى في السلوك ، والسلوك ذاته لا يمكن أن يكون صحيحا اذا لم يدخل الموضوع المدرك في الانسان كوعي ، والمحتوى الموضوعي للسلوك لا يعيش على سطح التجربة ، بل يستمد من أعماق الوعي والتجربة معا وهذا جزء من نظرية الديمقراطية في البعث •

الثاني : وهو القدر النسبي للزمان والمكان والاوضاع الاجتماعية والاشخاص والتنوع النوعي ، متعلق في الصفات التي تكشف عنها التجربة ومتعلق بالامكنة الاجتماعية المتفاوتة التركيب والمتباينة الابعاد ، ويتبع ذلك الشكل النوعي من المصالح والاشخاص التي قد تتطابق مع البعث تطابقا ابتدائيا ، لكنها في مدلولها العام لا تقبل الانصياع لانها لا تستطيع بسبب مصالحها الاجتماعية او الطبقية تمثل ديمقراطية البعث وايديولوجيته ، انها تريد أو تطلب تعاملا رياضيا مجردا يرسم الثورية على الورق ويجعل المربع قائما على مجموع التعدد الثلاثي • ومثل هذه النماذج تتألف في التعامل المجرد، وتخبو في التعامل الموضوعي ، لكنها جزء من الواقع •

ويحدد الرئيس صدام حسين كل هذه الامور التي فصلنا بعضها بايجاز مكملا حديثه الذي اقتبسنا منه ما سبق قائلا « أما في التفاصيل فاننا نجد بعض القصور أو عدم التطابق بل وحتى التناقض ، قد نجد البعثي الذي لا يتعارض معنا في فهم الاشتراكية • الا أنه يفترق عنا ، عندما تهدد الاشتراكية مصالحه أو رغباته حيث بدأ الافتراق ويبدأ الخلل الذي يكون على حساب الخلق العام ، وليس على حساب مبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي فحسب ، ومن هنا ندرك تماما ان الحزب مدرسة لاستزادة الحصانة •

الا أن الوطنية لا تكون وقفا على المنتسبين الى الحزب •• والاخلاص لا يكون بين أعضاء الحزب وحدهم ، ولكن مثل هذه الحالة تشبه الامتحان في بعض جوانبها »[٣٧] •

* تظهر نظرية التطابق في الجانب النوعي من محتوى المدلول الموضوعي ويتبع ذلك أن الشكل يتبع مضمونه ، لكنه ليس دائما مطابقا في اللون ، اذ ان اللون أحيانا نتيجة مركبة من عدة ألوان كما هو معروف في الطبيعة والفيزياء •

من هنا جعل المناضل صدام حسين الوعي والوطنية مقياسا للشكل الذاتي والموضوعي ولم يجعلهما وقفا على الحزبيين ، أما النجاح في القياس فليس دائما هو الامتحان ، وان بدا الامتحان جزءا من القياس ، ذلك أن مربع العقل ليس دائما تربيع للعاطفة على حد تعبير علماء الرياضيات »[٣٨] •

لكنه أكد أن « صيغة التعامل الديمقراطي صيغة مبادىء وسياقات عمل »[٣٩] ، وهكذا ما عدا الوعي الخاص والنوعي لدى القيادة ، فان الوطنية والاخلاص لا تأخذان نموذج الطراز الرياضي وما يتعلق بالرياضيات من معادلات ، كما أنه لا يمكن جعل ــ الامتحان ــ مجردا في مناسبات القياس ، اذ أن الامتحان يكشف عن الالتزام بوساطة الفعالية باعتبار تلك الفعالية المدلول القياسي • لكنها يمكن أن تجرد من نمطيتها عندما تصطدم بمصالح بعض الافـراد •

وعلى كل حال فالتكوين الذاتي للديمقراطية يمر من خلال الادراك ومن ثم الفعالية العملية باعتباره ــ وعي ــ ومباشرية واقعية •

المبحث الرابع : الديمقراطية في عملية التكوين

عملية التكوين الديمقراطي كما أثبتت تجارب الشعوب والنظم تحتاج الى انسجام عقلاني بين منظومة الهيئات والمؤسسات والشعب • فعندما تمر بضعة عقود من الزمن على الاستقرار السياسي تصبح التصورات الاجتماعية ناجحة

بعد أن تتوطد الاشكال الذاتية للنظام وتكون اسهاما في الحقيقة ، عندئـذ يتحول المدرك الاجتماعي الى موافقة شعبية ليس بفعل العادة المألوفة كما في التقليدية ، بل بفعل استقرار الشعور الشعبي في الممارسة العملية للديمقراطية •

وبسبب كون كل جزء من أجزاء المدلول الديمقراطي يولـد التطابـق الموضوعي ليس بعوامل التكرار ، وانما لأن الموضوعية دخلت في الشـعور الشعبي كمسلمة يقينية •

وهذه النظرية أقرب الى الثورية • ويمكننا تسميتها بالنظرية الاولى ، أما النظرية الثانية ، فهي تختلف كل الاختلاف عن سابقتها ، لأنها تعتمد عـلى السلطان العاري الناتج عن الاستقرار القسري اعتمادا غير محدود ، وعـلى الاحساس بالسلامة من قبل النظام ، بعد تصفية الخصوم وتغيير أسس الواقع والارتكاز على نظريات أقرب الى نظريات الكنيسة ، فيبدأ النظام بانشـاء مؤسساته اعتمادا على سلطان السيف ، الذي أصبح بفعل قوة العادة القاهرة مستقرا •

❋ وهذا النموذج قد لا يكون محتاجا الى الديمقراطية بأي مفهوم كان ، بمقدار حاجته الى توكيد ذاته عبر مؤسساته ، كما فعل **يوليوس قيصر** وكمـا فعل**العثمانيون** الذين كانوا قد تقمصوا المعتقدات الدينية الاسلاميـة واعتمـدوا على وحدة الرأي العام الاسلامي ، ولهذا الشكل •• نتيجتان متعارضتان ، فأما أن يصرفه احساسه بالسلامة عن ارسال دعائم مؤسساته ، وهذا ما يقوده الى اعتماده على العادة المتبعة ونسيان فعالية مؤسساته فيصبح غريقا في المألوف ، وأما ان يلجأ الى الطغيان السافر مستمدا التحديات من ذاته فيفجر تناقضات معينة يطمح بها الى كسب التأييد الشعبي راكبا موجة معتقدات معينة •

وفي **النظرية الثالثة** :ـ نجد الانظمة التي تستمد الحوافز من التحديـات الخارجية تسعى الى بناء مؤسساتها وديمقراطيتها الخاصة طبقا للمبالغـات المضخمة من الخوف من العدو ، فيكون الدمج القسري للاشكال الذاتيـة

(المؤسسات) والشعب ، موضوعيا ، وقد لاحظنا هذه الظاهرة في العهد الستاليني وفي عهود أخرى قديمة ومعاصرة ، مما أدى الى الاستقرار وأصبحت المؤسسات الحاملة للطابع التنظيمي لا تحمل التطابق بين الحقيقة ومظهرها •

فالتنظيم وان كان مستمدا من فلسفة مسبقة ، الا أنه واقع تحت التأثير المباشر لارادة الموضوعات المفروضة ، والمتطلبات والمستلزمات العملية •

ونجد في كلا **النظريتين الثانية والثالثة** : انفصاما بين الخاص والعام وما يؤيد ذلك الانفصام هو التصدع الانساني الذي يبرز ظاهرة نفسية معينة وتكون الظاهرة السائدة ، ديمقراطية الاجهزة الحاكمة ومؤسساتها ، **اما الشعب فتقع كينونته النفسية في مضمون يقع خارجه** • فنزع الصلة بين الشكل والمضمون يفترض أن أحدهما يعلو على الآخر ، بمعنى ان النظم التي على تلك الشاكلة ترى روحانيتها (لا يقصد بالروحانية الدين هنا وانما المثال — في منظماتها المحترفة) بينما ترى تلك المنظمات في ذاتها واقعا موضوعيا ملموسا ، ثم ان تلك المنظمات والمؤسسات في كنف مجتمع كهذا تكون بيروقراطية دولة تمثل مصالحها • وفي الدمج بين المنظمات والمؤسسات والشعب ، يصبح الشعب نفسه ارقاما من جماعات وفئات مهنية وحرفية واجتماعية • وبذلك تتمكن الدولة من الاندماج بالشعب وتتصل به بوشائج وثيقة ، فتصبح النتائج أسبابا، ويصبح الشعب كله — مجموعات هيمنة — •

* يجب علينا الان أن نميز بين معاني هذه النظريات أو النظريات الثانية والثالثة وبين نظرة البعث في عملية — تكوين الديمقراطية — فمفهوم البعث « يدعو مفهوم — الطليعة — الاشتراكي الى اعتبار الجماهير جوهر الثورة والديمقراطية ، ويؤدى الى انفتاح واع متواضع عليها ، يعمق الصلات الحية مع الجماهير ويدفع بها في طريق النضج عن طريق التفاعل المتبادل الودي الذي يعتبر الشعب منبع الحكمة ومصدر الثورة »[٤٠] • بيد أنه علينا أن تتجنب اعتبار ذلك نهاية المطاف الذي ينفرد به البعث ومعاملته كوحدة نصية مطلقة او

كيانا قائما بذاته خارج الزمان والمكان ، فالمقصود أن كل وحدة نظرية مؤلفة من عناصر مختلفة تتغير تغيرا محدودا لكنها غنية بالتقارب النهائي ، وبخاصة في مسألة الديمقراطية ، فالديمقراطية الشعبية بحاجة الى جدل مستمر بين الركائز الشعبية والبنى الفوقية فهناك عمل متبادل كما جاء في النص أعلاه (التفاعل المتبادل الودي) وهذا ما يخولنا القول أن التمحور حول مصدر واحد في مسألة الديمقراطية في البحث لا يفي بالغرض .

ينجم عن ذلك تعقد العلاقات الاجمالية بين المجتمع والمؤسسات اذ ان التفاوت بين التطور الاقتصادي والتطور الثقافي يقود الى امكانية التناقض بين الطرح والواقع . أعني الحالة الاجتماعية التي تنكر ضرورة التطور الديمقراطي تصبح عالة على القيادة والتنظيم ، وهذه حالة تصيب الجماهير التي تكتفي بالمفاهيم دون الفعالية العملية وهناك حالة أخرى وهي تحول التنظيم الى حالة رسمية لا تزدهر الا في المناسبات وقد لاحظنا في تجارب بعض الثورات العربية مثل هذه الحالة[٤١] .

من المسلم به ان امتلاك التنظيم للتشخيص السياسي والاقتصادي والثقافي الصحيح هو امتياز فكري . ولكن ليست العبرة بذلك انما العبرة في تلازم الفكر مع التطبيق وهذا ما يميز التنظيم الثوري عن التنظيم البورجوازي .

وفي مسألة الديمقراطية تتعقد الامور اذا انساب التنظيم وراح يتقوقع داخليا أو يتدجن فيصبح مكتفيا بالشعارات ، فحالة الوهن التي تصيب لمجتمعات مردها الى أن الطليعة ركنت الى مكتسبات جزئية ، والجماهر بدورها تصبح مترهلة وكسولة اذا انفصل وعيها عن التطبيق وترتكس في حالة الوعي الزائف « فالحزب من دون ارتباط حي بالجماهير هو مجرد زمرة من المثقفين وقلة من العمال منفصلة عن القاعدة الشعبية . وبالتالي عاجزة لوحدها عن تحويل المجتمع »[٤٢] .

* هذه القاعدة تجعل الديمقراطية لدى البعث مرتبطة بالمرحلة ، فعلى نضوج المجتمع ثقافيا وتطوره اقتصاديا، وعلى قدرة التنظيم السياسي في التوغل في قطاعات المجتمع والوعي الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية والانسانية تترتب المبررات المسألية للديمقراطية ذاتها ، بل ان تلك المبررات تنزع الى البحث عن مكوناتها ليس بوساطة الصور النظرية فحسب ، وانما بوساطة المضمون التي تحققت أجزاء كثيرة منه اضافة الى مسببات التنبؤ بالمستقبل القريب نتيجة لمستبقات الاحداث . فأعتمدت المضامين الديمقراطية على المرحلية وعلى طبيعة كل فترة زمنية وأسسها الاجتماعية وتشريعاتها وحدودها العملية ضمن ظواهر نشاط التنظيم وتفاعل المجتمع في اطار الخلق العام وفي اطار عملية التغيير الثوري .

وكما هو معروف « ان الغاية من العمل بين الجماهير تختلف وفقا لطبيعة المهمات الثورية المطروحة على الحركة الثورية في مختلف أطوار النضال ومراحله كما أن هذا العمل يتنوع ويتمايز داخل الطور نفسه او المرحلة ذاتها ، وفقا لطبيعة الطبقة ، التي يعمل الحزب في صفوفها فلكل طبقة شعبية خصائصها ، ورغم أن العمل بين مختلف الطبقات الثورية من الشعب يصب كله في مجرى عام مشترك واحد ، فان كل ميدان من هذه الميادين له صفاته وأساليبه وشروطه الخاصة »[٤٣] .

* الديمقراطية اذن كينونة مستمرة في الخلق الاجتماعي العام في التشريع والادارة والانتاج والواجبات والحقوق العامة والتحويل الاشتراكي وبناء القاعدة الصناعية والتطور الاقتصادي اذ أنها لا تسير في الهواء أو بمنطاد الفكر فلا بد من أرض تحط عليها وتعيش فيها وتتنفس هواءها برئتين نظيفتين ،.. صحيح أن الحاجات والافكار هي القوة الدافعة للحرية ، لكن العوامل المادية والاجتماعية وعوامل الخلق الثقافي هي التي تتحكم بالحرية وذلك هو الانسجام

العضوي المتكامل الذي يوفر المناخ للديمقراطية البعثية في طور الحيز الاجتماعي العـام .

هل من حاجة الى القول أن العمل الثوري والنقد الجـذري السـياسي والتحويل الاقتصادي الذي حققته الثورة ، هو نقد مقترن بالتحليل الاجتماعي يقوده التنظيم السياسي ـ الحزب ـ الذي هو الآن الادارة الذاتيـة الشعبيـة للديمقراطية المعممة ؟.. أجل أن ارتقاء العمل الثوري الى هـذا المستوى هـو ديمقراطية شاملة ، والضمانة الكافلة لذلك هي أن الحزب والثورة ينظران الـى المواطنين نظرة مطابقة للجميع « ومن هنا القول أن كل مواطن مخلص لوطنـه ، ويحب شعبه وعمله ويحـرص عليهما ويؤمن بالثـورة هو بعثي على طريقته الخاصة »(٤٤) .

● لقد جاء في المادة الخامسة من الدستور بأن « الحزب يؤمن بأن السيادة ملك الشعب وأنه وحده مصدر كل سلطة وقيادة » .

وبطبيعة الحال فان الغاية السامية هذه صائرة الآن ضمن كينونتها التاريخية من خلال ما أنجز وما سينجز ، والحزب والثورة في هذا الاطار لا يريد اسـباغ الهوية المستقلة على ديمقراطية البعث ، أعني لا يريدان افراد الديمقراطية كشكل مستقل عن ارتباطاتها العملية ومجالات التحول الاقتصادي والسياسي والثقافي . ولا يريدان أيضا جعلها مسألة رصد اختباري ظرفي ، تستخدم عند الحاجة ثـم تطرح جانبا ، انما هي ضرورة لتقرير المصير النهائي للشعب العربي ، فهي حالـة الكل عند تجميع اجزاء النضال ، لكنها تظل حالة متطورة تجتاز عوامل التردد والخسارة . « ان بعض الممارسات الجديدة التي نقوم بها ، ، لابد من أن نقبل معها قدرا من الخسائر من أجل أن نتوصل الى انضاجها ، وبخاصة في مسألة كالمسألة الديمقراطية »(٤٥) .

وهذا توكيد من المناضل صدام حسين على ان الديمقراطية هنا أمر مشخص بشكل نوعي فالعـراق بلد نام مجمـوع العلاقـات الاجتماعية فيه عبـارة عن ترسبات قبلية ـ عشائرية ، اقطاعية ، وشبه مدنية ذات تكوين تجاري في بعض اقسام المجتمع،وخصائص بيروقراطية في اقسام أخرى ، ووظيفية في اقسام ثالثة ، ورأسمالية في اقسام رابعة ، الى جانب ثقافات ليبرالية واشتراكية وحتى

نهلستية ــ عدمية ــ وازاء هذا الوضع ، تنعكس هذه التركيبة في الحــزب القائد وتنعكس ايضا في الوضعية الاجتماعية كروحية وتعامل يومي ، لذلك كان حزب البعث والثورة ينوءان تحت ثقل ثقيل نتيجة الواقع الاجتماعي ، وقد عملا الكثير من اجل تغيير هذه البنية الاجتماعية لكن العادات والثقافة والافكار القديمة عادة ما تتأخر عن التحولات الاقتصادية « وهذا يخلق مخاطر وقــوع قطاعات من الجماهير تحت تأثير الدسائس الرجعية الماكرة التي تتستر وراء واجهات دينية أو طائفية أو عنصرية وغيرها »[٤٦] .

ولكن هل معنى هذا .. الانتظار حتى يتطور المجتمع ويصبح مدنيا، ومن ثم تطبق الديمقراطية البعثية بشكلها الشمولي العام ؟.

يجيب على ذلك الرفيق صدام حسين قائلا : «سوف تبقى الديمقراطية من أكثر المسائل تعقيدا ، ومن اكثر المسائل التي تشغل الفكر الانساني والفكر السياسي والصيغ الدستورية الان وفي المستقبل ، في العراق أو غير العراق ، لأن المسألة الديمقراطية مسألة انسانية في الوقت الذي هي مسألة سياسية كبرى وهــي مسألة مركزية في نهج عموم الانظمة التي ترعى النهج الديمقراطي وتهتم به في الحلقات العليا للدولة وكل المفاصل الاخرى ، وكذلك في العلاقات مع الشعب ودوره التاريخي في بناء المجتمعات[٤٧] »،. وبصورة عامــة فان الديمقراطية ممكنة التطبيق كما تدل الوقائع والسياق النظري للبعث والثورة(*) ومجموعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية . فالممارسة الثورية تنطوي على تغيير الواقع وهذا بحد ذاته انتزاع الطبقات والفئات الاجتماعية من القديم المتهرىء وكل ما هو مبتذل وسطحي ودفعها الى الامل والرغبة في استخلاص عالم نام ومتطور، انها ثروة ديمقراطية حقيقية . فالانتشار الموضوعي للتطور بسماته الاقتصادية والفنية والثقافية يعطى قوى الكائن الانساني ارتقاء خاصا .

---

* كانت الانتخابات الديمقراطية التي جرت في ٢٠ حزيران ١٩٨٠ لانتخاب اعضاء المجلس الوطني اصدق مثال على ذلك

المبحث الخامس : الديمقراطية ومفهوم « الاقتصادية »

تشتمل المفاهيم النظرية للنظم على منظومات فكرانية ــ قلنا فكرانية ولم نقل فكرية للتعبير عن الافتعال الفكري ــ مثل مفهوم (الاقتصادية) وهذه الاخيرة عبارة عن اكتفاء البناء الفوقي بالبناء التحتي ــ الاقتصادي وما يحققه ذلك البناء الذي يضم قطاعات الانتــاج والنقابات والاتحادات والمؤسسات والهيئات والجمعيات الفلاحية والشعبية بشكل عام • ومجمل المجادلة القديمة والحديثة بين التيارات والمدارس الاشتراكية حول مفهوم ــ الاقتصادية يرتكز على كون الدولة ومنظماتها هي البديل عن الديمقراطية الشعبية •

وهناك نقطة نزاع أساسية حول هذا المفهوم تنطلق من تجريدات غير علمية ، تحاول مثلا احلال الحزب محل الشعب ، أو أن ينوب الحزب مناب الشعب ، وبالتالي تنوب المنظمات والمؤسسات المهنية والنقابية مناب العمــل السياسي • ولنلاحظ جيدا أن مفهوم (الاقتصادية) هذا يحول الشعب الى (سلعة) في مضمار التعامل والانتاج في الميدان الاقتصادي ، أما الصعيــد الايديولوجي ، فتنوب الشعارية مناب الواقع المحسوس ذلك الواقع الذي يحتوي تنظيما أو تنظيمات سياسية تتحول بفعل ذلك التحليل الى ــ سلعة ــ أي شيء مجرد ، بمعنى أن التنظيم السياسي أفــرادا وجماعات تتعامل معــه ــ المجموعة المهيمنة ــ في حركة مطردة يستعاض عنه بعضه بعضا ، ويستهلك فيه الانسان المناضل كما تستهلك السلعة أو الآلة فتطرح جانبا وتتحول الى « خردة » « سكراب » •

ما الذي ينجم عن ذلك ؟ ينجم عن ذلك تنظيما سياســيا **مقموعا بذاته** ، أو بجملة الاساليب والصيغ التي ينتهجها • وقيادة تعتمد أيديولوجية ثورية لكنها تخونها في تحويلها الانسان الى آلة اقتصادية ، فهذه القيادة تعبد كل ما هو واقعي وبذا تصادر الفواصل بين الانسان والعمل وبين الطبيعة والفكر وتعود الى مقولة هيغل « كل ما هو واقعي معقول وكل ما هو معقول واقعي »[٤٨] •

وجملة القول ان (الاقتصادية) تحول الانسان الى شيء والمجتمع الى مجموعة اشياء ، وهذه الشيئية تستمد من الدولة طابعها الكلي كما تستمد من التنظيم السياسي طابعها التفصيلي ومن النقابات والمنظمات المهنية قوتها العملية.

فلكي يكون العمل السياسي والعمل المهني سلعة على غرار غيره من السلع، يحتل مكانه في الشيئية لابد أن يتلاشى ضمن جدولة اقتصادية ومن ثم في جدولة « النفعية » وبعدئذ يتعادل في أزمنة العمل الاجتماعي ، مما يحيل العمل السياسي نفسه الى صورة لا تدرك بنيتها القطبية ، فالعمل السياسي في ظل الاقتصادية لا يعدو أن يكون عملا مضمرا في صورة السلع ، بل هو في نموه وأمتداداته الجماهيرية وظيفة استعمالية تنطبق عليها المقاييس التجارية لأي سلعة ..، لنتصور هذه الدائرة المحكمة التي تهصر المجتمع هصرا وتجعله ضمن دوائر أصغر متمفصلة عن بعضها ولكنها غير متباعدة لانها داخل اجتياح كلي ، تتحول فيها الديالكتيكية والثورية الى مادية مبتذلة .

اذن مفهوم (الاقتصادية) في تطبيقه العملي ينفي الديمقراطية الثورية ليجعلها في وحدة مطلقة مع الدولة .. وبذا ترتكس الدولة في المفهوم الهيغلي ، وتنفصم عرى المجتمع الاخلاقية وتصبح الصيرورة الاجتماعية خالية من الكشف الجوهري عن الذات الانسانية ، وخالية من القدرات الخلاقة . أما الادب والفن والثقافة بوجه عام فتميل الى تغليف الواقع بـ « النزعة الصورية » ضمن بهارج لفظية وطيالس ذات زخرفة شكلية .

هذا المفهوم لا يؤمن به حزب البعث العربي الاشتراكي ، بل على العكس من ذلك ، فقد أسماه « بالعقلية السلطوية »[٤٩] « فقد ظل الحزب باستمرار يفضح الاساليب غير الثورية في الوصول الى السلطة ، ويفضح الاساليب غير الثورية في الحفاظ عليها ، فاذا كانت السلطة هدفا ثوريا ، فانه يجب بلوغها بالوسائل الثورية ، واذا كانت السلطة ليست هدفا بحد ذاتها ، فان وسائل الوقوف عندها دون الاهداف الاساسية التي اعتبرناها الجوهر الاخلاقي لفكرة

الحزب هي افتراق عن الغاية وبالتالي افتراق عن الجوهر الاخلاقي للحزب »[٥٠] .

ويرمي هذا النص من عباراته الى توكيد ـ الديمقراطية ـ بشكلها الاخلاقي وجوهرها الانساني ، ومن جهة أخرى نرى أن من أهم المبادىء الديمقراطية التي أكدتها القيادة هي ـ حق الممارسة الديمقراطية ، فهذا الحق بالممارسة « لا تحدد بالكفاءات الخاصة ، وأن عدم كفاءة الجهة المعنية بممارسة الديمقراطية ، أحيانا يجب أن لا تعطل ممارسة الديمقراطية ، وانما يستوجب زيادة الاهتمام بالمنهج الذي يوصل الى جعل الوسط المعنى بذلك بالمستوى الصحيح ، من الوعي والادراك للممارسة الديمقراطية ، وتكييف صيغها بما يتناسب والظروف الموضوعية الخاصة والعامة في المجتمع وفي القطاع . وكذلك فان الكفاءة الاعلى والتضحية الاكبر في الشعب وفي الحزب يجب أن لا تكون مبررا للتفرد والتسلط أو للممارسة الفردية البديل عن الجماعية وعموم الممارسات والصيغ الديمقراطية »[٥١] .

وفي تحديد المناضل صدام حسين في النص السالف تحويل مزدوج للشعب والحزب :ـ

١ ـ في الميدان السياسي ، المساواة المطلقة في الممارسة الديمقراطية .

٢ ـ في الميدان الاجتماعي ، لا تمايز بين مواطن وآخر في حق الممارسة الديمقراطية .

٣ ـ لا تهاون مع (الاقتصادية) التي تعتمد على اختزال الديمقراطية الثورية بحجة ـ الاختصاص ـ والكفاءة والمسئولية ، والخبرة ، والبيروقراطية.

وهذا يعني أن الرئيس القائد صدام حسين لا يكتفي بنقد (الاقتصادية) بوصفها الصيغة الكاملة للدولة البيروقراطية ، انما يبدأ بتفنيد حججها ـ وان كان لم يذكرها بالأسم ـ فيقول « ولكي نوضح هذا المبدأ . نسأل هل نحن الذين نجتمع هنا الان .. من قادة في الحزب ، وفي الثورة ، ومن الوزراء ،

ومن الاختصاصيين الفنيين الاخرين ، هل نحن متساوون في الكفاءات ؟ اليس هنالك تفاوت في الكفاءة بيننا سواء في الاختصاص أو في السياسة ، الجواب ، بلى ، هنالك تفاوت في الوعي وفي القدرة الاختصاصية الفنية أو في السياسة ، ولكن هل يجوز أن نختـار من هو الاكفأ بيننا سياسيا او فنيا لكي يمارس بالنيابة عنا دور المهمـة التي ينهض بها العمـل الجماعي في اطار العلائـق الديمقراطية ؟.

لا أظن أن واحدا منكم يقول : ان هذا جائز ، لأننا اذا ما ارتكبنا مثل هذا الخطأ فاننا نقع في انحراف كبير ، فعلاقتكم مع الادنى ـ اذن ـ يجب الا تحول دون أن تمارسوا الديمقراطية وترعوها رعاية واسعة وخاصة ، وأنتـم تحثون الناس على ممارسة الديمقراطية حتى عندما تكونون أكفأ من الادنى في اختصاصهم الفني أو في السياسة العامة أو في قدرة التحمل »[٥٢] .

هذا النقد ينفي (الاقتصادية) والتكنوقراطية كنظرة سياسية تهدف الى جعل الوعي السياسي أو الاختصاص الفني كسيف القيصر أو ترسا يحتمي به ـ الاقتصادي أو الفني أو السياسي ، ويعبـر عن (الآخر) وينوب منابـه ، فالاقتصادية والتكنوقراطية التي تحتمي وراء حجاب أو قناع انما تبغى في المحصلة الاخيرة تحويل المواطن أو الرجل السياسي ذاته الى وهم ـ سياسيا ـ وفي هذا الوهم لا يتكامل السياسي والمواطن بل يتكامل البيروقراطي والتقني ـ الاقتصادي ، وتصبح الصورة السياسية المطروحة مصادرة على صعيـد ـ الاقتصادية والتكنوقراطية أو داخلها .

* ونرى هذه الظاهرة ذات سيرورة طردية اذا وجدت المناخ الملائم وهي تتطور تطورا كاملا في علاقتها مع الدولة محاولة أن تتركب فوقها ، وهي بهذا لا تقف من الدولة موقفا ـ فنيا ـ اقتصاديا أو تكنوقراطيا ، بل موقفا سياسيا طالما أن الاقتصاد والخبرة الفنية تدور وتصب في شئون السياسة . وهـذه الظاهرة تسمو على الحياة السياسية في البدء وتحلق فوقها ، لكنها عندما تتغلب على الحياة الواقعية تتغلب على الواقع السياسي .

فالاقتصادية ورديفتها التكنوقراطية تعطيان للعمل السياسي وللديمقراطية في العمل السياسي وتفرعاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية سيادة وهمية ، فتكون تلك الديمقراطية وذلك العمل السياسي متفرعان عن قيمتها ـ النوعية ـ وفرديتها الواقعية . وهذه الاقتصادية ـ التكنوقراطية لا تختلف عن طبيعة البيروقراطية ولو انفصلت عنها أو ادعت محاربتها . فثمة تشابه بين البيروقراطية ومثيلاتها آنفة الذكر ، وثمة تقديس صوفي من الاقتصادية ـ التكنوقراطية لنفسها .

* ان هذه الظاهرة المرضية عرفتها غالبية احزاب العالم الثورية . وهي من الظواهر الملازمة للمجتمعات الحضارية وبتركيبها الوظيفي وهياكلها المعروفة . وقد خبر حزب البعث العربي الاشتراكي ذلك نظريا وعمليا ، واحتاط لمعوقات البناء والظواهر الناشئة عن الحراك الثوري بعلم الاجتماع السياسي .

فعلم الاجتماع السياسي البعثي هو تحليل لبنية الواقع ماديا وفكريا قبل ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ وبعدها ـ وربما ليس من المبالغة بشيء اذا قلنا ان الفترة الزمنية التي جاء فيها حزب البعث قد حملت الكثير من خبرة الثورات في العالم ، كما حملت خبرة ودروس التجارب العربية في أصعدة الحركات الثورية والنظم والتراث العلمي العربي والانساني «ان العالم وتراكم المعرفة والبحث الموضوعي هو الذي يقرر خطأ أو صواب أية تجربة أو أية فكرة أو أي نظام بغض النظر عن أي اعتبار فلا تعود العصبية القومية الضيقة ولا الجمود المذهبي ولا التقليد الاعمى أمورا تقرر ما نأخذه وما نرفضه من الغير »(٥٣) .

وعلى هذا الاساس فان القيادة والحزب توليان عنايتهما بالتراث الثوري، لكن المهم في ذلك ملاحقة واقع التجربة في القطر العراقي . باعتبار هذه التجربة نواة للثورة العربية وباعتبارها أيضا جاءت مدركة ومستوعبة للتراث الثوري العربي والعالمي .

* ان التفكير العلمي المنظم في الثورة والحزب لا يقعان في خط مستقيم، وانما يقعان في خط ترتبط به عدة زوايا ، ولذلك فالتفكير العلمي في البعث يصبح كمحور الرحى بالنسبة للمجتمع، وهذا المرتكز الرحوى يعير الديمقراطية أهمية قصوى ويجنب التجربة كل الافات والظواهر المرضية التي تلازم الثورات كما هو مبين في أدبياته ومؤتمراته وسجلاته • ومنها ظاهرة الاقتصادية ـ التكنوقراطية فعلى « صعيد العلاقات الداخلية في الحركة الثورية تؤدى النظرة العلمية لموقف ديمقراطي ، فتحترم الاكثرية رأى الاقلية وتعتبره مفيدا لانه يحمل دائما احتمالات الحقيقة مهما كانت تلك الاحتمالات ضعيفة »(٥٤) •

وعلى صعيد المجتمع « ننطلق من اعتبار ان كل انسان من موقعه مطلوب منه أن يفهم الحياة بشموليتها ، لا أن يفهم اختصاصه فحسب ، ومهما يكن فهم هذا الانسان للحياة واسعا فهو غير قادر على أن يلم بالحياة • في كل زواياها وروافدها التفصيلية ، ولكن عندما تلتقى امكانياته مع امكانيات الاخرين من زوايا ومن اختصاصات ومن مواقع وروافد متعددة في المجتمع فان الفهم والحل يكونان اعمق وأشمل »(٥٥) •

● هذا التصور معاديا للنزعة (التكنو ـ اقتصادية) والبيروقراطية التي تجد في الاستعلاء ـ ملهمها الروحي ـ وهو توكيد على دور الجدل العلمي في صياغة الصيغ المرحلية لمعالجة أية ظاهرة ، فاذا كانت (التكنو ـ اقتصادية) تجد في المنظمات الحرفية والمهنية والنقابية وأجهزة الدولة مادتها الواقعية لتثبيت روحانيتها ـ اذا صح التعبير ـ فانها بذلك انما تسعى لتجميد فعالية تلك المنظمات الثورية وصبها في قالبها الفني • وقد لاحظنا في تجارب بعض البلدان ان المنظمات والنقابات وأجهزة الدولة التي سيرتها التكنو ـ اقتصادية ـ بعقلية مما سبق وتحدثنا عنه في سطور سلفت ـ أصبحت قوى ترى في البيروقراطية معلمها والمثال الذي تقتدى به ففقدت ثوريتها واستجابت للشكل الذي يعلوها في المرتبة الوظيفية •

المبحث السادس : الدولة ومخاطر التكنو ـ اقتصادية

ان النزعة (التكنو ـ اقتصادية) تجد مثالها في التقنية والوظيفية ، وهذا المثال هو الذي يقدم لها مبررات الانفصام من حيث تعيينها لما تسميه المصلحة العامة ـ وهي تقصد المصلحة الخاصة ـ مصلحة الدولة أو المشروع .

واذا توغلنا في مناحي (التكنو ـ اقتصادية) نجدها تخلع مصلحتها على مصلحة الدولة أو المشروع ، فمصالحها ووضعها التقني يجعلانها مضمونا يطاوع النظامين الرأسمالي والاشتراكي ويتعايش معهما ، اذ أن للتكنو اقتصادية ـ ميزة خاصة تسعى الى تحوير وتنقيح مضمون الخطط الاقتصادية والخبرات الفنية وحياة المجتمع السياسي ودفعه الى ما يمكن تسميته بـ ـ الشعور الرفيع لارادة الدولة ـ وفيها أو بوساطتها تزعم ـ التكنو ـ اقتصادية ـ أنها وعي وشعور سياسي . فيدعى صالحها الخاص أنه صالح الطبقة والطبقات أو المجموع العام .

وتلتبس الصورة عندما تجد تلك الفئة صفتها الوظيفية وحاجة البلاد الى الخبرة والانتاج والتصنيع والنمو الاقتصادي ، ويصعد ذلك الالتباس الى مستوى الغموض عندما تدافع (التكنو ـ اقتصادية) عن التقدم ومؤشرات الانتاج وعوامل البناء الاقتصادي العام ، وبهذا يرتفع التصعيد الحاذق في اطار مصالح الدولة والتشبث بها ، ولا تقر التكنو ـ اقتصادية أعمال المنظمات والنقابات والمؤسسات الا على أساس النشاطية العملية الصرف . ولذلك « من الخطأ اعتبار الخبرة التقنية المجردة والمعزولة عن الحد المعقول والمطلوب لتفهم خط الدولة العقائدي وبرامجها كافية للخروج بنتائج حاسمة في الميدان الانتاجي ، الا أن هذا الانعزال يقود الى نظرة قاصرة مهما امتلكت من مواصفات التخصص . وهو لا يخلق القائد الاداري المطلوب في المجتمع الثوري لانه يخلق العناصر التكنوقراطية البعيدة عن استيعاب حركة الثورة »[٥٦] .

هذه النظرة القاصرة العائدة للتكنوقراطية والتي حددها المناضل صدام حسين هي من صلب التكنو ـ اقتصادية .

* التكنو ــ اقتصادية اذن تخلع صورتها على المجتمع السياسي اذا لم ترتبط بالفكر السياسي لانها تمتلك صورة وهمية عن نفسها وصورة واقعية عن اهمية خبراتها وهي بهذا ــ رغم الارتباط بالتنظيم السياسي ــ تسعى الى الانفصال عن مضمونه بل انها تشترط عليه بوجودها وخبراتها ذاتها فتدعى بأن لها صفة الشمولية بينما تؤكد تجارب الشعوب والثورات ، أن تلك الصفة جزئية حتى في العملية الانتاجية « والعملية الانتاجية حينما تتعدى في الواقع اطارها الجزئي وتمتد حيث الاطار الوطني بحكم ما يتمخض عنها من نتائج تتطلب مع وجود الادارة القائدة الكفوءة احكام الصلة مع مجموع الشروط الذاتية الاخرى المؤثرة على سير الانتاج ، وفي مقدمة هذه العوامل التنظيم النقابي »[٥٧] .

ان التكنوقراطيين والاقتصاديين ليسوا أناسا أشرارا ، لاننا هنا لا نتحدث عن سمات ذاتية أو شخصانية وطبائع فردية ، فالحديث يدخل في مضمار آلية ميكانيكية البناء الاقتصادي والتقدم التكنولوجي الذي بقدر مساهمته الفعالة في التقدم العام ، فانه يؤدى الى معضلات على مستوى البناء ، والى تركيبة معينة من التعامل ، وتشكيلة مشخصة من الظواهر ، أدناها ظاهرة « الهوة الاجتماعية the sociat log وهذه الهوة تتسع شيئا فشيئاً حتى تصبح خطرا يهدد استمرار المجتمع ويؤدى الى فشل تنظيمه »[٥٨] .

وهذه الظاهرة تتأتى من تحول التقنيين والاقتصاديين الى بيروقراطية تفرض هيمنتها على المجتمع كله ، ماذا يحدث عندئذ تنتصر التكنو ــ اقتصادية كعقلية باعتبارها فئات محترفة وبوصفها مظهرا من المظاهر البيروقراطية ، فتقوم كسلطة فعلية وتمنح التنظيمات النقابية والمهنية وتمنح العملية الثورية ، مضمونها لانها ممارسة زاخرة بالمفاهيم وزاخرة بالحقائق ، لكنها في ذات الوقت زاخرة بآلية تخطيطية تجمع جميع الخطوط في زاوية مثلث قائم بذاته ، بينما المجتمع توجد فيه مربعات ومستطيلات ودوائر وخطوط حلزونية و .. الخ .

ولا يخفى ان الفئات التكنو ــ اقتصادية ــ تستطيع تحقيق أعمال عظيمة للبناء الاقتصادي والتكنولوجي بوجه خاص والمجتمع بوجه عام ، لكنها من جهة أخرى تستطيع الحاق الاذى بوسائلها الخاصة •

* ان واقع التكنو ــ اقتصادية واقع كثيف ، لكنه على أية حال واقع يقع في اطار أجهزة الدولة ، ولذلك فان للسلطة السياسية أهمية استثنائية في هذه المسألة فالسلطة السياسية الثورية تواجه ذلك الواقع الكثيف بالاقتدار في المعالجة وربط الفئات التكنو ــ اقتصادية بالديمقراطية السياسية والمستلزمات الموضوعية لتطور الحياة العامة في المجتمع وفي مجمل التخطيط المركزي للحزب ــ والدولةمعا،ومحاسبتها عندالتقصير والانحراف وضبط كافةالمؤشرات السياسية والفكرية والوظيفية في متابعة أعمالها ، فقد أكدت « مقررات المؤتمرات الحزبية وبخاصة المؤتمر القومي السادس على ضرورة ايجاد السبل الديمقراطية التي تكفل عدم تجميد التحويل الاشتراكي عند ظاهرة رأسمالية الدولة ، ولأعطاء الاشتراكية مضمونا ديمقراطيا وذلك بايجاد الظروف الموضوعية المناسبة لكي يسهم العمال في ادارة ، قطاعات الانتاج على نحو يكفل مشاركة فعالة ، كما أكدت على أن الاسلوب الديمقراطي هو الذي يعطي التحويل الاشتراكي مضمونه الثوري • ويبعد عنه الملامح والشبهات البيروقراطية ، لأن البيروقراطية تشوه الاشتراكية وتسلبها مضمونها الانساني »[٥٩] وفي هذا الجانب المتعلق بالتكنو ــ اقتصادية ــ والاقتدار في معالجتها كظاهرة في الجانب الديمقراطي ، يشير الرئيس صدام حسين الى أن «الفهم الثوري للمسألة الديمقراطية لا يلغي ــ كما أشرنا ــ الدور أو الصلاحيات القيادية أو العلوية لتحتل ثقلها الخاص في حالات الضرورة ، على أن لا تبتعد عن الاصول الصحيحة الدائمة والثابتة في الديمقراطية وروح العمل الجماعي ، وعلينا أن لا نجعل من صوابية المعالجات الخاصة قانونا عاما نتمسك به ، ونعتبره بديلا عن ممارسة الديمقراطية واحترام العمل الجماعي »[٦٠] •

* ان التصدي لكافة الظواهر التي تبرزها التجربة يلقى على عاتق القيادة السياسية مسئولية تاريخية جسيمة ، فالنهوض بأعباء الثورة وتفاصيل التغيير وتوفير المناخ الملائم للممارسة الديمقراطية اضافة الى كون الحزب الاداة الثورية الملائمة للتغيرات والالتزام الكلي بتهيئة مستلزمات النجاح في كافة الاصعدة الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية وهذه مقتضيات ذات فعالية تاريخية من القيادة السياسية ، وهي مظهر من مظاهر القوة اذ « لا يوجد تناقض بين الديمقراطية وبين القوة المشروعة فلا يتصور أحدكم ان الديمقراطية تضعفه أو تفقده هيبته وسيطرته المشروعة .

لأن هذا غير صحيح ، اذ لا يوجد تناقض بين ممارسة الديمقراطية وبين السيطرة الادارية المركزية المشروعة وفق التوازن المعروف بين المركزية والديمقراطية »(٦١) .

* ان ديمقراطية البعث اكتسبت بعدا عمليا رعته القيادة السياسية بحرص وأمانة وصدق ، وقد تحنكت تلك القيادة في مراحل العمل السلبي وازدادت حنكة في مراحل البناء وذلك ما شكل صمام الامان للحزب والثورة والجماهير ممارسة وأسلوبا وفي اطار كافة الابنية الستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية .

وكما هو معروف يعتمد البناء الاقتصادي والسياسي والثقافي والديمقراطي في البعث على مفهوم نسف البناء القديم انتاجا وطبقات وعلاقات وجهازا وفكرا وأسلوبا . وهذه القاعدة شبه عامة في الاحزاب والحركات الثورية ، الا ان للبعث مميزات خاصة في هذا المجال .

ونظرية الدولة هي ذروة المساجلات الفكرية التي يدور حولها الجدل في مختلف العصور ، وقد حظت الدولة بمجهودات لا تحصى من المجالات في الفكر النظري وفي الاصعدة القانونية والدستورية ولدى الكتاب والفلاسفة والمفكرين والساسة منذ عصر **اخناتون**

في مصر **وحمورابي** في بابل ودار حولها جدل عظيم في عصر الاغريق والمدارس الفلسفية التي قامت آنئذ وبالذات لوائح **صولون الحكيم** . كما ان العرب المسلمين ساهموا في هذا الجهد مساهمة رفيعة المستوى وبرز العديد من المفكرين من امثال **الماوردي وابن خلدون**(٦٢) **وابن أبي الربيع**(٦٣) **والفارابي** حتى عصر الثورة الفرنسية التي أثارت مساجلات عدة بهذا الصدد وانتهاء بالثورة الروسية عام ١٩١٧ التي أثارت الجدل حول نظرية الدولة ، وانتهاء بستينات هذا القرن وسبعيناته التي شهدت تطورات جلى في نظريات الدولة وبخاصة بعد بروز عدة ظواهر اجتماعية وثقافية واقتصادية وبروز القومية كعامل اساسي في نضال الشعوب المستعمرة الى جانب بروز العالم الثالث بشعوبه وأممه ومفاهيمه للدولة .

ان مقتضيات البحث تدفعنا الى الفصل الرابع لكي تتبين بوضوح معنى **الدولة عند البعث العربي الاشتراكي** ، ولا بد لنا من القول قبل الدخول في مسألة الدولة . ان الدولة ليست أجهزة ومؤسسات وهياكل وظيفية فحسب انما هي بناء كلي له قوائم وأعمدة تحتية ، ولذا فالدولة هي القمة بالنسبة للمجتمع . وهذا أمر واضح لمتتبعي الفكر السياسي ، لكن الاختلاف يكمن في فهم الدولة في سياقها التاريخي وفي فهم الطريقة التاريخية في تناول تلك السياقات فالذي لا يرى الدولة ضمن عواملها التأريخية وعوامل الاقتصاد والسياسة والصراعات الاجتماعية والطبقية واطارها القومي يوصد أمام ذهنه كل مسببات الاستبصار .

مصـادر الفصـل الثالث

(١) د . ابو اليزيد علي المتيت ـ تطور الفكر السياسي ، المكتبة الثقافية العدد ٢٤٦ ، ص ٢٠ .

(٢) مغامرات الافكار ص ٤٠ وايتهيد المرجع السابق .

(٣) وايتهيد ص ٤١ .

(٤) تطور الفكر السياسي ص ٤٠ ــ ٤١ المرجع السابق .

(٥) تطور الفكر السياسي ص ٤١ المرجع السابق .

(٦) ميشيل عفلق ، آفاق عربية ص ٥ العدد ٨ نيسان ١٩٧٨ .

(٧) خصائص الفكر السياسي في الاسلام واهم نظرياته ، د . علي عبدالمعطي محمد ١٩٧٥ ص ٧٠ وما بعدها .

(٨) خصائص الفكر السياسي في الاسلام ص ٧٩ المرجع السابق .

(٩) مغامرات الافكار ، وايتهيد ص ١٣٠ .

(١٠) جواهر لال نهرو ، من السجن الى الرئاسة ص ٤١٤ المرجع السابق .

(١١) هوسرل فيلسوف ظاهراتي .

(١٢) هنرى لوفيفر ص ١٠٥ المرجع السابق .

(١٣) دور الايديولوجية العربية الثورية ، ص ١٥ .

(١٤) امراض الثورة ــ القيادة القومية ص ١٧ .

(١٥) امراض الثورة ص ١٧ المصدر اسابق .

(١٦) امراض الثورة ص ٢٢ .

(١٧) حول العمل بين الجماهير ص ٤ دار الطليعة بيروت ١٩٧٣ .

(١٨) للاستزادة راجع : المدارس الفلسفية ، د . احمد فؤاد الاهواني المكتبة الثقافية ١٣٦ حزيران ـ يوليه ١٩٦٥ ، ص ٧٠ الرواق والحديقة .

(١٩) دور الايديولوجية العربية الثورية ص ١٠ ــ ١١ .

(٢٠) أمراض الثورة ص ١٦ .

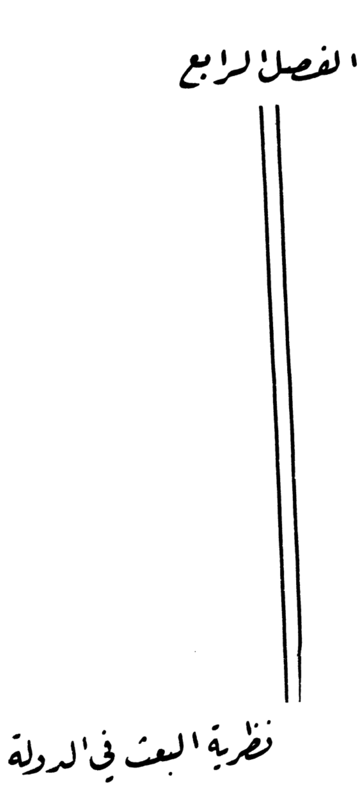
(٢١) مخطوطة ابحاث في التنظيم الحزبي ص ٢٧ ــ ٣٠ عن مقالة شبلي العيسمي

(٢٢) مجلة آفاق عربية ، ص ٦ العدد ٨ نيسان ١٩٦٨ .

(٢٣) دور الايديولوجية العربية الثورية ص ١٦ ــ ١٧ .
(٢٤) امراض الثورة ص ١٥ المصدر السابق .
(٢٥) مجلة آفاق عربية ــ شبلي العيسمي ــ البعث وتطور البنية التنظيمية . العدد ٨ نيسان ــ ابريل ١٩٧٨ ص ٩ .
(٢٦) نضال البعث الجزء التاسع ص ٦ .
(٢٧) نضال البعث الجزء التاسع ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٢٨) نضال البعث الجزء التاسع ص ٦٣ .
(٢٩) شبلي العيسمي ، البعث وتطور البنية التنظيمية ، آفاق عربية ، عدد ٨ ــ ١٩٧٨ ص ٩ ــ ١٠ .
(٣٠) امراض الثورة ص ١٥ المرجع السابق .
(٣١) صدام حسين الديمقراطية نظرة شمولية للحياة وزارة الاعلام ، السلسلة الوثائقية رقم ٦١ ص ٥ ــ ٦ .
(٣٢) صدام حسين الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ، ص ٦ المرجع السابق.
(٣٣) للتوسع في هذا الموضوع راجع ــ اللاستالينية ــ احمد مهدي الامام ، بدون تاريخ ــ دار الصراع الفكري .
(٣٤) صدام حسين : الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع ــ دار الثورة ايلول ١٩٧٧ ص ١٥ .
(٣٥) صدام حسين ، الديمقراطية مصدر قوة الفرد والمجتمع ص ١٦ ــ ١٧ المرجع السابق .
(٣٦) راجع ص ١٣١ الفصل العاشر ــ الجدة واللامتناهي ــ وليم جيمس ــ بعض مشكلات الفلسفة وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ القاهرة ، ترجمة زكي نجيب محمود .
(٣٧) صدام حسين ، الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع ص ١٧ ــ ١٨.
(٣٨) ، (٣٩) صدام حسين ، الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع ص ١٨ .
(٤٠) العقيدة العربية الثورية ــ سمات الايديولوجية ص ٦٦ .
(٤١) عالج المؤتمر القومي التاسع مثل هذه الحالات التي ظهرت في الستينات لدى بعض التنظيمات في دول عربية ، راجع الجزء التاسع من نضال البعث .
(٤٢) حول العمل بين الجماهير ص ١٤ المصدر السابق .
(٤٣) حول العمل بين الجماهير ص ١٥ المصدر السابق .
(٤٤) صدام حسين : الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع ص ١٨ ــ ١٩ .
(٤٥) صدام حسين الديمقراطية، نظرة شمولية للحياة ص ١٠ المصدر السابق.

(٤٦) حول العمل بين الجماهير ، دار الطليعة ١٩٧٣ ص ٢٩ .
(٤٧) صدام حسين ، الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ص ٧ .
(٤٨) راجع الدولة عند هيغل ، مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة سبتمبر ١٩٧٠ -
(٤٩) العقيدة العربية الثورية سمات أيديولوجية ص ٧٥ .
(٥٠) العقيدة العربية الثورية سمات أيديولوجية ص ٧٥ .
(٥١) الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ص ١١ .
(٥٢) صدام حسين ، الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ص ١١ ــ ١٢ .
(٥٣) امراض الثورة ص ١٨ المرجع السابق .
(٥٤) المرجع ذاته ص ١٨ .
(٥٥) صدام حسين ، الديمقراطية نظرة شاملة للحياة ص ١٢ .
(٥٦) شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق ص ٤٤ .
(٥٧) شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق ص ٤٤ .
(٥٨) التغير الاجتماعي ، د . احمد الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٦ ص ٦٩ .
(٥٩) نضال البعث الجزء التاسع ص ١٦٧ .
(٦٠) صدام حسين ، الديمقراطية نظرة شمولية للحياة ص ١٤ .
(٦١) صدام حسين الديمقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع ص ٢٩ .
(٦٢) راجع مقدمة ابن خلدون ، دار احياء التراث العربي ــ بيروت ، وايضا
(٦٣) كولد تسيهر ــ العقيدة الشريفة في الاسلام ، ترجمة محمد يوسف واخرين ، وكذلك الطبري ، تاريخ الامم والملوك الجزء التاسع .
(٦٤) راجع حاجي خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون جزء ٢ والشرح المفصل عن الفكر السياسي عند ابن ابى الربيع في كتاب خصائص الفكر السياسي في الاسلام واهم نظرياته ، د . علي عبدالمعطي محمد .

الفصل الرابع



نظرية البعث في الدولة

المبحث الاول : ما هي الدولـة ؟

سؤال واجـه البشريـة منذ القـدم ، فقد عرضت آراء بهذا الصـدد متضاربة تضاربا كبيرا منذ عصر أفلاطون وحتى وقتنا الراهن ، ولكن كـان لجميع الافكار والاراء الفضل الاجل في تحديد نظرية الدولة وما توصل اليه الفكر الانساني بصددها بشـكل خاص ، وقد كانت ـ **جمهورية أفلاطـون**[١] بدايات الفكر المنظم لنظرية الدولة وهي صيحة رومانتيكية بتبصر دقيق ، لكنها كانت مثالية متجاوزة لعصرها ومنحازة كل التحيز للحكمة ، ولهذا السبب لم تستطع قط أن تحقق ذاتها .

* مع ذلك فقد وضع أفلاطون اللمسات الاولى لنظرية الدولة ، فالدولة هي نتيجة الاجتماع وهي ـ التطور العضوي ـ للمجتمع ذاته الذي يحتاج الى التنظيم ، « وقد ذهب أفلاطون الى أن أول حاجاتنا الطبيعية هي القوت وهي قوام حياتنا كمخلوقات حية ، وثانيها المسكن ، فالكساء ، وان التعاون يقتضي نوعا من تقسيم العمل ، فيظهر الزراع والبناؤون والحاكة والاساكفة ، كـل حسب استعداده الخاص وموهبته »[٢] .

كما ذهب أفلاطون الى أن رجل الدولة يجب أن يكون حكيما عادلا ومعلما للشعب ولديه القدرة على تحقيق الديمقراطية ، وقد قسم مجتمعه الى ثـلاث طبقات الحكام ، المحاربين أو الحراس ،.. والفلاحون والصناع .. وتقـع القرعة على الحاكم بواسطة « المجادلة » التي تقوم بين المحاربين ذوي الثراء والعقل الواسع والطموح والحكمة بعد سن الثلاثين « وأعطى أفلاطون للمثالية السياسية اسم الارستقراطية ، وكان يقصد بها حكومة الممتازين»[٣] .

ولا يخرج أفلاطون عن قاعدة الدولة ذات التفكير الثيوقراطي المستمدة شرائعها من القوة العلوية الالهية . الا أن التجارب علمته أن القوانين قد تكون وضعية نظرا لاعمال التجارة والصناعة والري ، بيد أن تلك القوانين ذات مصدر

الهي . اما **أرسطو**(٤) وهو معلم **الاسكندر المقدوني** وأستاذه فقد اعتبر الاثرياء ، هي الطبقة التي لا يحق لغيرها أن ترشح الحكام ، ولكن لما كان رجال هذه الطبقة من ذوي الطموح والشدة ، دعا الى الديمقراطية وتوسيع الطبقة الوسطى وخلص من نتيجة مؤداها الفصل بين السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية. وقد اعتمد الفكر الاوربي الليبرالي على هذه القاعدة بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وتأثر المفكر السياسي الفرنسي **مونتسيكيو** بهذه الآراء (*) .

* وضع أفلاطون وأرسطو أفكارهما في ظل الديمقراطية الاثينية وفي ظل الوضع الفكري السائد والذي اتسم بسيادة الفلسفة التأملية على أشكال التفكير الاخرى والاسراف في تقديرها وجعلها في مرتبة أعلى بكثير من العلوم ، مما جعل المفكرين لا يدركون النواحي الخاصة في الافعال التاريخية ، وكذلك ابتعد الفكر الانساني في تلك المرحلة عن واقع المجتمعات وانقساماتها الطبقية وتقسيم العمل ، وقد عالج افلاطون وأرسطو هذه المسائل وكأنها واقع أزلي وان كان أرسطو اميل الى الحد من طغيان ــ الارستقراطية .

اضافة الى ان الحكم المطلق كان سمة العصر ، كما أن العبودية والرق سمتان اجتماعيتان تعتمد عليهما النظم والتقسيم الاجتماعي للعمل ، وقد تجلت النظم العبودية في كثير من الحضارات مما جعل الدولة ممثلة الارستقراطية التي تمتلك الثراء والارض والبشر ، وربما كان اليونانيون في ذلك العصر ضمن اطار التفكير الطبيعي الذي ساد التفكير الروماني والفرعوني ــ **المصري** القديم . وهذا ما عبرت عنه اساطير الشرق ذاتها وقد فطن المصريون القدامى والبابليون الى هذه المسألة فاعتبروا الانسان جزءا من الطبيعة ، وحاولوا أن يرتبوا نظمهم ودولهم على أساس « المراتب » الطبيعية .

(*) مونتسكيو شارل ١٦٨٩ ــ ١٧٥٥م كاتب فرنسي اشتهر بكتابه «روح القوانين » ودعا الى فصل السلطات ــ القضائية والتشريعية والتنفيذية عن بعضها بعضا ، تأثر بموضوع النظام البرلماني الانكليزي ، يعتبر من فلاسفة البرجوازية التجارية يعتبر ايضا دارسا للتاريخ الروماني وقوانينه استغرق تاليف كتابه انف الذكر ٢٠ عاما وصدر في ٣١ جزءا .

وكان ما يسم تلك المرحلة هي فكرة ثبات الطبيعة المطلق رغم أن هناك من نادى بأن الطبيعة في حركة جدلية من حبة الرمل الى الاجرام السماوية الكبرى وان الحياة في حالة ولادة وموت .

ولكن ثمة فارقا بين سيادة فكر معين على مرحلة تاريخية وبين الهوامش الفكرية ذات التأثير الثانوي ، ويبدو أن الدولة لدى اليونان والرومان والهنود والصينيين اعتمدت كفكرة مؤسسة على النظام العبودي ، فقد واجه الانسان « الدولة في المجتمعات الاولى التي ارتكزت بدرجة واضحة على المجتمع العبودي ، فكانت ممثلة تخلف وسائل الانتاج بحيث لم يستطع الفرد التمتع بأي حق من حقوقه . وقد خلق المجتمع العبودي تنظيما للتقاليد يعتمد على القبلية المرتبة حسب توفيق الفصائل القبلية وترتيبها في درجات الملكية ، وقد أنشئت الدولة عند عجز النظام القبلي البدائي عن فرض الاحترام اللازم لمقتضيات المجتمع العبودي »(٥) .

وقد شهد التاريخ هذه الظاهرة في عجز النظام القبلي في العصر الهليني الاول وتميزت الدولة في عصور الامبراطوريات القديمة بالتغير والنسبية ، فقد تغيرت قواعدها في عصر الامبراطورية اليونانية التي بدأت في فتوحات فيليب الثاني والاسكندر المقدوني ، فجدد الفكر السياسي نفسه . ونادى الكثيرون بالكسموبوليتية ـ أي العالمية المتسمة بالابتعاد عن ـ الوطنية ـ ونادى « الفيلسوف اليوناني ـ ديوجين ـ بالوطن الكبير ، وكان لفكرة الوطن الكبير لديوجين أثر كبير على زينون وتلاميذه أصحاب نظرية الصبر والعزيمة في مواجهة الشدائد ، واعتبروا أنفسهم جميعا من مدينة واحدة »(٦) .

لكن تلك المواطنية العالمية لم تخرج عن النظام الثيوقراطي اذ ان غالبية الدول والامبراطوريات التي سادت الشرق وبلاد اليونان في تلك العصور كانت تعتمد على مبادىء القانون الطبيعي « وهذه المبادىء هي التي أوحت الى الاسكندر المقدوني برؤاه عن امبراطورية عالمية تضم الاجناس والمذاهب

المختلفة ، ثم طبقت هذه المبادىء امبراطورية رومانية ناضجة كانت تشمل مئات الاجناس والاديان والعادات »[٧] .

بينما كانت قوى الطبيعة أمرا غريبا ، ملغزا ، لأنها عند الانسان البدائي متعالية ، ولذلك تعددت الالهة عند الاغريق . اما الامور الاجتماعية فكانت اكثر صعوبة في التفكير لان الشروط التاريخية والاقتصادية ركنت الوعي البشري ركنا قصيا وأبعدته عن تناول تركيب مجتمعه .

ان ملكية الارض هي مفتاح أوضاع اليونان في عهد الاغريق . وفي هذا يكمن تاريخ الدولة اليونانية السياسي ، وينطبق هذا المقياس على الامبراطورية الرومانية ، اما في الحضارات الشرقية كالحضارة الفرعونية والبابلية والآشورية فأن الدولة لم تخضع الى نفس مسارات التفكير السياسي في الحضارتين الرومانية والاغريقية بسبب كون مجتمعات الشرق العربي القديم في وادي النيل ووادي دجلة والفرات لم تكن مجتمعات اقطاعية ولم تكن ذات سمات عبودية ، اذ ساد تلك المجتمعات نمط انتاجي له مميزات خاصة به ، اضافة الى ان اوراق البردي قد انطوت على وصايا وتنبؤات في الحكم والدولة لأيبوروبتاح وحورمحب وغيرهم واكدت على ان الدولة ذات طبيعة غير عبودية وقد اكدت شريعة حمورابي على ذلك « تراجع قوانين حمورابي والقوانين البابلية ــ مجلة كلية الاداب ــ بغداد عدد ١٩٦٢ كانون الثاني ص ١١٨ .

وقد كرست الحضارات الشرقية العربية ،الفراعنة والبابليون والآشوريون مبدأ سيادة الجماعة ، كما جاء في الواح حمورابي ، وهذا الحق هو الذي اخذ معنى عصريا يعرف دستوريا بشرعية قيام الاحزاب والنقابات والجمعيات ، وما يعنينا هنا من ارتباط فكر الدولة في الحضارات الشرقية بنشوء الفكر السياسي هو ان ذلك الفكر كان تعبيرا عن انتظام الانسان في المجموعة البشرية وما كان يسمى « بالمدينة » ومن ثم الدولة وما استتبعه من تبدل حضاري كان الشرق العربي وحضاراته هما السباقان في مضامير مواكبة التطور وايصال الفكر البشري الى المراحل العلمية الراهنة .

« وليس صحيحا تطبيق فكرة المراحل على تطور المجتمعات الشرقية وخاصة المجتمع العربي القديم . فالمراحل تعكس تطور مجتمعات اوربا . لكن لا الامبراطورية الفرعونية ولا البابلية كانتا مجتمعات عبودية ، كما انهما لم يطورا نظاما اقطاعيا وهذه مسألة يعترف بها جميع الذين تناولوا هذا الموضوع، وبعضهم استخدم مفهوم الانتاج الاسيوي لوصف النظام الانتاجي والاجتماعي وحتى هذا الوصف لم تثبت صحته حتى الان وانصاره يتباينون كثيرا في فهم عناصره »[٨] .

❊ الدولة اذن مع كل هذا في النشوء قوة قسرية والزام في تقسيم العمل الاقتصادي والاجتماعي بشكل عام وهي شكل من أشكال استغلال الانسان للانسان كان على الدوام ماثلا للعيان « لأن عبودية الانسان في أنظمة الاستغلال هي أخطر شكل من أشكال ضياع الحرية الانسانية »[٩] .

وقد ظلت هكذا في المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية خلال القرون الوسيطة والقرون القليلة الماضية . الا أن التجربة العربية ــ الاسلامية قد جاءت بنظريات للدولة أنبثق قسم منها من الشريعة الاسلامية ، وأنبثق القسم الآخر من معاناة وتجارب بعض المفكرين وملاحظاتهم التاريخية ونظراتهم الواقعية في المجتمعات ، الى جانب ربطهم كل ذلك بالشريعة الاسلامية . كما سنرى في السياق .

● هيمنة الدولة كما قلنا في البدء قوة قسرية والزام في تقسيم العمل الاقتصادي والاجتماعي . وكما يقول أرسطو « انه لولا ظهور الدولة لتمرد الجند على قادتهم كما تمرد العامل الزراعي على سيده وعمت الفوضى التي تؤدى الى تخريب المجتمع ومن ثم تدميره تدميرا تاما »[١٠] .

فالدولة على هذا قوة كابحة بفعل القانون ولولاها لتفسخ المجتمع الاقطاعي ولكن ليس هناك من ينكر أن الحضارات والمدنيات نمت في ظل الدولة وذلك مرتبط كل الارتباط بنمو القوى الاجتماعية . وطالما أن الانسان

اجتماعي بالطبع فهو ينزع بالفطرة الى الدولة • وبديهي ان الدولة حاضر معقدة التركيب نظرا للتوسع الحاصل في مناحي الحياة العلمية والفنية والثقافية والسياسية والاقتصادية و •• الخ ،

لكنها ذات سمة لا تختلف بأختلاف العصور الا في مضمونها ، وعلى هذا المضمون دار الصراع الاجتماعي والفكري والسياسي وقامت الثورات وانتفضت الشعوب والامم •

ان عامل السلطة هو العامل الاساسي في الدولة لأن البنى الفوقية غالبا ما تكون رمزا سياسيا لعوامل اجتماعية أو اقتصادية ، رغم أن قيام الدولة نظريا يفترض أن البشر من الناحية الاجتماعية هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكن التاريخ يصنعه الاقوياء الذين يمتلكون عوامل القوة المؤثرة • ولهذا السبب فالدولة نشأت على أسس بعيدة عن الوعي الشعبي والعقل الاجتماعي العام ، فهي صنعت داخل القوى المؤثرة ، فيؤكد ابن خلدون أن « الملك انما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس »[١١] •

اما عند أفلاطون فالدولة ارستقراطية مستبدة تخضع للملاك ، ولدى أرسطو تمثل الفعالية الاجتماعية التي تنتخبها الطبقات السائدة ، رغم أن أرسطو أضاف اليها الاخلاق « كل دولة هي بالبديهية اجتماع ، وكل اجتماع لا يأتلف الا للخير ، ما دام الناس ــ ايا ما كانوا لا يعملون شيئا الا وهم يقصدون الى ما يظهر أنه خير ، فيبين اذن ان كل الاجتماعات ترمي الى خير من نوع ما • وان أهم الخيرات كلها يجب أن يكون موضوع أهم الاجتماعات ذلك الذي يشمل الاخر كلها ، وهذا بالضبط هو الذي يسمى دولة أو الاجتماع السياسي »[١٢] •

أما الفارابي فيرى أن الاجتماع لوحده ليس تحصيل الكمالات وانما ما ينتج عنه •

وعلى هذا نرى الفارابي يؤكد أن أفضل النظم السياسية والاخلاقية والاجتماعية التي تتحصل فيها السعادة والكمال هي التي تقوم في اطار الدولة[١٣] •

أما ابن ابى الربيع فيرى أن الدولة امتداد لظل الله في الارض وأن الناس لهم مذاهب في التناصف والتظالم مختلفة ولذلك وضع الله لهم سننا وفرائض يرجعون اليها[١٤] .

وهو بهذا يرجع الدولة الى الحكم الالهى ، لكنه أضاف الى ذلك ربطا محكما بالنواحي المادية باعتبار ذلك من ركائز العلم السياسي لديه وبخاصة فيما يتعلق بشئون الاجتماع البشري .

ويتميز الفكر السياسي العربي ـ الاسلامي بميزة الاعتماد على الشريعة الاسلامية في تفسير الدولة مع الاخذ بنظر الاعتبار ما طرأ على الدولة العربية ـ الاسلامية من مؤثرات اجتماعية بفعل تركيب المجتمع العربي ـ الاسلامي الذي طرأت أو دخلت عليه عدة عوامل ومن أهم تلك العوامل ما يلي :ـ

١ ـ تعقد تركيب المجتمع بعد عهد الخلفاء الراشدين الذي اتسم بسيادة روح الدعوة ومبادىء الاسلام السمحة والحزم والشدة على ايدى الاغنياء رغم أن الكثير من الاغنياء اكتنزوا أموالا كثيرة .. وبدأ التركيب الاجتماعي القائم على العدل في عهد الرسول يختل شيئا فشيئا ، وقد أكد هذا الطبري في كتاب تاريخ الامم والملوك باستشهاده بقول عمر بن الخطاب الذي حجر على اعلام قريش وبعض الاغنياء والسراة من الثراء الفاحش »[١٥] .

٢ ـ توسع الدولة العربية ـ الاسلامية ، وتعدد مهامها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والضرائبية والمالية مما احتاج الى تنظيم دقيق وادارة بالمعنى المتداول وقتذاك .

٣ ـ في العهد الاموي نشأت حياة مدنية استوعبت الحياة الجديدة للدولة العربية ـ الاسلامية وتكوينها الاجتماعي الجديد الذي اعتمد مقومات مشابهة لمقومات الدولة الحديثة وتقسيم العمل الاجتماعي فيها وبروز مقومات طبقة الملاك وطبقة المزارعين والحرفيين والكسبة والتجار والقواد العسكريين والوزراء والسراة .

٤ ـ دخول اجناس جديدة في الاسلام مما جعل الدولة العربية ـ الاسلامية ذات تركيب متداخل ، الى جانب حدوث ثورات وتمردات في العالم الاسلامي المترامي كما هو معروف(*) .

٥ ـ نشوء المدن الكبرى وما صاحبها من ترف وازدهار اقتصادي « وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبدالحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة ـ غلات السواد ـ سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل النجرانية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلا ـ كنكر ـ احد عشر الف الف درهم مرتين وستمائة الف درهم ـ كورد حلة ـ عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم ـ حلوان »[١٦] .

ويعدد **ابن خلدون** الثروة في ذلك الوقت أو جزء منها في مقدمته بطريقة تستغرق أكثر من صفحتين ، وذلك أمر طبيعي في الدول التي تنتقل من دور النشوء فالنمو والتوسع في المجالات العمرانية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد واجهت الدولة العربية ـ الاسلامية ، مسألة النظام بتفرعاته السياسية والاقتصادية والدينية مواجهة اختلفت قوةً وضعفا نظرا لتركيب السلطة وبنيتها ومشاكلها في العهدين الاموي والعباسي .

وعلى أية حال فالدولة كما جاء في التراث العربي ـ الاسلامي بجانبيه الفقهي البحت او التاريخي المتأثر بالشريعة هي :ـ

أ ـ ملك يحصل بالدعوة على عصبية أو بالغلب أو بأتفاق الاهواء والمطالبة بالمجد أو التداعى ـ الدعوة ـ من اجل الوجاهة أو حسن التعاضد والتعاون .

---

* للاستزادة راجع ١٠ ثورات في الاسلام ـ الدكتور علي حسين الخربوطلي ـ دار الآداب ـ بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٨

ب ــ الدعوة الى صيغة دينية تذهب بالتنافس وتفرد الوجهة الى الحق لان المطلوب واحد متساو عند الجميع •

جـ ــ الحاجة الى تنظيم حاجات المجتمع من غذاء وكساء وزراعة وصناعة وما ينتج عن ذلك من منافسات ومشاحنات» أو مانسميه راهنا بالتناقض[١٧] •

اضافة الى اقامة العدل « والاخذ للضعفاء من الاقوياء ومساواة الادنين والابعدين في السياسة »[١٨] •

د ــ الالفة الاجتماعية ذلك لان « الانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه »[١٩] •

هـ ــ « سلطان قوي يسوس الدولة ويحقق أهدافها العليا ويحرس الناس ومصالحهم ويحفظ أمنهم وأرزاقهم ، وعدل شامل ، تعمر به البلاد ويصلح به خراب الارض ويصلح الضمائر ويأمن الخلق من الجور »[٢٠] •

* ولا نريد هنا استعراض كافة الآراء السياسية العربية ــ الاسلامية ، أو الاسلامية البحتة في الدولة فحسبنا ما أوردناه مختصرا • وجملة القول في هذا الصدد ان الدولة حسب ما ورد في التراث ورجاله الاعلام الذين جمعوا بين الفكر والممارسة العملية ، والعلم والتجربة ، **فابن خلدون** مارس السياسة وتمرس فيها ، **والماوردي** عاصر فترة العهد العباسي في ختامه **وابن أبي الربيع** كان له شأن مع المعتصم ولم نتعرض للمدارس الاخرى التي كان لها شأن في الفكر السياسي ــ العربي ــ الاسلامي ليس لضآلة أثرها ، بل على العكس من ذلك فقد كان لها شأن بارز في عالمها ، انما لأن الاعلام الذين أوردنا جزءا يسيرا من روافدهم كانوا هم القاعدة والمنبع الذي تفرعت منه الروافد والتيارات • واذا كان تحديد مهام الدولة من المسائل الاساسية في التراث ، فانه شغل مساحة واسعة من تفكير الانسان الحديث ذلك ان الاعتقاد بنظام موضوعي جعل التاريخ يمور بمعتقدات عدة •

المبحث الثاني : الدولة والفكر السياسي الحديث

* ان الفكر السياسي الحديث هو امتداد للفكر السياسي القديم وبخاصة في نظرية الدولة فالمذهب الحر الذي نادى به ــ لوك ــ وباين ، نطرق اليه الاقدمون ، كما أن الحكم المطلق لدى ــ هوبز ــ وبودان ــ كان قد نوقش قديما أما نظرية موتسيكيو عن القوانين فقد كانت جذورها لدى الفارابي ونظام الملك الطوسي[٢١].

لكن التحول الذي طرأ على الفكر السياسي الحديث هو تحول موضوعي اذ أن ، عصر الاستنارة الفكرية الذي رافق الثورة الفرنسية أدى الى اندحار الاوتوقراطية وبروز الديمقراطية بظهور طبقة الرأسمالية وهزيمة الاقطاع . كما أن الثورة أصبحت أمرا مشروعا بعد أن كانت محرمة وغير مشروعة «والاستيلاء على السلطة يعتبر مسألة واقع ، فهو ليس بالطريقة القانونية المتبعة لتعيين الحكام ، ولكن بمجرد السيطرة الفعلية على السلطة يتولد حق جديد وهو عرض السلطة الجديدة برنامجها والاهداف التي جاءت من أجلها »[٢٢] .

وهذا العامل هيأ اطارا عاما للافكار الثورية وجعل الفلسفة والفكر السياسي يتسعان لأساليب الحياة التطبيقية ، وبذا أصبحت غالبية الدول تستجيب بهذا القدر أو ذاك الى تحليل مفهوم الحرية بمقادير نسبية . وفي هذه الحالة يكون مبرر الثورة ، استنباطا من السمعة العقلانية للتطور في المجتمع .. فأصبحت الدولة متماثلة مع الانظمة التي هي بنيتها العلوية والدولة الاطار العام .

* ومن المؤكد أن الثورة دليل على فشل النظام القائم في الاستجابة لمصالح الجماهير وفشل القوانين والانظمة السائدة فيه في التكيف مع التاريخ. وهذه ظاهرة اجتماعية تاريخية وهي جزء من تاريخ المجتمعات والدول .

وفي الحقيقة يرجع اعتبار الدولة والثورة علما الى ابن خلدون الفيلسوف العربي الذي جاء بنظرية علمية دقيقة حول نشوء الدول والمجتمعات وعوامل

نموها وضعفها واضمحلالها ، كما أن نظرية الدولة الفاضلة أو المدينة الفاضلة تعود الى الفارابي كما أسلفنا ، ثم قامت محاولة نظرية أخرى عن الدولـة أو المجتمع الفاضل من جانب توماس مور ١٤٧٨ ـ ١٥٣٥ م في كتابه المثالي يوتبيا Utopia (٢٣) وقد قضى التفكير السياسي الحديث كسلفه الفكر السياسي القديم على ان الدولة اما ان تنشأ بالقوة والعنف والثورة باعتبارها تمثـل سلطات طبقية همها السيطرة على المجتمع واستغلال واستثمار الطبقات الاخرى. وبذلك تقيم الطبقة سلطتها ورئاستها على الطبقات الاضعف ، وأما أن تكون قائمة على التفاهم والتعاقد وضرورات الاجتماع .

* وقد اضمحلت نظرية الملكية التي ترجع نشوء الدولة الى الحق الالهي المطلق ، واعتبار الحاكم وريث الخالق في الأرض ، وضعف شأنها نتيجـة لما رافق الملكيات والحكومات الوراثية من مآسٍ وكوارث لحقت بالشـعوب والامم ، ونظرا لما قامت به سلطة الكهنوت الكنسية في أوربا التي امتدت عدة قرون من اضطهاد ديني وممارسات بعيدة عن الدين الذي هو رسالة انسانية سـمحة .

وتعتبر دولة الكهنوت في وقتنا الراهن بدائية التكوين ، رغم أن سلطان الكهنوت موغل في القدم « فقد وجد الكهنة والملوك ، في المجتمعات البدائية للغاية والتي لا يعرفها الا علماء أصول الانسان »(٢٤) .

وسوف نعرض ونناقش أبرز نظريات الدولة في الفكر السياسي الحديث فنقارنها بنظرية الدولة في حزب البعث العربي الاشتراكي ليس من باب المفاضلة وانما من باب القياس ومن باب كون نظرية البعث في الدولة مستمدة من الواقع العربي ذاته اذ لم « يأت تفكيرنا الاشتراكي من الكتب ، من الافكار المجردة من النزعة الانسانية النابعة من مجرد الشعور بالشفقة ، وانما أتى من صميم الحاجة ـ أتى بدافع الحاجة الحيوية ـ لننقذ أمتنا من الفناء »(٢٥) .

* اضافة لذلك فان البعث الان وبعد مرور اكثر من عقد من الزمان في الحكم مارس نظريته تطبيقا في القطر العراقي وأفاض في مساجلات نظرية الدولة وابتدع صيغا علمية في تناولها مستمدة من تراثه الفكري ونضاله العملي ومجهودات مناضليه الفكرية والاضافات والاستكمالات الفكرية في الموضوع نفسه .

وعلى أية حال سوف نلم ولو المامة موجزة بأبعاد نظرية البعث في الدولة من خلال مجهوداتنا المتواضعة هذه بعد تحليلنا لاهم النظريات المؤثرة والقائمة في التفكير السياسي المعاصر ، وقبل الدخول في هذا المجال لابد لنا أن تتذكر أن الحزب يناضل من اجل دولة الوحدة ، أي الدولة العربية الشاملة ، وهذا الجانب ليس لغزا نظريا ، بل هو واقع حي ، والنضال من أجل الوحدة ، يعني النضال من أجل الدولة العربية الواحدة كما هو معلوم اذ أن « نقل هدف الوحدة من المراحل الاخيرة للنضال الى المراحل الاولى ، بقدر ما عبر عن ادراك عميق لأهمية الوحدة ، فانه ساهم في حماية النضال الاجتماعي النضال من أجل الاشتراكية « والنضال الديمقراطي ـ النضال من أجل الحرية من التبدد والضياع والانزلاق »[٣٦] .

فشعار الوحدة واقع عملي لدولة الوحدة ، لكنه يكتسب بعدا نظريا عميقا كما سيأتي في السياق ، لانه ممارسة الجماهير في النضال لاغناء النظرية وتحقيقها معا ..

أ ـ نظرية العقد الاجتماعي :

تقدم لنا نظرية العقد الاجتماعي لمؤسسها توماس هوبز ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩ م[٣٧] ـ الذي سبق جان جاك روسو في مجال العقد ولكنه اختلف عنه في المبادىء ـ صورة تمهيدية للدولة . وفي رأيه أن الدولة تنشأ على القوة،وان اطاعة الدولة واجبة قانونا . اذ انها ظل الله في الارض . والحاكم يجب أن لا يحيد عن القوانين التي سنتها الشرعة الالهية لانه يفقد صفته بهذا . وتتفق

نظرية هوبز مع القانون الطبيعي الذي يرى فيه هوبز أنه تماثل بين الطبيعة والانسان ، وعلى الانسان أن يخضع للطبيعة كما يخضع لمشيئة الملك أو الحاكم •

* ولا تختلف نظرية هوبز في « العقد الاجتماعي » عن نظرية أفلاطون فيجمهوريته أو عنأرسطو فيكتاب «السياسة» الا في بعض التفاصيل، فالانسان لديه محب لنفسه وهو مفطور على الانانية وحب الشهوات والرغبات واندفاعه الى الاجتماع قائم على أساس تحقيق رغباته في السلامة وضمان البقاء ، ويعتبر هوبز أن المجتمع الطبيعي هو المجتمع القائم في حالة كفاح مستمر تحدُ البشر فيه المشاعر والاهواء والمنافسة والشك • ولذلك فالعقل يدفعه الى التمادى والتوسع في تحقيق تلك الرغبات ولكن العقل لا يطيق الكفاح المستمر بسبب أن ذلك ليس محققا لرغبات الذات فالسلامة تقضي اقامة سلطة مشتركة « يفوضون اليها سلطتهم ، وهنا تتفق الجماعة فيما بينها على الخضوع الى سلطة واحدة ،وتصبح هذه السلطة عماد الدولة وعماد الحكم ، وهي سلطة يمثلها في الغالب ملك أو حاكم مطلق »(٢٨) •

ويعتمد هوبز على القوة في تأمين وجود الدولة وديمومتها ، اذ ان المنضوين تحت لواء الدولة الموصوفة لا يمكن أن يتعايشوا بدون قوة تحمي الجميع ، وبدون تلك القوة الخاصة يصبح كل انسان معتمدا على قواه الشخصية •

ولهوبز اراء فيما يسميه القانون الطبيعي الاول واراء فيالمدنية والحضارة، الا ان اراءه في السياسة والاجتماع أثارت في وقتها عاصفة هوجاء ضده ، رغم أنها تبدو الان متخلفة عن العصر وروحه •

* اذن لا يحق لنا المقارنة بين آراء هوبز ونظرية حزب البعث العربي الاشتراكي لأن الفرق واسع وشاسع ولأن النقد يوجه لهوبز • وقد وجه له نقد في عصر الاستنارة واعتبرت نظريته تطويرا للسلطة الكنسية والملكية

الوراثية ، واعتبرت أفكاره ايضا ميتافيزياء تأملية ، وذلك النقد اعتبر هجوما موازيا لسلطة اللاهوت لا سيما في عصر الثورة الفرنسية •

ان الميتافيزياء الهوبزية كما قيل عنها أرادت انقاذ سلطة الكنيسة والملكية فراحت ضحيتها رغم أن هوبز اعتبر مجددا في عصره وحاول ما وسعه الجهد الابتكار لانقاذ سلطة عفا عليها الزمن ذلك أن الكنيسة والملوك كانوا مرتبطين بالنظام الاقطاعي الذي يناوىء القوى الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الطالعة، كما أن الدولة التي تمثلها مثلت سلطة منحطة في العصور القديمة والعصر الذي عايشه وقد تكون سمة تصور مجتمع مثالي والفضيلة المتخيلة فيه هي التي حببت لهوبز تلك الافكار •

* ان انهيار أية دولة يعود الى ما تلقاه من زراية وابتذال من المجتمع ذاته بعد أن تفقد مبرراتها الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وبعد أن تستفحل المتناقضات الاقتصادية والاجتماعية والقومية فتجعل العقل في الدولة — من قانون وتنظيم وسلطات ومؤسسات وأيديولوجيا — بعيدا كل البعد في أدنى حدوده عن الواقع الاجتماعي والقومي ،• وعلى عكس ما ذهب اليه هوبز فان القوة لا تحمى الدولة دائما اذ أن ما يحميها العلاقات الفاعلة بين البشر — جماعات او طبقات أو افرادا — وتلك الفعالية تنبع من نظرة الدولة الى المجتمع باعتبارها ممثلة له وتحقيقها للحرية والديمقراطية •

* وقد أكد حزب البعث العربي الاشتراكي في أدبياته ونشراته وخطب مسئوليه وقادته أنه ليس هنالك اكتفاء ذاتيا للدولة لان الدولة قائمة بما هو اجتماعي وثوري واشتراكي وديمقراطي «ان ممارسة الجماهير الشعبية لحقوقها الديمقراطية على نحو واع ومنضبط ومسئول يقتضي تعبئتها في اطارات تنظيمية تمنحها القوة وتنتج توعيتها سياسيا واجتماعيا »[٢٩] •

« ان المنطق العلمي الذي يقوم على التحليل العلمي الموضوعي لظروف النضال وعلى التحليل الواقعي للاوضاع الملموسة التي ما تبرح في تطور وتغير،

هو وحده الذي يتيح رفع الكفاءات الفكرية في صفوف الحزب • وهو الذي ينفى جميع أشكال التفكير الذاتي كالأرتجال والنظرة التقريبية والكسل العقلي والتفكير الوعظي وسائر النزعات المثالية في التفكير »[٣٠] •

* هذه العلاقات الفاعلة بين البشر ليست قائمة بذاتها ولا مطلقة وانما قائمة بوجود الدولة • والدولة ذات صلة وثقى بالمجتمع «في ظروف حكم طبقي معين لابد ان يكون الجهاز الاداري للسلطة صورة لهذا الحكم واداة من أدواته • لهذا فان الحزب في الظروف التي يمسك فيها بزمام السلطة مطالب بتطوير أجهزة الدولة بحيث تصبح هذه الاجهزة في خدمة الجماهير الشعبية لا عبئا عليها »[٣١] •

* ان هوبز كان له شأن في زمانه كما أن نظريته في القرن السادس عشر كانت صدى لنزعة التجديد التي تزعمها مارتن لوثر ١٤٨٣ـ ١٥٤٦ وصارع فيها سلطة الكنيسة الكاثوليكية الطاغية • فلم يكن في ذلك الوقت فكر سياسي بالمعنى العلمي وانما كانت السيادة لخليط من الفكر السياسي الكهنوتي والفكر السياسي المجرد يدعو الى دولة قومية شبيهة بدولة الاغريق • ووجهة نظر هوبز هي المجتمع الذي عايشه أما قياساته الفكرية فكانت قياسات استدلالية أكثر من كونها عملية ، وفي حالة مفردة من حالات الفكر لابد أن تتبين القياس• كما تتبين ملامح العصر الذي كتب به ذلك الفكر ، فهوبز هنا لم يفلت من قياسات عصره ووقف عند الامور التي تصورها حقيقة •

ب ـ نيقولا ميكيافيلي ١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م :

عالج ميكيافيلي في مؤلفاته : الامير ، والمطارحات ، نظرية ضمن تجارب كانت قائمة في الدويلات الايطالية التي هي البقية الباقية من الامبراطورية الرومانية الشاسعة الدولة القومية حسب المفهوم الاوربي بعدما دمر السلطان الكنسي الكهنوتي أوربا قرابة أكثر من ١٤٠٠ عام وأدى التصدع في سلطة الكنيسة الى ظهور سلطات علمانية وفي الامكان النظر الى الفترة الواقعة بين

سقوط « الامبراطورية الغربية وبين نهاية القرن السادس عشر على أنها صراع بين قوتين تقليديتين ، قوة رومة الامبراطورية ، وقوة الارستقراطية التيوتونية وقد تمثلت الاولى في الكنيسة بينما تمثلت الثانية في الدولة »[٣٢] .

« وكانت بابوية القرن الخامس عشر على الرغم من ملاءمتها لايطاليا ، كثيرة العلمانية والدنيوية ، كما كانت صريحة التنكر للاخلاق ، مما لم يرض ما عرف عن البلاد الشمالية من ورع ، وأخيرا وقعت الثورة الاخلاقية في البلاد التيوتونية قوية عنيفة بحيث لم تسمح للدوافع الاقتصادية بالمناورة ، وساد التصميم على رفض دفع الجزية لرومة ، بينما قام الامراء النبلاء بوضع أيديهم على ممتلكات الكنيسة »[٣٣] .

ومن المفيد في هذا المجال نقل ما كتبه مكيافيلي عن هذه المسألة لمعرفة صورة العصر الذي كتب فيه الامير ومن ثم المطارحات ، قال ميكيافيلي : « بقي علينا أن نتحدث عن الامارات الكنسية ، بالنسبة الى المتاعب فيها ، تقوم قبل احتلالها ، ويتم احتلال هذه الامارات اما بطريق الكفاءة أو الحظ ، لكن المحافظة عليها لا تقوم على هذين العاملين ، لأنها تخضع لتقاليد دينية عريقة ، هي من القوة والكيفية بحيث تبقى على سلطان أمرائها ، مهما كانت الطريقة التي يتبعونها والتي يعيشون فيها ، فهؤلاء الامراء وحدهم هم الذين يملكون دولا يحتاجون للدفاع عنها ، ويكون لهم رعايا لا يحكمونهم ، ودولهم ، رغم انعدام وسائل الدفاع عنها ، لا تسلب منهم ، ورعاياهم ، رغم أنهم لا يشعرون بأنهم لا يحكمون ، لا يكرهون ذلك ، وهم لا يفكرون ولا يستطيعون أن يفكروا بالابتعاد عنهم»[٣٤] اذ أن جذور ميكيافيلي عن الدولة تمتد عميقا في تاريخ أوربا وتاريخ ايطاليا وتمتاز كتاباته بالتجريبية كما أنه كان مشاركا في السياسة بعكس هوبز وجون لوك وبنثام ، وكما أن نظرية ميكيافيلي عن الدولة عبارة عن دراسة مقارنة بين الدول المتجاورة كأسبانيا وفرنسا وهي مثال للدولة القومية الاوربية في مرحلة الرأسمالية التجارية ، فهو في ذلك شأن غاريبالدي الذي يسعى الى أقامة دولة سياسية ايطالية موحدة وابرز ما في نظرية

ميكيافيلي عن الدولة مقوماتها في السلطة والقوة والمنعة والشئون العسكرية والادارية وامتلاكها للقوة الاقتصادية .

كما أن ميكيافيلي مقلد في نزعته السياسية المجردة ، جمهورية روما القديمة وهو « لهذا يـرى أن كل ما عملته هذه الجمهورية ، مثلا ، نستطيع احتذاء حذوه في سلوكنا السياسي اليومي ، ذلك لان مبادئه كما قال تصلح لجميع الازمنة والاوقات ، وهو لا يرى جدوى من القوانين الاخلاقية التي آمن بها شيشرون cicero كل الايمان في القضايا السياسية »(٣٥) .

* وميكيافيلي معجب بالرومان الاقدمين أباطرة ودولة وشعبا . وقد استفاد في نظريته من أساليب القادة الرومان وبخاصة العسكريين منهم ، ودعا الى استخدام كافة « الحيل » من أجل الحصول على النصر في المعارك ، ويرى أن ، استخدام الاساليب المؤثرة من علمانية ودينية واسطورية وتفسية مسألة طبيعية في السياسة ، وبذا يعتبر ميكيافيلي واضع الشعار السائد « الغاية تبرر الوسيلة » ويبدو أن ميكيافيلي أثر في عصره كثيرا .

استفاد من أفكار ميكيافيلي كل من شارلكان أو شارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١٥٠٨ ــ ١٥٥٨ الذي كانت ممتلكاته تضـم أسبانيا وأجزاء من ايطالية والمانية والنمسة والبلاد المنخفضة والامريكتين . وتأثرت بأفكاره كاترين دى مدشى ١٥١٩ ــ ١٥٨٩ وهي ابنة لورنزو دى ميدشى وزوجة هنرى الثاني ملك فرنسـا كانت ذات دهـاء سياسي ، وقد حكمت في عهد ولدها شارل التاسع فقامت بمذبحة القديس بارتولوميو التي قتل فيها البروستانت في فرنسا ، وكذلك كروميل الذي استفاد من بعض جوانب كتاب الامير ومكن هنرى الثامن من الانفراد بالحكم(*) .

(*) وذلك حسب مطالعات ليسلي ووكر عميد كلية كامبيون في جامعة اوكسفورد وآراء كريستان غاوس العميد السابق لجامعة برنسيون في امريكا راجـع الهامش ٣٦ .

وقد عثر على كتاب الامير في جيب هنرى الثالث وهنرى الرابع ملكي فرنسا عند قتلهما وأعجب به نابليون وجعله في مقدمة الكتب التي ترافقه في حملاته واعتنى به ريشيليو أكبر الطغاة في تاريخ فرنسا وهو رئيس الوزراء في عهد لويس الثالث عشر »[٣٧] .

ويعتقد أن مستشار بروسيا بسمارك كان متأثرا بكتابات ميكيافيلي ، رغم أنه كان يتبع خطى فردريك الاكبر ملك بروسيا مؤسس المانية الموحدة .

وعلى أية حال فميكيافيلي أثر في العصر الحديث تأثيرا بارزا ، رغم أن « المطارحات » قد ابرزت جانبا آخر من تفكير ميكيافيلي السياسي ونعني بــه اعتناءه بالجوانب العامة في السياسة والمجتمع .

* ولا ريب أن هذا المفكر ابتكر نظرية مادية ميكانيكية كلية الواقع في معالجة السياسة واعتمد على النتائج طارقا كل الاسباب التي تؤدي الــى نجاح سياسة الدولة المستمدة أصولها من نظريته ، وتجاهل اختلاف الازمنة والعوامل المؤدية الى قيام هذه الدولة أو تلك ، اضافة الى أن قياساته التاريخية مستمدة من عهود وأزمنة غابرة ومقاييس مختلفة لا تصلح للبشر في كل آن ومكان ، اما قواعده النظرية فتفتقر الى العلم رغم واقعيتها لأن النتائج التــي توصل اليها الحكام وتوصلت اليها الدول التي استقى منها عبره ودروسه ، قد تتوصل اليها حكومات ودول أخرى بأسباب مغايرة .

وثمة ملاحظة أخرى هي أن ميكيافيلي واقعي الى حد الجمود ، فهو لم ينظر الى الحكام بميزان الاتجاه الذي سارت عليه البشرية وهو مكافحة الطغيان والاستبداد بشتى أشكاله ولم يجد في البشرية سوى قطعان من الاغنام يقودها الحكام ، وهؤلاء نظر اليهم لا كما يجب ان يكونوا ، بل كما هم ، وبذلك اضفى على الطغيان صفة قانونية وتاريخية ، فالامثلة التي أوردها في ــ الأمير ــ عبارة

عن انتقاءات ليس من بعد النظر السياسي العلمي أن توضع بقياسها جميع الدول(*) .

ويتجاهل ميكيافيلي الخط الفاصل بين العصور والقضايا الداخلية التي قد تنطبق على هذه الدولة لكنها لا تنطبق على غيرها وأثر العوامل الجماهيرية والطبقية والفعاليات الانسانية والقومية التحررية بنفس القدر الذي يتجاهل فيه الزمن التاريخي وجدلية الترابط بين الدولة والجماهير في حالة الاستقرار ، والرفض والسخط في حالة الثورة .

* أما البناء التحتي للدولة ، الانتاج ، الطبقات ، والاقتصاد بجميع فروعه ، فهي في نظره مجرد أدوات للدولة ، وهذا يلاشى الجانب الحسي الملموس في نظريته للدولة ويجعلها مجرد مذهب تجريدي نظري أكثر مما هي واقع عملي محسوس ، فالدولة عنده جوهر ومبدأ ثابت ، رغم أن الامير لايبدو كموجه الصاروخ الحديث ، وانما له المام في كل المسائل المتعلقة بشئون مجتمعه ، وعلى هذا فميكيافيلي يجمع بين الروح وبين النظرية المجردة ويحاول التوفيق بين النظري والعملي في محاولة للقفز فوق التاريخ .

* وتتجلى المادية الميكانيكية في تفكير ميكيافيلي في معالجته لاوضاع الدولة القومية معالجة سوفسطائية طبقا لأوضاع القانون الطبيعي السائدة في عصره مستمدا جذورها من القانون الروماني متجاهلا مكتشفات العلم ومتغيرات التاريخ التي تضع للدول مقاييس مستمدة من الحياة الانسانية السائدة نفسها.

والقول بأن القانون الروماني في التعامل مع الجماهير صالح لجميع الازمنة قول ركيك ان لم نقل فاسدا ، فالقانون الروماني اعتمد قمع الجماهير

(*) لقد دافع البعض عن ميكيافيلي متهما الاخرين بالسطحية انظر :ـ تأملات تأريخية في ميكيافيلي والميكيافيلية ، د . احمد مظهر ، آفاق عربية العدد ٦ سنة ١٩٧٩ وبين ايدينا كافة الدراسات التي كتبت عن ميكيافيلي المدافعة عنه والمؤيدة له والمحصلة التي يخرج بها المفكر الثوري هي ادانة ميكيافيلي لانه يضع النخبة فوق الجماهير .

الرومانية كما جاء في السطور السالفة من هذا الكتاب ، وهو قانون طبقي في لحمته وسداه .

لكن ميكيافيلي قد أدرك الحالة البائسة لايطالية المفككة ولذلك عالج نظرية الدولة معالجة انتقائية ، معتمدا أمثلته الخاصة بالتاريخ ، ومعمما نظريته في الدولة على جميع العصور ، وأوصى أميره أن يصطنع الرياء والحيـــل والمواربة في السياسة للوصول الى السلطة .

* ان تاريخ الدولة هو تاريخ المجتمعات وقد انهى التاريخ والمجتمعات نظرية الدولةذات السلطةالارستقراطية،كما أن الملكيات الطاغية اضمحلت والبقايا آخذة في الاندحار ، وتقدم لنا ايطالية في تاريخها أمثلة عدة على ذلك حتى نهاية موسوليني وحتى أن قيصر بروجيا الذي كان مثال البطل عند ميكيافيلي كان من أفظع البرابرة[٣٨] . ولم تكن همجية قيصر بورجيا تنطوي على الخديعـة والمكر بمقاييس عصره لانه لجأ الى التقاليد وسلطة العادات السائدة آنذاك .

الا انها بمقاييس الفكر الثوري فضائع وحشية ودكتاتورية ، ذلك لأن الثورية « هي موقف شمولي جذري وعلمي من المجتمع يتناول أسس واشكال الاستغلال القائمة في هذا المجتمع ، وينطلق من حقيقة كون هذا الاستغلال هو الجذر في الضياع الانساني فهو شمولي بمعنى أنه موقف فلسفي »[٣٩] .

واذا كان ميكيافيلي اعتبر الاخلاق ضربا من ضروب الخيال فانه بهذا فصل السياسة عن الممارسة الانسانية والاجتماعية والقومية ، وجعلها مجرد معادلات وقائعية لان الانسان لا يملك واقعا حقيقيا الا اذا اندمجت السياسة في الاخلاق. والصراع ضد الدولة الاستبدادية والمستغلة هو صراع تؤلف الاخلاق نكهته النفسية،فالكائن البشري ليس جاثما في الوقائع السياسية المجردة وليس قائما خارج ذاته ، ولهذا فهو يحقق ذاته أي يحقق أخلاقيته في النضال الثوري بوساطة الاخرين والتلاحم معهم ، لأن الدولة الاستبدادية تنتج لدى الانسان أخلاقية مقلوبة ، فهي بالذات عالم مناهض للذات الانسانية ، وليست الدولة هي التي

تصنع الانسان بل ان الانسان هو الذي يصنع الدولة ، والدولة الثورية لدى البعث « صيغة وعلاقات وتجاوب مع الواقع المشخص »[٤٠] .

* ومهمة الدولة الثورية أن تقيم حقيقة الانسان بوساطة نقد المجتمع نقداً ثورياً وهذا ما يعطى للظواهر الحسية اعتبارها فيكون الانسان حقيقة ملموسة وليس وهما طوباويا كما لدى ميكيافيلي ، يقول ميكيافيلي بهذا الصدد « نأتي الان الى الحالات التي يرتفع فيها المواطن الى مرتبة الامارة ، لا عن طريق الجريمة والعنف الذي لا يحتمل ، بل عن طريق تأييد رفاقه المواطنين ، وهذه الحالة التي ندعوها بـ « الامارات المدنية » وللوصول الى هذا المنصب لا يعتمد الانسان كلية على الكفاءة أو على الحظ ، بل على المكر »[٤١] .

بينما يؤكد التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القومي العاشر ، أن بناء دولة عصرية يستلزم الاعتماد على الجماهير ورفض الفردية والتسلط والبيروقراطية[٤٢] لأن « الدولة كانت دائما أداة قهر بيد الطبقات الحاكمة تستعملها لاستغلال طاقات وامكانيات الجماهير الشعبية الكادحة لذلك كان هناك شبه طلاق بين المواطن والدولة ، فهو لا يشعر بالارتباط الصميمي والصادق ، لأنه يدرك انها بعيدة عنه ، وهذا ما دفعه في بعض الاحيان الى حد الكفر بالدولة والوطن والامة »[٤٣] .

الدولة التي يترابط فيها المواطن مع ذاته وحقوقه وواجباته لا تحتاج الى « المكر » الذي دعا اليه ميكيافيلي ، وفي الوقت الذي يكون فيه الحكم شعبيا يصبح الشعب هو صاحب السيادة « وانه وحده مصدر كل سلطة وقيادة ، وان قيمة الدولة ناجمة عن انبثاقها عن ارادة الجماهير . كما أن قدسيتها متوقفة على مستوى حريتهم في اختيارها ، لذلك يعتمد الحزب في أداء رسالته على الشعب ويسعى للاتصال به اتصالا وثيقا ويعمل على رفع مستواه العقلي والاخلاقي والصحي والاقتصادي ، لكي يستطيع الشعور بشخصيته وممارسة حقوقه في الحياة الفردية والقومية »[٤٤] بينما لا يدعو ميكيافيلي الا الى الخلاص من الطغيان فقط « وعلى الامير الذي يصل الى منصبه باختيار الشعب أن يحافظ

على صداقته ، وهي في متناول يديه ، اذ أن كل ما يطلبه الشعب لا يعدو الخلاص من الطغيان »[٤٥] أي أن الخلاص من الطغيان منة من الدولة والحاكم لدى ميكيافيلي وهذا ضيق في الفكر السياسي وتصوير سلبي للجماهير بلا صحو عقلي ، وذلك أمر في حد ذاته لم يبق موضوعا يجدر التفكير به ، اذ ان هذا الفكر الاستعلائي الفوقي قد سبق دحضه ، لكنه موجود في مستوى الدراسات السياسية ، ولذلك فان محصلاته القصوى في جماعها لا تتجاوز مستويات الدراسات النظرية في الاكاديميات والجامعات ، فهو فكر متناقض تناقضا صارخا مع البديهيات الفكرية للفكر الثوري حتى في حده الادنى •

* ان الفلسفة السياسية الميكيافيلية للدولة هي التاريخ الايطالي الذي اتخذ سمة امتداد فكرانية لانتقاءات معينة من تاريخ الدول الاخرى ، واذا كان نظام الدولة الذي يتصوره ميكيافيلي هو الذي يعبر عن النظام القديم في اكتماله بعد تجريده من سلطان الكهنوت ، فأن اخلاقية الحاكم تغفل الانسان الواقعي وتجرد أخلاق الشعب من أي مضمون اقتصادي واجتماعي أو ثقافي وهذا ما اكدته بعدئذ البورجوازية التي لم توازن بين الاخلاقي والواقعي ، وبين الواقعي والاخلاقي والمضمون الثقافي ، والاقتصادي للفرد والجماعة والطبقة ، فالانسان ــ ماهية ــ بيولوجية معطاة وجاهزة مسبقا عند ميكيافيلي وهذا ما يجعل تلك الماهية ثابتة خالدة ، وهذا ايضا ما يؤدى الى استحالات كثيرة ، من أهمها :ــ

أ ــ استحالة القضاء على الغربة والضياع •

ب ــ استحالة تحقيق الفكر الانساني بوساطة المجتمع •

جـ ــ استحالة تجاوز زواجر الدولة بوساطة الديمقراطية ، فالضياع والغربة ، تؤدى الى انفصال الكائن عن الدولة وبالتالي تصبح زواجر الدولة وأداتها التنفيذية أكثر مباشرية مع المواطن •

د ــ استحالة استرداد المواطن لعقلانيته الواقعية في روابطه الاجتماعية ، لأن

الدولة التي بشر بها ميكيافيلي ، تجعل تلك العقلانية موكو ُة الى القسر والاجبار والعسف الذي تفرضه السلطة على الناس .

* وهنا نرى أن ميكيافيلي التبس عليه الامر في موضوع الاخلاق « وكثيرا ما يلتبس الأمر بين الاخلاق كمفهوم فلسفي للرابطة وبين الكائن الاجتماعي والقيم التي هي رابطة مطلقة ، وبين القيم الاخلاقية كمفهوم اجتماعي للرابطه بين الكائن الاجتماعي ومجتمعه والتي هي رابطة حية ومتحركة بتحرك نوع العلاقات الاجتماعية السائدة »(٤٦) .

وهذا الالتباس قاده الى اعتبار الاخلاق كما مهملا وجعل دولته المتحررة من الكهنوت الكنسي مكهنة بالكهنوت السياسي للامير ، فجرد الاخلاق من مضمونها الاجتماعي وألبسها لباسا قسريا كلبوس الاقنعة في المهرجانات الفولكلورية ، لكنه قناع السلطة الرسمي الذي تلبسه الأجهزة القمعية للناس .

« أما حزب البعث قياسا على كتابات القائد المؤسس فقد تحسس ضياع الانسان العربي في واقع التجزئة والتخلف والاستغلال الطبقي ، فكانت فكرة الوحدة بمفهومها الثوري الاشتراكي هي الجوهر الخلاق للانتماء القومي ، وكانت الفكرة الانقلابية كفكرة حية هي الجوهر الاجتماعي للقيم الاخلاقية تحكم صراع الانقلابيين للوصول الى الاهداف الاساسية للثورة العربية في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الامة العربية »(٤٧) .

* ان الوعي الجماهيري هو بداية أخلاقية أما المضمون الاقتصادي والثقافي والسياسي فهو المحتوى ، في « حزب الوحدة والحرية والاشتراكية الذي استخلص هذا الجوهر الاخلاقي ليقود مسيرة الخلاص من الضياع والغربة كان لابد له من أن يجعل الاخلاص لهذه الفكرة الجدلية والحية القيمة الاخلاقية الاساسية بحيث يجوز ان يكون بعثيا كل عامل من أجلها بالوعي وأن لم يكن بعثيا بمعنى الانتساب الحزبي »(٤٨) .

* أما الغاية والوسيلة فعدم التطابق بينهما هي نقائص سائر أشكال الحكم الرأسمالية والاقطاعية والدكتاتورية وأشكال أخرى وبخاصة في

الاوضاع التي تعاني الحكومات فيها ضغطا من الشعب ، أو من دوائر اخرى في اجهزة الدولة .

ولو أننا نفذنا الى صميم تفكير حزب البعث وممارساته وتجاربه لرأينا أن اخلاقيته لا تجيز تبرير الوسيلة بالغاية ، اذ « أن أهم المبادىء الاخلاقية للحزب الثوري التوافق بين الغاية والوسيلة »(٤٩) « فقد ظل الحزب باستمرار يفضح الاساليب غير الثورية في الوصول الى السلطة ويفضح الاساليب غير الثورية في الحفاظ عليها ، فاذا كانت السلطة هدفا ثوريا فأنه يجب بلوغها بالوسائل الثورية ، واذا كانت السلطة ليست هدفا بحد ذاتها فان وسائل الوقوف عندها دون الاهداف الاساسية التي اعتبرناها الجوهر الاخلاقي لفكرة الحزب هي افتراق عن الغاية وبالتالي افتراق عن الجوهر الاخلاقي للحزب »(٥٠) .

ولعله من المضامين الخلقية لمفهوم الاخلاق والدولة هو الشعور بالمسئولية المشتركة لدى الشعب بمعنى أن توجه الاخلاقية الفردية والجماعية العامة الى خدمة الانسان والمجتمع لتحقيق التكامل وتحرير قواهما ومساعدتهما على الانطلاق وتنمية قدراتهما على التغيير والتنمية الاقتصادية والثقافية بتشكيل النواة الكلية للمجتمع بين القاعدة ــ الانتاج وتوزيع العمل ــ وبين البنيات العليا ــ المؤسسات والقيادة ، ان لهذه الروابط متانة كبيرة في الدولة لدى البعث ، وهذه الروابط قادرة على اعادة الانسان الى اخلاقه الصميمية متخطية الضياع والغربة وكل ما يؤدى الى انكار الانسان أو جعله وهما مجردا .

* وحينئذ تتجلى العقلانية الثورية في الاخلاق التي رصدها البعث فكرا وممارسة وعلاقات ، تلك العقلانية الثورية الاخلاقية التي نمت من خلال النضال والصراع مع الاوضاع الفاسدة ، غير أنها تتجلى واقعا ــ عندما أصبح حكم البعث حقيقة ملموسة بعد ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ فـ « التنظيم السياسي للسلطة الثورية الشعبية في ظروف البناء الاشتراكي في بلد متخلف ينبغي ان يقوم على أسس توفر الجمع بين وحدة القيادة وقوتها وبين ديمقراطيتها

وشعبيتها ، ولهذا فان مبدأ المركزية الديمقراطية هو الاساس الملائم لقيام مثل هذه السلطة »[٥١] ٠

ليس من العسير اذن أن تفهم لماذا تتنافى نظرة البعث للدولة مع أفكار الكثير من فطاحل الفكر البورجوازي ؟٠٠ وتحليل ميكيافيلي هنا ليس بالضرورة انتقاء لعينة من عينات ذلك الفكر ، وانما لأن هذا المفكر له وزن كبير في نظريات الدولة ولأن الدولة في رأيه كما قال كريستيان غاوس : «هي قوة يجب أن تعتمد على العمل الدينامي »[٥٢] ولأن نظرية ميكيافيلي في الدولة يسرى مفعولها على القوانين المشتقة منها وهي بالضرورة نظرية القوة ، وهذه القوة لا زال جزء كبير من الدول يطبقها وكأنها خير ما ابتكر الانسان وابدع ٠

ج ـ جون لوك :

عالج جون لوك ١٦٢١ـ١٧٠٤ مسألة الدولة في كتابه «آراء عن الحكومة المدنية » معالجة لا تختلف عن معالجات أفلاطون وأرسطو ، وقد عرف عنه علاقته بالكنيسة والدولة في عصره[٥٣] وتشابه معالجة توماس هوبز لكنها تختلف عنها في التفاصيل ٠ وفي رسالة عن الدولة يؤكد أن السلطة حقيقة واقعة « وانها يجب الا تستخدم الا لخير المجموع وأن اساس الحكومة هي الرضى ، وأن السلطات التي يزاولها الامراء والحكام وتعلق بهم لا على أساس حق مطلق قائم على المنح والاتفاق ولكن بشروط تتخذ شكل التفويض بحيث يقع العزل اذا لم تنفذ هذه الشروط »[٥٤] ٠

ويجد لوك أن السلطة تخدم غرضا واحدا وهو خير المجموع ، فيفترض بالحكم تحقيق ذلك الخير وحماية الممتلكات والسلامة العامة ٠ وهذا المقياس تقاس به القوانين والحكومة ، فاذا لم تستطع الدولة سن تشريعات ترضي الناس فأولى بها أن تعتزل الحكم ، ويعتبر لوك السلام الاجتماعي من أهم مقومات الدولة ، ويعنى به ، حفظ الامن ، وعدم تطاول طبقة على أخرى والغاية من السلطة هي تعزيز ما أسماه بالسلام الاجتماعي ، وهو بهذا لا ينظر الى الدولة الا كقوة ــ حيادية ــ ولا يرى أن هناك تناقضات طبقية أو تفاوتا اجتماعيا في المجتمع ، اذ أنه يجد أن سمة المجتمعات هو التنظيم الاجتماعي للعمل وهو من

سمات العقل لان الانسان « كل انسان لا يؤذي أخاه في نفسه أو حريته أو ماله »[٥٥] اذا خضع الناس لحكم العقل .

وتتميز نظرية لوك بما يمكن تسميته بالعقد الاجتماعي « ذلك أن هوبز رأى أن المشتركين في هذا العقد هم الافراد الذين يتعاقدون على التنازل عن حقوقهم لشخص أو لهيئة حاكمة ولكن هذا الشخص نفسه أو تلك الهيئـة تكون او لا تكون مشتركة في هذا التعاقد »[٥٦] .

« أما العقد الاجتماعي عند لوك فهو تعاقد طرفاه الشعب من جهة والملك من جهة أخرى ، وليس طرفاه ، واحد ، كما ذهب الى ذلك هوبز حين قــرر أن الملك ليس طرفا في التعاقد . وما دام التعاقد عند لوك هو تعاقد بين طرفين فانه من ثم يكون ناجما عن رضى الطرفين تماما »[٥٧] .

* ويرى لوك أيضا أن الصراع الطبقي الذي يسميه بالحرب والاعتداء يقع في حالته المعلنة عندما يبتعد الناس عن العقل وعندما لا توجد سلطة مشتركة عليا تنفذ حكم العقل فيفسر كل فرد الامور حسب رغباته وتفسر كل جماعة الحياة وفق هواها وهذا حسب تعبيره يؤدي الى الاضطراب والفوضى .

ورأي لوك في السلطة التشريعية قائم على العقد كما ذكرنا . لكنه يرى أن الشعب يستطيع ان يلغي السلطة التشريعية او ان يعدلها اذا رأى أنهـا مخالفة لقواعد العقد وبذلك يحق للشعب أن يثور .

* يعتبر لوك أول من جعل حق الثورة حقا قانونيا في الفكر السياسي الغربي كما أنه يعتبر المبشر بأفكار الرأسمالية التجارية النامية قبل الثــورة الفرنسية رغم أن بعض المفكرين الغربيين التقدميين اعتبروه ممثل الاوليغاركية الانكليزية والمراتب الدنيا من الكنيسة ، على أن لوك يرى أن السلطة تتبع رأي الجماعة لا رأي الفرد او الافراد .

* وراي لوك في الدولة مستمد من مقــدمات البورجوازية التجارية النامية ، فتحت أغلفة العقد الاجتماعي الذي بشر به لوك كان المجتمع الاوربي وبخاصة الانكليزي الذي يعتبر مهد الثورة الصناعية ينمو في المضمار الانتاجي

الاولي للتكنولوجيا الآلية التي عاصرت اختراع البخار لجيمس واط ، وانحسار عصر المنفكتورة رويدا رويدا واحلال الآلة محل النول اليدوي •

ونظرية لوك في الدولة وفي العقد الاجتماعي مبنية اساسا على حق الملكية الفردية وتوسع هذه الملكية بشكلها الرأسمالي الجديد في عصره الذي بدأ يحل محل الملكية الاقطاعية ، ولذلك لا نجد في عقد لوك مضمونا يملأ الثغرات التي تولدها تلك الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتي جعلت العقد الاجتماعي بأيدي الاقوياء الذين استطاعوا تحويله الى مجـرد شكل سياسي كما أثبتت التجربة الاوربية الغربية بعد جون لوك • وتتوسع هذه الثغرات عندما نجـد الفعالية السياسية ذاتها تسقط بأيدي البورجوازيين ـ وقد سقطت بالفعل ـ أما الكائن الانساني فيقع فريسة السلعة والمال •

* وجملة القول أن عقد لوك الاجتماعي لا يعتمد على قاعدة صلبـة لتحقيق عناصره وهو بهذا وقع بأيدي الرأسماليين الذين استغلوا قوة العمل لدى العمال وحصلوا على فائض القيمـة • ويجب أن نلاحظ أن أنشـطة الرأسمالية التجارية في عصر لوك كانت تقوم على عدم تدخل الدولة في شئون الاقتصاد ؛ وهذا يعنى ترك المستغلين أحرارا في تصرفاتهم •

* ان مثالية جون لوك لا تجد أرضا تقف عليها ، واذا وجـدت تلك الارض فانها غالبا ما تكون موبوءة بالذين يستغلون البشر ويضعون الافراد والجماعات في حالة قسر أزاء الدولة نظرا لان الملكيـة الخاصة هي القاسـم المشترك في دولة تحكمها القلة • ان انتقاد الملكية المستغلة شرط أساسي لكل انتقاد اجتماعي وذلك الانتقاد هو السند الذي يجعل أية نظرية قائمة على أرجلها، فلا تبدو كجمهورية افلاطون قائمة في الهواء ، ولا ننسى أن غالبية المعوقات التي حالت دون أخذ الكثير من افكار المفكرين الكبار مأخذ الجد ، كانت تنبثق من كون تلك الافكار غير مبنية على أساس علمي ومن ضمنها أفكـار جون لوك • فـ « المعرفة العلمية هي المعرفة التي تنصب على اكتشاف القوانين، قوانين حركة الواقع من خلال استيعاب كامل لتناقضاته وتفاعلاته »[٥٨] •

واذا كان لوك من أنصــار الديمقراطية الرأسمالية في عهدها التجاري حينما كانت بورجوازية المدن في صراع محتوم مع الاقطاع المنهار واذا كان لوك قد وقف الى جانب التناقض الكبير ، فان فكره قد تعداه التاريخ ، فقد دخل الان في مرحلة أخرى مغايرة لتصورات لوك وأنصاره ، كما أن فكرته في العقد الاجتماعي أسبغت عليها الرأسمالية بعدئذ اضافة لاحقــة وصادرتهــا لصالح الرأسمال الاحتكاري الذي لا يسمح الان بديمقراطية ــ دعه يعمل دعه يمر ــ يضاف الى ذلك ان السلطة الاقتصادية للرأسمالية التجارية آنذاك كانت تبحث وتفتتن بالايديولوجيات المنبثقة عنها ، لكنها عنــدما تطورت استغنت عن أيديولوجياتها القديمة(*) .

وأصبح السلطان الاقتصادي هو الاساس ، ففي وسعه التأثير على القانون بواسطة الرشوة وشراء اجهزته ، والتأثير على الجماهير بواسطة ملكيته لوسائل الاعلام والدعاية . اما الساسة الذين يصنعون القرارات السياسية فهم ممثلو السلطات الاقتصادية ومن السهل أن نرى كيف تم هذا التركيز بتتبع تطور الرأسمالية ومجتمعاتها .

ان أشكال سيطرة الدولة قد تكون مختلفة باختلاف النظم ، ولكن سيطرة رأس المال توجد حيث توجد ملكية خاصة مستغلة ، ولهذا فان الديمقراطية تظل مجرد شكل يقع مضمونه خارجه .

* واذا لاح لنا المقارنة بين فكر جون لوك وما جاء به حــزب البعث العربي الاشتراكي نجد أن الاول واقع تحت تأثير أفكار طوباوية ، فالعقــد الاجتماعي ليس حرا اذ أن الرأي العام الذي يطلبه جون لوك مقيدا اقتصاديا ثم يأتي دور « الاقناع المجرد الذي يؤدي الى ايمان الاقلية بعقيدتها ، ثم تأتي

(*) كان لجون لوك الفضل على الثورة الامريكية سنة ١٧٧٦ والثورة الفرنسية ١٧٨٩ ودساتير الدول الاوربية في حينه لكن ذلك تلاشى في القرن التاسع عشر . راجع د . ماجد فاخر ، جون لوك وفلسفته السياسية اللجنــة الدولية للكتاب ١٩٥٩ .

القوة ثانيا فتبذل الجهد لضمان تعريض بقية افراد الشعب لتقبل الدعاية »[٥٩] وبهذا تحصل الصيرورة السياسية على ما تريد زاعمة أن ذلك عقد اجتماعي « ولعل من مزايا الديمقراطية من وجهة النظر الحكومية ، أنها تسهل خداع المواطنين العاديين فيعتبر هؤلاء الحكومة القائمة حكومتهم »[٦٠] فيميل العقد الى كفة واحدة في الميزان وبذا يفقد التوازن الاجتماعي الذي دعا اليه لوك مبرراته ويصبح العقد تركيزا واندماجا يؤدي بصورة منطقية الى احتكار الدولة للسياسة ، والدولة هنا ممثلة لقوى الاقلية فيصاب الانسان بالتصدع الداخلي طالما هو مربوط بالإشياء الخارجية .

* ان البعث يربط الدولة بالانتاج والاشتراكية والديمقراطية ، ويجعل العقد الاجتماعي على نقيض جون لوك مستمدا من ارادة الجماهير الطوعية التي تعثر على نفسها بممارسة النضال فتلتمس حقيقتها الموضوعية بارتباطها الحزبي أو بوعيها بالنسبة للاقسام الجماهيرية غير المرتبطة . والجماهير لدى البعث ليست كائنات مجردة كما هو الحال عند لوك ، فالجماهير قائمة موضوعيا ، ليس كما هي قائمة في الانفصام داخل النظام الرأسمالي وذلك ما ينتج عالما زائفا في السياسة،وانما قائمة داخل صيرورة نضالية لأن النضال «هو أساس الفكرة ومعيار كل حقيقة »[٦١] .

* ان الفلسفة المثالية تزعم أن الحقيقة مجردة ــ أما ما ذهب اليه جون لوك فانه اعتمد على الادراك الحسي الذي يعمم التصورات على أساس التجربة « فكل مواد العقل يتم تركيبها في المواد الحسية الاولية ، ويحصل التفكير خلال التذكر وفعالياته الاخرى كالتذكر والتأمل والتعبير والمقارنة في التشابه والتباين واعادة التكوين تصوريا ، وحتى اكثر الافكار تجريدا مثل اللانهاية والسلطة والسبب والنتيجة والمادة والذاتية التي تبدو ظاهريا أنها لا تعطيها الخبرة ــ ليست استثناءات لهذه القاعدة وعلى ذلك فاللانهاية تفصح عن عدم قدرتنا عن عدم التحديد في الحقيقة وفي التصور للامتداد المكاني والزماني للخبرة الحسية وفي مثل هذا تكون المعرفة الحقيقية محدودة جدا »[٦٢] .

* وفي هذا الصدد يسقط لوك في التجربة التي تقصر المعرفة على الحس وحده بينما يغيب عن بالها الجدل الذي يتضمن التناقضات . الاطروحة والنقيض،ويتضمن مكونات الصيرورة للاشياء الجديدة..والواقع أن التجريبية الحسية لدى لوك لا تجرى الا عندما يكون الاختبار هو الاساس ، ومع ذلك فقد أثبت العلم ان التجربة نفسها ليست قائمة بذاتها فهي مرتبطة بمجموعة من الاشياء وما يثبت تجريبيا أنه صحيح اليوم في مضمار العلم تدخل عليه مجموعة من المتغيرات ، أما الحقيقة الواقعية فليست دائما هي بصفة الحس ، فالحس نفسه يغيب عن ذاته فلابد من ارادة لذلك الحس وارادات لتغير مدركاته التي امتلأت بالزيف والخداع في حالات الوعي التقليدي .

* ومع ذلك فقد كشفت الدراسات العلمية ان هناك مئات من الوقائع المشاهدة حسيا لم تكن الا عمليات خداع بصري .

أما التجربة في نطاق المجتمع والواقع فتختلف اختلافا نوعيا عن التجارب الفيزيائية والكيمياوية نظرا لان المجتمع ليس مادة عضوية أو كتله أو طاقة لا مرئية فهو واقع جدلي تتداخل فيه عشرات العوامل ، وتختلف هذه العوامل زمانا ومكانا ولذلك فالتجربة ذات سياق تاريخي في كل مجتمع على حدة .

ان حاجة جون لوك الى الحسية هي حاجة بورجوازية المدن ــ الرأسمالية التجارية الناشئة في عهده التي ساقتها الى فصل الاشياء عن تاريخها وفصل التجربة عن متناقضاتها فأوقعوا الجماهير في الفيزيقية الذاتية البحتة .

* ان نظرة حزب البعث العربي الاشتراكي مناهضة للفيزيقية الذاتية الفردية فـ « السمة الثانية لايديولوجية حزبنا هي الثورية ، لأن منطق التفكير القومي الاشتراكي العلمي في التحليل الاجتماعي والاقتصادي هو منطق جدلي، ينطلق من اقرار وجود تناقض في المجتمع ووجود صراع بين الطبقات »[٦٣] .

أما بالنسبة للحس فيقول الرفيق ميشيل عفلق « الفرد الانقلابي هو الذي يصارع هذا الواقع في نفسه قبل أن يصارعه في المجتمع والاوضاع المادية ، وان

كل الذين لا يصارعون هذا الواقع ، ويحيون حياة هادئة مريحة هم ضمن الواقع الفاسد الذي يجب أن نحاربه »(٦٤) وهذا يفضي الى أن الاحساس أو الحس ليس مجردا من عوامل الوعي والارادة ، وليس هذا انحيازا الى نيتشه أو تروتشكه وغيرهما من مذهبيي « فلسفة الارادة » وانما لان الحس ذاته ليس كائنا بمعزل عن الوعي ، فاذا انفصم الحس عن وعيه أصبح حسا بيولوجيا عضويا لا يستطيع اكتشاف مقومات الواقع وعناصره ، ويبقى الموقف الذي أعطاه الرفيق ميشيل عفلق الى انقلاب الحس الى وعي للضرورة وانقلاب الفكر الى طاقة عملية فعالة تضع الحقيقة في مكانها الصحيح •

* ان انفصال الانسان الثوري عن ـ الحس العام ـ السائد في المرحلة اللاثورية والواقع الفاسد ، يقوده الى الانقلاب على حسه الاعتيادي التقليدي وانفصامه عن ما هو شائع وسائد من أحاسيس سلبية ، حتى يصبح حسه تاريخيا يتناول المجتمع العربي بالتغيير والتبديل ، ولكنه ـ أي الفرد ـ لا يقوى على تحويل الواقع بفعل قوته الذاتية وانما يجب أن تتحد هذه القوة مع قوة الجماهير فتكتسب أهمية الذات ، الى ذات جماعية قومية اشتراكية ، فالحزب ربط الوعي الفردي بالوعي الجماعي ، وأوجد النضال لتحويل الواقع والظروف كجناحين لعملة واحدة •

د ـ جان جاك روسو ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ J. J. Rousseau

● يعتبر جان جاك روسو من أعمدة الفكر الليبرالي الغربي(٦٥) بل أهم دعائمه أجمع في القرن الثامن عشر لانه وضع التنظيم الاجتماعي ضمن منظور أرضي وهو يعبر عن مطامع الطبقة التجارية الرأسمالية ـ بورجوازية المدن ـ بنيت فكرته كسلفه جون لوك على أن أصل المجتمعات قائم أو كائن على التعاقد ، وبدأ كتابه ـ العقد الاجتماعي ـ بعبارة أصبحت بعدئذ من الشهرة بمكان « ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف في الاغلال في كل مكان » فهو في الحالة هذه يجعل الفطرة هي الحالة الطبيعية للانسان وبها وبوساطتها كان

الانسان يشعر بالسعادة الكاملة ، لكن الانسان ـ حسب روسو ـ فقد حريته وسعادته في ظل المدنية ، ثم أن هذه المدنية تعتبر خطوة متقدمة على المجتمع الطبقي مما جعل الانسان يبحث عن أسس جديدة لتظيم المجتمع تكفل حقوق الفرد والجماعة .

* ومصدر السلطة عند روسو اتفاق الجماعة أو المجتمع ، وبدون هذا الاتفاق تصبح السلطة مصدر قسر وعنت وأرهاب وعسف ، والسلطة في رأيه نبعت من القسر لانها اكتسبت القوة في الحضارات القديمة بالعنف والاكراه لكن السلطة اذا اعتمدت على الاتفاق الجماعي أو المجتمعي فانها بذلك تكتسب شرعيتها ، وبقيام هذه السلطة يتخلى المرء عن حريته الفردية لصالح المجموع او يدمج حريته بالصالح العام ، وهو يرى أن هذا لا يعني تنازلا عن الحرية الفردية اذ أن « التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية وتسليم في حقوق الانسان بل وفي واجباته ايضا ، وهذا التنازل لا يتمشى مع طبيعة الانسان ـ فكلمة ـ العبودية ـ وكلمة ـ الحق ـ كلمتان ـ متناقضتان ، كل منهما مانعة للاخرى »[٦٦] .

وهنا في رأيه لابد من الاتفاق على العقد الاجتماعي ، والعقد الاجتماعي يقوم به الافراد وتقوم به الجماعة باستبدال الحرية الطبيعية بالحرية المدنية التي توجهها ارادة المجموع « وهكذا ينتظم المجتمع في شكل ميثاق اجتماعي »[٦٧] ويختص كل عضو بنصيب مشاع في الكل ، وتجد الارادة العامة للحاكم فيما يهم الامة سبيلها في التشريع ، ولا يملك الحاكم هذه السلطة في أصدار القوانين الا لأنه يستأثر بتمثيل الارادة العامة »[٦٨] ، كما أن الناس لابد أن يعقدوا اجتماعات دورية للاعراب عن رغباتهم باختيار الحاكم .

وتعتبر اجتماعات الاغريق أو ما أسميناه بالديمقراطية الاثينية فيما سبق من سطور واجتماعات الرومان في عهد القناصل واجتماعات المقدونيين والافرنجة مثالا يقتدى .

وبهذا فمصدر سيادة الدولة والمجتمع عند روسو الارادة العامة ، وفي رأيه أن أي فرد يرفض ذلك في المجتمع يجب اجباره على الطاعة وعدم الخروج عن ارادة الهيئة التعاقدية ذلك أن ارادة المجموع ليست متلغزا يفسره كل فرد حسب مزاجه ومصالحه ، لأنها تعرف بالاحصاء والتصويت .

* وبطبيعة الحال كان بحث روسو هذا يدور في ظل الملكية الفردية ، فروسو لم يتغلغل في هوية الدولة من حيث هي تركيب اقتصادي ــ اجتماعي وبخاصة في أوربا ، فالدولة حسب القياس التاريخي المعلوم لاوربا هي آلة قمع تخضع كل شيء من أجل هيمنتها ، حتى الجمهوريات والملكيات الاوفى ديمقراطية لا تعدو كونها اداة بيد رأس المال ، والمساواة فيها تصبح مستحيلة لأن الاستثمار فيها باق . أما المساواة التي دعا اليها روسو فهي مساواة أمام القانون « وهي مساواة يصفها روسو بأنها أخلاقية وشرعية »(٦٩) وعنده أن هذه المساواة هي التي تنقذ الانسان من مساوىء المجتمع المدني لأن هـذا الشكل من أشكال الاشتراك العام في المجموع « يستخدم قوة المجموع كله في الدفاع عن شخص كل مشترك وفي حماية امواله »(٧٠) .

* وفي ذات الوقت يعتبر روسو أن الانسان يظل مطيعا لنفسه وحدها لانه بهذا يحافظ على حريته ، واعتقد أن هذا ضرب من الخيـال كما أثبتت التجربة البورجوازية الديمقراطية ذاتها في مساق القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، اذ أن الدولة الرأسمالية استخدمت « ارادة المجموع » كوثنية في قالب أفكار مدنية وهذا ما جعل الحرية البورجوازية نمطا آخر من أنمـاط الضياع الانساني اذ ان المساواة والديمقراطية والحرية في ذلك العالم الرأسمالي لا تنبثق كحقيقة لذلك العالم نفسه . وانما كصورة لا تقوم على التغلغل فيه ، فهي تعالج السطح فكيف تتحقق المساواة في ظل رجال البورصة والبنـوك العملاقة ؟ كما أنه كيف يمكن مساواة الرجل البسيط مع الملاك العقاري او صاحب المصانع ؟.

* والحق أن بناء روسو السياسي والفلسفي مستمد من الطبقة الراسمالية الصاعدة في وقته وقد استمد مدلولاته السياسية من مصالح الجماعات والطبقات التي كانت تعتبر ثورية آنذاك ، ولئن تميز عقده الاجتماعي بمميزات انسانية فقد فقدت تلك المميزات سماتها أمام تقدم الدولـة الرأسماليـة التي ألغت تصوراتها مجمل ما قيل في هذا الجانب ، زد على ذلك أن أفضل وأحسن المذاهب الاجتماعية والفلسفية قد اختزلت وحورت أمام زحف بيروقراطية الدولة الرأسمالية وتدرجها الاداري • وهذا عينه ما يجعل « سيادة المجموع » قابلة للتجزئة فالدولة أدخلت المجتمعات الاوروبيـة الغربيـة في مداخلات ومساومات واختيارات مستمرة ، وغربلت الافراد والجماعات بطرائق عدة • مما جعل الارادة العامة التي اعتمدها روسو ، عملا من اعمال الحكم فمبدأ السيادة العامة اذن ليس ملازما للقانون ، لأن القانون نفسه أصبح عملا من اعمال الدولة الرأسمالية ، وهذا ما يجعلنا نستخلص أن الدولة تنسق وتنقح الواقع تبعا لمقومات الموقع الاقتصادي كما هو الحال في أوربا الغربية وأمريكا واليابان ودول كثيرة ••

أما الارادة العامـة التي هـي كما أسـلفنا ارادة المجمـوع فهـي عنده مجموع ارادة الافـراد وغالبا ما نحس بالتناقض في أفكـار مفكري البورجوازية وهذا ما نحسه في هذه المسألة فالنزعة الوثوقية تترك الواقع وترتبط بالدولة فالدولة عندما تلجأ الى نزع المبادرة من المجتمع الذي تخلى عن ادارة نفسه ، تصبح الارادة العامة بمثابة تجريد أما مصالح أو أرادات الافراد فتحصر ـ حسب حجومها ـ كل على حدة لصالح مصلحة الافـراد الاقـوى اقتصاديا •

* فالتدخل المركزي من قبل الدولة الرأسمالية في شئون ارادة المجموع يجعل المجتمع نفسه في وضع خاضع للدولة وأجهزتها قبل الاعلان عن العقد الاجتماعي ويشرف على هذه العملية كبار ملاكي المصانع والمصارف والمستثمرين وما اليهم فتتحول ارادة الافراد الى تجريد رقمي في مراتبية هرمية •

* وقد لا تخلو من السخف نظرية روسو تلك التي تقول ان « هدف العقد الاجتماعي هو المحافظة على الاطراف المتعاقدة »[٧١] فهذا الرأي يثير السخرية فالزعم بذلك انما هو زعم بكون الدولة هيئة مثالية تحمي أطراف المجتمع كلها ، ويبدو أن روسو قد نسى أن للدولة بيروقراطية آلية تجعلها تسير ضمن الطرف الذي تجد أنها تعبر عن مصلحته ، فطالما أنه ليس هناك انسجام عضوي بين اطراف التعاقد الاجتماعي ، فان الدولة ذاتها تميل الى الطـرف الاقوى فروسو يجهل الآلية الحقيقية لسياق الدولة في أوربا الغربية ، فدوائر الشرطة والجيش والموظفين والادارة البيروقراطية ، ليسوا معينين من قبـل أطراف التعاقد ، فتلك الدوائر قامت وتقوم قبل أبرام العقـد الاجتماعي ، ولذلك فهي هيئات ترتبط بالدولة وتدير شؤونها ، واذا ما وضعت في خدمـة أطراف العقد ، فليس ذلك الا من قبيل التجريد النظري .

* ولكن في دولة قائمة على أسس اقتصادية يرتقى فيها الصالح الخاص الى مستوى الصالح العام ، تكون تلك الدوائر في خدمة المصلحـة العامـة المشتركة مع كافة الهيئات الاخرى فالانسجام العضوي المتين بين دوائر الدولة والمجتمع لا تكون ممكنة مطلقا الا في الحالة التي يكون فيها المجتمع السياسي مطابقا للمجتمع المدني وكذلك تطابق الدولة مع بنيتها التحتية وجملة المواطنين عامـة .

وهكذا يقودنا التحليل الى نبذ المطابقة بين أطراف العقد الاجتماعي لدى روسو وبين واقع الدولة ، فالمطابقة الواقعية ناقصة خادعة وغير عقلانيـة ، فالدولة ذات البناء الرأسمالي لا تدع العقد الاجتماعي نقيا وانما تدخل فيه اضافات وصياغات تغتصب حقوقا وسلطات الى جانب كون الرأسمال يتمايز عن غايات ومصالح الناس الذين لا يملكون وهو بهذا يسعى الى سد الحاجة العملية لمقتضيات الاقتصاد ، فتنقلب الدولة الى حارس لمصالح الرأسمال . أما حماية أطراف العقد فتصبح حماية صورية ، ويظل الافراد الذين يمتلكـون عصب الدولة غايتها ومدلولها الرفيع ، فتحول الرأسمالية الدولة الى مضمون

مشخص لحمايتها وخدمة أغراضها أما الجماهير فتتحول الى صورة مجـردة وبذلك تنقلب أهداف الدولة الى أهداف رأسمالية .

على أن هذا التشابك المعقد والمركب لا ينفي قيام التناقض فالرأسمالية دائرة لا يستطيع أحد الافلات منها . الا أنها هشة في حلقاتها الصغرى والكبرى وتناقضاتها تنبع من أحشائها كما هو معلوم[٧٢] .

* العقد الاجتماعي عند روسو اذن صورة تخلع على واقع أوربي معين فينسلخ مضمونها عنها لتخلق مضمونا ترضى عنه يطاوعها بوساطة الدولـة مطاوعة يمكنها من مناهضة الحرية بواقعها الحقيقي .

هنا يحق لنا تسمية ذلك العقد الروسوي أنه عقد صوري ، وبوصفه صوريا يسعى الى شعور سام ورفيع يسميه ــ الارادة العامة ــ التي تسعى الى خلق الحرية ، والحرية لدى روسو مساوية للفضيلة « وهي حالة لا يمكن للانسان أن يبلغها الا في ظل الحياة الاجتماعية القائمة على قسر الذات »[٧٣] .

وقسر الذات ضمن هذا الجانب يساوي العبودية ، اذ أنه قسر على تقبل قوانين تعطي الصفة الخيالية للحرية وللمصلحة العامة ، لكي تضمن الصفــة الحقيقية لمصلحة الطبقات المسيطرة بوساطة الدولة ، ولا تقر الدولة الرأسمالية هذه الحرية الفردية الا على هذا المستوى ، فنراها تركت الحرية الشخصية في أبعد مداها في العلاقات الجنسية والسفر والسياحة ولكنها لا تقر حتى هــذه الامور اذا انقلبت ضدها ، فتجعلها في مستوى الوهم والخيال الذي يخدمها ، وقد ينجح هذا التصعيد الحاذق للحرية ، الا أنه يرتكس عندما يجد المجتمع أنه يعيش في ضلال وأن الناس استخدموا كوسيلة توسلت بها الدولة الرأسمالية لتحقيق مآرب مقوميها وسدنتها .

* الصفة الخيالية المضافة في عقد روسو الاجتماعي هي الصفة التقريرية تقوم على مقولة : بأن العقد يقوم بين المواطنين أنفسهم وليس عقدا قائما بين الحاكم والمحكوم ، ولم يضرب لنا التاريخ أمثلة واقعية من هذا القبيـل ،

باستثناء التجارب المحدودة ــ التي غلبت عليها سمة الاستثناء والمغامرة ، فهل معنى ذلك أن يكون العقد بغياب الدولة أو بوجودها الملتزم لصفة الحياد ؟٠٠ ان روسو يجيب « ان الديمقراطية الحقة لا تتوافر الا اذ امارس صاحب السيادة سيادته مباشرة دون وسيط »(٧٤) وهذا أمر يؤدى الى الاشكال رغم أن روسو يرى أن السلطة التشريعية لا يجوز فيها التفويض ولكنه يجوز في السلطة التنفيذية ٠

● حقا ان الارادة العامة تصبح مجردة ، ويصبح عقد روسو تفويضا « لأرستقراطية منتخبة » ويقر روسو بهذا الجانب فيقول أن اشتراك المواطنين مباشرة في تشريع قوانينهم أمر مستحيل « اذ أنه لم يوجد أبدا ، لجملة أسباب : ان حكم الكثرة ضد طبائع الاشياء ٠ ومنها ضخامة الدول وضرورة صغر الدولة بحيث يمكن لمواطنيها أن يلتقوا في صعيد واحد للنظر في قوانينهم ، ومنها استحالة تفرغ جميع المواطنين للشئون العامة ، ومنها التفاوت الشديد بين المواطنين انفسهم في الغنى والفقر ، مما يجعل بعضهم بالضرورة طغاة وبعضهم الاخر أتباعا لهم يأتمرون بأمرهم »(٧٥) ٠

● من هذا يتضح أن روسو كان يلمس آفاق الوهم في تحقيق الديمقراطية الحقة ضمن دول متفاوتة الدرجات في الواقع الاقتصادي فيما يخص المواطنين، ويبدو أنه كان يفكر بالدولة المشابهة لمدينة صغيرة يشارك فيها المواطنون بادارة المجالس التشريعية وهي ديمقراطية لم تتحقق فيالتاريخ الانساني»(٧٦) ٠

واذا كان روسو قد وقع في تناقضات عدة فانه لم يفطن لهيكل الدولة التي تعتمد على منظمات سياسية محترفة تحول الدولة الى مجتمع سياسي ملموس فالبيروقراطية تجعل الدولة الرأسمالية تقترب من الاسطورة بوساطة اضفاء القدسية عليها ، وهي ضرب من ضروب الارستقراطيات القديمة في اطار عصري حديث ، مثلما فاته أساس الدولة التحتي فانفصم عنده التفكير السياسي الى ارادية وثوقية وبذلك انخدع علمه الكلي وأصبح أمورا تفصيلية اختبارية وعقلانية ، واقعا ، ووهما ٠

على أن هذه الثغرات لا تقلل من الفكر السياسي لروسو ، فعلمه الاجتماعي ـــ السياسي اذ أُطر انسانيا فانه يكتسب فضيلة علمية ، لكننا لا ننسى السمة السياسية التي استخدمت فيها الدول الرأسمالية ذلك الفكر وأطرتها بأطرهـــا الخاصة . ولا يفوتنا التوكيد على أن روسو يتجاهل واقع الطغيان وينسبه الى جنوح القلة والى الاستئثار بالحكم ، ان هذا تفسير ناقص أو ليست الرأسمالية هي التي اتخذت قاعدة لها الاقتصاد السلعي والمال وفائض القيمة والاستثمار والربح بينما كانت العلاقة بين الأسياد والعبيد في المجتمعات القديمـــة مباشرة خلافا للرأسمالية التي اتخذت مبادىء روسو وهوبز وغيرهما سلما لها ؟.

* كل هذا التفسير والتحليل والنقد لروسو يقودنا الى أفكار حـــزب البعث العربي الاشتراكي لكي لا نلتمس وجها من وجوه التأويل ، انما هو وضع للامور في نصابها . ولنذكر القراء اننا أكدنا أن حـــزب البعث العربي الاشتراكي يرفدنا بتحليل للفكر الانساني وأنه منفتح على الفكر والتـــراث الانسانيين ومنفتح على الفكر العلمي مهما كان منشؤه لأن « النظرة العلميـــة هي وحدها التي تمنع الانسان الثوري من الجزم الكامل بصحة آرائه التي لم تتعرض للبحث العلمي ولم تتوافر عليها الادلة القاطعة ، ان هذا المـــوقف هو الذي يجعل الحركة الثورية منفتحة على التراث العالمي وتجارب الامم الاخرى وهو الذي يقيها أخطار التقليد الاعمى لتجارب الغير بدافع التعصب المذهبي وهو الذي يقيها بنفس الوقت خطر الانغلاق على النفس ورفض كل تجارب الاخرين ، ان العلم وتراكم المعرفة والبحث الموضوعي هو الذي يقرر خطأ أو صواب اية تجربة او اية فكرة او اى نظام »[٧٧] .

* من هنا فان نظرية البعث في الدولة تقارن مع فكر روسو وغيره ومنشأ ذلك هو أن فكر البعث أصبح « مفهوما » نظريا بالمعنى العلمي ، والعلم يقارن بالعلم وكما يقول محمد علي الفاروقي التهانوي « كل علم من العلوم المدونة لابد فيه من أمور ثلاث : الموضوع ، المسائل ، المبادىء ،... اما الموضـــوع فقالوا : موضوع كل علم ما يبحث فيه في عوارضه الذاتيـــة ، وتوضيحه ان

كمال الانسان بمعرفته أعيان الموجودات من تصوراتها والتصديق بأحواله على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية ، ولما كانت معرفتها بخصوصها متعذرة مع عدم افادتها كمالاً معتدا به لتغيرها وتبدلها أخذوا المفهومات الكلية الصادقة عليها، ذاتية أو عرضية ، وبحثوا عن أحوالها من حيث انطباقها عليها ، ليفيد علمها بوجه كلي يظل باقيا أبد الدهر »[78] .

مثلما تقارن بالماركسية والهيغلية وغيرهما ، فالعلم يملك معطية ليس للوصف والتفسير والتحليل فحسب ، بل يملك معطية للتركيب ، واذا كانت نظرات البعث الفكرية قد تعدت الوصف والتحليل والتفسير في مضمار الواقع فانها دخلت مجال القوانين التي توحد الوصف والتفسير والتحليل في ــ كل ــ مركب وهذا يستهدف بالدرجة الاولى الموضوعات التي تصب في مجال المعرفة العلمية .

المبحث الثالث : الدولة والديمقراطية ومضمون النظام

١ ــ اطروحات الحزب :

لقد سبق لنا تحليل الديمقراطية لدى البعث وسوف نعاود بحث هذا المعطى مرة ثانية ولكن من جانب آخر ، اذ للموضوع صلة بنظرية الدولة لدى البعث ، وفي ذات الوقت ربط موضوع روسو بالسياق لما للمقارنة من اهمية بالغة ، وهكذا نجد ما يلي :ــ

أ ــ الاهداف :ــ المعروف علميا ان لكل هدف اجتماعي مادة وصورة والاهداف التي يطرحها حزب البعث هي مجموع شعاراته وعملياته الفكرية التي يطبقها ، فالاهداف هنا كما ذكرنا ليست معطية فلسفية مجردة اذ ان الحزب « لم يخترعها اختراعا أو يبتدعها ابتداعا ، وانما اكتشفها وحددها نتيجة استقرائه لعوامل الصراع القومية والاجتماعية القائمة في مجتمعنا العربي ، ونتيجة معاناة لهذا الصراع فهي أذن ليست ملكا للحزب ولا احتكارا له ، وانما هي أهداف الجماهير العربية الكادحة

المناضلة المشتركة فعلا واعية أو غير واعية في عمليات الصراع القائمة في المجتمع ، وهذا الصراع هو نتيجة عوامل تاريخية سابقة لوجود الحزب تشكل اطارا موضوعيا لنضاله ، فوجود الحزب هو نتيجة لهذا الصراع وتعبير عنه ، وعن ارادة حية »[٧٩] .

ب ــ الواقع :ــ النظرية العلمية تعنى بالواقع ولا تنفصل عن الممارسة العملية، حيث تتجاوز العمليات الفكرية والعمل النضالي ، وبعكس الفلســفات التقليدية التي تجعل الفكر منفصلا عن الواقع « البعث العربي الاشتراكي اذن بقدر أصالته وعمق ارتباطه بحياة الامة العربية وتكوين مستقبلها ، يبدو في متطلباته ومبدئيته وفي مثاليته الحية وفي أخلاقيته بعيدا كل البعد عن واقع هذه الامة ــ يقصد الامة العربية ــ المؤلف ــ وحياتها الحاضرة فالبعث العربي بهذا المعنى يكون انقلابيا ثوريا ، ذلك أن عملية النهوض برغم أنها طبيعية عبر التاريخ الا أنها ابعد ما تكون عن الحركة او المصير الآلي ، ان النهضة كما تفهمها حركتنا مصير تقرره الامة وعلينا النضال من أجلها »[٨٠](*) .

جـ ــ الحزب : « الحزب هو التنظيم الشعبي لطليعة مناضلة في سبيل أهداف الشعب وتطلعاته في الوحدة والحرية والاشتراكية »[٨١] .

د ــ الجماهير :ــ هي القوة الفاعلة في التاريخ وهي التي تقوم بالدور الاساسي في الصراع « وهي القوة الايجابية العاملة فيه ، وكل حركة تريــد أن تدخل التاريخ أو تصنعه يجب أن تستلهم هذا المنطلق الواضح ، فلا تضع

(*) يقصد النص اعلاه ، ان حزب البعث غير مطابق للواقع المتخلف والمترهل وواقع الامة المعاش في العقود السابقة .. ولذلك كان يبدو في متطلباته وفي مثاليته متجاوزا لكل تلك المظاهر .. ولذا فالبعث العربي بهذا المعنى لا يكون انقلابيا ثوريا الا اذا ارتفعت الامة الى المستوى النضالي وفي ذات الوقت اصبح المصير حقا تمارسه الامة العربية بنضالها .. ومع ان هــذا النهوض لابد ان يتحقق بفعل حركة التاريخ .. الا ان التاريخ لا يصنع الا بالنضــال .

نفسها بديلا عن الجماهير ، لكن معها في حركتها ، وكل ابتعاد عن الجماهير وانعزال عنها نقض للفلسفة التي يقوم عليها الحزب وللنظرة التي ينظر بها الى التاريخ »[٨٢] .

هـ ـ الديمقراطية :ـ ليس من السهل على المرء أن يجعل الرأي القائل بأن الديمقراطية لا تتأطر بالاطر الاجتماعية القائمة ، فالديمقراطية كما نعلم منبت الخصائص الاجتماعية القائمة اجتماعيا ودوليا نسبة ـ الى الدولة ـ وهكذا فقد « نشأ النظام البرلماني في أوربا الغربية مع صعود البورجوازية ونموها ، فكان ـ تبعا لهذا ـ الغلاف السياسي للنظام الاقتصادي البورجوازي ولم تكن البرلمانات لتمثل في البداية الا الطبقات المالكة ، ومع نمو الحركة العمالية وتتيجة لنضالها السياسي الطويل اتسع حق الانتخابات حتى اصبح عاما وتزايد نفوذ القوى الجماهيرية فيها ، الا ان التغيرات التي طرأت على بنيان الدولة الرأسمالية قد أدت الى حصر السلطة الحقيقية في الاجهزة الادارية والاقتصادية والعسكرية للدولة »[٨٣] .

و « بما ان النظام البرلماني هو طريق البورجوازية الغربية في الحكم وجزء من البناء الفوقي لتلك المجتمعات ، لذا جاء تطبيق البرلمانية في بعض الاقطار العربية مجرد نقل لواجهة غربية مقطوعة عن جذورها السياسية والاقتصادية »[٨٤] .

ولهذا بقيت البرلمانية في وطننا مجرد بناء كرتوني هزيل ونسخة مزيفة عن البرلمانية الغربية[٨٥] .

« وفي الظروف الراهنة حيث يجرى الانتقال من المجتمع شبه الاقطاعي ـ الرأسمالي ـ في عدد من الاقطار العربية ـ يجب نقل السلطة من الطبقات الاقطاعية البورجوازية الى الطبقات الكادحة ، ولهذا يجب تخطي ـ البرلمانية ـ باعتبارها احد اشكال سيطرة تلك الطبقات على الجماهير الشعبية »[٨٦] .

« ان تخطي البرلمانية ـ لا يعنى الانتقال الى أشكال للحكم ديكتاتورية أو فردية بيروقراطية او عسكرية ، بل يعني زوال الاطار البورجوازي ـ شبه الاقطاعي للديمقراطية والانتقال الى ديمقراطية أوسع وأعمق وأمتن وأسلم ، هي الديمقراطية الشعبية »[٨٧] •

وأعتقد أننا بفضل مناقشتنا لموضوع الديمقراطية بأسهاب في الفصل السابق واقتطافنا لجمل معينة من فكر البعث في هذا الفصل ، نستطيع ان نعثر على حقيقة نظرية الدولة بوصفها جانبا من الواقع ضمن التصورات الخاصة بالنظام والدولة والممارسة الديمقراطية من قبل الجماهير ولبعدها العلمي المتكامل من خلال الزمن والفعالية •

٢ ـ علم الاجتماع البعثي :

يمكن تقسيم العلوم الاجتماعية الى ثلاث مجموعات رئيسية تضم الاولى التاريخ والفلسفة وتضم الثانية العلوم الاجتماعية وما يتفرع عنها من قوانين نوعية (الدولة ، الاقتصاد ، القانون ، اللغة ، الفن ، الادب ، الفكر السياسي ، وتضم الثالثة العلوم التطبيقية ، كالهندسة ، والطب ، والكيمياء ، والفيزياء وما اليها) •

وبطبيعة الحال ، تتفرع عن هذه الاصول عدة تفاصيل وعلوم أخرى ، وهذه العلوم تتأطر زمنيا بمجتمعاتها ، اي انها قائمة في زمانها ومكانها وضمن مراحل تطورها وكينونتها المستمرة ، والذي نعتقده أن المجتمع البشري في تطور علومه في كل مرحلة من مراحل التاريخ يشكل كلا متكاملا وان اختلفت علاقاته النوعية وقوانينه في هذا المجتمع أو ذاك ، لذلك ينصب موضوع علم الاجتماع على دراسة اختلاف القوانين النوعية وتتابع التكوينات الاجتماعية •

وعلم الاجتماع كما حدده العالم الفرنسي ـ دوركهايم ـ يحمل موضوعا معينا محددا يستهدف بوقائع معينة[٨٨] وقد حدد ابن خلدون في مقدمته ذلك العلم وقال انه « فن من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال ،

وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال »[٨٩] وربط ابن خلدون علم الاجتماع بعلوم التاريخ فقال « اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية »[٩٠] .

أما في العصر الراهن فان علم الاجتماع أخذ يشتمل على مفهوم « كلية Totalte » الواقع الاجتماعي . وهذا المفهوم يفترض في الواقع الوحدة والتعدد اللازمين بشكل يؤدي الى وجود مجموع واحد أو بالاحرى « واحد يقبل الانفصام »[٩١] ولكن يلاحظ رغم تعدد مدارس علم الاجتماع أن دراسة ـ الواقع الذي تتحدد بموجبه التكوينات الاقتصادية ـ الاجتماعية والارتباط الداخلي بين أوجه تلك التكوينات هو المجال الجوهري لهذا العلم[٩٢] .

* وفيما يخص هذا العلم عند البعث العربي الاشتراكي هو أنه انطلق من تحليل لواقع الامة العربية وتاريخها ، وميدان ذلك الربط الكامل لعوامل ومقومات وظواهر المجتمع في كل مستوياته وكل مراتبه العميقة ابتداءً من القشرة الخارجية الى البنيانات الفوقية ، ولعل أبرز هذه الظواهر دراسة تاريخ الامة العربية منذ القدم حتى العصر الراهن وتكوين المجتمع العربي المعاصر بطبقاته وعناصره ونظمه وقوانينه ، وسوف نطرق باب النظرة التاريخية من علم الاجتماع البعثي آملين طرق الابواب الاخرى في فصول تالية .

* عرف البعث تاريخ الامة العربية بما يلي : « واقع الامة العربية يشتمل على بعض الحقائق والظواهر منذ أقدم العصور حتى اليوم ، تكاد توافق على جميع مراحل تاريخها ، تبرز في مرحلة وتضعف في أخرى ، ولكنها مع ذلك تظل قائمة موجودة ، ولعل أبرز هذه الحقائق أن العرب لم يعيشوا تأريخهم دفعة واحدة ، ويعبروا عن ذاتهم بعملية نهضة كبيرة تكون كل حياتهم وتاريخهم على نمط غيرهم من الاقوام كاليونان والرومان والفرس ، وانما كان تاريخهم وكانت حياتهم مجموعة من القفزات والنهضات التي تبعتها نكسات لم تلبث أن أعقبتها قفزات »[٩٣] .

* هذا المفهوم يحدد أولا نظرة تاريخية ، تسمى القفزات والنكسات بـ « التموج والتراوح »[٩٤] وتمتد هذه النظرة من عهد البابليين وسبأ وحمير وحضارة الاسلام وابتداءً من سواحل المتوسط وأواسط الصحراء في شبه الجزيرة العربية ، فهذه الحضارة تتجدد في أية بقعة من بقاع الوطن العربي .

ومهما كانت عوامل الانحطاط في المجتمع العربي في أية مرحلة ، فانها تتضمن بذور نهضة جديدة ، اذ « أن العرب كغيرهم من شعوب الارض يتراوحون بين الضعف أو التقهقر ، وبين القوة والنمو والتقدم ، فليس العرب ضعفا دائما أو قوة دائمة ، وانما هناك تفاعل وتناقض دائمين عنهما تنجم الحركة الصاعدة أو المتقهقرة »[٩٥] ثم يعدد مفهوم البعث التاريخي ـ الاجتماعي مراحل فكرة الوطن والدولة لدى العرب فيرى أنها ليست معنى مجرداً « بل انها ـ الواقع بكل مقتضياته فأرض العرب هي تلك التي كانت مجالا لانسياحهم المختلف عبر التاريخ »[٩٦] .

ويعرج على دول الحميريين والسبأيين والانباط وبابل فيجد أن دولهم ونظمهم تكشف عن مسار الحضارة من منابت العرب ، ثم يصل الى تعدد الكيانات القطرية وتفسخ العلاقات القومية في عصر الانحطاط فيؤكد أن ذلك كان مدعاة لظهور الاسلام « أي انه ـ أي الاسلام ـ كان في حقيقته استجابة للنداء وتفاعلا مع مقتضيات الحياة في طورها الجديد»[٩٧]

أما في العصر الراهن فان الامة العربية اجتازت أخطر مرحلة من مراحل الانهيار ابان الحكم العثماني ، وبدأت حركة الخلاص بالنمو ، ولكننا الان لانزال كشعب يعاني الكثير من المشاكل والمعوقات ويشكو من عدد كبير « من الامراض والآفات التي ما زالت برغم سريان الدماء الجديدة في عروقنا تفعل وتعيق الحياة وتشوش النمو . وفي نفس الوقت تتمخض أمتنا عن كل امكانيات الوثبة والنهضة ، فقوة الدفع تتعاظم يوما بعد يوم والوعي على أهمية الصعود والنهضة ينتشر أكثر فأكثر ويتسارع ، فنحن اليوم في

وضع أشبه ما يكون بالعهد الذي سبق الاسلام ، ذلك العهد الذي تضطرم في داخله تفاعلات الحياة وتنمو في أعماقه بذور النهضة المرتقبة »[٩٨] .

بعدئذ يؤشر مفهوم البعث التاريخي ـ الاجتماعي العيوب الاجتماعية والعقبات التي تعترض الثورة والنهضة وامكانات نمو الثورة في هـذه الارض الخصبة بعناصر الثورة وفي صميم الرجعية التي هي عائق كبير أمـام الثورة العربية .

ويفصح على أن حركة البعث العربي الاشتراكي تمثل بذور النهضة الفتية ويؤكد مفهوم علم الاجتماع البعثي نفسه بمقولة علمية واضـحة « البعث العربي » الاشتراكي كحركة أصيلة حية في الامة العربية لابد لها أن تدرك طبيعة الشعب الذي خلقت فيه ووجدت لتمثله[٩٩] .

هنا نجد أن علم الاجتماع البعثي يمر بالمجتمع العربي في وصف وتحليل وتركيب ابتداءً من البنيانات الفوقية الى القوى التحتية والرموز والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والمكونات الخاصة والعامة وفروع الاقتصاد وركائزه واعمدته، الى الشرائح الاجتماعية القبلية والمدنية في الريف والمدن ، كما تمر بالقيم والاخلاق والموروثات والعقلية الفردية والجماعية ، وبكلمة مختصرة تمر على جميع مراتب المجتمع العربي وشرائحه ومقوماته .

* نخلص مما تقدم ان نظرية الدولة لـدى البعث غـير متجزئة عـن الواقع الاجتماعي وقد لاحظنا أن هوبز ولوك وروسو قد جـزأوا النظريـة ولم يضعوها ضمن علم اجتماع تاريخي ـ اجتماعي حي ، مع أن أفكارهم كانت تعبر عن تطلع الطبقات الرأسمالية التجارية ومجموع مراتبها الصاعدة ولذلك عجزت نظرياتهم عن التطابق حتى مع مجتمعاتهم ، فالظاهرة النظرية لاي مفكر او فيلسوف أو أي حزب أو حركة وبخاصة نظرية الدولـة ، لا تنفصل عن الكلية التاريخية لاي مجتمع ، كما أنها لا تقوم الا بفعل ترابطها وشمولها على كافة النواحي المرتبطة بها ، فالنظرية الحية ليست فقط بناءً ذهنيا يتم بموجبها كتابة الفكر ، انما بوصفها علما اجتماعيـا ـ تاريخيا ـ سياسيا ـ اقتصاديا ، تتسم بالترابط وبالذات فيما يخص مرحلتين :ـ الاولى

مرحلة التشخيص ، والثانية مرحلة البديل ، وقد شخص البعث المرحلتين الا انه ترك للمعاناة الخلاقة والممارسات الحياتية والنضالية لثورة البعث وواقع الحياة العربية الجديدة جهد الاضافة والاستكمال .

وكما هو معروف لا تستطيع أية نظرية للدولة مهما اكتملت أن تضع للاجيال المقبلة انماطا معينة من التفاصيل وكما يقول ريمون آرون الفرنسي « ان علم السياسة يتعلق بكل ماله علاقة بحكم المجتمعات »[١٠٠] ومما له علاقة بالافكار والنظريات والدولة والقانون والايديولوجيا ، وبالنسبة للاضافات والمفهومات الاخرى التي تبدعها التجربة فلا يمكن اعتبارها معطية واقعية قبل وقوعها ، فمثل هذا التعيين المسبق يقودنا الى بناء ذهني مجرد متماثل مع الوصف الكلامي لكنه غير متماثل مع الواقع ، وخلافا للافكار التقليدية الفلسفية وحتى النزعة المادية التي تشدد على الاشياء بوصفها « أشياء » والوقائع بوصفها رموزا خليق" بنا أن نعود الى الجانب الحسي في فكر البعث والظواهر الحسية فنلمس ما فيه من ثروة ومعانٍ وأخلاق عالية .

فمثلا يوصي السيد الرئيس صدام حسين قوى الامن الداخلي بما يلي يجب أن لا تنسوا ولاءكم للمبادىء وانتم تمارسون الاختصاص في هذا الميدان او في أي ميدان آخر للدولة والمجتمع ، وان لا يتحول ولاؤكم الى الاختصاص على حساب المبادىء... وعليكم أن تتذكروا أن الاختصاص وسيلة لخدمة المبادىء وفي المقدمة منها احترام الشعب والانسان وليس بديلا عن المبادىء أو على حسابها »[١٠١] .

ولا يعني هذا ذهاب المجرد اشتاتا بل يعني انقراض ما هو « سلبي » واتحاد المجرد مع الفكر الجدلي فندرك العارض الموجود بجانبه الايجابي بينما يفسح الواقع أمام الانسان آفاقا يمتلك فيها طبيعته المتوافقة مع عمله .

* وعلى أية حال فان التطبيق الحافل بادراك الصراعات التي تنشأ من خلال التطبيق تجعل الفكر البعثي يهتم بالتأليف بين الفعالية العملية والزمن

التاريخي للفكر نفسه .. وهذا اسهام جديد وفاعل في نظرية المعرفة ـ وسوف تتناول ذلك بالتفصيل في فصول لاحقة .

ان ما يفصل نظرية الدولة في البحث عن فكرة الدولة في الفكر الغربي ، ان الاولى لا تجعل ما هو للدولة وما هو للسياسة يتمتع بالاكتفاء الذاتي ، ذلك لان حقيقة ما هو للسياسة وما هو للدولة قائم في ما هو اجتماعي وقائم فيما هو انساني وعلى نقيض ما ذهب اليه هوبز ولوك وميكيافيلي وروسو وهيغل أيضا ، اذ ذكر الاول ان الدولة تشرف « على الصراع الاجتماعي وتوظفه لصالح المجموع »[١٠٢] وهذا معناه ان حقيقة ما هو للسياسة يقوم في الدولة فقط ، أما الثاني فيرى « ان الديمقراطية رهينة بروح الحكومة لا بشكلها ، ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه الحكومة »[١٠٣] فهو لا يعثر على الدولة والحكومة باعتبارهما جانبا من الواقع بل يعثر في السياسة على شكل ذلك الواقع .

وهذا انكار للمجتمع ، ويبدو أن الفلاسفة يرون المجتمع من خلال « عقل الدولة » من جهة ومن خلال عقل الفلسفة من جهة أخرى .. وهذان مسلكان متناقضان ، أما الرابع فيميل الى غيبية سياسية أقرب الى الاماني منها الى الواقع فيؤكد ان « الارادة العامة هي الارادة الثابتة لكل أعضاء الدولة ، فهي روح المجموع وهي لا تفكر الا بالصالح العام»[١٠٤] وهذا المنظور يجمع بين العفوية والواقعية للمشروع الانساني بينما يتجاهل الدولة الرأسمالية التي لا ترضى بذلك . اضافة الى ذلك فأن البنية الحقوقية للمجتمع من حيازة وملكية وقوى انتاج وتوزيع عمل ، تجعل ـ الارادة العامة ـ غير ثابتة فالدولة الرأسمالية تستطيع ان تجعل الارادة العامة الروسوية وهما مجردا ، ولهذا لا يسوغ لنا اهمال هذا الجانب الانساني من نظرية روسو الذي يقتضي تجاوز الدولة

الرأسمالية وصلات المجتمع وعلاقة الذات بالموضوع بالنسبة للفرد ، أما الجانب العملي فيجعل الدولة تكتفي بالسياسة ، وتجعل « الموضـوع » من منتجات وأعمال وتقنيات وايديولوجية ومؤسسات هو الاصل ، فتصبح الارادة العامة صورة مجردة من واقعها العملي بدون قوائم •

أما الثالث : ميكيافيلي ، فيجعل الدولة مكتفية بذاتها بالفعل السياسي واذا ما فعلت الدولة الممثلة بالامير الخير والعمران فلانها تفعل ذلك من أجل ــ السلطان ، ذلك لأن « جميع الناس لا يعملون الخير الا بدافع الحاجة»[١٠٥] كما ان الجماهير في رأي ميكيافيلي « التي يضللها مرأى المصلحة الخداع تسعى دائما الى حتفها بظلفها وتسيرها الامال المشرقة والوعود المتهورة بسهولة»[١٠٦]•

ولديه أن السلطة انما هي نتاج المعلولات ــ التأثيرات ــ على الجماهير والواقع عن طريق النفع والفائدة لجميع الطبقات وارضاء طموح الجميع مع تسليط السيف عليهم • ولديه ايضا أن الدول ذات طابع دائري تمر عبر الطغيان الفردي او الاستبدادي ثم حكم القلة ــ الاوليغاركية ــ وتنتقل الى الديمقراطية المجردة التي أشار اليها أرسطو وبعدئذ تعود الفوضى مما يجعل الطريق ممهدا لحكم الاستبداد من جديد ، ولهذا فهو يجد أن تجمع الدولة بين حكم الطغيان وحكم القلة ــ الاوليغاركية ــ والديمقراطية[*] •

وبطبيعة الحال لا يفارق ميكيافيلي نظرية الهياكل السياسية وهذه بديهية لديه ، الامر الذي يوقعه في الاكتفاء الذاتي للسـلطة والدولة على حسـاب الجماهير ويلتقى هنا مع هيغل الذي جاء بعده بتكامـل المجتمع السياسـي

(*) لاحظ الشبه بين كتابات ميكيافيلي وبروتوكولات حكماء صهيون راجع البروتوكولات ترجمـة محمـد خليفـة التونسي مكتبـة دار العروبة ــ القاهرة ــ البروتوكول الاول والثاني والثالث والرابع والخامس •

والمجتمع المدني ، الا ان هيغل أرسخ منه قدما في تفسير الامور وسنأتي على هيغل بعدئذ . الا اننا نود الاشارة هنا الى نقطة اللقاء بين ميكيافيلي وهيغل ، فالاول يعتبر المجتمع قائما بالهيكل السياسي ، أما الثاني فيعتبر المجتمع المدني قائما بالمجتمع السياسي .. لأن المجتمع المدني حسب هيغل لا يعتق سياسيا الا بالمجتمع السياسي .

ومجمل القول ان نظرية ميكيافيلي في الدولة التي لا يزال لها أثر واضح في سياسات معينة تقتبس نماذج تاريخية قديمة مختزلة اختلاف الزمن وحركة التاريخ وعوامل الصراع الداخلي والخارجي رغم أنه دعا الى تكييف الاجراءات مع طبيعة الزمن[١٠٧] لكن قاعدته ــ: الهيكل السياسي الذي يقوم بعيدا عما هو اجتماعي . وقاعدته ــ الهيمنة ــ السياسية ، وهذه الفكرة ــ الهيمنة ــ تقود الى انعطافات دكتاتورية مهما احترز المفكر في موجبات التطبيق ، وقد قادت هذه النظرية بالفعل الشعوب الى كوارث جمة[١٠٨] .

* لقد فصلت نظرية حزب البعث العربي الاشتراكي فكرة الهيمنة السياسية في الدولة في شتى أنواعها . وأثبتت هذه النظرية أن الدولة لا تقوم على فصل الهيكل السياسي عن الجماهير ، ولعل ابرز ما تميزت به نظرية البعث للدولة منذ بداية الاربعينات وحتى الان هو التلاحم بين الفكر والتطبيق والعلاقة الجدلية بينهما دون انفصام .

مصــادر الفصــل الرابع

(١) راجع جمهورية أفلاطون ، ترجمة حنا خباز ، المرجع السابق .

(٢) خصائص الفكر السياسي في الاســلام وأهــم نظرياته ص ٢٠٤ المرجــع السابق .

(٣) تطور الفكر السياسي ص ٢٩ المرجع السابق .

(٤) ٣٨٤ ق م ، ٣٢٢ ق م .

(٥) جميل كاظم المناف ، من هيمنة الدولة الى الديمقراطية الشعبية مجلــة دراسات عربية السنة الثانية ١٩٦٦ العدد العاشر ص ٤٧ .

(٦) تطور الفكر السياسي ص ٣٤ ، ديوجين ٤٢٣ ق . م ، ٣٢٣ ق . م ، نظرية الشدائد Stocism المرجع ذاته ص ٣٤ .

(٧) الثورة العالمية ومستقبل الغرب ، فريد مان ، ترجمة روفائيل جرجس وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ص ١٠ .

(٨) مصدر خاص .

(٩) ص ٤٢ بعض المنطلقات النظرية ، طبعة دار الطليعة ، بيروت .

(١٠) من هيمنة الدولة الى الديمقراطية الشعبية ، دراسات عربية ، المرجــع السابق ص ٤٨ .

(١١) ابن خلدون ، ص ١٧٢ المقدمة ، الرجع السابق .

(١٢) أرسطو ، السياسة ، الكتاب الاول ، الباب الاول ، فقرة/١ .

(١٣) راجع الفارابي آراء أهل المدينة الفاضلة في تاريخ الفلسفة العربية جزء/٢ حنا الفاخوري ، وخليل محمد .

(١٤) ابن أبي الربيع : سلوك المالك ص ١٠٢ ذكــر في ص ٢٠٦ من خصائص الفكر السياسي في الاسلام ، المرجع السابق .

(١٥) انظر الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك جـ ٥ ص ١٣٤ .

(١٦) راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ــ ١٨١ .

(١٧) راجع ابن ابي الربيع : سلوك المالك ص ١٠١ المرجع السابق .

(١٨) المرجع ذاته سلوك المالك ص ١١٢ ــ ١١٥ عن خصائص الفكر الاسلامي ص ٢٢١ .

(١٩) الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ٣٠٣ ــ ٣٩٤ .

(٢٠) الماوردي : المرجع ذاته ص ١٢٧ .

(٢١) عن نظام الملك الطوسي ، راجع ابن الاثير ، احداث سنة ٤٨٥ هـ راجع أيضا مجلة تراث الانسانية ـ القاهرة ، المجلد /٩ ، سعد زغلول عبدالحميد ، سياسة نامة لنظام الملك .

(٢٢) تطور الفكر السياسي ص ٧٢ ــ ٧٣ المرجع السابق .

(٢٣) توماس مور، محام وسياسي انكليزي دعا الىمعارضة الملك ونادى بمجتمع يقوم على شيوع الثروات ، سجن وأعدم بعد اتهامه بالخيانة العظمى .

(٢٤) السلطان ص ٥٩ برتراند راسل ، المرجع السابق .

(٢٥) ص ٥٤ تطور الفكر الاشتراكي في الحزب ، ملحق مجلة العمل الشعبي العدد ١٠ .

(٢٦) ميشيل عفلق : نقلا عن مجلة الثورة العربية ص ٨ ــ ٩ المجلد السابع العدد الاول ك ١ سنة ١٩٧٤ .

(٢٧) توماس هوبز : مفكر اجتماعي انكليزي له مؤلفات سياسية واجتماعية عدة ويعتبر كتابه Leviathan مرجعا للعلوم السياسية في القرن السادس عشر .

(٢٨) ص ١٤ ــ ١٥ المذاهب الاجتماعية عناصرها السياسية والاقتصادية والدستورية ، محمد عبدالله عنان ، الطبعة الرابعة ١٩٥٩ م القاهرة مؤسسة الخانجي .

(٢٩) ص ٦٠ بعض المنطلقات النظرية التي اقرها المؤتمر القومي السادس طبعة دار الطليعة ، بيروت ، لبنان .

(٣٠) ص ٦٤ المرجع ذاته .

(٣١) ص ٦٦ المنطلقات المرجع ذاته .

(٣٢) ص ٧٦ السلطان ، برتراند راسل ، المرجع السابق .

(٣٣) ص ٧٨ السلطان ، برتراند راسل .

(٣٤) الامير : ميكيافيلي ص ١١٧ الفصل الحادي عشر ، تعريب خيري حماد ، الطبعة الاولى ــ بيروت ١٩٦٠ .

(٣٥) ص ١٣ ــ ١٤ مطارحات ميكيافيلي ، ترجمة خيري حماد ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ ، بيروت .

(٣٦) راجع مقدمة المطارحات بقلم ليسلي ووكر ، المرجع السابق وكذلك مقدمة ــ الامير ــ بقلم كريستيان غاوس .

(٣٧) عن مقدمة المطارحات بتصرف واضافة وكذلك عن هوامش المعرب بتصرف واضافة .

(٣٨) للافاضة ، راجع السلطان ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ــ ١٠٨ برتراند راسل .

(٣٩) ص ٢٢ العقيدة العربية الثورية سمات ايديولوجية .

(٤٠) ص ٢٣ العقيدة العربية الثورية سمات أيديولوجية .

(٤١) ميكيافيلي الامير ، الفصل التاسع ص ١٠٦ ، المرجع السابق .

(٤٢) التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر ص ٧٨ .

(٤٣) ص ٥٢ ــ ٥٣ العقيدة العربية الثورية ، سمات أيديونوجية المرجع السابق .

(٤٤) ص ٥١ ــ الجزء السادس ، نضال البعث .

(٤٥) ص ١٠٩ الفصل التاسع ، الامير ــ ميكيافيلي ــ المرجع السابق .

(٤٦) ص ٦٧ ، العقيدة العربية الثورة ــ سمات أيديولوجية .

(٤٧) ص ٦٨ العقيدة العربية الثورية ــ سمات أيديولوجية .

(٤٨) ص ٦٨ العقيدة العربية الثورية ــ سمات أيديولوجية .

(٤٩) ، (٥٠) ص ٧٥ العقيدة العربية الثورية ، سمات أيديولوجية .

(٥١) ص ٥٩ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .

(٥٢) ص ٤١ الامير ، المقدمة بقلم كريستيان غاوس .

(٥٣) للافاضة راجع ، الفكر السياسي الغربي ــ عني عبدالمعطي و Government of civil

(٥٤) ص ١٩ المذاهب الاجتماعية الحديثة الطبعة الرابعة ، المرجع السابق .

(٥٥) ص ١٩ المذاهب الاجتماعية الحديثة ط ٤ المرجع السابق .

(٥٦) ، (٥٧) ص ٢٩٤ خصائص الفكر السياسي في الاسلام واهم نظرياته ، المرجع السابق .

(٥٨) ص ١١ العقيدة العربية الثورية ، سمات أيديولوجية .

(٥٩) ص ١٥٤ برتراند راسل ــ السلطان الفصل التاسع .

(٦٠) ص ١٥٩ برتراند راسل ــ السلطان المصدر ذاته .

(٦١) ص ٤٦ الابعاد الفكرية والنضالية لتأسيس البعث ، الدكتور الياس فرح اذار ١٩٧٥ .

(٦٢) راجع دراسة
John Look's Political Philosophy Geagh, j of Oxford 1950.

(٦٢) راجع أيضا برتراند راسل الفلسفة والسياسة ترجمة د . عبدالرحمن القيسي ١٩٦٢ ، مكتبة النهضة بغداد .

(٦٣) ص ٣٣ العقيدة العربية الثورة ، سمات ايديولوجية .

(٦٤) ص ٨٣ في سبيل البعث .

(٦٥) روسو كاتب وفيلسوف من اصل سويسري ، كتب في الادب والاجتماع والتربية ، يعد كتابه أميل من أشهر كتبه أما العقد الاجتماعي Contrat Social فهو آراء عن الدولة والقانون والاجتماع والسلوك الانساني قضى روسو معظم حياته الفكرية في فرنسا وتثقف بثقافتها ولذا فهو يعد من مفكريها واعلامها .

(٦٦) ص ٦٦ دراسات في النظم والمذاهب ، المرجع السابق .

(٦٧) ص ٢٠ المذاهب الاجتماعية الحديثة ، المرجع السابق .

(٦٨) ص ٢٠ المذاهب الاجتماعية الحديثة ، المرجع السابق .

(٦٩) ص ٦٨ دراسات في النظم والمذاهب المرجع السابق .

(٧٠) ص ٦٨ — ٦٩ ، دراسات في النظم والمذاهب ، المرجع السابق .

(٧١) ص ٧١ دراسات في النظم والمذاهب ، المرجع السابق .

(٧٢) للافاضة ، في هذا الموضوع ، راجع : مستقبل الراسمالية روبير فوسير ، ترجمة فوزي عبدالحميد وفؤاد البستاني ، القاهرة .

(٧٣) دراسات في النظم والمذاهب ص ٧٣ .

(٧٤) دراسات في النظم والمذاهب ص ٧٥ .

(٧٥) دراسات في النظم والمذاهب ص ٧٦ .

(٧٦) راجع

Green, F.C. Progress Oxford Rousseau the idea of London 1950.

(٧٧) ص ١٧ — ١٨ أمراض الثورة ، المرجع السابق .

(٧٨) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق د . لطفي عبدالبديع تأليف محمد علي الفاروقي التهانوي ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٧ .

(٧٩) ص ٧ المنهاج الحزبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٨٠) ص ١٦ — ١٧ البعث العربي ضرورة تاريخية — دار الطليعة ، بيروت .

(٨١) ص ٧ المنهاج الحزبي .

(٨٢) ص ٧ — ٨ المنهاج الحزبي .

(٨٣) ص ٥١ — ٥٢ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .

(٨٤) ص ٥٢ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .

(٨٥) ص ٥٣ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .

(٨٦) ص ٥٤ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .
(٨٧) ص ٥٤ ـ ٥٥ بعض المنطلقات النظرية ، المرجع السابق .
(٨٨) ص ٣١ ـ ٣٢ علم السياسة د . عبدالرضا حسين الطعان ١٩٧٠ .
(٨٩) ص ٣ مقدمة ابن خلدون ، المرجع السابق .
(٩٠) ص ٩ مقدمة ابن خلدون ، المرجع السابق .
(٩١) ص ٣٢ علم السياسة د . عبدالرضا الطعان ، المرجع السابق .
(٩٢) للافاضة : راجع هربرت ماركوزه ـ العقل والثورة ص ٣٣٧ حول علم الاجتماع لدى بعض أقطابه ـ رغم أن ما أشار اليه ـ كونت ـ في هذا المصدر يستبعد الثورة والتغيير . وهذا مناهض للثورة العربية لدى البعث العربي الاشتراكي .
(٩٣) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ٧ .
(٩٤) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ٧ .
(٩٥) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ١٠ .
(٩٦) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ١٠ .
(٩٧) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ١١ ـ ١٢ .
(٩٨) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ١٤ ـ ١٥ .
(٩٩) البعث العربي ضرورة تاريخية ص ١٦ .
(١٠٠) ص ٦٣ علم السياسة د . عبدالرضا الطعان ، المرجع السابق .
(١٠١) صدام حسين : وصايا الى منتسبي أجهزة الامن القومي ص ٨ .
(١٠٢) راجع تاريخ الفلسفة الغربية ، برتراند راسل ، ترجمة د . زكي نجيب محمود .
(١٠٣) ص ١٨ المذاهب الاجتماعية الحديثة ، المرجع السابق .
(١٠٤) ص ٧٧ دراسات في النظم والمذاهب ، المرجع السابق .
(١٠٥) ص ١٥٥ المطارحات ، ميكيافيلي ، المرجع السابق .
(١٠٦) ص ١٥٧ ـ ١٥٨ المطارحات ميكيافيلي ، المرجع السابق .
(١٠٧) انظر مقدمة المطارحات ص ١٢١ بقلم ليسلي ووكر ، المرجع السابق .
(١٠٨) راجع فكرة الهيمنة عند ميكيافيلي والميكيافيليين الجدد في كتاب ـ النخبة والمجتمع ، ت بوتومور ، ترجمة جورج جحا ، الفصل الثاني ـ من الطبقة الحاكمة الى نخبة السلطة ص ٢٣ الى ص ٤٦ ولاحظ مقولات بارتيو وموسكا وملز في الفصل ذاته . . وهم من المفكرين الذين تأثروا بميكيافيلي .

الفصل الخامس

البعث وعلم الاجتماع السياسي

المبحث الاول : مؤشرات أساسية

بغض النظر عن سياق الفكر السياسي الغربي ، فان البعث يعتبر أول حركة ثورية استطاعت أن تشخص أمراض الواقع العربي ، والبعث « لم ينشأ اعتباطا أو بتأثير رغبة أو ارادة فردية شأنه في ذلك شأن الحركات التاريخية في العالم التي تمثل انعطافا حاسما في سير التطور ، بل جاء تلبية لحاجة تاريخية ظهرت بفعل تطور الظروف التاريخية والموضوعية للحركة القومية والشعبية في الوطن العربي تمخضت عن طليعة ثورية استطاعت أن تستوعب المطالب القومية الاساسية وتبلورها في اطار فكري وتنظيمي يكفل تلبية الحاجة التاريخية للتطور العربي »[1] وبهذا طرح علما للسياسة يعتمد على استيعاب معاناة الطبقة الكادحة والبعد التاريخي للقضية العربية سواء في مسألة الوحدة العربية أو في المسألة الثورية أو في محاربة الاستعمار والتجزئة أو تحقيق الاشتراكية .

ان البعث ، على وجه اليقين جاء بمقدمات اساسية لعلم الاجتماع السياسي تتميز بما يلي :ـ

١ ـ « التمييز بين ما هو مرحلي وبين ما هو مرتبط باستراتيجية معينة وبين ما هو دائم ومرتبط بمواقعها »[2] .

٢ ـ اختار البعث ان لا يكون منفعلا سلبيا ازاء مراكز القوى العالمية ومراكز الافكار المتصارعة والايديولوجيات « وكان موقفه موقف الايجابي الواثق بنفسه ، فقد رفض الاشتراكية الديمقراطية الاصلاحية ، كما رفض أيضا التطبيق الستاليني للاشتراكية وما صاحب ذلك التطبيق من ارهاب وتلاعب بمبادىء الاشتراكية نفسها ، كما رفض بشدة انفعالية الحركات الشيوعية في بلادنا بذلك التطبيق »[3] .

٣ ـ اعتبر الحزب أن الخصائص القومية من أهم مميزات أوجه الاختلاف في التطبيق الاشتراكي وان « الانسانية والعالمية لا يمكن أن تقوم الا على أساس احترام تلك الخصائص وأتاحة الفرصة امامها للتفاعل الودي البناء »[٤] .

٤ ـ الربط بين الوحدة والاشتراكية « فعندما ربطنا الوحدة بالاشتراكية لم تتعسف ولم نرتجل ، بل وجدنا في ذلك السبيل الوحيد لكي تصبح الوحدة في حياتنا حقيقة حية متحركة ، يطالب بها كل عامل عندما يطالب بخبزه وزيادة أجره وبالدواء لأبنائه، وعندما يطالب كل فلاح فقير ومظلوم باسترداد حقه في اتتاجه وبرفع الظلم والاستعباد عن كاهله ، هكذا جعلنا الوحدة العربية مطلبا حيا واقعيا يداخل حياة أفراد الشعب العربي في ظروف حياتهم اليومية وفي أبسط شيء في حياتهم وهو احتياجاتهم المادية »[٥] .

٥ ـ كشف المحتوى التقدمي للقومية العربية في الوطن باعتبارها قومية مضطهدة تناضل من اجل تحقيق وحدتها السياسية وتحرير الجماهير الكادحة . وهذه نقطة أساس على وجه التحديد ، فالامبريالية تتعكز على التجزئة كما أن الرجعية العربية تتوكأ عليها . وهذا ضرب من ضروب ـ الاقتصادية الأمبريالية ـ والقطرية الرجعية ، فالاولى تريد التجزئة كأمر ثابت ، والثانية أرادت التجزئة كشكل للدول العربية ، فهي ـ أي الرجعية ـ دولتية ـ في انتمائها الرجعي ولا قومية في انتمائها العربي ، وكوزوبوليتية في تعاملها مع الامبريالية .

٦ ـ ابراز خصائص شخصية الامة العربية فرغم «ان وجود شخصية للامة واضحة متميزة نامية ، ناضجة ، هو الشيء الايجابي المثمر الخير الذي يساعد على التعاون بدلا من أن يعوقه ، ويفتح الامم بعضها على البعض ويوجد بينها التجاوب ، وأن فقدان هذه الشخصية أو انطماسها وغموضها هو المعرقل للتعاون اذ أن الذي لا يعرف نفسه لا يستطيع أن يعرف غيره

والشعب الذي لا يحس بشخصيته وبالروابط التي تربط أفراده بعضا الى بعض من العبث ان يشعر بروابط تتطلب جهدا أكبر وتعمقا أكثر »[٦] .

● ان البعث لم يبلور شخصية الامة وانما انقذها من الطمس والتشوية واذا عمدنا الى تفسير ما حققه البعث على صعيد القطر العراقي ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وجدنا دولة مستقلة تمام الاستقلال ، مقتدرة بجدارة في سياستها الداخلية والخارجية، والمهم في كل ذلك ماذكره الرئيس القائد المناضل صدام حسين أن «أهم النجاحات كلها التي حصلنا عليها هو التطور في تفكير الانسان وفي جدية العمل وفي احترام الزمن وفي احترام التخطيط واحترام العلم والسعي له ، هذا في تقديرنا أهم النجاحات التي حققناها حتى الان،ولكن هذا لا يرضي طموحنا في مواصلة المسيرة وحث الخطى على زيادة التطور في هذا الميدان أي في تطوير نوع الانسان ، خلق انسان جديد ، متحول فكريا ونفسيا وسياسيا وتقنيا وعلميا ، وفي رؤية دوره التاريخي ومستلزمات هذا الدور وليس في رؤية مفردات موقعه في النشاطات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فحسب، وانما رؤية الدور التاريخي المطلوب منه أن يقوم به ضمن القطر ، ومن اجل الامة والانسانية . وفي هذا الميدان أحرزنا تقدما كبيرا »[٧] .

● في هذه النقطة نجد أن الشمول في نفسية الانسان العربي لصالح قضية النضال الثوري والوحدة العربية والحرية والاشتراكية دليل علمي وعملي قاطع على أن نظرية البعث تتميز بالشمول والملاءمة العملية والمرونة والقوة والاستبصار النظري ــ العملي على استكناه حركة الزمن وحركة المجتمع . وهذه فضائل غير موزعة توزيعا كافيا وكاملا في جميع الحركات والاحزاب الثورة . وقل ان تجد حزبا تتكامل فيه القدرة على معرفة تطابق النظرية والعمل ، ذلك لأن اكتشاف هذه العلاقة رهين بقدرة الطليعة ، القادرة على استلهام المنشطات الفكرية في صياغة عملية مع الظرف الزمني . بل انه يمكن القول مدعوما بالحجة والامثلة أن البعث وقيادته السياسية قدما للقضية العربية

الشيء الكثير لكن ذلك ليس منة من البعث وليس من قبيل الاستعلاء ، وانما هو من قبيل التماس بين البعث وقضاياه ومن قبيل التزاوج النوعي بين القضية والاداة •

● ان التأكيد على ابراز الشخصية العربية كانت سمة واضحة ومميزة في نضال البعث منذ بداية الاربعينات حتى ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ وحتى الزمن الحاضر ، وهذه الشخصية موجودة قبل البعث ولم توجد بوجوده طبعا ، فهي شخصية قومية غنية بالثراء الحضاري لكنها اجتازت أخطر مراحلها صعودا وهبوطا سلبا وايجابا ومرت بعدة مراحل وكما هو معروف فقد نهضت الامة العربية وكبت ونهضت وتاريخ العرب دليل على شخصيتهم وفضائلهم ومثاليتهم وعيوبهم وحضاراتهم وثوراتهم ، أما الانحطاط في العصور المتأخرة فكان يتضمن انحرافا عن الواقع السوى وتدهورا في شخصية الامة ، أما البعث فهو هذه الشخصية بكل طموحاتها وغثاءاتها وتوقها وامكاناتها وعيوبها ومثالبها لكنه باعتباره ــ ثورة ــ لا يقيس الامور بمقياس واحد ، فهو ينظر الى المثالب والعيوب والغثاءات كالزبد الذي يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض •

٧ ــ في الاشتراكية وجد البعث أن فكرته قابلة للمقارنة لانها «اشتراكية ملائمة لظروف وحاجات المجتمع العربي ، وقد كنا بحاجة الى الالحاح على هذه الناحية ، رغم أنها تبدو اليوم بديهية ، ومتى عرفتم أن الاشتراكية الماركسية لم تكن تقبل فكرة التنوع مطلقا • وكانت وما زالت تسمي نفسها اشتراكية علمية وتقصد بذلك أن القوانين العلمية لا تتغير بتغير الزمان والمكان وانها واحدة يصح تطبيقها في كل الحالات • ولكن الماركسية هي التي تراجعت عن هذا الادعاء وغدت اكثر مرونة»(٨) •

والاشتراكية لدى البعث تحترم الفرد والجماعة ، فـ « الاشتراكية بصورة بسيطة كما يفهم من لفظها هي ان يشترك جميع المواطنين في موارد بلادهم بقصد أن يحسنوا حياتهم وبالتالي حياة أمتهم ، لأن الانسان الفرد لا يقبل ان

يجعل نفسه غاية في الحياة حتى أدنى المخلوقات البشرية في الاخلاق والتفكير نرى فيها هذا الميل وهذه الحاجة الى أن تجعل لحياتها غاية أبعد من مصلحتها الشخصية »[٩] .

● في ضوء ما سبق من نقاط وما سبق لنا من جهد متواضع في الفصول السالفة ، اعتمادا على الممارسات العملية في العمل السياسي والتخطيط الاقتصادي وفي الجهد النظري الفكري للبعث أضافة الى طروحاته وأدبياته في ميدان تحديد العلاقات بين عناصر الواقع الاجتماعي والانتاج ، وبين الفكر الثوري والممارسة والاضافات اللاحقة في تفسير الاشتراكية والسياسة الدولية والوحدة العربية ، يحق لنا أن نميز بين علم الاجتماع السياسي البعثي والعلوم الاجتماعية السياسية الاخرى وقبل أن ندخل هذا المدخل لابد لنا من القاء نظرة على مفهوم علم الاجتماع السياسي .

● هناك عدد كبير من المفكرين يميز بين علم الاجتماع السياسي ــ والنظرية ــ والآراء ، ــ فمثلا العالم الفرنسي ــ كيتان بيرو ــ وضع تعريفات لعلم الاجتماع السياسي والنظرية والآراء في كتابه « المذاهب الاجتماعية وعلم الاقتصاد » وملخص أفكاره « ان المذاهب تستهدف الحكم على الواقع بدلالة معيار اسمى ذي طبيعة أخلاقية وذلك لغرض أصلاحه »[١٠] أما النظرية فهي في « رأيه تتمسك بالحقيقة »[١١] ولكن « المذهب يتمسك بالمثل »[١٢] .

ويعتقد كيتان بيرو ــ ان المعرفة البحتة تستهدف الكشف عن الحقيقة لكنها تبتعد عن السلوك العملي ، بينما المذهب « يعني الانطلاق من العمل الذي يستهدف البحث عما هو أكثر نفعا وأكثر نبلا وأكثر أخلاقية ، وأكثر عدالة »[١٣] .

أما العلم فهو الذي يجمع بين النظرية والرأي والمذاهب ، فيحلل البنى والاحداث والوقائع وآلية النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والبناء الذهني ويصدر عليها أحكاما ذلك ان العلم في العصر الراهن وبخاصة في ما يخص

الاجتماع والسياسة والمعرفة والفلسفة والاقتصاد ، هو العلم الجامع والذي سمي بعلم الاجتماع السياسي .

وبهذا نرى الفارق بين علم السياسة الذي يركز على دراسة البنى السياسية والدساتير والحكومات ، والوظائف الاقتصادية والادارية والاجتماعية والاحزاب والجماعات والرأي العام ، وكذلك الفلسفة التي لا تتجاوز نفسها بارتباطها بالجانب التجريدي . والعلوم الاخرى القائمة بنفسها . وبين علم الاجتماع السياسي الذي وجد جذوره في علم الاجتماع في البدء على يد ابن خلدون كما ذكرنا ومن ثم على يد دوركهايم ومانهايم بعدئذ ، ففي هذا العلم تم دمج الفلسفة والنظرية والمذاهب والعلوم الاقتصادية والاجتماعية . فلم تعد الفلسفة بعدا نظريا متمايزا عن الواقع . ولم تعد النظرية تعنى بالمعرفة البحتة والحقيقة فقط ، كما أن الواقعة السياسية لم تعد منفصلة عن مقوماتها لانها « في الاساس واقعة اجتماعية »[١٤] .

● واذا كانا ابن خلدون ودوركهايم ومعهما كونت قد سيطر عليهم علم الاجتماع ضمن وقائع الازمنة التي عايشوها ، فكونت مثلا سيطرت عليه وقائع العصر الاغريقي ــ الروماني وابن خلدون وقائع العصر العربي الاسلامي ، وأحوال الدول في ذينيك العصرين فان علم الاجتماع السياسي في الوقت الراهن سجل وقائع عصرنا اضافة الى نفاذه الى البنى عامة سواء منها التابعة للدولة أو الاجتماعية أو الطبقية أو الادارية او الاقتصادية أضافة الى نظم المجتمعات الزراعية والمدنية ودراسة القوانين والايديولوجيات والسيادة والديمقراطية والزعامات والامم و .. الخ ،

وعلى أية حال يجب أن نميز بين على الاجتماع السياسي المكرس لمنهجة الدولة ، كما هو الحال في الولايات المتحدة وعلم الاجتماع المكرس لمنهجة المذهب والدولة معا كما هو الحال في الاتحاد السوفياتي ، وبين علم الاجتماع السياسي المكرس لخدمة الامة المضطهدة وتجسيد معاناتها طبقيا وقوميا وسياسيا

وعلميا واجتماعيا الى جانب منهجة النظرية والدولة معا ، وهذا ما يميز علم الاجتماع السياسي لدى البعث العربي الاشتراكي عن غيره .

● ويمكن اعتبار القضايا التي يدرسها علم الاجتماع السياسي البعثي قضايا خاصة من ناحيتين ، الاولى ، لانها ذات صفة تاريخية عربية سواء في مستوى النضال السياسي أو في مستوى التكوينات الاجتماعية المتعددة التي تندرج تحت قوانين الثورة العربية . فالثورة العربية « وبحكم ظروف التجزئة القائمة — وهي ظروف قوية سياسيا واقتصاديا ونفسيا لأسباب عديدة ، وبحكم الخصائص الذاتية للحزب بصورة خاصة ولحركة الثورة العربية بصورة عامة ولظروف وعوامل عديدة — سلكت سبيلا متميزا ضمن الاطارات السياسية والجغرافية للاقطار العربية بهدف ازالة العوائق القطرية وانضاج شروط الوحدة بينها على طريق اقامة الدولة العربية الواحدة ، ولم تنتهج السبيل الاخر ، سبيل الانتفاضة في رقعة ما من الوطن ، ورفض الاطار السياسي والجغرافي القائم منذ البداية والاستمرار في الانتشار لحين تحقيق مهمات التحرر والوحدة الكاملة . ومن الواضح تماما أن لكل من السبيلين أساليبه واشتراطاته ونتائجه القريبة ، وان كانا في تقدير حزب البعث العربي الاشتراكي يلتقيان في النهاية عند نتائج واحدة هي اقامة الدولة العربية الواحدة الديمقراطية الاشتراكية »(١٥) .

● وفي هذه الناحية تأخذ الثورة في القطر العراقي سمتها ومحتواها من كونها نمطا من أنماط قوانين البعث في الثورة العربية ومراحلها . وهذا جانب واحد من الناحية الاولى ، أما الجانب الثاني فان تماثل البناء الاقتصادي — الاجتماعي مع القوانين العامة للحزب وبخاصة في الدولة ، والاشتراكية ، يجعله « يعتبر الاشتراكية ضرورة حاسمة لتحقيق تحرر الامة العربية ووحدتها ونهضتها الحديثة »(١٦) .

● وبهذا فقد واجهت ثورة تموز في العراق مهمات التحويل وبناء الدولة، ولا بد من الاشارة هنا الى خصوصية كل قطر عربي ضمن الخصوصية العربية

العامة ، فقد « تميز القطر العراقي بظروف خاصة تختلف في نواح كثيرة عن ظروف غيره من الاقطار العربية وبلدان العالم الثالث »[١٧] وقد فصل التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن الذي انعقد في بغداد كانون الثاني ١٩٧٤ ذلك وأوجزها في اختلاف تركيب البنية السياسية ، وتداخل المصالح الاقطاعية — شبه البورجوازية وحدوث ثلاث تغييرات في نظم الحكم ١٩٥٨ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ و ٨ شباط ١٩٦٣ .

كما أن الدولة كانت تمتلك قطاعا واسعا من الاراضي وأجهزة المواصلات وجزء من الصناعة النفطية . « ومنذ ١٩٥٣ أصبحت الدولة — وبصورة حاسمة — الرأسمالي الاكبر في البلاد وشرعت بانشاء مصانع عديدة كبيرة نسبيا . اذا قيست بالمصانع التي يمتلكها الافراد »[١٨] .

● ولا نريد هنا استعراض ما حققه البعث في مجالات تحويل الملكية وأنماط الانتاج والاصلاح الزراعي وتأميم النفط ورفع دخل المواطن وتأميم التجارة الخارجية وتنظيم التجارة الداخلية ومسألة التنمية القومية والتخطيط الاقتصادي و .. الخ ما هنالك من منجزات ومكاسب ، فهذه الامور على أهميتها الكبرى ليست ميدانا لمقولاتنا هنا لاننا هنا بصدد السيوسيولوجيا السياسية أو علم الاجتماع السياسي وعلى هذا ننتقل الى **الناحية الثانية** ، : هذه الناحية مرتبطة بالاولى ، او ان شئت فقل انها مرتبطة جزئيا ، لكنها ذات بناء نوعي متميز ، وأعنى ، التكوين الاجتماعي ، لقد تكون فكر البعث منذ البداية وباكورة الاعمال ، على أن الانسان العربي ليس كائنا سياسيا بالمعنى الافلاطوني وانما كائنا سياسيا بالمعنى الاجتماعي ، فالانسان = القوى الاجتماعية ، والحزب هو مجموعة طليعية لقوى اجتماعية .. كما « أن الحزب الثوري هو التشكيل الطليعي الذي يمثل أعلى مستويات التنظيم والوعي في المجتمع والذي تتجسد في تركيبه وسلوكه وافكاره بشكل حي وملموس المصالح الحقيقية لاوسع القواعد الجماهيرية الكادحة والمسحوقة »[١٩] .

● المجتمع العشوائي في المحصلة ينتج القوى الاجتماعية التي تشق طريقها بالمنازعات والصراعات ، لكنها ترضخ وتستكين للسلطة السياسية أو الدولة لكن المجتمع الذي ينتج حزبا طليعيا كحزب البعث العربي الاشتراكي هو المجتمع الذي يعرف أهدافه « فالواضح أن الحزب ـ أي حزب ـ هو نسبة صغيرة بالقياس الى النسبة الكبرى للجماهير ، وبدون التوصل الى تحديد العلاقات الصحيحة بين الحزب وبين الجماهير فان الصلة تصبح أما عدائية تقود الى عزلة الحزب وفقدان مبررات وجوده ، أو أنها تظل سلبية وهي خاضعة أيضا لأن تتحول الى عدم علاقة ، عدم ثقة .. ان جماهيرية الحزب الثوري هي ضرورة حياتية بالنسبة له تكفل تحسنا نوعيا وكميا في بنائه »[٢٠] .

● في هذا التحديد نجد بوضوح تام أن المجتمع هو الذي يصنع مصيره بواسطة التزام الحزب بالجماهير وذلك الالتزام لا يتم « بشكل اعتباطي ولا بالاساليب الحماسية الموجودة فقط ، انما لابد من منهج مدروس ومنظم ومقرر من خلال وعلى ضوء ظروف وضرورات الحركة والثورة ككل وطبيعة الوضع الخاص للحزب ومستوى وعي الجماهير »[٢١] .

● هذا الجانب يعني أن الحزب ـ البعث ـ لا يعتمد مقولة انفصام الواقع الاجتماعي الى واقع عام وواقع خاص . وأن الدولة التي أقامها البعث في العراق لا تميز بين صفة المواطن وصفة البعثي ، فهذا الانفصام سمة من سمات الاحزاب البورجوازية ، فالصفة الشخصية للمواطن المخلص لوطنه هي صفته كبعثي غير منتم ـ وقد أتينا على هذه المسألة سلفا ـ وبهذا فان البعث يشدد على التلاحم بين الحزب والجماهير للقضاء على الضياع السياسي الذي لابد من تجاوزه .

● لا يصدر الحزب في رأي البعث الا عن الجماهير ـ وان كان وعيه متميزا عنها أو سابقا لها في بعض المراحل ـ لكنه ليس متعاليا ، فالتعالي صفة لا عقلانية ، الا أنه معني" بتطوير وعي الجماهير ، لأن تطوير « جماهيرية الحزب لا يحصل الا بتطوير الجماهير ذاتها من خلال المعطيات والاجراءات

وأعمال التوعية التي تنقل الجماهير الى مستويات جديدة من الفهم والممارسة والعواطف أيضا »[٣٢] .

● ذلك تصور للجماهير والحزب ضمن الزمن التأريخي ومعطيات الحزب الثوري نفسه اضافة الى سيرورة المجتمع وتطوره . وهكذا يعين البعث دوره ويعين موقفه ، فالحزب لا يستقل في رأي البعث عن الممارسة ، والمجتمع نفسه لا يستقل عن الصيرورة . ومفهوم البعث عن الجماهير مفهوم علمي وليس تجريدا سياسيا أقيم أو قام من أجل « الوظيفة السياسية » .

● ولقد تم تحويل الجماهير في غالبيتها العظمى في القطـر العراقي الى جماهير معبأة تنظيميا وفكريا ونفسيا ، وغدت المهمة الملقاة على الفكر الثوري النقدي ان يستنبط من تداعي المجتمع القديم نظاما ومؤسسات نفسيا وفكريا ما تستدعيه صياغة المفاهيم الثورية للعمل الثوري من مضامين متطورة .

المبحث الثاني : دحض نظرية وايديولوجية البناء الفوقي

ومن أهم سمات علم الاجتماع السياسي البعثي تنميط العلاقات بين البنى المادية ــ الاقتصادية الاجتماعية ــ والبنى الفوقية ــ السلطة ــ فقد أكدت أدبيات الحزب وتصريحات المسئولين الى جانب التطبيق العملي ، أن البعث :ــ

أ ــ في مستوى الايديولوجية لا يحول نظريته الى مذهب جامد بتخلفه عن حركة التاريخ ، بل على العكس من ذلك ، فأيديولوجيته الجدلية لا تؤول الى نظرية ــ منفصلة كما هو الحال في نظريات كثيرة تبدأ ثورية وترتكس بعدما تتحول الى سلطة فتتسم بالشمول والتناسق ، لكنها تتحول الى ــ تقليدية ــ بعد مرور جيل واحد والمثال على ذلك أيديولوجيات كثيرة في عالمنا المعاصر لا تحتاج الى تسمية مواقعها فهي ماثلة للعيان .

ومع ذلك أمامنا برهان ساطع على تحول الثورية الى تقليدية ، وهي ثورة البورجوازية الغربية ، التي تبنت خلال فترة تاريخية أهدافا طبقية ثورية لها مدلول عالمي على مستوى القارة الاوربية ثم تدهورت وأصبحت تقليدية .

وأمامنا ايضا تجربة الصين بتطرفها الثوري ويساريتها في الستينات وثورتها الثقافية ومناهضتها الشديدة للامبريالية ، سرعان ما انعطفت انعطافا مغايرا في مستوى الاتجاه والادارة والخط وأسلوب العمل ، وان كانت هذه التجربة متماسكة في مستوى التقنيات العملية على الصعيد التنظيمي والاجتماعي ، لكن كما تدل الظواهر لا زال الانعطاف يغير مجراه بعد وفاة ماوتسي تونج ، بغض النظر عن صحة هذا الاتجاه أو ذاك في التجربة الصينية ، لكن دراسة نمط ماوتسي تونج يختلف عن الاساليب المتولدة عن الاجراءات التي اتخذت في عهد سلفه ، سواء في السلوك تجاه مجمل المسائل الخاصة بالصين أو بنية الثورة الصينية .

● والاسئلة التي تواجهنا هنا هي :ـ لماذا تتمايز أيديونوجية البعث عن غيرها ، وهل هي لا تتأثر بحركة الزمن وسياق المتناقضات الاجتماعية في القطر العراقي وكيف يمكن تمييز البنى الفوقية في البعث ـ الايديولوجية والسلطة ـ عن غيره وهل يملك البعث عاصما من تحول قيادات الحزب ومجموعات الكادر والفئات التي هي في موقع المسئولية الى مجموعات مميزة ، الامر الذي يجعل الايديولوجية تمثل مصالح معينة خاصة ؟؟.

● للاجابة على هذه الاسئلة لابد لنا من الاستشهاد بمقتطف من كلمة السيد الرئيس صدام حسين وردت في كراس « نضالنا والسياسة الدولية » لعلاقتها بموضوع البحث ، وهذه الكلمة كما يبدو لي لا تنتمي الى وجه جزئي في قوانين تبادل التأثير والارتباط وانما تنتمي الى المفصل الحقيقي للعلاقة بين البنى الفوقية والشعب يقول السيد الرئيس صدام حسين « ليس المطلوب أن تكون قرارات الدولة العراقية صائبة بحساباتنا الموضوعية والعلمية فحسب ، وانما المطلوب بالمضاف أن نحافظ ونطور جسور العلاقة النفسية والايجابية بيننا وبين الشعب العربي »[٢٣] .

● وهذه النظرة الواثقة بأن القرار السياسي مرتبط بالجماهير يؤكدها السيد الرئيس صدام حسين ضمن وجهها الحقيقي قائلا « فعدا عن كون كل

انسان في المجتمع أو في أجهزة الدولة مطالبا بأن يتصرف من موقعه في رفد تجربة الثورة بما هو مفيد وأن الحصيلة النهائية للمسيرة الناجحة عبر مراحلها المتعاقبة ومهماتها المختلفة هي المحصلة النهائية للاراء والتجارب والاعمال المتفاعلة مع عموم الواقع في الدولة وفي المجتمع اللذين يقودهما الحزب ، عدا عن كل ذلك فان عقل القيادات لا يمكن أن يكون واعيا ومقتدرا وناجحا بدون عملية التفاعل بين الاعلى والادنى »(٢٤) .

هذا على مستوى القرار السياسي الذي أكد الرئيس المناضل صدام حسين بتواضع أنه يتخذ بفعل الاعتبارات السالفة . اما على مستوى البناء الايديولوجي فلا بدلنا من التطرق الى التجارب الاخرى في المجتمعات المختلفة.

● فمثلا بعد وفاة لنين أصبحت الايديولوجية الماركسية تجهل علاقاتها الدقيقة مع الممارسة .. لماذا ؟.. لأن ستالين والجهاز البيروقراطي الحاكم آنذاك جعلا الايديولوجية « موضوعة » ذات مستبقات كاملة ، وأصر ستالين على اعتبار الانتاج أهم من الانسان ، فأهملت الاسباب التي تضمرها الايديولوجية ذاتها ، وبهذا الاهمال اعتبرت القيادة علة وسببا للايديولوجية وبمرور الوقت وضعت القيادة نفسها كعلة وسبب للجماهير ، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع ان تقطع صلتها بالجماهير بوساطة البنيان التنظيمي الذي ارتبطت به ، فهي تندرج فيه كعلة للجماهير ، مما حدا بالجماهير ذاتها الى اعتبار ذلك نتيجة بديهية مسلما بها ، وبذا وقعت في خطأ الدمج بين الاسطورة والايديولوجية :

١ ــ فيما يخص المكان حيث اعتبرت أرضها ذات تكوين قدسي .

٢ ــ فيما يخص التصورات والوقائع ، يتساوى الخطأ والصواب في مضمار القدسية .

٣ ــ فيما يتعلق بالافراد والقادة ، من حيث التضخيم والمبالغة ، والاندحار والسقوط .

٤ ــ فيما يتعلق بالزمن ، حيث اعتبر زمنا تاريخيا لكنه يتضمن أوهاما طبقية

مقطوع الصلة بالاساطير والطوباويات القديمة ، الا أنه يحتوى اساطير وطوباويات نفسية .

« ان التصورات الوهمية والخداعـة في تاريخ الايديولوجيات تختلط أحيانا وتتشابك أحيانا مع المفاهيم أي مع المعارف التي تنقلها الايديولوجيات أو تحجبها أو تخنقها أحيانا أخرى . وعلى العكس تمكنها من الظهور »(٢٥) .

وهكذا نقلت الجماهير السوفيتية في العهد الستاليني الى مستوى الميتافيزيقا بزي علمي (٢٦) فأسبغت تلك الجماهير على ذاتها زيا غريبا أصبح من الصعب التعرف به على حقيقتها نفسها . وتحضرنا هنا كلمة للعالم (مانهايم) « لقد تم ذلك بالقياس الى صب الجماهير في ــ قوالب ــ جاهزة »(٢٧) .

● أما على المستوى الايديولوجي فان حزب البعث لم يحدد الجماهير كوجود طبقي فحسب ، بل أنه وضع مقياس الجماهير « في موضوع أعلى من موضع الطلائع الثورية نفسها واعتبر مقياس ومعيار جدارة وسلامة وصدق هذه الطلائع كل في مدى جماهيريتها وقربها من هذا الشعب الكادح »(٢٨) .

ولم يكن ذلك القياس نظريا أو مجردا بل اكتسب طابع الواقع باعتباره مهمة ملحة للحزب والعمل الثوري فـ « عندما حدثت النكسة ــ يقصد نكسة حزيران ١٩٦٧ ــ عاد الحزب ليؤكد مجددا بعد فترة الضياع التي أصابت الامة العربية أثر الهزيمة المنكرة ان نقطة البداية في تصحيح آثار المرحلة السابقة هي نفسها نقطة البداية في العمل قبل ربع قرن ، والرجوع الى ينبوع القوة الحقيقي ، الرجوع الى الشعب ومصارحته بالحقائق وتحميله مسئولية النضال والعمـل »(٢٩) .

ب ــ قلنا في فصول سالفة ان الايديولوجية تحتوى سمات وهمية ، في حين ان المفاهيم ذات تحديد علمي وفي أدنى التقديرات واقعي ، وذلك في مضمار تحليلنا للايديولوجيات الرأسمالية ، لكن الايديولوجيات العلمية عندما تبرز مفاهيمها فانما تشترط على ممارستها العملية ، وهذه المفاهيم نفسها تعود

على الممارسة مرتدية الطابع العملي ، ويكون هذا الاشتراط باحدى طريقتين ، اما بالعنف أو الطواعية ، وقد رأينا مثال ستالين الذي استعمل العنف في الممارسة حيث تولت السلطة وأجهزتها طابع القسر واستخدمت أفعالها لتسوغ جماهيرها بعنفها ، وأشارت أدبيات حزب البعث العربي الاشتراكي الى التطبيق الستاليني معلنة الادانة له .

● فقد فرض الطابع القسري تعبيرات وصيغا لغوية أصبحت بمثابة مفاهيم فصادرت بالتالي الجوانب الحياتية في مفردات اللغة الاجتماعية والسياسية ، فامتلكت تلك الصيغ المجتمع كما يمتلك الحزام منتصف الجسم . مما أعاق الوعي الاجتماعي والسياسي في العهد الستاليني ، وهذا التأثير على الوعي الاجتماعي لا يعود طبعا الى التخلف وانما يعود الى الممارسة السياسية الستالينية التي طبعت الوعي الاجتماعي بطابع تبشيري ، فأصبحت لغة السياسة حاجزا أمام الوعي واستخدمت هذه الوساطة لنمو وعي سلطوي يستخدم رموزا ومفردات أقرب الى الطوباوية ، علما بأن الصورية الطوباوية يمكن أن ترافق العلم والعمران والحضارة وحتى الثورة والعلموية ، فهي ملازمة للوهم والقسر والكذب وعدم وجود النقد الذاتي والتصورات المسبقة الجاهزة وضيق أفق الممارسة العملية أو اعتبارها ملحقة باللغة الرسمية التي تطرح عالما خاصا للتصورات والافكار ، وبهذا يصبح الحزب الثوري ضمن مقياس النظرة الكمية وكذلك الجماهير . بمعنى أن الحزب في عهد ستالين أصبح قيمة استعمالية لا بوصفه دليلا على العمل الانساني الاجتماعي ، وانما بوصفه مادة للضوابط والعمل ، هنا تغدو الايديولوجية تصورا جماعيا ، ويدفعنا هذا الى العودة الى — دركهايم — عالم الاجتماع الذي أكد أن تصورا من هذا القبيل ، يجعل المجتمع ينظر الى الفرد نظرة مجردة اذا لم يسر في الالية العملية ، بينما المجتمع نفسه يريد أن يتحرر من تلك الآلية .

ومغزى هذا ان المذهبية الستالينية تفرض مقولات جامدة على التجربة في حين مارست القسر على المجتمع فلم تجعل التجربة تفرز مقولاتها ، وبحركة

دائرة مارس ذلك العهد استغلاله للايديولوجيـة فسـوغ ما فيها من مغزى واتجاه لخلق مذهب متناسق ، وبذا منـح الفرد ومنحت الجماعات نفسهـا للأيديولوجيا لكي تجد فيها ذاتها .

وهكذا كما يقول ما نهايم « الايديولوجيا تعطي المغلوبين على امرهـم الاقناع حتى يسوغوا لانفسهم الوجود»[٣٠] .

● وبذا يصل هذا الاسلوب الى الاقناع ، اقناع الجميع بالقسر والقوة اذ لابد من تحويل الرأي العام الداخلي وضرورة الاجماع فلا يمكن لمجتمع ما ان يعيش على الدوام بالعنف والقسر . والايديولوجيا اذا ما استقرت وتحولت الى نمط اقتصادي واجتماعي ولغة وفن وأدب وتكنولوجيا ، فانها تنزع الـى الرضا ، ورغم ان هذا الاسلوب قد يبني حضارة وعلما واقتصادا ويعشقه الذين يتبعون أساليب القوة المجردة ، ولاريب انه من الممكن احتمال ما في هذا الاسلوب من اجحاف وعنف وتضحية بالاجيال القائمة من أجل التنظيم والبناء والمشاريع الكبرى ، والثروات المادية ،

لكن مثل هذا الاسلوب في قياس التاريخ وحساباته لايستقر كما اثبتت تجربة ستالين وتجارب اخرى،لان الممارسة تفتح امكانات الشعوب على الممكن في المستقبل وعدم تكافؤ هذا الاسلوب مع مراحل الزمن يفـوق ما تتطلبـه الاسباب التقنية الفنية العالية للنظام الذي يطبق هذا الاسلوب ، وبين مراحل الزمن وضرورة الوعي والشعور الاجتماعي في سياق الزمن نفسه وبين الاصرار على اسلوب القسر يقف النظام بين قطبين متناقضين ...

«وفي مكنة القانون شرح كافة هذه التعقيدات ولا ريب فان السـلطان النهائي للقانون هو السلطان الالزامي للدولة»[٣١] .

● ولا ريب فان القانون امتياز خاص بالدولة ، فالقانون مجموعـة خاصة من الانظمة تمارس الدولة بوساطتها الصلاحيات الممنوحة لها ، لكن هذه الصلاحية في مثل الحالة الستالينية يستعمل او استعمل القانون ليس وسيلة

للعقاب فحسب بل وسيلة للبتر ، صحيح ان قوانين الدولة في ذلك العهد وبخاصة الدستور أقر عدم انتهاك حرمة المواطنين الفردية «فلا يمكن القاء القبض على اى مواطن الا بقرار من المحكمة او بقرار من المدعي العام ، ويعترف لجميع المواطنين بالحرية الدينية وحرية ممارسة الواجبات الدينية والدعاية المعادية للدين وعدم انتهاك حرية مساكن المواطنين ، كما يحافظ القانون على سرية الرسائل »[٣٢] .

ولكنه صحيح أيضا في الممارسة ان القانون الستاليني كان يبرر وجوده في كل لحظة من خلال انتهاكه لذاته ومن خلال الاجراءات التي اتخذت طابعا اسطوريا وملحميا تناول المجتمع بالصقل والتهذيب الاجباري . كذلك كانت الاجراءات الستالينية التي تناولت المؤسسات والاقتصاد ، تناسب الانسان والافعال الانسانية، لان المهم لديها ما هو ــ دولتي ــ نسبة الى الدولة ــ فكان التفسير الايديولوجي يجنح الى تفسير يؤكد ضعف البشر وقوة الاحداث الحتمية ، ويتعذر علينا اطلاق ازدواج الخرافة مع العلم في ذلك العهد ، الا أن الممارسة كانت تمد الايديولوجيا الماركسية برافد من الملحمية الصورية مما جعل البشر لا يمتلكون طبيعتهم الذاتية ، وبخاصة سلخ السمة العالمية للماركسية ووضعها في الوعي الفردي أو الجماعي واضفاء الروسوية عليها واكسابها مدلولا ملحميا ماثلا للعيان .

ان ذلك ضرب من التجريد باعد الشقة بين الانسان العامل وفعله ، وبين الفعل وزونقه الاصلي ، ذلك أن الاستلهامات النظرية غالبا ما تميز في مثل هذه الحالة بالمخاتلة والمواربة الرامية الى تسويغ أعمال ــ الزعيم ــ ولا ، مراء فان النقد الذي وجه للستالينية لم يكن جذريا لانه لم يعمد الى السمات الاجتماعية التي تركها ستالين ولم تعمد الى نقد تأويلاته النظرية .

● مثل هذه الحالة يرفضها البعث العربي الاشتراكي سمة وموضوعا ، لأن التأويل النظري والخوف ليست من سمات أيديولوجية البعث ولا من أسس التطبيق العملي « البعثيون يجب أن يكونوا نموذجا للاخرين في همتهم

وعملهم .. في روحهم الديمقراطية ..، في التعامل مطلوب أن يحترمنا شعبنا ، وليس المطلوب أن يخاف منا شعبنا ، وهناك فرق نوعي كبير بين الاحترام وبين الخوف بين الاحترام وبين الرهبة المفروضة »(٣٣) .

أما الاوجه العلمية لايديولوجية البعث ترفض التأويل النظري ولكنها تقبل « الاجتهاد » والتجديد وتطوير الافكار فـ « تطوير الافكار مسألة تأخذ عناية خاصة من قبلنا ، لذلك فان الكتابة في هذا المجال وبشكل عميق وجريء وواضح ودقيق مسألة مهمة بالنسبة لرفاقنا البعثيين ، لأنه أمام حالة الصراع الديمقراطي من أجل كسب الشعب ، كما يجرى في القطر العراقي حيث تنشط أحزاب وحركات أخرى الى جانب حزبنا مستفيدة من الاجواء الديمقراطية التي وفرتها الثورة ، تزداد أهمية فرص وامكانات الاطراف المتنافسة ديمقراطيا وبالتالي تزداد أهمية تعميق الافكار ووضوحها والاهتمامات بالجانب الاجتماعي في أفكارنا ونضالنا القومي »(٣٤) .

● هذا التوكيد على الجانب الاجتماعي وتطوير الافكار الذي أكد عليه الرئيس القائد المناضل صدام حسين في المقتطف أعلاه هو الذي يبرز الرونق الاصلي بين الفعل الانساني والذات الانسانية ، اذ أن الفعل هنا لا يفتعل او يصطنع اوهاما سابقة للمعرفة البعثية ولا يسدل ستارا على الاخطاء العلمية، لأن عليها »(٣٥) ، مسألة « تقود الى تراكم الغلط وهو ما يؤدي الى اثقال المسيرة بالسلبيات . وهذا هو الخطأ الحقيقي الذي يصيب الحزب الثوري ، ان المراجعة وتحديد الاخطاء لتلافيها تقوي حركة الحزب وتضمن لوحدته التنظيمية التماسك ولصلته مع الشعب الارتباط الاوثق ، والاعلان عن هذه الاخطاء وتبصير الشعب بها تعبير صادق عن ثقة الحزب بنفسه وتجسيد لايمانه بالديمقراطية الشعبية ولمنطق مصارحة الجماهير الذي يعتمده ، فوقوف الشعب على الحقائق هو نهج مبدئي لا حياد عنه »(٣٦) .

ونظرا لهذه الصلة الثورية بين الايديولوجية البعثية والواقع فان تطوير الافكار يتكون التطلع الى المستقبل في صيغة الافضل والاحسن ، بينما رأينا الكثير من الايديولوجيات عندما تبني واقعها تظل ممتلكة للواقع لتجعل منه « ماضيا » مما جعل تلك الايديولوجيات ذات صلة وثيقة بطبقة أو فئة ذات بناء علوي في المجتمع .

● ومن هنا كانت الفئات أو الطبقات العلوية حامية الايديولوجية نشيطة في عملها أما الاجزاء الاخرى كالمؤسسات مثلا فهي خاملة خمولا اجتماعيا ، وبمرور الزمن تغدو الايديولوجية ضمن الطبقة او الفئة التي ترعاها داخل اطار جزيري ، فترى أن امتلاكها للسلطة وامتلاكها لمقولات معينة سببا لاحتقار المجتمع نفسه ،

● مثل هذه الايديولوجيات تصطدم بحدودها الداخلية وتتورم بالامتداد الخارجي لكنها سرعان ما تعود الى جدرانها لتصبح مذهبا جامدا .

أما الاتصال بين الفكرة والواقع لدى البعث فهو في حالة توالد ونمو ، وقد ذكر القائد المؤسس ميشيل عفلق ذلك في عام ١٩٥٦ قائلا : « اننا نرضى لامتنا العربية ان يكون اتصالها بالحرية والحق رهنا بمرحلة زمنية هي هذه المرحلة الخطيرة التي نعاني فيها ظلم الاستعمار والاستعباد والعدوان علينا من قبل الطامعين الجشعين ، بل ان نظرتنا العميقة الى هذه المرحلة بالذات هي أنها تجربة جدية وامتحان ليس على التحرر من الاستعمار فحسب بل على اعادة النظر في أوضاعنا ومقاييسنا الفكرية والخلقية قبل ابتلائنا بالاستعمار . وعلى التبصر الطويل بمستقبلنا ليأتي سليما من شوائب الماضي وتوفير الشروط اللازمة والقواعد المتينة والارض الصالحة وفي نضالنا الحاضر لكي يولد فيه وينمو المستقبل الذي نريده »[٣٧] .

● ان أهم ما يميز البناء الفوقي في السلطة ــ أي سلطة ــ هو الانفصام عن البناء التحتي ، وان كان البناء الاول يرتكز على الثاني، وقد جرت تطويرات على ذلك من خلال الاعتماد على فئات واسعة من الطبقة الوسطى ، كما ادمجت

هيئات ومؤسسات اجتماعية في بنية الدولة وفئات معينة من المثقفين والخبراء والاكاديميين وقد اكتشف عالم الاجتماع **ماكس ويبر** أن الدولة الحديثة عـالم كبير من الموظفين التي تتوجه الى المجتمع المدني حيث تستقر حلقاتها السفلى ، أما هيغل فقد حاول بمدحه للبيروقراطية ونقدها في نفس الوقت تطوير شكلها ولكن نقده ظل قاصرا وناقصا • ذلك ان البناء الفوقي مرتبط بالصراع الطبقي ، ومقولة الصراع الطبقي ظلت مقولة غير واعية الى الوقت الذي ظهر فيه ماركس الذي وضع ذلك الصراع ضمن قوى الانتاج والتاريخ والوعي ، الا أن ماركس حاول تعميم تجربة أوربا الغربية كما ذكرنا سلفا على العالم كله ، فقد ركـز ماركس على تناقض واحد كان له الاثر البالغ في أوربا على أثر ظهور الصناعات الكبرى والمشاريع الرأسمالية •

وقد أشار « جورج ــ كرفيج ــ الى أن كارل ماركس Karl-Marx حاول أن يربط وجود الطبقات بالمعنى الفعلي ، بوجود الصناعات الكبرى أي بداية القرن السابع عشر »[٣٨] •

كما أن الماركسية التقليدية تنظر الى « الطبقة ــ نظرة اطلاقية ــ كما لو أنها جوهر قائم بذاته يحدد غيره ولا يتحدد بجوهر خارج عن ذاتـه »[٣٩] ومرورها بدور حالة الطبقات لذاتها Classe en soi

Classe pour soi »[٤٠] لم تشهدها الا أوربا ، وهي نظرة جزئية للواقع العربي ، فالصراع الطبقي في وطننا العربي يرتبط بتناقضات أخرى كالوحدة العربية والظروف الموضوعية للصراع الطبقي نفسه « حيث الصراع الطبقي يقترن بصراع ضد تحالف امبريالي ــ صهيوني رجعي يفرض استمرار التجزئة والتخلف والاستغلال والضياع »[٤١] •

وعلى أية حال ، فان التشديد على الواقع الملموس وواقع طبيعة الصراع الطبقي والقومي والصراع ضد التجزئة والاستعمار والصهيونية تؤدي الـى تمييز الوضع العربي عن غيره ويؤدي الى ربط القوانين العامة للصراع الطبقي مع القوانين الخاصة للظروف المميزة • وقد أدت الدراسات التي قام بها حزب

البعث الى تحديد مقولات واضحة في هذا الجانب ، والذي يهمنا هنا هــو الاشارة بالتحليل الى مناهضة البعث فكرا وممارسة وتطبيقا لنظرية البنـاء الفوقي .

● أكدت نشريات الحزب أو أدبياته على « أن الطبقة العاملة هي الضمانة الثورية الحقيقية لالتحام أيديولوجية الثورة العربية بالمواقف السياسية ذات الطابع الستراتيجي أو التاكتيكي الظرفي ، والضمانة لعدم تصدع هذه العلاقة أو تشويهها »[٤٢] .

ان ارتباط نشوء حزب البعث بصراع الامة العربية ضد القيادات الرجعية والتجزئة والاستعمار والصهيونية ، جعل الاولوية للامة وليس للنظام كما ان كينونة البعث الفكرية « هي في الوقت نفسه ، اكتشافات ذات طابع نضالي عملي»[٤٣] ولذلك فالنظام عند البعث وسيلة وليس غاية بعكس الايديولوجيات الوضعية التي حولت الانسان الى مجرد موظف اجتماعي لا يملك الا الخنوع التام ، كما أن واقع نظام البعث في القطر العراقي قد عبر عن أعتبار الانسان ــ وسيلة وغاية ــ وعن هدف البعث بأشكال مختلفة فـ « الاساس الشعبـي والمبدئي لثورة السابع عشر من تموز ، واتعاظ حزبها القائد بتجاربه العديدة ، ودراسته العميقة والصادقة للتجارب السابقة والراهنة في الوطن العربي وفي العالم الثالث ، قد وفر له امكانات التحصن ومستلزمات التقدم الى أمام»[٤٤] .

وبطبيعة واقع الدولة لا يمكن الاستغناء عن النظام « ولا توجد حركـة ثورية واحدة في التاريخ نجحت بدونه »[٤٥] ولا نريـد هنا استعراض مـا تواجهه الثورة بعد استلام الحكم ومسألة العنف او الاقناع ، ومهمات الثورة في البناء والتنظيم فهذه مسائل متشعبة ، ولكننا نستطيع اجمال القول أن النظام الثوري نظام جذري .

وخلال التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تتعرض الثورة الى « توزيع العمل والوظائف » أو بتعبير أدق يشكل مظهر توزيع العمل مظهرا من

مظاهر التغيير الثوري . فالعمل الثوري يتنـاول النظـام بالتغيير مستوعبا الاقتصادي ومنظما السياسي ، كما أن التغيير ليس الا مستويات واصعـدة وعناصر لفترات أو مراحل لا يحق لنا أن نخلط بينها ، ولا يحق لنا أيضا الفصل بينها ، كما لا يحق للجانب السياسي أن يدعي الحقيقة بمعزل عن الجانـب الاقتصادي أو الجانب الاجتماعي أو الجانب الثقافي او الجانب النفسي ، فكل يرنو الى الحقيقة بالتكامل مع الجوانب الاخرى وسوف يكون للحزب الثوري ثلاثة مظاهر متلازمة :

١ ـ من الناحية السياسية بناء المؤسسات الثورية وبخاصة المنظمات الشعبية.

٢ ـ بناء الاجهزة التنفيذية والادارية .

٣ ـ اقامة ديمقراطيتها الداخلية تمهيدا لاقامة ديمقراطية شعبية .

● في الناحية الاولى يتم القضاء على السلطة القديمة ورموزها الطبقية والسلطوية وتأتي الثورة برجالها ورموزها ولابد هنا وضمن الوضع الثوري من «تكوين قواعد جديدة لسلوك الفئة الحاكمة بعد تحطيم النظام القديم، تقوم على أساس نكران ومحو الامتيازات والغاء جميع مظاهر الترف والاستغلال ، ان مسألة الغاء امتيازات الفئة الحاكمة وتبسيط معيشتها ومقاومة جميع ميول الراحة والعيش المرفه واستغلال النفوذ ، وبكلمة أخرى فرض التقشف عليها ، ان هذه المسألة ليست قضية اقتصادية هدفها توفير أموال على الدولة وليست قضية رومانتيكية وتصوف ، بل هي من صميم قضية النظام أي تثبيت قيـم جديدة محل القيم القديمة »[٤٦] .

هذه البداية تجعل الثورة في مستوى سلوكها وتجعل القادة لا يجنحون الى الانفراد بالسلطة . وتجعل الدولة نفسها ممثلة برموزها غير متمايزة عـن القوى الاجتماعية الثورية « ان قضية وضع الفئة الحاكمة في مرحلة البنـاء الثوري غاية في الاهمية وغاية في التأثير سلبا أو ايجابا على نجاح الثـورة ، وليس هناك من مرض أخطر على الثورة من انفلات السلوك وانطلاق غرائز

التمتع والكسب واستغلال النفوذ عند الفئة الحاكمة وذوي المراكز القوية »[٤٧] ، وقد عالج المؤتمر القومي السادس ــ نيسان ــ أبريل ــ ١٩٦٥ هذه الجوانب وسلط أضواء ثورية ونقدا جذريا على تجربة خاصة به بالذات ، ولكن هذا لا يكفي في عدم تمايز البناء الفوقي عن البناء التحتي ، اذ ان الدولة ليس ملبسا أو مظهرا للقادة أو الحكام ، فالدولة جهاز كامل وهي غرض وغاية الصراع الاجتماعي والطبقي الذي يدور حولها من وجهة نظر واقعية ــ اجتماعية .

و « الدولة » جزء من المجتمع ينصب نفسه فوق هذا المجتمع ، ويضيف الى وظائفه التي كان لابد منها ــ في فترة ما ــ زيادات واضافات تبيحها له ممارسته السلطة ثم استولى رجال الحكم على العقلانية الملازمة ــ للبراكتس « الممارسة » واستغلوا نقصها وعدلوا بها نحو غايتهم الخاصة وجعلوها عند الحاجة تنقلب على المجتمع بأسره ، الحركة الجدلية للدولة على جانب من التعقيد من الناحية التاريخية والفكرية »[٤٨] .

● الدولة المتهافتة التي يتهافت الحكام والقادة فيها على الملاذ . والتساهل على الفساد والتستر على النهب ، هي دولة بورجوازية ، أما الدولة التي تعبد ــ النصب ــ جمعه أنصاب ــ فهي تستعيض بالزعيم عن الجماهير وهو تخطيط لنظام الاستبداد حتى ولو غطى ذلك النظام نفسه بالسلوفان الاشتراكي . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان وجود الدولة ضروري من أجل تحقيق الاشتراكية والوحدة والحرية لدى البعث . وهو ضروري أيضا لدى جميع الاشتراكيين والثوريين في العالم اجمع .

● وهكذا فمسألة النظام لدى البعث ترى من اللازم معالجة ظاهرة الانحلال في القيادة منذ بدء تسلم النظام لأن المسألة ليست مسألة أفراد فـ « الافراد الذين يضعون أقدامهم في أرض الاستغلال والفساد عن قصد وتصميم يمكن أن يوجد منهم في كل ثورة ، وأمرهم لا يهمنا كثيرا ، فهم انتهازيون ليس للثورة الا تصفيتهم بصورة فورية وبكل قسوة ، ولكن الاهم من ذلك

هو الخطأ الذي قد ترتكبه الثورات في معالجة ظاهرة الانحلال هـذه وهـو التساهل مع الفساد والتستر عليه خوفا من تصديع سمعة الحكم والانتقاص من هيبته »[٤٩] .

● هكذا على الثورة أن تهتم بالصدق مع نفسها ومع الواقع والجماهير ، وتهتم اهتماما مباشرا وصريحا بالحق وتتقرب اليه تقربا تدريجيا ، اذ أن مسألة الحقيقة والصدق مع النفس ومع الجماهير ذات صلة وثقى باصالة الفكر وايمان الثوريين بها ، فعلى القادة الذين انتخبوا لأدارة الدولة والسلطة أن يبرهنوا بالتجربة على ذلك الصدق ، أما فشل بعض الذين وضعوا في القمة في التجربة فلا يعنى عدم صدق الفكرة أو أصالتها ، والا اصبحت المسألة مسألة مدرسية مجـردة .

ولما كان البعث يؤمن بأن الحقيقة قائمة في الواقع في ارادة تغييره وفي الانقلاب عليه . فانه من قبيل الصدق ، أن الحقيقة لا تتوقف على مظاهر الواقع الطارئة التي تطفو على السطح ، وانما على جوهر الواقع القائـم في ارادة ، الجماهير .

● لقد أثبتت ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ أن حزب البعث العربي الاشتراكي كان متمكنا من قيادة نفسه وقيادة الدولة وقيادة الجماهير « ومنطقيا لا تتوفر هذه الامكانية الا اذا كانت للحزب نفسه قيادة مركزية لها وزنها الحقيقـي وفعاليتها الملموسة . وهذه القيادة لكي تكون بمستوى مهامها المطروحة في موضوع القيادة العامة والخاصة لابد أن « تستند سياستها الثورية الى العلم وذلك بالتمسك بالنهج العلمي في ميدان الفكر والتطبيق ، وتنزع هذه السياسة نزعا كاملا كل ألوان التفكير الطوبائي والانفرادي والسطحي ، وتجعل من كل مكتسب علمي مكسبا لها يعزز سياستها ويطورها »[٥٠] .

● ان توفر هذه القيادة لدى حزب البعث أدى الى اجتثاث الافـراد الانتهازيين وأصحاب النزعة الدكتاتورية والانفراديين والتسلطيين والنفعيين

الذين أرادوا جعل ــ المنصب ــ اداة للثراء والبذخ ، وتتضح أهمية وجدية ذلك الاجراء من احتمال تكون ــ قيادة ــ تفرض الثورة من علٍ ، وتحاول دمج الجماهير بأجهزة الدولة وتحويل الحزب الى أداة قمع ، وبالتالي اختزال دور الجماهير والحزب معا .

● **البنى الفوقية** اذن تتحرك فيوسط وعلاقات غير الشروط والعلاقاتالتي تقوم عليها القيادة في الوضع الثوري ، وكان الالمان هم أول من وضع مفهوم البنى الفوقية في **عهد بسمارك** الذي حاول دمج الطبقة العاملة بالدولة بواسطة **المفكر الاشتراكي لاسال** وكان هذا الاخير له علاقة ببسمارك كما هو معروف في التأريخ ، وقد حاولت **التجربة البسماركية** اضافة بعدٍ سياسي وايديولوجي للتكامل بين البنى الفوقية وبين الجماهير بواساطة **فلسفة هيغل** ، فكانت صلة وهمية . . فقد تطورت البنى الفوقية الالمانية ــ الدولة ، على حساب الجماهير الكادحة التي لم تكسب الا وشائج خيالية على الصعيد القانوني .

ومن البديهي ان القيادة الثورية التي تستلم السلطة لا تصبح بنى فوقية الا اذا تخلت عن ممارستها النضالية ودورها المتعاظم في مسألة تحويل المجتمع تحويلا جذريا ذلك ان الانتصار الحاسم للحزب وقيام دولة الثورة يدخل القيادة في طور جديد ، وهو أداء مهام الثورة ذاتها وبناء دولتها « والحزب القائد في تشييد الدولة الجديدة للثورة لايعكس وجوده القيادي من خلال احتلاله اكثر المراكز والوظائف في اجهزة الدولة بل يعكس وجوده من خلال التوجيه السياسي وادارة دفة التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وفيما عدا ذلك يكون اشغال المراكز والوظائف في الدولة، رهنا بالشرط الجوهري في ممارسة التوجيه والادارة السياسية للاجهزة »[٥١] .

ومن الواضح أن هذا الحزب لم يمتلك الثورة لو لم تكن لديه قيادة متمرسة ومستوعبة ومتطورة ، ولما كانت القيادة تفسر الحزب والحزب يفسر القيادة وطبيعتها وقدراتها ، فان القيادة نفسها لم تعد بناء « فوقيا » وانما مندمجة مع قاعدتها وقائمة حسب رغبة تلك القاعدة الجماهيرية واختيارها ،

فهي اذن ليست بالقيادة المتسلطة على حزبها وليست بالقيادة ذات التفكير الانفرادي اليميني أو ذات الانشاءات النظرية اللفظية فـ « اكثر الحركات والقادة تطرفا لفظيا هم عادة ابعد الفئات عن الانجاز العملي ، ان القيادات المسؤولة التي تسعى جديا للانجاز تدرك أن التنمية الاقتصادية والتحويل الاشتراكي لا تتمان بالتمني ، بل بالدراسة العلمية التي تكشف الصعوبات العديدة والهائلة احيانا التيتعترض الطريق نحو التحويلالاشتراكي»[٥٢].

● واذا نحن مضينا على نفس السياق التحليلي لحزب البعث وجدنا قيادة ثورة السابع عشر من تموز ١٩٦٨ هي خلاصة البناء العضوي ليس للمقولات الذهنية النظرية فحسب ، بل للسمات العلمية والميزات الواقعية بمعنى ان القيادة المذكورة هي قيادة بجدارة قادرة على قيادة الحزب والدولة ، والحديث عن القيادة ليس بالسهولة المنتظرة او الامر الهين ، لأن القيادة هي خلاصة الحزب وتجاربه وانسجامه الداخلي وديمقراطيته الذاتية وكما أن التطور العلمي مثلا مدين لابن خلدون وابن سينا وابن الهيثم والرازي ودارون وبيكون وآدامز وغاليلو ونيوتن وكوبرنكس وانيشتاين وماركس وهيغل وسميث وريكاردو وفيورباخ وغيرهم . فان المجتمعات مدينة للقيادات التاريخية ونفس المقياس ينطبق على قيادة حزب البعث في العراق وقيادته القومية التي تحملت عبء النظرية وتسيير دفةالامور عمليا وتصحيح الانحرافات والتكتلات ومحاربة الانشقاقات والانقسامات[٥٣] .

ونعود الى الناحية الثانية في علم الاجتماع السياسي البعثي التي لم تتطرق اليها لحد الان ، اذ انها لصيقة الوشائج بطروحات المجموعة الكلية لمبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي ولعلاقتها بمسألة البنى الفوقية ويستحسن أن نفرد لها بحثا مميزا .

المبحث الثالث : معنى القيـادة

١ ـ القيادة الحزبية ومقوماتها :

لقد فرغنا من تحديد بعض ملامح أيديولوجية البعث العلميه الثوريـة التي أمدته بالصمود النضالي ومكنته من تفجير ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ وثورة الثامن من اذار في القطر السوري وثورة ١٧ تموز في القطر العراقي •

وأصبح بديهيا لدينا أن نظرية البعث الثورية متمكنة من الواقع وفحصـه فحصا متأنيا دقيقا • كما اصبح بديهيا لدينا ولدى الجماهير العريضة أن قيادة البعث ليست بنية فوقية بمعنى التركيب البورجوازي الرأسمالي للدولة ولا بالمعنى الستاليني أو البسماركي أو الهيغلي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لابد لنا من الاشارة الى مسألة أساسية في النظرية الثورية للبعث وأعني بها ما يطرحه علم الاجتماع السياسي العالمي وبخاصة المدرسة الماركسية الفرنسيةذات النزوع البنيوي ، فمثلا يطرح هنري لوفيفر في كتابه ماركس وعلم الاجتمـاع مسألـة البنية[٥٤] ، فلوفيفر يعتقد ان الدولة « كبنية في دوائرها وتقنياتها وشرطتها وأجهزتها تقع في تناقض بين تعريفها النظري ومستبقاتها الواقعية » ويـرى لوفيفر أن الدولة ـ أي دولة « تنطوي على جرثومة انقراضها ، ولذا يجب نقد الدولة ـ حتى الثورية منها حسب اعتقاده ـ لان الدولة تشتمل عـلى عناصر تحجبها وتخفيها »[٥٥] •

● حقا ان هذه المسألة تبدو صعبة لكنها سهلة الى حد بعيد اذا عرفنا ان النظرية الثورية للبعث لا تغفل هذا الجانب فقد أكد الحزب أنه « مهما تكن نجاحات أي حزب في ساحة العمل فانها لا تضمن قيادة هذا الحزب اذا لم يجر التركيز على النظرية التي تشير الى نجاحات أخرى وتجدد الاكتشـافات ، ولتطابق النظرية مع مهمة القيادة يشترط أن تكون النظرية متكاملة كوحـدة موضوعية زاخرة بالحياة ، أي أنها لا تكون انتقائية مرقعة دون أي أساس او قانـون »[٥٦] •

« ان قيادة الثورة ليست متعة أو نزهة أو مغامرة بسيطة ، انها كفاح شاق من نوع جديد يعتمد التخطيط والتضحية والمواصلة الحازمة في استكمال الاهداف . كما أنها ــ أي القيادة ــ ليست فقط قيادة عمليات واجراءات بل هي قيادة جماهير أيضا ذات منطق ووسائل واقعية ، ولهذا لا يقوى على القيادة هذه الا الحزب الذي يجدد وسائله ويطور قواه ، فارتفاع مستوى الحزب ضمانة لتحقيق أهداف الشعب ، بينما لا يعني هبوط مستوى الحزب أو توقف نموه الا الحاق كل الضرر بالثورة والجماهير »(٥٧) .

● ومن الواضح أن القيادة الثورية وهي تتدبر مختلف أوجه مسائل وقضايا الشعب انما تراقب نفسها بوساطة تجديد وتطوير نظريتها وتجديد وتطوير نفسها وأنشطتها ــ كما ونوعا ــ ولكن التطوير والتجديد لا يعني الابتعاد عن المرتكزات بل على العكس انطلاقا منها لتقرير مستويات العمل الجديدة . وغير طبيعي أن تنعزل القيادة الثورية عن بنيتها الحزبية ، كما أن تلك القيادة لا يمكن أن تتحول الى بنية فوقية بالمفهوم البورجوازي بوساطة ادماج نفسها في وظائف الدولة « اذ ان تحرير الواقع من قيوده بواسطة النظرية الهادية والممارسات هو أول ما يجب أن تبرع فيه القيادة »(٥٨) .

● اذن القطعية بين القيادة كبنية فوقية والقاعدة ــ الحزب والجماهير ، غير ممكنة في البعث اذ ان البناء الدولتي ليس غاية بحد ذاته عند البعث وعند قيادته . ثم ان الاستمرار النظري والممارسة في التطبيق يجعل الثورية البعثية كعلم جدلي متطور يستوعب الظروف المستجدة محليا وعربيا ودوليا ويمتلك تلك الظروف بمعرفتها والقدرة على اتخاذ موقف منها . يضاف الى هذا ان مفاهيم البعث « كموضوعة » علمية التي تكلمت عن الاستغلال والاشتراكية وضياع الانسان العربي ، والظلم الطبقي ، والاستلاب ، والوحدة ، والحرية ، والديمقراطية الشعبية ، والانتاج ، والحاجة ، والقيمة و ... الخ ليست ذات علاقة فقط بتاريخها الاني انما هي كوحدة جدلية مستعدة لقفزات نوعية من خلال الاستمرار النظري والممارسة الثورية وضمن التاريخ اللاحق،

دون أن تحدث قطيعة معرفية ، ذلك ان نظرية البعث استوعبت القوانين العامة والخاصة للتطور واستوعبت الجدل العلمي الذي هو طريقه للامساك بزمام الحركة الاجتماعية لمعرفتها ودراستها ومركزة تلك النظرية الجدلية في الحركة على الواقع الاجتماعي وعلى أزمانه التاريخية .

● والقيادة نفسها توجد في حركة جدلية اذا أعطيت حقيقتها وأصبحت ليس قائدة الحركة الثورية فحسب وانما قائدة لنفسها .

والنقطة الثانية التي ادخلها البعث في هذا المجال ان القيادة المبنية على الجدل لا تضيع في جسم الدولة أو جسم الحزب أو الجماهير لانها ممكنة الحركة باتجاهات مختلفة وضمن حركة الواقع الجدلي ممتلكة للملاحظة الثورية في الحياة الحزبية وفي حياة الجماهير وفي عموم انشطة مؤسسات الدولة والمجتمع، ومن الملاحظات التي أوردها الرئيس القائد المناضل صدام حسين وهو عقلية ثرة من عقليات القيادة الثورية ذات التركيب الجدلي هذه الملاحظة الدقيقة «ان من الاخطار التي تواجهها الانظمة الثورية ايضا « سمنتها » أي كمية «الشحم» المضاف الذي يعرقل حركة الوثوب لديها ، والشحم المضاف ، هنا ، هو التخلي عن أساليب أو أهداف العمل الثوري ، والابتعاد عن الجماهير والانغماس في ملذات الحياة ، وهذا ما يجب أن ننتبه اليه دائما ، فعلينا أن نراقب دائما مقدار السمنة التي تكونت لدى الثوريين والحركة الثورية ، ومقدار ما يجب ان يزاح عنها »(٥٩) .

● هكذا يتصل الوعي القيادي بوعي الحركة الثورية ويقيم التناسق بين القيادة والوعي الجماهيري ودرجات حركة الثورة في ذلك الواقع ؛ وفي نفس الوقت يتصل التركيب الجدلي للقيادة الثورية بتركيب الثورة ذاتها وتأريخيتها، ذلك أن القيادة نفسها هي حادث تاريخي .

٢ ـ جدلية الحزب والقيادة وتراكيب الثورة :

لقد جاء في التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن « ان التحولات الجذرية وضمن أفق قومي واشتراكي وديمقراطي في بنية الدولة وفي التشريع ، وفي الميادين الاجتماعية والثقافية والاعلامية والتربوية تحتل أهمية مماثلة للتحولات الجذرية ذات الطابع الوطني والديمقراطي والاشتراكي ، وترتبط بها ارتباطا وثيقا ويفترض أن تواكبها كي تمضي مسيرة التحول باتجاه تحقيق أهداف الثورة في نسق واحد تكمل كل حلقة فيه الاخرى »[٦٠] وهنا لابد أن نقف على وحدة هذا التحليل ، فقد حلل التقرير السياسي كافة الامور والمسائل الاقتصادية والسياسية والحزبية والثورة والاصلاح الزراعي والتخطيط والاستقلال السياسي والسياسة الدولية ومهام التحويل الاشتراكي و ... الخ[٦١] ، وأعطاها كلها صفة الشمولية ، وفي نهاية التحليل والاستطراد وصل التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن الى أن المعرفة الثورية هي معرفة شمولية . وقد جئنا بمقتطف منه خاص بـ « التحولات الثقافية والاجتماعية » لنؤكد أن معرفة البعث الثورية تجعل من المستحيل تجزئة الواقع والتحولات ، لانها تفهم الواقع فهما جدليا ، وتلك المعرفة تتحرك للاحاطة بالواقع الحي النامي وبما يحتويه من اشكالات وتناقضات وتشابكات واحتمالات ، اذ لا يمكن ايقاف المعرفة الثورية ولا يجوز ايقافها لئلا تصبح محنطة أو جامدة بدون حياة .

وهنا تبرز مرة اخرى أهمية الحزب واهمية قيادته التي تتمكن من معرفة هذه الشمولية السائدة والمعقدة والمركبة احيانا والمتطورة والنامية وليست الواقفة في الواقع الاجتماعي .

لكن المعرفة العلمية كما هو معروف لا تكتفي بالشمولية ككلية مطلقة زمانا ومكانا اذ أن الطرائقية البعثية الجدلية تركب وحدتها المعرفية الشمولية في كل مرحلة تاريخية دون تجزئة لها ، وهذا التركيب يجعل القيادة الجدلية « تتمكن على تشخيص المراحل التاريخية المتعاقبة ، حيث أن المسيرة التاريخية

ليست مرحلة واحدة بل هي مجموعة مراحل متصلة لا تنتهي الواحدة تقود الى الاخرى بحيث تكون المرحلة المعينة جامعة لآثار سابقاتها ولبذور المرحلة اللاحقة »[٦٢] وهكذا فان الجماهير المنظمة والحزب والقيادة الثورية والوعي الاجتماعي والقومي ونتاج الطبقات الكادحة ، وعلاقات ذلك الانتاج والبنى الايديولوجيه والنتاج الحضاري والمؤسسات والنقابات والاتحادات كلها مظهر واحد لحقيقة واحدة ، لكن الانتاج والقوى المنتجة وعلاقات الانتاج والمؤسسات ليست حقيقة متكاملة ، اذ لا توجد حقيقة متكاملة في الوجود فهي سائرة ضمن متأثرات متبادلة وصائرة الى التكامل بما يحسن تجاوز السلب الى الايجاب •

واذا كان في هذا التعبير من التباس فان الالتباس ينجلي اذا أدركنا أن حزب البعث بنظريته العلمية لم ينزع الى الوثوقية التي أشرنا اليها في بداية فصول هذا الكتاب ، فالتجاوز صفة ملازمة للتقدم والجدل الاجتماعي ، كما انها سمة من سمات الستراتيجية الجدلية • اضافة الى أن قوى الانتاج وعلاقات الانتاج نفسها وتغير أدوار المراحل ومتطلبات الستراتيجية الثوريه ،والقيادة التي تقود تلك الستراتيجية لا يمكن أن تجعل الواقع يكتفي بنفسه زمانا ومكانا وانتاجا وسياسة وثقافة ووعيا و •• الخ ، فأشهر أنواع التجاوز هو في تركيب أعلى يتم بالوعي والحركة وبالحركة والعمل ، وهذا هو العمل الثوري وهذه هي القيادة الثورية •

● في نهاية هذا الاستطراد وفي حقل جدلية القيادة الثوريه وجدلية تراكيب الثورة ، نوجز الطرائقية العلمية البعثية في كونها ليست فقط جدل المفاهيم المطبقة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا لأن ذلك سيقودنا الى السكونية والثبات ، وانما هي أيضا جدل المفاهيم المتحركة مع حركة الواقع أحيانا والمستبقة لحركة الواقع أحيانا أخرى ، اذ لابد من ــ الحراك ــ النظري والعملي لكي لا تتحنط المفاهيم بينما الواقع يتحرك والقوى الاجتماعية تسير •

والجدل القيادي البعثي لا يرتبط أيضا بحراك المجتمع كلية ، لانه ان فعل ذلك سيضطر الى اتخاذ موقف « وضعي »[٦٣] ولكنه يسبق المجتمع ليفتح الطريق للجدل الثوري.ولا يعنى ذلك اتخاذ موقف فلسفي مجرد.اذ ان الجدل النظري والممارسة للفعل الثوري تقودان الى استخلاص ما في التجارب الحية وتفاعلات القوى الاجتماعية من استشفاف ورؤية مستقبلية اذ أن وحدة التجربة مع الجدل النظري الثوري هي التي تعطي للقيادة رؤية علمية لآفاق المستقبل فـ « القيادة الحقيقية بما تملكه من رؤية ، تدرك أبعاد كل مرحلة وما يتعلق بها من متضمناتها وتفرعاتها، آخذة مسبقا صورة من الآفاق والمراحل البعدية التي يجب مواجهتها او تقدير الموقف أزاءها أثناء الموقف الآني في استيعاب المرحلة السابقة لها وكتمهيد لمواقف جديدة مطلوبة »[٦٤] .

و « القيادة الثورية لا تأخذ بالوعي كمقولة نظرية ، كوعي مجرد ، والا أوقعت نفسها في سوفسطائية سياسية بلهاء ... انها تربط الوعي بالتغيير المادي حيث أن الوعي هو العمل بوحدة جدلية خصبة معطاء »[٦٥] .

ونخلص من ذلك أن ما نفهمه من جدل قيادة البعث ما يلي :ـ

أ ـ الجدل البعثي سواء في النظرية أو في طريقة العمل يهدف الى بلوغ الكليات والعناصر الجزئية ضمن مكوناتها ومراحلها واماكنها ، اذ ان التلاحم بين الكليات والجزئيات في المستوى النظري والمادي يعني الجدل ، وهناك نواقص وثغرات ومنازعات وأخطاء ووجهات نظر قد تحاول أحباط هذا الجدل ، أما بفرض الكليات على الجزئيات أو فرض الجزئيات على الكليات أو بتعبير آخر فرض الوحدة على الاجزاء أو فرض الاجزاء على الوحدة ..، اما جدل البعث من خلال قيادته الحكيمة والجديرة ليس بالتسمية فحسب بل بحقائقها ومضموناتها ، فنرى أن الثغرات والنواقص والاخطاء ووجهات النظر لابد منها لأنها نتيجة الحراك والتقدم ، الا أنها ترفض قتل الجزئيات على حساب الكليات مثلما ترفض قتل الكليات لحساب الجزئيات لكن الجزئيات لا معنى لها الا

ضمن سياق حركتها التاريخية وانصبابها في الكل المكون لها ، كما أن الكل يظل متجمدا ومحنطا اذا لم يستمد نموه من الجزئيات •

ب ـ النقطة الثانية البارزة في ممارسة القيادة الثورية للبعث هي انها ترفض التجريد في المراحل أي عدم اضفاء صفة العمومية على مرحلة معينة فالواقع مهما كان نوعه في مرحلة معينة لا يمكن اعتباره زمنا كاملا ولا يمكن اعتباره واقعا ثابتا ، فحسب قانون الاتصال في الزمن وفي الجدل تتفاوت المراحل وتتعاقب لكنها ترتبط بعلاقات معينة « وبالنسبة للقيادة يكون اجتياز وعي المرحلة ضروريا لانجاز أهداف المرحلة • وبذلك يثبت الاساس الابتدائي لانجاز الاهداف التكميلية التابعة »[٦٦] •

● لكن المراوحة في نفس المكان أمر مرفوض اطلاقا ذلك أن الوضع الملموس يتحرك بأستمرار وذلك ان القضايا والمهام العينية في مرحلة أو مراحل معينة تحصر الثورة في استقصاء جزئي للاحداث مع ترك المراحل المستقبلية، وعليه فان جدلية البعث في هذه النقطة تتسم بالنقض ، والنقض هنا لا يعني البتر • فطالما أن الواقع قابل للتعيين فان التواصل والتعاقب في المراحل أمر لازم ، اذ أن الممارسة العملية والنظرية العلمية للبعث ترى في كل مرحلة ولادة جديدة ، فمثلا حدد القائد المؤسس ميشيل عفلق مرحلة ما بعد هزيمة حزيران بأنها بمثابة « تأسيس جديد للحزب ، بمثابة تجديد كلي وعميق لمفاهيم الحزب لفكرته ونضاله ولآفاق هذا النضال »[٦٧] •

جـ ـ ومن هنا نطل على **النقطة الثالثة** واقصد بها هدم الجمود ، فالجدل الثوري البعثي يعتبر هدما للجمود في الواقع السلطوي وفي الواقع الاجتماعي وفي المعرفة ، انه صراع ضد الجمود والتحنيط والغيبية ، فرغم أن المفاهيم أدلة نظرية وعملية الا أنها اذا وقفت في تعاريف محددة ونصف تاريخية فانها سرعان ما ترتدي طيالس المنطق الشكلي وان كانت علمية في فترة زمنية وتصبح قاصرة عن فهم حركة الواقع ، والجمود في المفاهيم يؤدى الى الميتافيزيقا المذهبية الامر الذي يعوق اساس الجدل موضوع التأسيس

الاولى « فالمستقبل هو ظرف الاستعداد الدائم لاحتواء حركة التاريخ القومي وخبراته ، لا عن افتراض قانون أعلى أو دافع حيوي ذاتي غير مدرك لذاته بل بارادة واعية في الوسط الزماني »[٦٨] .

في هذه النقطة تتولد المعرفة عن طبيعتها في الواقع ، وتصبح المفاهيم القديمة والجديدة ساعية نحو التطابق في جدلية الزمن والواقع كوحدة للنظرية والممارسة .

د ـ **النقطة الرابعة** في جدل البعث هي كون ذلك الجدل يسعى الى ذات يتجه اليها ويتحد بها ، فالعلم والتاريخ ليسا مجانيين فاذا كانت الحرية هي الضرورة كما يقول هيغل ، فان الضرورة ليست مجانية أيضا فهي كائنة بوساطة المجتمع والانسان ، لذا فالضرورة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية (كذات) يتجه اليها العلم والمفاهيم والجدل المتجدد فيها .

هـ ـ **النقطة الخامسة** هي أن جدل البعث التاريخي يظهر ويبرز من خلال التناقضات والصراعات والمضادات . وهذه الصراعات والتناقضات والمضادات هي من طبيعة الثورة وتطبيق الاشتراكية . « لذلك فأن المشاكل التي تواجه حزبنا في البناء الاشتراكي مشاكل كثيرة ومعقدة وتحتاج الى حضور دائم ومستمر في التصور والحلول لتلك المشاكل والايمان المستمر بأهمية الابتعاد عن القوالب الجامدة في التصور والمعالجات . والعمل بشكل خاص على لجم الملكية والنشاط الخاص »[٦٩] .

وهي أي الصراعات والمتناقضات ـ ليست قائمة فحسب بين الثورة وأعداء الثورة من رجعيين ورأسماليين مستغلين وانتهازيين وتبعيين ، باعتبارهم ـ كلا ـ مختلفا ومتعارضا فحسب ، بل بين اجزاء من الواقع الجديد ، اذ نجد أن بعض الافراد أو الفئات الداخلة في الثورة تقف في مرحلة معينة أو تتجمد ، وهذه مسألة معروفة وهناك شواهد في القطر العراقي نفسه والاقطار العربية الاخرى اضافة الى تجارب عالمية معروفة ومستشهد بها في كثير من الدراسات .

ان هذا النقطة مهمة جدا ، اذ تصطدم الكلية الاجتماعية الثورية بأجزاء من ــموجودها ــ تسعى الى تعريف الثورة ضمن حدود ضيقة والجــدل حبيسا لحدوده المرحلية أو حبيسا لمصلحة معينة •

٣ ـ سمات جدلية مضافة :

أ ــ **الوضوح النظري** : ان خصائص الجدل الثوري كطريقة نظريــة وعمليــة في استقصاء الواقع الاجتماعي والتأريخي تجعل الوضوح النظري مسألة مفروغا منها ، لكن هذا لا يعني ان كل حزب امتلك نظرية ثورية امتلك في الوقت نفسه الوضوح النظري وأكبر برهان على ذلك اخفاق الكثير من الاحزاب الثورية في العالم الثالث ، كما أن الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية دليل آخر ، والوضوح النظري يعنى امتلاك القدرة في تحليــل الواقع الملموس ودراسة تراكيبه وقواه اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا كما أن تحديد خريطة الاعداء والاصدقاء شيء أساس في التعامل مع الواقع اضافة الى حجوم الاقتدار في الحــزب كبنية ذاتيــة وحجوم الضغط الجماهيرية سلبا أو ايجابا •

ومن جهة حزب البعث العربي الاشتراكي بالنسبة لبناء « المجتمع الاشتراكي حدد الحزب أن ذلك البناء لا يمكن أن يتم الا بأزالة سيطرة رأس المال على الحكم »[٧٠] كما « اعتبر البرنامج المرحلي ان الطبقــة القائدة للثورة هي طبقة المستغلين ــ طبقة العمال والفلاحين »[٧١] •

● كما حددت أدبيات الحزب الاعداء وقد تحدثنا سلفا وباختصار عن هذا الجانب ويهمنا هنا أن نقول ان جدل البعث باعتباره حركــة حقيقية تسلكها الثورة هو « الكلية » التاريخية للامة العربية تتكامــل وتنمو من خلال الصراعات والتناقضات والثورة الجماهيرية العربية في اقطارها العديدة ، وقد تتعثر أجزاء وتنمو أجزاء لتعود للتكامل والتفاعل المستمر مع بؤرة الثورة العربية الكبرى في القطر العراقي • وذلك الصراع

الذي يخوضه العراق ضد العوائق الداخلية والخارجية هو مسألة حتمية لا مفر منها ، والثورة باعتبارها حقيقة الكليات التاريخية والاجتماعية هي شكل وأداة للجدل البعثي ـ فالجدل البعثي الثوري هو تلك العلاقة التي نشأت بين الثورة والجماهير والحزب من جهة وبين الطرق المستعملة للنضال من أجل تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية فـ « البعث هو طريق النهضة ـ طريق استرجاع الهوية والقضاء على الضياع وتجديد الشخصية »[٧٢] .

ب ـ **الترابط** : وجدل البعث بما يحتوي : الحزب ـ الثورة ، الجماهير ، التجارب ، الفكر ، الاساليب ، القادة ، و ... الخ لا ينفصل عن الكائنات البشرية والمجتمع العربي وألا وقع في الدوغمائية ، فالجدل كائن في البشر وبوساطتهم ، وتلك العلاقة يمكن بوساطتها تجاوز الافكار الثورية المسألية : هل الحزب هو الجماهير أم الجماهير هي الحزب ؟ هل الثورة هي كائنة بذاتها ولذاتها ؟ وكيف يمكن تجاوز المرحلي ؟ وهل تم الدمج بين الطليعة والحزب ؟ وهل ثمة فرق بين الطليعة والجماهير[٧٣] ؟

● والجدل البعثي جدل دائم اذ هو طرائقية ثورية علميا وعمليا للتعرف على المعوقات التي تقف في طريق الثورة وطريق الكلية الاجتماعية التي تبنى اشتراكيا في القطر العراقي وأمام الانسان العربي ، فتكون المعرفة الثورية خاصية مراحل النمو وقابلية الثورة والوحدة في أقطار عربية أخرى .

● اننا لمعنا بقدر المستطاع الى جدل البعث وحاولنا التبسيط اذ أن المقصود بالدراسات النظرية تحديد الموضوع لمعرفة مكوناته ولا نزعم أننا أعطينا تلك المكونات حقها ويكفينا أننا شرحنا شيئا من مباشرية ذلك الجدل العظيم ، ويكون ما توصلنا اليه عرضة للنقد ، اذ أن الحزب هو حامل ذلك الجدل ، والجماهير هي العامل الممارس . وهي الحكم بذلك ، لكن تحديد النقاط ومجموعة الظواهر ينقل المحاولة الى الذهن .

مصادر الفصل الخامس

(١) ص ١٩ البعث العربي ضرورة تاريخية ، المرجع السابق .
(٢) ص ٥ بعض المنطلقات النظرية ، طبعة دار الطليعة ، بيروت .
(٣) ص ٤ بعض المنطلقات النظرية ، طبعة دار الطليعة ، بيروت .
(٤) ص ٥ بعض المنطلقات النظرية ، طبعة دار الطليعة ، بيروت .
(٥) ص ١٠٨ البعث والاشتراكية ، ميشيل عفلق .
(٦) ص ١٤٥ معركة المصير الواحد ميشيل عفلق ، الطبعة السابعة ١٩٧٥ .
(٧) ص ٤٦ ـ ٤٧ ـ معركة الاستقلالية والسياسية الدولية ، صدام حسين دار الحرية للطباعة ـ بغداد .
(٨) ص ١٢٥ البعث والاشتراكية ، ميشيل عفلق .
(٩) البعث ـ العدد ٤٦٧ عن نضال البعث الجزء الثاني ص ١٠٣ في الاشتراكية بقاء الامة العربية وتقدمها ، ميشيل عفلق .
(١٠)، (١١) ، (١٢) ، (١٣) ص ٧١ ـ ٧٢ علم السياسة ، د . عبدالرضا الطعان بتلخيص واضافـة .
(١٤) Prelet عن علم السياسة ، د . عبدالرضا الطعان ص ١٥٧ الفصل الخامس .
(١٥) ص ١٦٢ ـ ١٦٣ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ـ ثورة ١٧ تموز ، التجربة والآفاق .
(١٦) ص ٩٠ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، المرجع السابق .
(١٧) ص ٩١ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن .
(١٨) ص ٩١ ـ ٩٢ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن .
(١٩) الثورة العربية السنة الثالثة العدد ٥ ، ٦ عن حول العمل بين الجماهير ص ٨٠ .
(٢٠) الثورة العربية السنة الثالثة العدد ٥ ، ٦ عن حول العمل بين الجماهير ص ٨١ ـ ٨٢ .
(٢١) المرجع السابق ص ٨٢ .
(٢٢) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٢٣) ص ١١ نضالنا والسياسة الدولية صدام حسين .
(٢٤) ص ١٠ ـ ١١ نضالنا والسياسة الدولية صدام حسين .
(٢٥) ص ٧٧ ماركس وعلم الاجتماع . هنري لوفيفر ترجمة د . بدر الدين قاسم الرفاعي ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧١ .

(٢٦) تناول تروتسكي هذا الجانب في مقال عنوانه ـ اخلاقهم واخلاقنا راجع ديوى نوفاك ـ اخلاقهم واخلاقنا ـ دار دمشق .

(٢٧) سانهايم ـ الايديولوجية والطوباوية ص ٢٤٢ عن علم السياسة د . الطعان ص ١٥٤ .

(٢٨) العقيدة العربية ، سمات ايديولوجية ص ٦٠ .

(٢٩) نقطة البداية ص ٤١ .

(٣٠) الفلسفة وعلم الاجتماع ، د . قبارى محمد اسماعيل بتصرف غير نصي .

(٣١) ص ٤٦ السلطان برتراند راسل ، المرجع السابق .

(٣٢) ص ١٤٢ عرض موجز لنظريات الدولة والقانــون ـ كراتفسوف ـ دار التقدم موسكو ، بدون تاريخ .

(٣٣) من حديث المناضل صدام حسين في الجلسة الختامية لندوة مناقشــة انخفاض الانتاجية .

(٣٤) صدام حسين : حول اقامة الاشتراكية في قطر عربي واحد ، آفاق عربية، السنة الثالثة العدد ١٠ ص ٤ .

(٣٥) ، (٣٦) معنى كشف الاخطاء في المجتمع الثوري ص ٥٣ ، شعارات الحزب ومستلزمات التطبيق ، المرجع السابق .

(٣٧) ص ٩٠ معركة المصير الواحد الطبعة السابعة ١٩٧٥ ، ميشيل عفلق .

(٣٨) ص ١٧٢ ـ علم السياسة . د . عبدالرضا الطعان ، المرجع السابق .

(٣٩) ص ٩٩ تطور الفكر الاشتراكي للبعث ، د . الياس فرح ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ .

(٤٠) ص ١٧٢ علم السياسة ، المرجع السابق .

(٤١) ص ١٠١ تطور الفكر الاشتراكي للبعث ، المرجع السابق .

(٤٢) ص ١٠٤ تطور الفكر الاشتراكي للبعث د . الياس فرح ، المرجع السابق.

(٤٣) ص ٤٦ الابعاد الفكرية والنضالية لتأسيس البعث ، د . الياس فرح .

(٤٤) ص ٨ منهج ثابت في التعامل مع الجماهير ، الاب القائد أحمد حســن البكر ١٩٧٦ .

(٤٥) ص ٣ الثورة ومسألة النظام سلسلة الثقافة الثورية رقم ١٣ .

(٤٦) ص ١٢ ـ ١٣ الثورة ومسألة النظام المرجع السابق .

(٤٧) ص ١٣ ـ ١٤ الثورة ومسألة النظام ، المرجع السابق .

(٤٨) ص ١٣٢ هنرى لوفيفر ، علم الاجتماع ، المرجع السابق .

(٤٩) ص ١٤ الثورة ومسألة النظام ، المرجع السابق .

(٥٠) ص ٢٤ الحزب القائد في النظرية والتطبيق الطبعة الثانية شباط ١٩٧٥ .

(٥١) ص ٦ ـ ٧ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٥٢) ص ٧٦ نضال البعث الجزء التاسع .

(٥٣) يراجع بهذا الصدد المؤتمر القومي الثامن ، نضال البعث الجزء التاسع .

(٥٤) اشرنا الى هذا المرجع في المصادر السالفة .

(٥٥) ص ٦١ هنرى لوفيفر ماركس وعلم الاجتماع ، بشرح واستدلال .

(٥٦) ص ١١ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق .

(٥٧) ص ١٨ ـ ١٩ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق المرجع السابق .

(٥٨) ص ٨٥ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق ، المرجع السابق .

(٥٩) ص ٣٦ المرونة في العمل الثوري اسلوب للتقدم أم طريق للتراجع منشورات ، دار الثورة ، صدام حسين .

(٦٠) التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، ص ١٤٢ .

(٦١) كل المعالجات الواردة في التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن واضحة للمتتبعين .

(٦٢) ص ٢٥ ـ ٢٦ ـ الحزب القائد في النظرية والتطبيق ، المرجع السابق .

(٦٣) الوضعية تعود الى الفيلسوف وعالم الاجتماع ـ كونت ـ الذي « كان يرى أن النظام يتمتع بالاولوية بالقياس الى التقدم ولابد من أن ينتصر الاول على الثاني » الهامش هذا نقلا ص ١٧٣ ، عن علم السياسة د . عبدالرضا الطعان .

(٦٤) ص ٢٦ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق .

(٦٥) ص ٢٦ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق .

(٦٦) ص ٢٧ الحزب القائد بين النظرية والتطبيق .

(٦٧) ص ١١٩ نقطة البداية .

(٦٨) ص ٥٩ مجلة آفاق عربية العدد الاول السنة الثالثة ١٩٧٨ محي الدين اسماعيل ، من اساسيات الفكر القومي في نظرية البعث .

(٦٩) صدام حسين الملكية الخاصة ومسئولية الدولة ص ١١ .

(٧٠) ، (٧١) ص ٤٦ ـ ٤٧ نضال البعث ، الجزء التاسع .

(٧٢) ص ٩ في سبيل البعث ميشيل عفلق .

(٧٣) في كتاب الحزب القائد في النظرية والتطبيق اجابات مفصلة عن هذه الاسئلة لم نأت بها في المتن اذ نحن لسنا بصدد التعريف التفصيلي .

الفصل السادس

البعث والأزمة الحضارية والتاريخية للأمة العربية

المبحث الاول : الأمــة والازمة

ما هي الازمة ؟ :ــ لا أبغي هنا تحديد مفهوم الازمة كمعنى فلسفي وانما الذي أبغيه الازمة بالمعنى الحضاري ، لكن لابد لنا ونحن بهذا الصدد أن نمر ولو مرورا سريعا على بعض المعاني الفلسفية ، مدركين أن تاريخ الحضارات هو تاريخها السياسي وانتاجها المادي والفكري وهو في ذات الوقت تاريخ الدولة وتركيبها وتاريخ الوعي الانساني والجماهير والصراع الطبقي والقومي •

والدولة مع أنها تستوعب الحضارة على حد تعبير رانكــه الفيلسوف الالماني « وأن تقومها بواسطة قوانينها وحكومتها ، ولكن الدولة لا تستطيع أن تخلق الحضارة بنفسها »[1] •

وتقودنا هذه المقدمة الى انكار الازمة كما رسمتها جمهوريــــة افلاطــون المثالية فتخطيط أفلاطون لدولته نابع من رأيه بأن الازمــة قائمة في الجنس البشري نفسه **« اسـطورة اوديب » ولابد ان يحكـم الفلاسـفة ، او الرجـال** الذين يسيرهم الفلاسفة •

أما هيغل ، فاعتبر « الحضارة ــ فعلا ذاتيا للفكرة وتتبع قانونا ديالكتيكيا محددا ، فالعوامل المنفصلة تدفع بعضها البعض الى الامام ، وهي تبــدو في النهاية متعارضة ومتعادية ، ولكن التعارض باكمله يتوقف في المرحلة النهائية •• وتستوعب الفكرة كفكرة مطلقة كل الاختلافات في باطنها وتوفق بينها »[2] **أي أن الازمة في نظر هيغل متأتية من عدم الملاءمة بين الواقع الانساني والفكــرة** ــ المطلق ــ وتبقى هذه الصلة اللا عقلانية مستمرة بشكل جدلي يتجلى ذلك في دولة معينة ومثال هيغل كما هو معروف الدولة الالمانية في عصره •

أما ابن خلدون فكانت نظرته للازمة توافقية أكثر منها ميتافيزيقية ، فهو يؤمن أن الحضارة تنشأ من التاريخ البشري،لكن الحضارةلها عمر كأعمار البشر ولذلك فان الازمة تقع حين تبلغ الحضارة أوجها وذروتها ، اذ ان الانحطاط طبيعة ثابتة في الاشياء ذلك ان العوارض ــ الحوادث ــ متعلقة بطبيعة الشيء•

ويرجع ابن خلدون الازمة الى الغاية الالهية وفي نفس الوقت الى ما يكتنف الدولة من ضعف وأنحلال بفقدانها ــ العصبية ــ أي الولاء وانتفاء الوازع وكثرة الحدثان ــ الاحداث ــ وزيادة الترف مع انعزال الناس عن الدولة ، كما يعزو الازمة الى تعاقب الاجيال التي تكسل وتتساهل في ــ العصبية ــ ويبتعدون عن العدل فيسود الظلم مثلما يسود الجبن لدى الجند لانصرافهم الى شئون المعاش[٣] ، وابن خلدون كان في تحليله للدول يشاهد دراما الحضارة التي تظهر في أبهى عصورها ثم تعود القهقرى وفي الوقت نفسه رأى ابن خلدون أن الصراع متجدد بالمعنى الذي رسمته الارادة الالهية حسب معتقده .

أما الحضارة والازمة لدى لامبرخت ، فانهما تعاقب العصور وهذا في رأيه يمثل قانونا عاما « يمكن تطبيقه على حد سواء على التواريخ اليونانية والمصرية والآشورية والصينية واليابانية »[٤] وينطلق لامبرخت من فهم روح العصر لتفسير القوانين الاقتصادية بعكس ماركس ، وأوضح أن الازمة الحضارية لا يمكن أن تفهم الا بمعرفة الدوافع النفسية للخاصية الجماعية فـ « الاقتصاد هو العامل المساعد الكامن في باطن الاحداث التاريخية ويجب أن يعترف به دائما كأحد دعائم هذه الاحداث التاريخية الرئيسية ، ولكن لا يمكن كذلك تقدير تاريخ أمم معينة تقديرا صحيحا بالرجوع الى كل من التواريخ الاقتصادية او الاجتماعية أو السياسية وحدها ، لأن هذا يؤدي الى تعذر وضوح دور المجتمعات الانسانية في الماضي والحاضر للتاريخ العالمي »[٥] .

● وقد اعترض لامبرخت على « تكرار الحدوث » بنفس التطابق الذي نادى به بعدئذ شبنجلر الا انه ميز الازمة والحضارة كما ذكرنا بالتعاقب «فبعد مرحلة اصلية أولية ــ للرمزية ــ تأتي مرحلة « نموذجية typism ثم يعقبها بعد ذلك مرحلة تقليدية conventionlism يليها مرحلتان فردية ــ وذاتية ــ .

وينتج عن ذلك ازدياد في الحساسية ورد فعل للمنبه »[٦] .

● ومن الملاحظ تماما أن هذه التعريفات هي تصورات فلسفية أو تاريخية أو فنية كنسق للصلات التاريخية والحضارية ، ومن المؤكد أن آرنولد توينبي أقرب فلاسفة الحضارة الى العلم اذ هو قد انطلق من « التحدي والاستجابة » ومفهوم الصراع بفعل عوامل الرد على التحدي الداخلي والخارجي(٧) .

ومع أن توينبي أبدع في قانون التحدي والجواب الا انه جعل الحضارات متشكلة بفعل قانون الطبيعة وأضاف اليها ما اسماه بسايكولوجية الانسان ، ويعتقد توينبي أن الحضارات تقتبس مثلما اقتبس اليونان حضارة مصر ووادي الرافدين واضافوا اليها ، أما رأيه في الازمة ففي اعتقاده أنها تنشأ عندما تنكمش القلة المبدعة على نفسها وتتلهى بترف الحكم ولا تستطيع الاستجابة الى التحديات فتثور المجاميع الشعبية التي يطلق عليها البروليتاريا الداخلية ، ويجد توينبي أن الحضارة يمكن أن تنبعث من الازمة اذا ما وجدت الامة قلة مبدعة تستطيع أن تنهض بالشعب وتنظمه بعد شعورها الحاد بالكارثة التي تحيط بالامة أو الحضارة .

ورايه هنا شبيه براي فريدريك **نيتشه** الفيلسوف الالماني الذي قال **« ابنوا مدنكم على حافة الخطر »** « هكذا تكلم زرادشت »(*) الا ان نيتشه لا يحفل بالتاريخ والحضارات ، كما كان نيتشه قريبا الى الشعر الفلسفي منه الى الكتابة التاريخية والحضارية فهو فيلسوف حدسي يبحث عن القوة في الانسان المتسامي ــ السوبرمان ــ لكن نيتشه الفيلولوجي لم ينبذ التاريخ بل نبذ صورته المعطاة من قبل المؤرخين ويوجز كتابه (مولد المأساة) نظرته للانسان والازمة ، وفي رايه **« ان الرجل فوق التاريخ »**(٨) معترضا على النزعة التاريخية التي ترى الماضي كما هو عليه .

وتوينبي بهذا فيلسوف عملي لأنه يرى الازمة في الداخل رغم نزعته الصوفية واعتماده على هيردوتس الذي يؤكد أن الانحلال هو نتيجة طبيعية للنشوء والارتقاء في المجتمعات والحضارات(٩) .

(*) هكذا تكلم زرادشت ، نيتشه ، ترجمة فيلكس فارس ، المكتبة الاهلية بيروت .

● وفيما يخص العرب يرى توينبي أنهم يملكون حوافز الرد على التحدي الغربي ذلك التحدي الذي انتج الاستعمار وتفكيك الوحدة العربية ، وفي رأيه أن التكنيك الغربي مفصول عن الحضارة الغربية والذي يستطيع أن يمتلكه العرب كما امتلكت روسيا ذلك التكنيك وشرعت ترد على التحدي بعد أن أضافوا الشيوعية اليه ، ويجد توينبي أن العرب يستطيعون محاربة الغرب باعتباره حضارة أجنبية بأسلحته هو اذا استطاعوا الخروج من أزمتهم بالوحدة.

ويستشهد توينبي بالتاريخ اليوناني والروماني القديم على فكرته في التحدي والاستجابة والازمة التي تخلقها القوى المعتدية الساحقة للشعوب والامم المستضعفة فتحت نير السلام اليوناني ـ الروماني ولدت المسيحية والاسلام وهما في نظره رد معاكس على الهجوم الاجنبي ، ان غالبية بلدان الشرق وأفريقية اجتاحتها الفيالق الرومانية ـ والاغريقية وخربت ذلك العالم « ونهبته وسلبته وفرضت نفسها عليه ، انها تتجول بين الخرائب بعد أن أعطت لنفسها لقب بوليس أو دركي »[١٠] .

ويقول توينبي أن الرومان واليونان تتلمذوا على شعوب الشرق لانهم كانوا يشكون من « الجوع الروحي »[١١] .

والخلاصة في رأي توينبي أن الازمة في الامة يمكنها الرد على التحدي اذا استطاعت القلة المبدعة ايجاد المضاف الايديولوجي وتنظيم المجتمع واستعمال أسلحة العصر الحديث من تكنيك وعلوم ومعارف .

وفي سياق التاريخ فأن تغير القوى المنتجة وتطور التقنيات والصراعات المحلية والدولية أضافة الى عوامل أخرى هي التي تؤدى الى تطور « الاحداث التاريخية وبروز « القلة المبدعة » ولابد أن تتقارب الاسباب في الامم المحكومة بأزمة داخلية ومطامع دول أو حضارات أجنبية وهذا ما يقود الى طفرة كيفية يزول معها التناقض الداخلي في وحدة عقلانية سامية للمجتمع ، وهذا لا يعني العودة الى تفكير توينبي في الازمة ولا في صيرورة الدولة الهيغلية فهذه الاخيرة تحدد ذاتها وتبدع مستقبلها اعتمادا على نفسها والعودة الى نفسها .

● مثل هذا التحديد النظري للازمة في الامة لم يعد كافيا ، وقد أشار الرفيق صدام حسين الى هذه النقطة باقتدار وتشخيص صائب عندما ربط العامل الذاتي للقوة العربية بمتغيرات الموقف الدولي « فلا يجوز أن نصور الامر وكأن أمريكا والاتحاد السوفياتي يجلسان معا ويخططان للعالم كما يريدان ، لو تصورنا ذلك ، فاين يكون موقع الشعوب وأين يكون دورها في التغيير . ان هذا الفهم للسياسة الدولية خاطىء ومنحرف .. كما أن الفهم الاخر الذي يتجاهل العوامل الدولية تجاهلا مطلقا ويقول : لنعمل بقدراتنا الذاتية حسب ، هو خاطىء وخطير أيضا ومنحرف بالنتيجة ، لانه يؤدى الى هزيمة الامة ، اننا نرى اولا ضرورة توفير المستلزمات التي تقوى العامل الذاتي لشعبنا ، وتجعله قادرا على أن يخطو خطوات جريئة في كل الميادين ، ثم ندخل العوامل المساعدة في مواقعها وتأثيراتهاواستخداماتها الصحيحة ، علينا أن نفهم السياسة الدولية ونستفيد من تياراتها ، دون أن نغرق في لعبتها ودون أن نتجاهلها »(١٣) .

من الناحية المعرفية يجرى البحث للمناضل صدام حسين عن السياسة الدولية والنضال القومي لحزب البعث العربي الاشتراكي لكنه في صميم الازمة الحضارية للامة العربية ، تلك الازمة التي لمسناها في تأسيس وانشاء الكيان الصهيوني العام ١٩٤٨ وهزيمة حزيران ١٩٦٧ واتفاقية الكيلو ١٠١ واتفاقية سيناء واتفاقيتي كامب ديفيد ١٩٧٨ ونلمسها يوميا في الحياة العامة في الفرد ، والفئة ، والجماعة والامة ، في النظم والمؤسسات العربية ، في التجزئة ، في التخلف ، في التقنية و ... الخ ،

وعلى أي حال فان الحديث في هذا الجانب قد طرق كثيرا بل هو مشاهد للعيان ، ولكن بما أن الازمة الحضارية للامة العربية ليست قانونا عاما قاهرا لا يمكن رده ، وبما أن تلك الازمة يمكن تحويلها الى نقيضها فيحق لنا الحديث هنا عن تفسير البعث للازمة الحضارية التي تمر بها الامة العربية .

المبحث الثاني : الازمة كما يراها البعث

قلنا فيما سبق من سطور أن البعث هو « طريق النهضة طريق استرجاع الهوية والقضاء على الضياع وتجديد الشخصية ، فمجتمعنا نتيجة لما آل اليه من انحراف وتأخر وتشويه ، بحاجة الى أن يغالب نفسه ويناضل نفسه ، بحاجة الى بذل جهد ومشقة كبيرة حتى يسترد ذاته الحقيقية واصالته لذلك فان البعث هو بعث الروح • فهو روح جديد تخترق واقع الامة ، وهو (صفحة جديدة من تاريخ النهضة العربية) افتتح بها (عهد البطولة)[١٣] •

ولذلك فان البعث قفزة نوعية في تاريخ النضال العربي وبما أن البعث يلبي حاجات الامة فانه نقض للمجتمع العربي التقليدي بكل سلبياته ، ولهذا فان معنى البعث هو التحرير الكامل للمواطن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ،

● ولكن كيف يعرف البعث الازمة ؟

ا ــ **افكار المواجهة** : تعتبر كتابات مرحلة البدء باكورة الاعمال لدى البعث والرواد الاوائل البادرة الاولى لمواجهة الازمة ، وتلك الكتابات والاسهامات تعتبر مرجعا وافيا لتحديد لازمة ، وقبل أن نجيء على معنى الازمة الحضارية في الامة العربية لدى البعث لابد لنا من توكيد (الانقلابية) فالانقلابية التي تبناها البعث تؤكد على التمرد والرفض ورفض الحياة التقليدية فـ « لقد كان نشوء حزب البعث العربي الاشتراكي دليل ادانة للواقع بكل أبعاده وللطبقات الحاكمة ونذيرا بنهاية تلك الطبقات وتجاوز الواقع »[١٤] •

● وتعود أهمية ــ الانقلابية ، على الواقع أنها تشكل جزءا من أيديولوجية في بداية ظهورها آخذة في النمو في عصرٍ ومراحلٍ انتقالية تاريخية كبرى ، من وجود تقليدي ــ استاتيكي ــ الى وجود يناقضه ، وهذه أهم نقطة في مواجهة الازمة ، فيما تنطوي عليه من حركة وصيرورة شعبية وتغير في سايكولوجية الجماهير وهذه النظرة لم تجيء اعتباطا أو بصورة عفوية وانما

جاءت نتيجة لأزمات جامعة شاملة عاناها المجتمع العربي منذ تسلط العثمانيين عليه حتى نكبة فلسطين ١٩٤٨ وما عانته الطبقات الكادحة من قوة السحق والاضطهاد بأزاء الشعور القومي المتدفق . فقد أصبح الوجود العربي بكل مظاهره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجودا تقليديا مترهلا ، وأصبح حراكه التاريخي يدور في أرادة التذويب والصهر والتتريك ابان العهد العثماني ، وقد نمت عصر ذاك وعبر الصراع التاريخي بين الجماعات والقوميات التي تضمها الامبراطورية العثمانية بوادر صراع عربي في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بعد أن دمر الاتراك حقيقة الاسلام وحولوا قوته الفكرية والعلمية الى ممارسات أقرب الى الاسطورة في الايديولوجيا مما جعل الانسان الكادح الذي تضمه تلك الامبراطورية لا يعثر على حقيقته في الدين المطبق ، اذ ان تفسيرات الحكام أصبحت دينا وهذا مصدر لضياع الدين الاصيل نفسه[١٥] .

● وقد سحق العثمانيون الطبقات الشعبية سحقا طغيانيا فقاومت تلك الطبقات وخاضت معارك شاقة لم تكن بالضرورة مظفرة في حينها لاسباب يطول شرحها ، وتوجد من بين أسباب انهيار الامبراطورية العثمانية عدة عوامل من أهمها :ـ

١ ــ اعتماد الاتراك على القوة العسكرية والروح العسكرية في التعامل مع المجتمع العربي .

٢ ــ التمذهب للعنصر التركي ومحاولة تطويع الاسلام لذلك التمذهب والتثاقف(*) على الاسلام ذاته مما جعل الدولة وسيطا بين المواطن وأيديولوجيته . وجعل الممارسة العملية الاقطاعية تستخلص ماهيتها الفكرية وملكيتها ضمن ذلك التمذهب وبواسطته فأصبحت البنية الاقتصادية الاستغلالية تستمد أيديولوجيتها من التثاقف الديني

* التثاقف هو ادعاء الثقافة ، وهو مصطلح شبيه بقولنا ــ التعالم ــ التعاظم ــ اي ادعاء العلم وادعاء العظمة ، والتثاقف يستعمل ايضا للشيء من خارجه ، وقولنا ان فلانا متثاقف كقولنا ان فلانا متمارض .

التركي ، ذلك أن الايديولوجية تتقولب في الاطـر السياسية وتحاول تخدير الطبقات الكادحة وتنفصل عن (جوهرها) فالايديولوجية المتولدة بوساطة السلطة المتحالفة مع قرنائها الاقتصاديين في مضمار استغلال الجهد الانساني تتغطى بنواة الماهية الثورية الاولى للفكـرة عندما كانت ممارستها ثورية • وتفصلها عن مدلولاتها وتاريخها والطبقات التي تتوجـه اليهـا •

والاسطورة المركزية لدى الحكم العثماني هي تأويل الاسـلام حسب مفهوم البنى الفوقية وأنماط محددة من الانتاج • وبذا أصبحت مكونات الوعي الجماعي تميل الى الصوفية غير المرتكزة على واقـع موضوعي لأن علاقات الانتاج الاقتصادي الاقطاعي والسوق التجاري، تجعل الاسطورة قائمة خارج وعي الناس فتضغط بثقلها عليهم وتسوقهم وتعدل بهم الى مفاهيم مجردة للواقع ، بل ان تلك الحالـة الجماعيـة اللاوعية التي ترافق المجتمعات المتدهورة تحول الانسان نفسه الى شيء مجرد ، وهذا هو سـر التقديس للتمذهب الاسـطوري ـ من قبـل الشعوب ـ فذلك المتمذهب يجعل القيم السائدة صورة مموهة للقوانين والانظمة المهيمنة ووسائل الانتاج التي تحدد النفس البشرية وتجاربها بوساطة العتمة وتكون متوافقة مع سلطان الانتاج سواء كان غلالا أو سلعا •

٣ ـ محاولة ابتلاع القوميات الاخرى وبخاصة القومية العربية التي كانت منضوية في لواء الامبراطورية العثمانية واعطاء الجنس التركي طابـع الغلبة مما دفع الدولة التركية الى المباهاة والمبالغة والمفاخرة ، فكـان نمط السلوك التركي في القوانين والمبادىء متعاظما على الرعايا مـن الشعوب الاخرى مع اتسامه بالماضوية ، فكان ان أصبح التعاظم والتباهي والتفاخر تجربة وجودية للبنى الفوقية التركية •

٤ ــ عجز الاتراك عن استيعاب الاسلام في مسبباته الفكرية والعملية ، لأن الركودية التي رافقت الدولة العثمانية جعلتها بعيدة عن تلك المسببات . فكان الولاء للوحدات الانتاجية (القبلية ، الطائفية ، الاقطاع ، التجارة الوظيفة) وبذلك انفصمت الوحدة العضوية بين الدولة والانسان وبين الايديولوجية والواقع ــ رغم أنها تبدو موحدة أسطوريا في عتمة اللاوعي الجماعي كما أشرنا في النقطة الثانية ــ .

٥ ــ نقص الوسائل العلمية في البدائل الانتاجية فمقابل اتجاه الغرب نحو التكنيك الحديث تأخر الاتراك أكثر من قرنين في محاولة استباق الغرب.

٦ ــ عجز الاتراك عن مواجهة الزحف الغربي بعد اندحارهم في معركة فيينا عام ١٨٨٣ وتأخرهم في بناء الدولة وتحديثها رغم اصلاحات السلطان سليم الثاني سنة ١٧٨٩ ، فاحكم الغرب سيطرته على البحار رويدا رويدا. فقد وصل البرتغاليون الى الشواطيء الغربية للهند وربط الاسبان بين المحيطين الاطلسي والهادىء واستطاعت بريطانيا أن تمد سيطرتها علــى البحر العربي والبحر الاحمر .

٧ ــ ازدياد قبضة الاوتوقراطية التركية على الشعب العربي في القرن التاسع عشر فكانت تلك الاوتوقراطية تقابل حركات التحرر بالقمع والعنف . وبخاصة انتفاضات الفلاحين الذين كانوا يعاملون كالاقنان ، وكــان لمحمد علي وقيام دولته في مصر أثر في اضعاف تركيا الامبراطورية فــي الثلث الاول من ذلك القرن .

« واستطاع محمد علي وابراهيم أن ينبها أذهان العرب الى فكرة العروبة التي أخذت تلاقي ترحيبا عظيما في الدوائر العربيــة ، وكانت منشورات ابراهيم الى العرب باللغة العربية واشادته بالعرب تضرب على وتر حساس والواقع ان الشعور العربي في القرن التاسع عشر بدأ يحوك حوله شبكة من الكراهية للحكم التركي الذي كان قد بلغ حتى ذلك

العهد حدا من الفساد والرشوة والظلم ــ وكان عرب البوادي ــ بصفة خاصة ــ يلتمسون سبيلا للخلاص والتحرر من ذلك الحكم »[١٦] .

٨ ــ ثقل الحضارة الغربية الساحق ، فقد ادى تدهور الاتراك الى حركة « تغريب » قام بها الضباط الشباب « فقد أقترحت ثورة ١٩٠٨ اعادة دستور سنة ١٨٧٦ الذي كان يقول بوجوب انشاء مجلس نيابي على الطراز الغربي »[١٧] .

● ان مرحلة حكم الامبراطورية التركية للعرب أوقعت العرب في «أزمة» اذ أن الحكم التركي المتخلف كاد ان يسحق الهوية العربية سحقا كاملا ويقضي على المميزات الذاتية للعرب كأمة وبخاصة ايقاعه بالعرب المجددين والمبدعين ، وكانت تلك الازمة هي الدافع التاريخي للمتناقضات،وقد ساندت الازمة وغذت الصراع العربي ــ العثماني ، للعلاقة القائمة بين الحرية والبحث عن سبل للتمرد والثورة ضد الاستلاب القومي والطبقي والمتناقضات الاجتماعية التاريخية الكبيرة وبين الاستبداد الاوتوقراطي التركي ، ودون أزمة من هذا النوع لا يمكن للهوية العربية أن تبرز اذ « كان العرب ينظرون الى الخلافة العثمانية كأنها رمز تتحد فيه وتلتقى عنده آمال المسلمين جميعا على اختلاف قومياتهم عربا كانوا أم غير عرب »[١٨] .

● الحرية العربية اذن عانت الازمة التاريخية واكتسبت وعيا ثوريا ميز نفسه عن الوسط التقليدي المعاش ، فحاولت تلك الحرية أن تجد نفسها في انتفاضة لبنان التي قامت سنة ١٨٦٠ والتي انتهت بمذبحة رهيبة ، وحاولت ان تجد نفسها في حركة عرابي وسخطها على حكم الخديوي توفيق التابع للدولة العثمانية .

● المهم ان الوعي العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أراد الانفصال عن الوعي التقليدي السائد ، وبذلك سجل أولى لبنات الثورة فالثورة تتطلب معاناة للوعي بقدر معين ، والثورة تنمو كالجنين في رحم

المجتمع ، فهي اذن حادث قومي وطبقي واجتماعي وكما يقول القائد المؤسس ميشيل عفلق « ان حالة الثورة هي حالة واحدة لا تتجزأ ، لها نفس الشروط النفسية ، ولها نفس الشروط الموضوعية أيضا الى حد كبير »[19] .

● من هذا نصل الى استنتاج فكري ، وهو أن الثورة ــ رغم أنها تبدأ بتناقضات موضوعية ــ طبقية ــ قومية ــ اجتماعية ــ الا أن أكبر ذروة من ذراها هي التي تقوم بمعاناة نفسية تقوم على الجهد العقلي والعاطفي الوجداني ــ في تجديد الذات وفي القدرة على السيطرة على الظروف ، لان الثورة التي تنشأ في الازمة التاريخية متفجرة ، ملتهبة ، مبدعة ، حافلة بامكانات النضال والخلق وبشوق عارم الى الرد على التحدي وتجديد الحياة فـ « النضال هو المعبر الصحيح عن الامة » ولكن الوعي الثوري نفسه لا يكون مستقلا عن الفئة أو الجماعة أو الطبقة الحاملة له ، الا اذا أصبح وعيا عفويا تترتب عليه وجود تضاد بين الممارسة والوعي ذاته ، وسيأتي دور هذه النقطة ــ عند تحليلنا لمفهوم الوعي والازمة التاريخية في نظرية البعث ، والمهم أن العرب في مواجهتهم لانحطاط وتدهور الامبراطورية العثمانية ، وبزوغ فرنسا وبريطانيا وأفكار الثورة الفرنسية أفرزوا الوعي التالي :ــ

١ ــ « **النزعة ــ الدينية** ــ المدنية ــ الاصلاحية التي مثلها الرواد والاساتذة . رفعت الطهطاوي ــ ١٨٠١ ــ ١٨٧٣ ــ وجمال الدين الافغاني ١٨٣٩ ــ ١٨٩٧ ــ ومحمد عبده ١٨٤٩ ــ ١٩٠٥ ــ ومحمد رشيد رضا ١٨٦٥ ــ ١٩٢٥ ــ وتلاميذهم ، وقد كانت هذه النزعة محاولة لتجاوز نزعتين متعارضتين :ــ

ا ــ **النزعة الدينية التقليدية** ، التي تمثل النظرة الشكلية غير الجوهرية للاسلام فتطمس جوهره الحضاري ، وتأسر الفكر ضمن أطار التقليد والمحاكاة للقديم وتغلق باب الاجتهاد ، وتبعد المجتمعات الاسلامية عن التفاعل مع التطور العلمي والحضاري الحديث ،

ب ـ **النزعة العقلانية ـ العلمانية** ـ التي تنطلق من نظرة خارجية الى الواقع تتجاهل الصلة الطبيعية بين الماضي والحاضر ، وتقفز الى مستقبل لا صلة له بهذه الديمومة التاريخية الواقعة ، فتتخذ تصوراتها الاصلاحية طابعا طوباويا مغرقا في رد الفعل وفي الذاتية وترتد الى « أحلام قديمة »(٢١) .

● **ان محاولة الافغاني وعبده** تقود العرب الى محاولة التكيف مع العالم الحديث ويصف الافغاني الاسلام على صعيد التنظيم أنه قادر على التكيف واستيعاب التطورات الحديثة ، أما على الصعيد الايديولوجي فهو ينجح في وصفه المنطقي لكنه يسوغ التبرير وأنماط التفكير التي تعمم الميثويولوجيا على الحياة المادية(٢٢) .

٢ ـ « **النزعة القومية ـ الدينية** ـ التي مثلها الرائد **عبدالرحمن الكواكبي** ١٨٤٩ ـ ١٩٠٣ ـ في كتابه ـ طبائع الاستبداد ـ وأم القرى ـ وهو الذي اعتبر العرب (الامة الجديرة بحفظ الاسلام من الفساد) ودعا الى (خلافة عربية) والى نقل (ميزان القوة من الديار العثمانية الى الجزيرة العربية) ووجه فكرة الاصلاح الديني بشكل يتفق مع الفكرة العربية القومية .

وقد كان أساس هذه النزعة التأكيد على الصلة الداخلية الصميمة (الرحمية) بين العروبة والاسلام ، فالاسلام كتجربة ثورية روحية اجتماعية ، جسد حقيقته الامة العربية ، كما أن العروبة من جهة اخرى تشكل في نظر الكواكبي الضمانة للمحافظة على جوهر الاسلام »(٢٣) .

وبما أن الكواكبي كان يقصد نوعا من الحرية للعرب تمتزج بالتحرير من الانظمة التقليدية العثمانية التي جمدت حركة المجتمع العربي ، وبما أن محاولته ذات موقف تاريخي سوسيولوجي ، بمعنى أنها ذات خصائص مرحلية تاريخية واجتماعية مرحلية ، فان الكواكبي كان

يمثل الخصوصيات الكامنة في الوعي العربي آنذاك ونمط الحياة المعينة انتاجيا وثقافيا وسياسيا وانماط الفكر انما تستمد مقوماتها من ظواهر تشكل جزءا لا يتجزأ من الواقع في مرحلة تاريخية معينة ، فليس الوعي سوى الكائن نفسه مضافا اليه الواقع وأسباب الشفافية الفكرية التي تكدرت بفعل العتمة العثمانية •

٣ ـ « **النزعة ـ القومية ـ والتاريخية** ـ التي انعكست ملامحها في كتابات الجيل الاول من المفكرين العرب أمثال ناصيف اليازجي ١٨٠٠ ـ ١٨٧١ وبطرس البستاني ١٨١٩ ـ ١٨٨٣ ـ وجورجي زيدان ١٨٦١ ـ ١٩١٤ الذين استنهضوا همم العرب عن طريق التذكير بماضيهم الحضاري وبعظمتهم الماضية وأشادوا بالعزة العربية وباعتزازهم بالحضارة العربية ، وعملوا على أحياء وعي العرب لتاريخهم •

٤ ـ « **الفكر الاجتماعي التقدمي** ـ الذي تمثل في كتابات رواد الاشتراكية في الوطن العربي أمثال شبلي شميل ـ ١٨٥٠ ـ ١٩١٧ ـ الذي كان يعظم أهمية العلم ويدعو لنظرية التطور الدروينة ، والذي كان أول من وضع منهاجا للحزب الاشتراكي في مصر عام ١٩٠٨ وكذلك كتابات أحد تلامذة الشيخ محمد عبده ، وهو قاسم أمين ١٨٦٥ ـ ١٩٠٨ عن حرية المرأة والذي كان أولى في كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » عناية كبرى للمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي »[٢٤] •

● واذا رددنا هذه النزعات الى ظروفها الواقعية نجدها ذات مستبقات علمية ، لكن ليست لها نتائج تترتب عليها بالضرورة ، ذلك ان الصلة العقلانية بالعمل ترتبط بمجموعة عوامل اجتماعية ذات مغزى تاريخي ، لكنها على أي حال ليست تلفيقا أو وهما انما هي تصور للفعالية العربية ذات صلة بالواقع الموضوعي بشكل من الاشكال وذات صلة بالوضع العالمي ، وان كانت قاصرة عن فهم الواقع العربي فهما جدليا ذلك ان العلم والوعي ليس معرفة بعالم متموضع فقط بل معرفة أيضا

بالاشكال الاجتماعية القابلة للتطـور والنمو والاشكال الاجتماعيـة المفصولة عن التاريخ « الضامرة » وهو ـ أي العلم والوعي ـ تعبير عن فاعلية ذاتية ـ موضوعية ـ موجودة عينيا بحد ذاتها ، أما الوعي والعلم فيمثلهما النضال بالنسبة لحزب البعث ، ذلك ان النضال تجسيد للعلم والوعي وصيرورة من خلالهما ، وذلك ان النضال أيضا ليس تكريسـا للاشكال الاجتماعية المتموضعة وانما خلق لها بهدف قلبها ثوريا ودفعها الى التطور •

● والمدرستان السابقتان رغم استنارتهما فانهما يختزلان العلـم والوعي الى مخططات فردية مدرسية مما يجعل اتتاجهما على مستوى الفكر فحسب ، كما أنهما خاليتان من الممارسة الثورية ، ولئن صح ان هاتين المدرستين كانتا شبه فلسفة للطبقات البورجوازية في حينه فانهما أثرتا في استنهاض الهمم في مساجلاتهما وأعادا للفكر العربي ثقته بنفسه كما اوجدا مرتكزا للهوية العربية على المستوى الفكري في حقبة من حقب التاريخ القريب •

● نأتي بعدئذ على ثلاث مدارس أثرت في الفكر العربي الى حد ما ولا زال لها مريدين وأنصار ، الا أنها تنحسر رويدا رويدا أمام مسيرة البعث التاريخية وأمام تشكيل البنى الاجتماعية المزودة بالنضج الثوري والفكر الوحدوي الاشتراكي ، ذلك أن فكر البعث العربي الاشتراكي يتجاوز هذه المدارس لانه استخلاص للحقيقة الثورية العربية في تفجرها وما يحدث فيها وعنها من فعالية وصيرورة متماسكة مع تعميق الزمن •

٥ ـ « **النزعات الاقليمية التي اكتفت بالرابطة القطرية** (الوطنية الاقليميـة) أو بالاطار الجغرافي المباشر (الهلال الخصيب) و (وادي النيـل) أو أخذت شكل نظرة قومية تجزىء الامةالعربية الى أمم (كالقومية السورية) والتي هربت الى اطار جغرافي أوسع من حدود الوطن (النزعة الشرقيـة والنزعة المتوسطية) حيث تهيمن فكـرة القـارة الاسيويـة بمفهومها

الحضاري الشرقي أو المفهوم الثقافي الجغرافي (ثقافة بلاد حوض البحر الابيض المتوسط) وكالنزعة السلفية (النزعة الفرعونية والفينيقية) وهي كلها نزعات مصدرها رد فعل انكماشي اقليمي ضد أخطار حقيقية أو موهومة تسلح بمختلف الحجج والنظريات لحجب الدوافع الكامنة وراء موقفه السلبي .

٦ ـ « **النزعة القومية الخالصة** وهي التي تتمثل في آراء أمثال نجيب عازوري صاحب كتاب (يقظة الامة العربية) عام ١٩٠٥ ورفيق العظم في كتابه (الجامعة الاسلامية وأوربا) عام ١٩٠٧ حيث التأكيد على (أن الرابطة القومية أوسع من الرابطة الدينية) لان (اختلاف الاديان لا يكون مانعا من توثيق عرى القومية أو مباينا أغراضها السياسية) وكذلك كتابات علي ناصر الدين مؤسس عصبة العمل القومي (قضية العرب ١٩٤٦) و (هكذا كنا نكتب ١٩٥٢) وقسطنطين زريق في كتابه الوعي القومي ، وساطع الحصري في كتبه المتعددة دفاعا عن الفكرة القومية ، حيث لا أثر للتفكير الاجتماعي أو لربط القضية الاجتماعية بالقضية القومية .

٧ ـ « **الفكر الأممي اللاقومي** ، والذي بدأ في المرحلة الستالينية بصورة ــ خاصة ــ (ضد القومية) وكان يقف من الوحدة العربية ومن كل ما يمت الى الطرح القومي للقضايا العربية موقفا سلبيا ، ويكتفي بطرح القضية الاجتماعية (الصراع الطبقي) طرحا نظريا يعتمد على تحليل الواقع الاجتماعي المباشر ، بل ينطلق من صيغ التحليل التقليدية للمجتمعات الرأسمالية ويطبقها بشكل مجرد على الاوضاع العربية ويبقى ضمن الاطر القطرية مكتفيا بالارتباط الاممي ، قافزا من فوق القضية القومية ، متجاهلا أحد التناقضات الاساسية في الواقع العربي وهو تناقض التجزئة »[٢٥] .

● هذه النظرات والنظريات والافكار لم تستطع أن تواجه أزمة الامـة العربية بشكلها الحقيقي لانها أما ان تنطلق من وجود تقليدي (النزعة الدينية التقليدية) فتقف ازاء التغيرات النوعية التي يمر بها الوطن العربي منذ نهايـة القرن التاسع عشر وحتى عصرنا هذا ، موقفا كميا في أحسن الاحوال او تقف نظرة عصوبية (الاخوان المسلمين) تجنح الى المذهبية الوثوقية وتحليـل صيرورة الانسان العربي ضمن اطـار زمني مفتعل ، واما أن تقف موقفـا ــ خارجيا ــ تخلط بين الاسلام والاصلاحية البرلمانية الغربية (جمال الديـن الافغاني ومحمد عبده) أو تقف موقفا خارج اطار الصراع الطبقي مما يؤدى الى جعل القضية القومية العربية داخل الزمن الذاتي للدولة العربية المنشودة (ساطع الحصري) فالقومية لدى هذا التيار صيغة تزعم انها ذات خصوصية عروبية لكنها بابتعادها عن الواقع الاجتماعي تحصر الدولة العربية في عالـم قوامه البورجوازيون ، لأن الطبقة العاملة والشرائح الاخرى نعترض عـلى المؤسسات الدولية التي لا تمثلها أو التي لا تحقق بعض أهدافها ، ولهذا لا يسعها أن تقبل وحدة تسبغ معنى القدسية على الدولة بينما تنكرها على الطبقات الصانعة للتاريخ ، ان حزب البعث العربي الاشتراكي ربط الوحـدة العربية بالاشتراكية وهو بهذا « لم يتعسف ولم يرتجل ، بل وجد في ذلك السـبيل الوحيد لكي تصبح الوحدة في حياة الجماهير حقيقة حية متحركة يطالب بها كل عامل عندما يطالب بخبزه وزيادة أجره وبالدواء لابنائه »[٣٦] .

اما النزعة الاقليمية والنزعة الاممية ، فهما نزعتان غير عقلانيتين ، بسبب عدم وعيهما لوضع الكتلة التاريخية العربية اذا استعرنا موضوعية غارودي[٣٧] رغم اتسام النزعة الامية بالعلم والماركسية ، فهذه النزعة خسرت حتى الماركسية كعلم للحياة لانها أصبحت شعارات طبقوية مبتورة الجذور لا تمت للواقـع العربي بصلة .. اضافة الى كون الماركسية جنت على الماركسية بتحويلها الى كاوتسكية غير مستنيرة احيانا ، ولوكسمبورغية ــ نسبة الى روز الكسمبورغ المفكرة البولندية الذائعة الصيت ــ مبتذلة أحيانا أخرى ،

لهـــذا لم يكن من الغريب أو من قبيل المصـــادفة أن تعجز الحركات والأحزاب التي مثلتها تلك النزعات في استكناه الازمة الحضارية والتاريخية للامة العربية وحشد جميع طاقات الامة والنهوض بها .

المبحث الثالث : الازمــة والادارة

ان هشاشة الفكر العربي القومي البحت في مدارسه ونزعاته سالفة الذكر استمرت في التأثير على الادوات (الاحزاب) التي نشأت في العقود السابقة ، اذ أن تفسيرات الوضع العربي مهما كانت ـ على الصعيد النظري ـ دقيقة وعلمية ، الا أنها تصبح علموية (ادعاء العلم) اذا انهارت أمام الممارسة ، فالفكر يزول التعارض بينه وبين الواقع في التطبيق . لكنه لا يفقد صفته الثورية فهو يحاول بدأب ازالــة أي تعارض أو أي تناقض ضمن منظــور التشكيلات الاقتصادية ـ الاجتماعية التي يبنيها ـ وقد عالجنا كما أرى هذه المسألة ضمن الفصول السالفة عند بحث موضوعة الحزب ، لكن جوانب أخرى قصرنا فيها ، أرى من اللازم التطرق اليها .

● لقد فشلت الحركات القومية العربية والاحزاب الليبرالية والشيوعية كما ذكرنا في استكناه أزمة الامة العربية ليس لانها قاصرة تنظيميا ، فالاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية تمتلك رصيدا ضخما من التجارب أضافة الى انضباطيتها التنظيمية واستيعابها لتنظيمات أحزاب شيوعية أجنبية وقــوة بنيانها الهيكلي وأدواتها وارتباطها بنظام دولي كبير له رصيـــد وخبرة طويلة في اشكال العمل السري والعلني ، ومواجهة العديد من الصعاب والعوائق اضافة لتمتعها برصيد واسع من التنظير الايديولوجي العالمي لمختلـــف التجـــارب .

لكن الحركات القومية والاحزاب الشيوعية لم تستطع ان تنل الواقعية الفاعلة في الاداة (الحزب) سواء في مباشرية تلك الاداة أو في موضوعيتـــه البحتة .

● صحيح ان تلك الحركات القومية والاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية كانت امكانية موضوعية ، لكنها قصرت عبر وعيها بالواقع ووعيها بأداتها (الحركة ــ الحزب) ان تكون ثورية فعلا ، فقد تحللت الحركات القومية ولم تكبت نفسها عندما توصل عبدالناصر الى اقامة الاتحاد الاشتراكي العربي كبديل للتنظيم الحزبي «وانتقلت المتناقضات الى داخل التشكيلة الجديدة»(٢٨).

● وفي العراق كانت الحركات القومية في عهد حكم عبدالسلام عارف وأخيه عبدالرحمن تتطاحن على قيادات وهياكل تنظيمية وتتلهى بالسياسة عن الممارسة ، فكان ان تشرذمت واتاحت للرجعية العارفية أن تأخذ كل مداها.

● أما الاحزاب الشيوعية فقد كانت ذات ميكانيكية منقولة ضمن أطار موضوعية لبلدان أخرى مما أكسب هذه الاحزاب سكونية في الممارسة . فالوعي لازمة الامة العربية لدى شيوعيي الخمسينات والستينات وبداية السبعينات لم تكن له مباشرية اجتماعية فظل محصورا في الطابع التنظيمي من جهة ، ومن الجهة الاخرى كانت بين هذه الاحزاب وبين (التحقق العربي) الذات القومية قطيعة شبه كاملة باستثناء الفترات الزمنية التي توطدت فيها علاقات صداقة بين بعض الاقطار العربية والاتحاد السوفياتي ، حتى تلك الفترات لم يستطع الشيوعيون في الاقطار العربية استكناهها اجتماعيا ، فظلت عائمة على السطح السياسي ولم تنقل عملها التنظيمي الى مستوى المباشرية الجماهيرية .

● وهذه النقطة ليست ابدا ثانوية ، اذ ان المباشرية لا تعنى العفوية او العاطفية فالعفوية غالبا ما توصم بالاعتباطية ، أما المباشرية ، فهي تتوسط بين الوعي الثوري المنظم وبين العفوية الجماهيرية بسبب ضرورات واقعية موجودة مسبقا في الواقع .

● ان التنظيم الحزبي يمثل صعيدا أعلى في صيغ النضال السلبي أو العلني لكن تخطى المباشرية يجعل التنظيم في حالة قنفذية مهما امتدت أذرعه وخلاياه

في المجتمع • لقد واجه حزب البعث العربي الاشتراكي كغيره من الاحزب الاخرى المتواجدة في أقطار الوطن العربي هذه الظاهرة ، وكانت معالجات البعث لهذه الظاهرة مثار اعجاب ، فهو ــ أي الحزب ــ أكد على المبادهة معلنا المباشرية مع الجماهير « والواقع ان المبادهة ليست خاصة من خصائص الرأسمالية ، بل هي أحق أن تكون خاصة من خصائص الاشتراكية الا حينما تحل البيروقراطية وحينما تنحصر المسئولية فلابد من أن يؤدى هذا الى اختفائها واحلال التواكل عليها »[٢٩] •

وهذه المبادهة أو المباشرية عالجها الحزب في اطار المركزية الديمقراطية ففي الوقت الذي دعا فيه الى المركزية المتوازنة مع الديمقراطية حذر من الغلو في المركزية على حساب الديمقراطية وحذر من الغلو في الاخيرة على حساب المركزية ، ولما كان التنظيم ليس غاية بذاته فان « الالتصادق بمبادىء التنظيم وعدم الانتباه للضرورة السياسية والثورية التي تقف وراء هذه المبادىء بما يؤدى في الاخير الى التقليل من شأن الجماهير والازدراء بدورها »[٣٠] •

لقد تكلمنا بعض الشيء عن مفهوم الحزب والطليعة لدى البعث فيما سبق وتكلمنا باختصار عن مفهوم المباشرية أو المبادهة ونود هنا أن نعود الى ــ **الازمة والاداة** ــ موضوع السياق .

● **ان الازمة التاريخية والحضارية للامة العربية** العميقة الجذور منذ قرون عدة استلزمت اكثر من قرن حتى ظهرت **حركة البعث العربي الاشتراكي** فقد دلل التاريخ على أن الايديولوجيات الكبيرة المتكاملة التي تعين أهم منعطفات التاريخ لا تنشأ جاهزة في **الاروقة الاكاديمية** ، انما هي نتيجة **مخاض صعب بسيط ومعقد ومتشابك يحتوي الكثير من الاشكالات والانعطافات** ، لكن الذي يميز تلك الايديولوجية الثورية عن غيرها هي عوامل « النمو » فيما تنطوى عليه من فعالية وحيوية وابداع وابتكار وعقلانية بسبب الخاصة العلمية والخاصة العلمية الملازمة لها ، هذا لا يعنى وجود (جوهر) نقى لتلك الايديولوجية بالمعنى المثالي أو المادوي أو الفلسفي الميتافيزيقي ، وانما وجود

تلازم بين الانسان والايديولوجية وهذا التلازم يجد مفتاحه في حركة الانسان العربي التاريخية وحاجاته الطبقية والقومية والانسانية ، ودور الايديولوجية هنا في الطرف الاخر هو التعبير عن الانسان العربي بضبط حركته وتحويل تاجه التاريخي في الوعي للرد والانتصار على الازمة التاريخية والحضارية الى تنظيم علمي مدروس . وأداة الايديولوجية البعثية الثورية في ذلك كما قلنا هو الحزب ، والحزب هو تجاوز ذاتي لنفسه وكبت ذاتي لنفسه كموضوعة .

● ماذا نعني بذلك ؟.. نعني أن الحزب لا يكون حزبا بالمعنى الطليعي الا اذا كان حزبا ثوريا ، وهو (كموضوعة) لا يستطيع تحقيق جزء من أهدافه أو أهدافه كلها اذا تحول الى (موضوعة) مادية ، تجد في التنظيم غايتها القصوى ، فعملية الكبت الذاتية تعنى تحويل الاداة الى ثورة والتي هي هدف جزئي من أهداف النضال ، وتحويل الثورة الى مباشرية منظمة وغير منظمة لتحويل المجتمع الى مجتمع ثوري يتوصل الى تحقيق أهدافه بنضاله والرد على الازمة التاريخية والحضارية باستكمال شروط النمو الحضاري وتحويل موازين القوى العالمية لصالحه « اننا في نضالنا القومي يجب أن لا نتصور امكانية قيام وحدة بين العرب بدون عقبات غير اعتيادية ويجب أن لا نغفل من الحساب أهمية أن تلتقي ستراتيجية مراكز الاستقطاب الرئيسية وبعض مصالحها الخاصة بشكل أو بآخر مع ستراتيجية نضالنا الوحدوي »[٣١] .

« وعلى هذا الاساس يجب أن نسعى بارادتنا ولا نعتمد على حركة الزمن المجرد ، كعرب وعراقيين ضمن الامة ، وانما يجب أن يكون لنا دور في عملية التكوين التي ستحصل ، وفي توجيهها بالاتجاه الذي يجعل قسما مهما من مراكز الاستقطاب في حساب ستراتيجيتها العامة ، لا ترى في النضال الوحدوي ما يتعارض مع سياستها العامة »[٣٢] .

ب ـ لقد فسر حزب البعث العربي الاشتراكي أزمة الامة العربية تاريخيا وحضاريا الا أن المسألة الان هي في تغير تلك الازمة وتحويلها الى النقيض الى حضارة وابداع لا أزمة فيه ولذلك فالبعث من خلال سياسة العراق المعلنة ضد

اللاعقلانية التاريخية او العقلانية المزيفة الحتمية • يعي قصده ويبينه على تأسيس فعل للانسان العربي مؤثر في مجرى التاريخ الانساني والوصول به اجتماعيا الى تحقيق ارادته بحرية واتباع قراراته واتخاذها بترتيب عقلاني •

● واذا لم يكن من أسباب لوجود حزب البعث العربي الاشتراكي غير تحرير الانسان العربي من التخلف والتجزئة والاستغلال الطبقي ومن الوجود الامبريالي واشكال الاستلاب الاقتصادي والتقني ومن الوجود الصهيوني • « هذا التحرير الذي لا يمكن أن يتم بالوسائل التقليدية ولا تنفع فيه الصيغ الفكرية والتنظيمية غير المستمدة من طبيعته وغير المتكافئة مع متطلباته » لكفاه فخرا •• وعندما نكتشف ان مهمة البعث وقيادته السياسية والفكرية ، الكبرى في هذه المرحلة هي انتزاع المبادأة من اعداء الامة العربية من امبرياليين وصهاينة ورجعيين يعتاشون على أزمة الامة وتمزقها واجواء التناقضات والانحرافات التي اكتنفت التاريخ العربي الحديث ، والارتفاع بالمواطن الى الصعيد النضالي الفكري والتنظيمي والستراتيجي وتحريره من انماط السلوكيات المتخلفة يعود الى ذاته ليكتشفها ،••

عندما تتكشف ذلك ، ندرك ان المنهج الجدلي الحياتي لحزب البعث العربي الاشتراكي قادر على تأسيس حضاري جديد للامة العربية لا يعزل الانسان داخل الاقطار العربية عن ذاته ، لان البعث يوفر الانتاج المادي ، كنشاط حسي انساني ، وقادر على التأثير في مراكز الاستقطاب الدولية كما أشار الى ذلك السيد صدام حسين وصولا الى بروز مركز الاستقطاب العربي في القادم من عقود الزمن القريب •

المبحث الرابع : الحزب والطبقة

الطابع الجذري والكلي للايديولوجية الثورية في البعث يجعل الحزب ليس كائنا بذاته ولا كائنا من أجلها فهو الحامل للثورية وقائم بها ، فقد ميزت أيديولوجية البعث بين الحزب (كطليعة) للطبقات الثورية الكادحة وبين الحزب

(كموضوعة) تنظيمية ، فالحزب كموضوعة تنظيمية هو أداة الطبقات الكادحة والامة في انتزاع حقوقها ولكنه ليس وصيا عليها لانــه بدون تلك الطبقــات وبدون الامة وصراعاتها وقضاياها الوحدوية والمصيرية لا يساوي شيئا ، واذا كانت الطبقات الكادحة وبالذات الطبقة العاملة أل « مؤهلة بحكم ظروفهـا الذاتية والموضوعية (أي وعيها وتنظيمها ومصلحتها) لأن تمثل الجوهر المناضل في الامة »[٣٣] فان البعث اعتبر « الطليعة الثوريــة جزءا من الطبقــة العاملة»[٣٤] فـ «نحن جزء من الطبقة العاملة..الاشتراكيون الصادقون يعتبرون **انفسهم جزءا من الطبقة العاملة »[٣٥] والحكم الاشتراكي « هو الحكـم الـذي يعبر عــن مصلحة وتطلعات الاغلبية الساحقة من الشعب بمنهج تحل فيه العدالة** والتكافؤ محل الظلم والعبودية والاستغلال » .

● اذن الطبقة العاملة في الامة العربية والطبقات الكادحة الاخرى هي حاملة الوعي الثوري لكن هذا الوعي لا يأتيها من ذاتها ، بل يأتيها من خارجها ، كيف .. ولماذا ؟.. ان الذات التاريخية للطبقة العاملة ظهرت كما هو معروف بظهور تحليل ماركس وتحليله للانتاجيــة الرأسمالية كشــكل معمم للتبادل والقيمة ، كانت هذه الذات العمالية موجودة (كموضوعة) لكنها موضوعــة مستلبة ، مبعثرة ، لكن الذي ضمن لتلك الذات الحركة والتنظيم والوعي هي الاحزاب الثورية ، أي أن وعي الطبقة أتاها من « خارجها » وهذا الخارج ليس غريبا عنها فهو جزء منها ، وملتحم بها ، وقد كان هذا اقرار ماركس نفسه ، لكن ماركس لم يتصور بنيان الحزب (كموضوعة) أي كبنية ذاتية ، وقد فاته ان الحزب نفسه قد ينقلب الى ــ دوغما ــ تضليل ، يكتفي بذاته كبنية فوقية في قمة الطبقة ، فالحزب اذا تحول الى (معطى نهائي) (مطلق كامل) يصبح فوق الجماهير ، فنظرية بنية « الحزب البروليتاري كانت بدون توضيح كامل لدى ماركس »[٣٦] .

أما لنين فقد وجد حلولا للحزب لم تكن موجودة عند ماركس ، اذ ان نبوءة ماركس حول مباشرية البروليتاريا في أوربا الصناعية وبنية الحزب التي

تعتمد على المبادهة ، قد اخفقت ، كما أخفقت نبوءته عن الثورة العمالية في أوربا ، ولذا اعتمد لنين على الوسائل الممكنة في وضع روسيا القيصيرية الملموس ولكن لا يمكن تبنى مفهوم لنين عن الحزب في كل العصور وتطبيقه على كل الامكنة « وفي وضع مختلف جذريا حيث لم تعد صالحة »[٣٧] .

● فالحزب اللينيني استنادا الى الوقائع المعاصرة وقتذاك نشأ بفعل مواضعاتها ، وبالتالي أصبح الحزب اللينيني جوابا لتلك الوقائع والتحديات ، فلم يواجه ماركس أو لنين أوضاعا كأوضاع العالم الثالث ، وفي ما يخص الاقطار العربية كانت الظروف الموضوعية تجعل من السياسة أساسا للثورة « لأن مشكلة العامل العربي لا تقف عند حدود الصراع الطبقي ولا حتى عند حدود اعطاء النضال الاقتصادي طابعا سياسيا ، فظروف التجزئة تقف عقبة في وجه تحقيق الاشتراكية »[٣٨] .

وهذه مسألة ليست مسألة قليلة الاهمية أبدا اذ أن لنين نفسه لم ينتظر حتى يجد نصوصا في الماركسية عن الامبريالية وعن الوضع الملموس في روسيا القيصيرية فقد وضع لنين افكاره عن الحزب والثورة ضمن سياقها التاريخي ،

● ولا شك أن نظرية لنين عن الحزب وازنت بين المباشرية ــ العنصر الجماهيري ــ وبين التنظيم ــ العنصر الداخلي ــ وقد أغنت نظرية الفكر الاشتراكي ، لكن فات تلك النظرية تحول الحزب الى ــ دوغما ــ مثلما حدث في العهد الستاليني فقد جنح الحزب الى عبادة الفرد ، واصبح بنية «خارجية» كلية وارتد الى المفهوم الهيغلي عن الرجل العظيم ، كما فات لنين تحول الحزب الى أداة طغموية ومبررا تاريخيا لسلطةٍ تسد ذاتها بقرارات ذاتية بعد اجبار الحزب على البت في تلك القرارات كشيء جاهز ومعطى فيكون النقاش للتسويغ والتبرير ليس الا ، صحيح ان لنين انتقد العفوية في تحديده للثورة « كقفزة نوعية »[٣٩] في كتابه . ما العمل ؟، الا أنه أرسى بشكل صارم أسس دعائم بروز الحزب كبنية قائمة فوق الطبقة بتوكيده على دور الحزب وتعطيل دور

الجماهير ، وقد كان الرد على ذلك انتفاضة (كرونشطاط) الشهيرة التي قامت بها خلايا الحزب الشيوعي نفسها .

فرغم ان لنين استند الى نظريته في الحزب على مبررات وجود البروليتاريا كطبقة يجب أن تنجز الثورة ، الا أنه اخفق في خلق الموازنة بين الحزب كبنية والنظرية كممارسة تطبيقية والمجتمع الذي يصحح جدلية الحزب والنظرية في امكانية التحقق الفعلية والضمنية .

● من هنا فقد عالج حزب البعث العربي الاشتراكي هذه الناحية بعمق مبتعدا عن الروح الدعاوية ومحاربا النزعات التي تريد أن تجعل من الحزب بيئة لبروز النزعة الفوقية والزعامية الفارغة فـ « الابتعاد عن النزعة الآمرية ، هو تعبير أصيل عن الثورة التي تتخذ من الجماهير غاية لها ، ان الحزب القائد هو حزب جماهيري بحق ولكن طليعته ينبغي أن لا تقوده الى مسلك التعالى على الجماهير والحس بالعظمة والافتخار ، ولعل من أهم المقاتل التي ينقصف بها العمود الفقري لسياسة الحزب ولبنيته الاتجاه البروقراطي المتضخم الذي يدع ارادة الجماهير في المحل الثانوي ، أو يزدريها تماما »(٤٠).

● ان الحزب اذا تحول الى ــ دوغما ــ فانه يحول الوعي الجماهيري الثوري الى مجرد تابع ، ويحول الجدل التاريخي الى حركية نشاطية ، ويجعل الثورة علم اجتماع والدولة علم اقتصاد وادارة وهيكل بيروقراطي . وفي ذلك يبدو الحزب ليس منفصلا عن نظريته وطبقته وانما منفصلا عن واقعة وعن الدولة التي بناها ، ويتحول الى تابع للسلطة « وعندما يكون الحزب القائد ذيلا للسلطة لا تنتهي قيادته فحسب . بل انه يترنح كحزب ثوري وتتعرض ثوريته لتهديد الاعاصير »، وكلما كان الحزب مخططا لتوسيع دور الجماهير في الاشراف والمناقشة والمحاسبة ، كلما كان حزبا قائدا بحق وأية خطوة يتم انجازها خارج اطار الارادة الجماهيرية أو خارج حدود عملها تكون خطوة معزولة أو جافة غير مأمونة النتائج »(٤١) .

« ان ضمانة الحزب الاشتراكي العلمي في ان يكون اشتراكيا علميا بشكل حقيقي لا غبار عليه تتمثل في الموازنة بين زيادة نسبة العمال والفلاحين فيصفوف الحزب على نحو طليعي وبين ستراتيجية الحزب الاشتراكية .. وخلافا لذلك يفقد الحزب انسجامه ويحصل التناقض بين النظرية والتطبيق وبين البنية والمهمة ، وهذا ما يؤخر انضاج العمل الاشتراكي ويقيد مبادرة العمال والفلاحين ويفرض الوصاية على الجماهير ، والتي تكون ذات طبيعية بيروقراطية فاضحة مستعينة بالجهاز البوليسي للقمع أو لفرض أساليب ملتوية ومنحرفة »[٤١] .

● اذن نظرية حزب البعث في هذا المجال تخطت (ما العمل) للينين لانها أوجدت مفهوما للحزب مركبا ليس فوق الطبقة وليس فوق الجماهير وهو ليس بديلا عنهما ، أن حزب البعث العربي الاشتراكي قد أدرك هذا القصور الناتج عن انتقال الحزب من العمل السلبي ــ السري ــ الى العمل الايجابي ، وتسلمه للسلطة في السابع عشر من تموز ١٩٦٨ ، وادرك « ان ظهور طبقة جديدة بعد استلام السلطة هي احدى الامراض التي قد تصيب أية ثورة تقدمية وهي تشكل خطرا من أهم الاخطار التي تواجهها وتهدد أصالة مسيرتها وبكلمة واحدة فان الطبقة الجديدة تحاول أن تحل محل الطبقة القديمة التي جاءت على انقاضها .

وحتى يصان الكادر الحزبي من تسرب هذه الظاهرة لابد من معالجة الشروط اللازمة لتوفير المناعة ضد نشوئها وانتشارها »[٤٢] .

« ان الذين يعتقدون انهم قادرون على قيادة الجماهير من المكاتب الفخمة وباستخدام السيارات الفارهة مخطئون جدا لان من المحال أن يقود الجماهير كادر عزل نفسه عن الجماهير ، لأن قيادة الجماهير تستلزم معاناة مشاكلها وحياتها معرفة آمالها وآلامها .. ان على كادر الحزب أن يكون مثالا ونموذجا للتسامي ونكران الذات »[٤٣] وقد تابع الحزب نضالا نظريا وعمليا لمعالجة ظهور طبقة جديدة ومقاومتها والقضاء عليها ، كما أنه تابع عملا عنيدا في القضاء على الظواهر المرضية الاخرى كظاهرة تحول الحزب الى (بنية) فوق

الشعب والطبقات الكادحة ، وليس صدفة انه قام باعادة النظر في كثير من الصيغ ، كما أنه قام بنضال سياسي لا يكل ضد البيروقراطية والروتين وأشكال الرشوة والوساطة والاستعلاء الحزبي والانتماء المظهري والتسلط الفئوي وحدود التعسف في استعمال الحق وأشكال الذاتية التي تفرض على الموضوعية نظرات علوية ، والموضوعية التي تتجاهل التغيير والثورة .

● ان القيادة السياسية للبعث واعية كل الوعي للطابع الكلي لثورية الحزب دون اهمال الجوانب الجزئية أو بترها ، ولذلك فان حزب البعث كما قلنا يعتبر الطبقة العاملة هي حاملة وعي التغيير والثورة وهي الطبقة التي «يجب أن تغير قوانين تكوينه وعلاقاته على ضوء قيمتها التاريخية »[٤٤] .

وبهذا وبنمو الطبقة العاملة العربية في المدى الآجل القريب تكون أداة مخططة لأهدافها الكاملة كمعطيات واقعية ، ويمثل النمو الاقتصادي والتصنيع وتطور الانتاج التعبير الاكثر نضجا لواقع الطبقة العاملة لدى البعث . فالطبقة العاملة هي الاكثر ثورية والحزب الذي يعبر عنها بالضرورة هو الذي يتنامى معها بأطراد ، لكن الثورية في البعث لا تعنى الخضوع (للموضوعية) تحت حجة الالتزام الطبقي واعتمادا على آلية التطور وميكانيكية النمو الاقتصادي والتصنيع ، انما هي مباشرية جماهيرية وتنظيم طلائعي جماهيري ودليل نظري ساطع للعمل الثوري قادر على تطوير القوى الاجتماعية وتطوير الدولة والحزب والطبقة غير متخطٍ لدوره وغير غافل عن ذلك الدور ، يوحد بين النظرية والتطبيق ويغني النظرية بالتطبيق ويغني التطبيق بمبادرات الوعي الثوري الخلاق ،

وهذا يعنى أن حزب البعث يمارس الثورة مع نفسه ، ويكبت منازع الفوقية والاثرة والوجاهة والتبرجز والتمايز على أعضاءه . فهذا الكبت مسألة هامة وحاسمة في أن يفرض الحزب هيمنته على قواه الذاتية حتى لا تتحول تلك القوى الى قوى متمايزة طبقيا منفصلة عن جسمها الاصلي ضمن الاسس

البنيوية للمجتمع . وحتى لا يصار الى تحويل الجماهير الى مجرد ـ أداة والتنظيم الطليعي الى وسيلة هيمنية »[45] .

ويشدد مفهوم البعث للحزب والطبقة والجماهير والامة على هذه الناحية، فالمراتبية الحزبية العليا والدنيا تتمتع بالتجانس والديمقراطية ، « احترام الاقلية لرأي الاكثرية والالتزام به ، مع احترام الاكثرية لرأي الاقلية ، والبعث كحزب وبنية كما أكدته الممارسة والنظرية استوعب كافة دروس ومعطيات الحركة الثورية العربية والثورة العالمية وقوانين التطور والعلم وأخطاء التجارب العربية والعالمية والمعالجات التي اتخذت ازاءها ، ولذا فالبعث كحزب وبنية ليس حبيسا لجملة أطروحات جامدة أو كلية قدرية كما يحلو « للبعض » نعته أو التشبيه عليه ، فالبعث لا يطنب أو يبالغ في الصفات والمميزات ، بل تفرز حركته الجدلية صفاته ومميزاته .

● ان حزب البعث العربي الاشتراكي كما يرى نفسه ليس مالكا للحقيقة كمعطى نهائي غيبي ، وانما هو مالكا لها بوصفه كينونة في الزمن المستمر ومن خلال اعتباره مطورا لحقيقة تعيها الجماهير الكادحة ، فليس الحقيقة نموذجا نظريا مسبقا وانما هي معايشة ومعاناة « ولا ضير على الحركة الثورية أن يكون فيها نواقص وأمـــراض اذا صممت على تصحيح ســـيرها والتخلص من أمراضها »[46] .

و «الحركة الثورية الاصيلة تستطيع أن تصحح الاخطاء مهما كبرت ولكن التصحيح لن يأتي صادقا وجديا الا بضمانة من وعي الجماهير ومراقبتهـــا ومشاركتها »[47] اذ أن البنية الحزبية ـ الحزب ـ التنظيم ـ في البعث ليست بنية (مقولبة) كبنية التقنية أو بنية الآلة أو الماكينة ، فهي حركة متجددة قد تستنفد أجزاء منها لكن صيرورتها باقية في الاساس وهي عرضة للتجربة وعرضة للابداع والابتكار بارتباطها الكلي مع حركـــة المجتمـــع ، وبالذات طبقاتـــه الكادحة . الجدلية في الحزب كبنية تجنبه الردوب ومواقع الزلل والتجارب

الباهظة . لكن أي حزب مهما كان نوعه او شكله أو انتماءه الطبقي أو القومي غير معصوم عن الخطأ ،

● وهذه مسألة معالجة كثيرا لكن التأكيد عليها هنا جاء من أجل الاقلال من الطابع التجريدي الذي يحمل النظرية والممارسة الثورية افتراضات طوباوية أو تخطيطية تلزمها باللا خطأ والاستقامة المسطرية ــ نسبة الى المسطرة ــ .

● من الواضح الان ان حزب البعث قام بتطوير نظريته متوخيا تأثير الممارسة ومتوخيا دراسة كافة جوانب تجاربه غير فاصل تلك النظرية ، في بنية الحزب ، والطليعة ، والثورة ، والاشتراكية ، والوحدة ، عن الازمة الحضارية والتاريخية للامة العربية ، فالى أي حد يمكننا ارجاع نجاح البعث في هــذا الجانب ؟ والى أي حد مثل البعث هذا النجاح ؟..

المبحث الخامس : الاطار العربي والحد الايديولوجي

● ان نظرية البعث العربي الاشتراكي في اطار الوضع العربي ليســت نظرية (حجج) ارتقائية او انتقائية وانما هي نظرية تستمد طابعها ومصادرها من الوضع الملموس دون أن تضيع في ذلك الوضع، وهي بتطورها تجتاز أطوارا متعددة دون أن تنفصل عن جذورها وتستخدم خططا ستراتيجية وعمليـــة مناسبة ، وبهذا فان البعث يقول بالتمييز بين الامكانية والواقع . فالممكن غير الواقع ، فاذا كان الممكن ممكنا فهو ليس عفويا ، لانه لا يصبح واقعا الا بأرادة ونضال الجماهير الثوري والواقعي وتحت قيادة الحزب أو أحزاب الطليعة .

وعندما تولى حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة في العــراق كان الوضع في القطر العراقي يعيش ظواهر مرضية واضحة كل الوضوح ، أما على المستوى العربي فقد كانت الاوضاع اثر هزيمة حزيران مؤلمة ومأساوية حقا فـ « قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ كنا نسمع ونرى نشاطا اعلاميا وسياســيا وعسكريا واسعا جدا ، يدور في اطار الادعاء بالاعداد لتحرير فلسطين ، ولكن

الحقيقة المرة التي انكشفت تماما بعد الهزيمة هي ان التحرير لم يكن الهدف الستراتيجي في كل النشاطات وكان ما يقال ويعمل في ظل هذا الزعم يصب ، بعلم من أصحابه أو بجهل ، في اتجاهات أخرى غير اتجاه التحرير ، لقد كان هناك أدعاء هدف ، ولم يكن هدفا لمعركة حدثت ، وكانت من أكبر معارك تاريخنا كلــه »[٤٨] .

وقد واجه الحزب الوضع المفكك للامة العربية بالمسئولية التامة ، فكان تأميم النفط في ١٩٧٢ بداية لمعركة هادفة مع الامبريالية والصهيونية عــلى مستوى القطر العراقي وعلى مستوى الامة العربية ، ان استخدام النفط كسلاح في المعركة كان أحد الوسائل النضالية في أطروحات الحزب من أجل بناء جبهة عربية « ولتحقيق الوحدة بين الاقطار التي تناضل في اطار هذا الخط »[٤٩] .

ولا نريد التوسع هنا في المسؤولية التي مارسها البعث في الاطار العربي فهذا له سياق آخر ، بيد أننا جئنا بنبذة مختصرة جدا لواقعةٍ معروفة ، والذي يعنينا هنا الحد الايديولوجي للبعث في اطار الممارسة للمسئولية في الوضــع العربــي .

● يشدد البعث على :ــ

١ ــ التركيز على النضال لتحرير الداخل العربي من الجيــوب الرجعيــة والجاسوسية والتوسع في رقعة النضال العربي « وجبهته في أجزاء الوطن العربي حتى يضم أكبر عدد من أفراد الشعب العربي بمختلف فئاتـــه وطبقاته في عمل منظم موحد ، فهذه المرحلة هي بالدرجة الاولى مرحلة تحرر قومي ، ومعنى ذلك ان الاكثرية الساحقة تستطيع أن تشارك في هذا النضال وتلتقى عند أهدافه رغم اختلاف المصالح والاتجاهات »[٥٠] .

٢ ــ النظر الى الجهد العربي ازاء الامبريالية والصهيونية ، نظرة مشرقة ، اذ أن نقــاط التفــوق العربــي ، اذا استخدمــت اســـتخداما علميــا ، فانهـــا ستـــؤدي الى امتــلاك الوســـائل المؤثـــرة في السياســـة

الدولية ومن تلك الوسائل ، النفط ، والاعداد المسئول للقوى الذاتية العربية بالاعتماد على الجماهير وبالحد الادنى والاعتماد على الصدق مع النفس ومع الشعب « ولكي تتمكن حقا من تحطيم الاسطورة « الاسرائيلية » علينا أن نقدر بعقل بارد ، امكاناتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية الراهنة دون مبالغة ودون مناقصة ، وان نستخدم هذه الامكانات بأقصى مدى نعمل على تصعيدها باستمرار يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، واضعين المعركة الاساسية نصب أعيننا ، مع الحذر من الضياع في الدروب الفرعية ، وعند ذاك يصبح الزمن في صالحنا حقا ، وليس في صالح العدو »(٥١) .

● ان البعث العربي الاشتراكي رأى في هزيمة حزيران دليلا واضحا على أزمة الانظمة العربية التقليدية منها والتي تنعت بالتقدمية وتلك الازمة ظاهرة من ظواهر انتفاء مبررات تلك الانظمة ومقولاتها السياسية والاقتصادية والفكرية ، ولذلك كان « اختراق » البعث للحلقة الاضعف في السلسلة الرجعية العربية مسألة ثورية وتاريخية للامساك بالمبادرة وتفشيل مخططات الامبرياليين ، والسير في القطر العراقي في طريق تأمين تطوره الاقتصادي وانجاز استقلاله السياسي وتحويل هذا القطر الى «بؤرة» مواجهة ضد الامبريالية ، بفتح امكانات جديدة أمام الجماهير العربية في شتى الاقطار العربية .

وهذا يعنى ليس فقط مواجهة الامبريالية والرجعية والصهيونية ، وانما مواجهة الازمة الحضارية والتاريخية للامة العربية ذاتها ، فالثورة في العراق هي خيار ثوري مثل تحديد الواقع بدءا من مرحلة تاريخية معينة وبالتالي حددت مسار الثورة العربية صعودا الى مراحل تاريخية متقدمة انطلاقا من تجربة الحزب في العراق ، أما المغزى العربي الذي مثلته ثورة السابع عشر من تموز بمعنى الخلاص الثوري والثورة العربية الشاملة فسيعطى امكانيات واحتمالات عدة بارتباطه بالنواة العراقية للثورة وهذه هي بداية الحد الايديولوجي التي تتدرج بفاعلية الاعتماد على التفاعل بين نضال الحزب

ـ البعث ـ كتنظيم طليعي ، وبين حركة متناقضات المجتمع العربي في الاقطار العربية وبين قدرة الحزب على ان يعبر بايجابية عن الكلية الثورية للثـــورة العربية ، وفي ذات الوقت عن قدرة البعث في النمو كليا في العراق وفي كنس مظاهر البيروقراطية والتحجر المذهبي ومبادرات الاستعلاء والنمو الطبقـي الفوقي والمراتبية البورجوازية لمجتمعات المدن ، اذ أن الخاص في العراق يصبح عاما في شمول الساحة العربية •• والقوانين العامة للثورة العربية تمثل الضرورة التاريخية المشتركة فما يحدث في سورية مثلا يجد صداه في العراق •

● الا أن قيمة الثورة في العراق بحد ذاتها أعمق من مستبقاتها وأعمق من أية نظرية آلية للمجتمع العربي ، فالتجربة المستمدة من عناصـر الحيـاة والملتحمة بالنظرية هي أكثر تعدد جوانب الضرورة التاريخية وخطها الجماهيري وبنيتها التنظيمية ، اضافة الى كونها ضمن اطار ستراتيجية الثورة العربيـة للبعث جزءا من كلٍ منسجمة مع مسلماتها النظرية ومع حركة الواقع العربي الحي « واذا كان الحزب يدلل على حيوية فائقة ، وقدرة على التجدد والانبعاث الدائمة ، فلأنه متصل بضمير الامة العربية يســتمد منها ، من آلامها ، ومن أهدافها ، ومن حقها الواضح ومن تراثها ، يستمد هذه القوة على النهوض وعلى التجدد وعلى الصمود »(٥٢) •

● ان البعث لاحظ بعلمية دقيقة حركة الواقع العربي الآخذة بالتطـور والعلاقة بين ستراتيجية الثورة في القطر العراقي والمهام القومية للحزب « اننا لا نعتبر الرقعة التي نقف عليها ، هنا في العراق ، هي نهاية المطاف في نضالنا بل انها جزء من أرض وأهداف أوسع منها ، هي الوطن وأهـداف النضـال العربي »(٥٣) « والعمل الوحدوي هذه المرة يجب أن لا يسقط من الحساب عاملين أساسيين هما :ـ

العامل الاقتصادي : بحركته ودوره المؤثرين في هدف الوحدة ، والعامل الثاني هو التأثير المتبادل بين نضالنا القومي ، واتجاهات وحركة السياسـة الدولية •• فالعامل الاول يدخل ضمن مسئولية القيادة وأجهزتها في القطـر

العراقي على صعيد التحقق الفعلي في نهج السياسة القومية ، في الوقت الذي يجب أن يعي الحزب قوميا أهمية هذا العامل ويدخله في حسابات نضالـــه السياسية والمبدئية ادخالا جادا او مؤثرا »[٥٤] .

● هنا تتشابك الايديولوجية العربية الثورية للبعث على أصعدة الواقع العربي بواسطة التنظيم الطليعي لتعبر عن حاجات الجماهير العربية التي تتجه بأطراد وبفاعلية متعاظمة نحو بلورة ذاتها ومصالحها ووحدتها القومية ، ففي الوقت الذي يدعم فيه البعث العامل الاقتصادي في « الوصول الى مرحلة من التشابك في الاقتصاد العربي ، واختيار الطريقة المناسبة لذلك »[٥٥] لايجاد السوق القومية الواحدة وبلورة ملامح اقتصادية جديدة في الوطن العربي ، اذ أن ذلك « مسألة أساسية وضرورية لجعل المواطن في الجزائر مثلا يشعر بأن لديه مصلحة في العراق ، من خلال تعميق صلة اقتصاد الجزائر بأقتصاديـات العراق .. كما يصبح العراقي مقتنعا بأن له مصلحة في الجزائر ، بالاضافة الى الاعتبارات المبدئية لنضال الوحدة من خلال السياسات الاقتصادية لقطرنا ، ضمن عملية التفاعل والتأثير مع السياسات الاقتصادية للوطن العربي »[٥٦] .

تحدد الايديولوجية الثورية للبعث معانيها العملية بتحولها الى واقـع ملموس في الواقع العربي .

أ ــ اتساع حدود التشابك الاقتصادي في الوطن العربي مما يوجد بالضرورة المصلحة المشتركة على المستوى المادي فيؤدي الى بروز بنيات اجتماعية متشابهة مما يقرب طريق الوحدة .

ب ــ تقريب المستويات المتفاوتة في التطور الاقتصادي بين الاقطار العربية ، بين العراق واليمن الشمالي مثلا .

جـ ــ توسع نسبة الطبقة العاملة المتنامية في الاقطار العربية وبلورة وعيها نحو الوحدة والاشتراكية تدريجيا .

د ــ استيعاب احتمالات المستقبل في اوضاع التنمية للاقتصاديات العربيـة والادوار التي تمر بها الانتاجية في هذا القطر العربي أو ذلك لتمييـز

التناقضات والحركات الاجتماعية والمصالح التي بامكان الحركة الثورية بناء نفسها عليها فـ « يجب علينا ان لا نتوهم بامكانية غلق حلقات البناء الاجتماعي والاقتصادي في القطر العراقي عن الاقتصاد العربي ، وعن التطورات الاجتماعية والسياسية العربية .. في الوقت الذي يوجب فيه أن نعمل على بناء الاشتراكية بالامكانات الوطنية المتاحة ، ونتحرك اقتصاديا واجتماعيا بالامكانيات الذاتية دون أن نجعلها أساسا نهائيا .. لذلك فاننا لابد ونحن نعمل بهذا الاتجاه ان نبقي حلقات البناء الاقتصادي والاجتماعي مفتوحة لاستيعاب صورة المستقبل على طريق نضالنا القومي وصولا للمجتمع العربي الديمقراطي الاشتراكي الموحد »[٥٧] .

● ان هذا لا يعنى أن الوحدة العربية لا تقوم الا على تطور الانتاج وبلوغ أعلى مراحل التصنيع بعد استكمال شروط قيام السوق القومية الواحدة، اذ أن هذا المفهوم هو المفهوم البورجوازي للقومية ، وقد كانت الشيوعية الكلاسيكية تروج المفهوم اعتمادا على تجارب القوميات الأوربية واسترشادا بنهجها ، أما بالنسبة للبعث فان الوحدة العربية تمثل الضرورة التاريخية ، تمثل أزالة كافة العقبات والمعوقات التي وضعها الاستعمار وعهود الظلام أمام الاقطار العربية « ان الوحدة بين أقطار خلفت التجزئة فيها الرواسب الاقليمية المتخلفة والمصالح الضيقة عمل ضخم جبار يتحدد بالضرورة في التزام ايديولوجي وذلك على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على السواء وهذه الايديولوجية لابد أن تكون معبرة بأمانة عن مصالح الجماهير من جهة ومعتمدة عليها كتنظيم من جهة أخرى . فلكي نضمن للوحدة الشروط الموضوعية لانطلاقة صحيحة لابد أن تنبثق عن جماهير واعية مكونة تكوينا سياسيا ، مسئولة ومنظمة تنظيما محكما ، وبما أن روح الديمقراطية هي الايمان بالجماهير لذا فان الكفاح الوحدوي هو كفاح ديمقراطي بالضرورة »[٥٨] .

● من هنا فان الايديولوجية الثورية لدى البعث لا تجعل بلوغ مستوى عال من التطور الاقتصادي والتصنيع في جميع الاقطار العربية شرطا مطلقا لقيام

الوحدة العربية اذ أن الشرط الاساسي هو وحدة الجماهير وتحولها العميق •
وهنا تأخذ أيديولوجية البعث شكلها الاوسع والاكثر شمولا ، فالجماهير هي التي تطور الاسس الموضوعية للوحدة وهي التي تبرز تناقضات الانظمة العربية ذات السمات الرأسمالية ، والجماهير المنظمة تبدو بوضوح أكبر وبتماسك أوثق كنفي للاعقلانية في الانظمة العربية ، وهي عندما تختار الثورة فانها انما تختزل الاليات العمياء المنوطة بالتطور الاقتصادي والتراكم والتصنيع ••

● يعني هذا بدوره أنه يصبح للتوتر والفعالية الجماهيرية الاثر الاكبر في الحزم الجذري ، فعندما يوجد العنصر الثوري ويتشكل البديل وتعم التناقضات الاجتماعية والطبقية وعلى مستويات مختلفة يكون النظام في أي قطر عربي خارج الزمن التأريخي ولهذا الجانب أهميته للحزب الثوري الذي تلتزم به الجماهير سياسيا وهو يمثل نتاج مجموعات مترابطة في الحركة والتنظيم اضافة الى تعبيره عن عفوية الجماهير المستقلة •

● وهذه المسألة ضرورية وأكيدة ، كما حدث في العراق ، الا أنه لا يجوز جعل جميع مستبقات ثورة البعث في العراق شيئا مطلقا واعتبارها مفردة أزلية لانها سمات ومعالم قد لا تتكرر في أقطار عربية أخرى ، لكنها سمات ومعالم ثورية تقع ضمن خصائص وقوانين الثورة العربية ومن هنا ضرورة اعتبار ثورة السابع عشر من تموز مرشدا للعمل الثوري في الاقطار العربية ولكن يجب التمييز بين الثورة العربية الوحدوية الاشتراكية كقانون عام وبين الخاصة المميزة لهذا القطر العربي أو ذاك ، فالواقعية تقتضي الاعتراف أن هناك ثمة ظروفا اقتصادية وسياسية واجتماعية مميزة بين الاقطار العربية ، وهذا التنوع ضمن وحدة الثورة العربية لا يعني مطلقا التباين أو التناقض ، بل على العكس من ذلك فان ما يجمع المجتمع العربي هو القوانين العامة لوحدة المصير ووحدة الارض والطبقة العاملة العربية ووحدة النضال والتوجه الجماهيري والثوري «والقضية العربية يجب أن تؤخذ ككل لا يتجزأ ، وأن تعالج على هذا الاساس»

وأعتقد أن بعض الذين يحصرون اهتمامهم بالوحدة ، هم مجزئون للقضية العربية ، ان نظرة حزب البعث الى قضيتنا قامت على أساس أنها قضية واحدة، وان حلها هو رهن بتحقيق انقلاب عربي ، انقلاب بالمعنى العميق »(٥٩) .

● تجزئة الثورة العربية اذن مرفوضة ، لكن « الانطلاق الواعي من الظروف الموضوعية يقتضي تثبيت الحقائق الملموسة في الواقع العربي لا القفز من فوقها وتجاهلها ، لقد خلقت التجزئة الطويلة ظروفا اقليمية متنوعة وتفاوتا في التطور الاقتصادي انعكس على الجوانب الاخرى من الحياة . في الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي ، فالبناء الوحدوي في البدء ينبغي أن يستوعب هذه الظروف ، لكي يستطيع التغلب عليها وتصفيتها بصورة تدريجية وموزونة وأكيدة عن طريق التفاعل بين الاقطار باعتباره الطريق العملي الوحيد للصهر »(٦٠) .

● الثورة العربية تقف اذن بين خاص وعام ، فالعام يعمل عبر ثورة عربية واحدة ومعالم وسمات مشتركة وحدوية الهدف والغاية . وللثورة العربية لدى البعث في (العام) أصالتها ومميزاتها وخصائصها النوعية وظروفها الواحدة وقوانين تطورها وانبثاقها ، الا انها في (الخاص) تراعى التجارب القطرية المتنوعة بما يضمن و « يراعى خصوصية الموقع الذي يقف فيه فرع الحزب في القطر المحرر ، واختلافها من نواح عديدة عن تلك المواقع التي ما يزال نضال الحزب فيها في مرحلة الكفاح السلبي ، واذا لم نفهم هذه المسألة فهما صحيحا فانها تجر الى اخطاء واخطار كثيرة »(٦١) .

والخاص هنا ايضا يلتقي مع العام في مجرى الكفاح المشترك على ارض الكفاح القومي الاشتراكي للحركة الثورية العربية ، لكنه يستمد من الخصائص النضالية القطرية قوة الوحدة النضالية وسماتها المميزة ، ولذلك فأن عزل تجربة قطرية عن البناء الثوري العام للثورة العربية في الوطن العربي يؤدى الى خنق تلك التجربة وتجريدها من طابع السياق التاريخي والديمومة النضالية والصعود الثوري الاشتراكي الوحدوي .

على أن قضية الخاص والعام في الثورة العربيـــة تظل متعلقة بالوضع الملموس ، والتطور الاجتماعي والسياسي والبنية العامة (أي الطبقات واجراء الدولة والظرف التاريخي وتقدير ذلك الظرف الذي يؤثر في المجرى العام ويعتمد كذلك على معرفة طبيعة الدولة في قطر عربي ما ، وطبيعة الخريطـة السياسة ـ أحزاب ، حركات ، لجان ، جماهير ، ومعرفة المؤثرات المحركـة (الطبقية ـ الدين ، النزعة الاصلاحية ، النزعات الثورية ، واقع الجماهير ، تاريخ الحركات الثورية و٠٠ الخ) ويحدد الرفيق المناضل صدام حسين هذه المسألة بما يلي : « فمنظماتنا الحزبية في الوطن العربي يجب ان لا تتقيد في الحركة او وسائل التعبير بالاعتبارات العملية التي تشترطها عوامل مراعاة الممكنات التي تحكم حركة الدولة (يقصد الدولة في العراق ـ المؤلف) ضمن ظروفها العربية والدولية ٠ وعدم التقيد الذي ندعو اليه في هذا المجال لا يتم من خلال قطع الصلة او الغاء الروابط المبدئية مع دولة الحزب او مع ستراتيجيته الشاملة ٠٠ فالمطلوب أن يكون هناك دائما ترابط حي يستمد وجوده من خلال المبادىء والستراتيجية الواحدة والبرامج التي تنطلق منها ، وبالشكل الذي يؤدى في النتائج الاجمالية ، الى التناسق بين حركة الثورة والدولة في القطر المحرر ، وحركة الحزب في سياقها العام ٠

هذه هي الحدود المشروعة للتمييز ، وهذه هي الاسس المركزية للصلات التي يجب أن تقوم بين الدولة والحزب ، ولهذا لا يشترط أن يكون هنـاك تطابق في الصيغ ووسائل التعبير بين مواقف الحزب ومواقف وحركة الدولة ، لأن الضرورات العملية تستدعي ـ في كثير من الحالات ـ نوعا من التميز أو الاختلاف بين الموقفين ، على أن يكون كلاهما قائما على اساس الستراتيجية الواحدة ويخدم بالمحصلة الاهداف ذات الاتجاه الواحد »[٦٢] ٠

فواجب الثوريين والبعثيين تطبيق العام على ضوء ظروف أقطارهـم وخصائص مجتمعاتهم المميزة ، أي ضمن الخاص بالصيغ المناسبة ، دون جعل الخاص سمة مميزة (مطلقة) بل ربطه بالعام وقوانينه الاساسية ٠

● بعد كل هذا العرض والتحليل نعود الى (الامة والازمة) وعلاقة كل ما بحثناه في هذا الفصل بهما فقضية الثورة العربية في البعث لا تكون ممكنة الا بالنضال • ووحدة النضال « لا تكون ممكنة الا بنضال الوحـدة ، أي بتكوين عقيدة واضحة عن الوحدة العربية تصبح الموجه لتفكيرنا ، والناظم الرئيسي لكل ناحية من نواحي نضالنا »(٦٣) •

هذه الظاهرة التي تميز نضال البعث نجدها تميز التاريخ في معناه الهادف الى الوحدة لانها الرد الحاسم على الازمة ، والتحول كأداة للانقلاب العربي تمر بأطوار مختلفة لكنها مترابطة منتظمة ، وقد تتحلزن أحيانا تبيجة للظروف الملموسة ولضرورات عملية ، لكنها تترابط ضمن قوانين الكشف الايديولوجي الذي تحركه الطليعة المنظمة وجماهير الشعب ، وذلك الترابط ليس ميكانيكيا ولكنه اتجاه للتطور ، لحل الازمة التاريخية من داخلها ، بمعرفة متناقضات الواقع العربي ومعرفة الطبقة المحركة للتاريخ ومعرفة تأثير التنظيم الطليعي في الحراك الجماهيري ، وامتلاك عنان الثورة عندما تنضج الظروف في أي قطر عربي مرشح للثورة •

● والتأكيد على الوعي الطليعي الثوري أدخل دور الافكار والارادة الثورية في الرد على التحدي وحركة الاشتراط على التاريخ أي اعطى للحرية الجماعية الشعبية دورا في التدخل بالازمة والتأثير فيها ، ولكن فعالية هـذه الحرية مرتبطة بالجماهير ومصالحها وكامنة في صلب الواقع نفسه الذي يحمل بذور الانقلاب على الذات •

● ان اسهام ثورة ١٧ تموز وقيادتها في ترجمة وتطوير فكر البعث كان ذا وجوه عديدة الا أن اكبر اسهام قامت به القيادة السياسية هو توفير المفاهيـم الثورية التي تشدد على الوعي الثوري وعلى الممارسة وعلى التحول الاجتماعي وتحويل الانسان ، وهو مفهوم يرقى ــ وبدون مبالغة ــ الى أرقى وأعمـق مقولات علم الاجتماع السياسي وأدق الصيغ في التحويل الثوري •

● **فالاشتراكية** البعثية قدمت تفسيرا للتحول وحركته وآليته وصيغه واحتمالاته ومكاسبه وأزماته وانتصاراته واعتمدت الاستخدام العقلاني للثورة كأداة في تحقيق التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون اللجوء الى الحتمية التاريخية التي بشرت بها الماركسية ، فحركة التاريخ لدى البعث حركة تقدمية تتسم بالضرورة كما ان مفهومها للثورة أعطى للجماهير طاقة تفجير معجزة وتحريك ثوري لم يميز أبدا غيرها .

ان ما ابغي التعرض له في هذا الصدد هو التوكيد على مفهوم البعث للحرية ولأرادة الانسان والمجتمع والتحول الاشتراكي والثورة والازمة الحضارية . فهذا المفهوم يتفاعل مع نظريات الفكر التقدمي العالمي بصيغة الأخذ والعطاء . وفي ما يخص النظرة للانسان « تنظر الثورة للانسان بأعتباره هو الاساس الذي تستند اليه التجربة الثورية في قطرنا »(*) .

وهذه الصيغة الجدلية تجسيد للعدالة اذ « ان تطبيق العدالة تطبيقا شموليا يتطلب تشغيل كل انشطة المجتمع والدولة في خدمتها في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبصورة متناسقة ومتجانسة »(**) .

لقد وضع الرئيس القائد صدام حسين مسالة العدالة في صميميتها الانسانية وجعلها القوة الايجابية والركن الركين للحرية في ما جاء في النص أعلاه ، وبالمقارنة مع المفاهيم الاخرى نجد ان الليبرالية مثلا اكدت على الفردية ولكنها اعتمدت على حتمية القانون الطبيعي في الوقت الذي أكدت فيه حرية السوق وأخضعت الافراد للقانون الذي يمثل المجتمع ويخضع الارادات الفردية . وبذلك أدخل الانسان ميكانيكية رأس المال ، والهيغلية أوثقت المجتمع في الدولة المركبة ذات الوحدة المتجانسة التي هي حسب زعم هيغل تمثل المجتمع ـ الافراد ، مما جعل الانسان في الدائرة الضيقة ، فقد اسبغ هيغل

(*) جريدة الثورة ٤ ك ٢ سنة ١٩٨٠ العدد ٣٥٢٤ حديث الرئيس القائد خلال لقائه مع وفود الطلبة والشباب العرب .

(**) الرئيس صدام حسين « المفهوم البعثي للقانون والعدالة » ص ٨ .

على البيروقراطية الدولتيه هوية خاصة وعزلها عن مكاناتها الاجتماعية والطبقية ، وفي نفس الوقت اعتبر الدولة مجسدة للمعنى الذي يقوده العقل المطلق ، ولذلك يناقض هيغل جدليته عندما يجرد الدولة من المتناقضات ويدرجها في منظومة الجدل الفلسفي المركب ، وزعمه أن الدولة تمثل ذاتها •

والاشتراكية الطوباوية ، السان سيمونية ، واللاسالية والبرودونية أبت القول بأي تفسير اجتماعي للضرورة التاريخية ، وركزت على بعض جوانب المتناقضات الاقتصادية ودعت الى حلول جزئية •

واليعقوبية(٦٤) في (جمهوريتها الفضلى) ترى في العنف طريقا في اعطاء الفرد مطلق الحرية وتمثل الارادة العامة واطاعة قانون الطبيعية مما قاد جميع المعارضين والذين يتصور انهم من المعارضين الى المقصلة ، كما ذكر **روبسبير** أن « العنف التطهيري هو دواء لجميع أمراضنا » وقد وقعت اليعقوبية في الفوضوية والعنف المجرد عندما تجاوزت عقلانية الثورة ، وقد حاولت أدراج ، المجتمع قسرا بالهيئة السياسية فارتكست واكلت نفسها •

● اما **الماركسية** فتربط الوعي الثوري بالعلاقة الميكانيكية للحتمية التاريخية وحركة القانون الديالكتيكي فأطلقت العام وقللت من دور الظواهر الاخرى مهما تنوعت وبذلك وقعت في التخطيطية وقد الحق هذا اضرارا بالماركسية نفسها سنوات عدة ، وقد أثبتت التجربة ان الثورة الاشتراكية لابد أن تربط بين مفهوم الحرية وبين التحرر من الاستلاب الطبقي ، وبين التحرر الاجتماعي والتحرر القومي أي التزاوج بين العام والخاص •

● ان تصور الازمة لدى البعث ليس متأتيا عن الصراع الطبقي ولا عن حقوق الافراد كما تذهب الى ذلك الماركسية والليبرالية فحسب ، بل متأت اضافة الى ذلك من مجموع العوامل المؤثرة في الامة ، والفعل التاريخي لا يقع ضمن العوامل الماركسية والليبرالية ، وانما يقع خارجهما كما هو مشاهد قديما وحاضرا ، فالضرورة ليست هي الحتمية الطبيعية أو الحتمية الماركسية أو

الحتمية العلية الميتافيزيقة وانما اعتمادا على المحركات الانسانية بمعل الضرورة التاريخية يمكن فهم علم تطور المجتمعات phylogeny الذي يمكن اعتباره استدلالا استقرائيا ، على أن الضرورة التاريخية لا تكمن في الصراع الطبقي أو حقوق الافراد فحسب ، وانما تكمن اضافة لذلك في الصيرورة الاولية لمجموعة من العوامل قد تبرز مجتمعةأو تبرز فرادىوما نعنيه في هذا المضمار أن مفهوم البعث أولى أهمية قصوى للصراع الطبقي وحقوق الافراد ؛ ولكنه لم يجعل منهما حدا يعقوبيا لانهما كائنان ضمن صيرورة تاريخية للامة العربية وليس بمعزل عنها .

● ان الموجود القومي الانساني لا يوجد من الصراع الطبقي وحقوق الافراد فحسب وانما هما صيرورة مصيرية تولد وتنمو في صراعات عدة ومن ضمنها الصراع الطبقي وحقوق الافراد ــ فالانسان ــ اينما كان ــ ليس كائنا طبقيا أو كائنا فرديا أو كائنا طبيعيا أو حقوقيا . فحسب وانما هو أيضا كائنا تاريخيا ، فماهية الانسان تنمو في التاريخ وهذه حقيقة أقرتها المدارس العلمية وأقرتها الليبرالية والماركسية وسائر النزعات والمذاهب الاخرى ، وهو ــ أي الانسان ــ يبدع ويكون نفسه وسط ــ عالمه ــ القومي ــ أو الوطني ، أو حتى الامبراطوري أو الاممي ــ اذا جاز لنا التعبير ــ وقد شهد التاريخ نماذج للانسان التاريخي منذ العصر البابلي والفرعوني والاغريقي والروماني والعباسي حتى عصرنا هذا .

● والنموذج التاريخي للانسان له وجوه عدة بدءا من التشكيل الاقتصادي ــ الاجتماعي ــ والتشكيل النفسي ــ الاخلاقي ، والاسطوري والايماني والفولكلوري ، والتشكيل التقني والحرفي ، ولذا كان لعلماء الاقتصاد والاجتماع والنفس والتراث والسكان مجالات في هذا الصدد .. ولهذا السبب اعتبر البعث العربي الاشتراكي الامة العربية كائنا تاريخيا له حاجات وطموحات وبعد حضاري . وذات تبحث عن صيرورتها في البعد المستقبلي وفي تطوير الحاضر والافادة من الماضي « والنظرة المتعمقة ترينا أن

القومية ، وان كانت تتأثر وتتغذى بكثير من العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، الا أنها تظل أعمق من هذه العوامل وأرسخ قدما وأبعد غورا في التاريخ ، فهي من صنع أجيال وقرون وهي نتيجة تراكم طويل وتفاعل عميق أوصل الى خلق صفات مشتركة وروابط روحية ومادية بين مجموعة من البشر أصبحت هي الشخصية المعبرة عن هذه المجموعة وهي المجال الطبيعي والحياتي الذي تنطلق فيه هذه المجموعة في تحقيق انسانيتها »[٦٥] .

● ان البعثي الملتزم والانسان الذي يرى في البعث وجودا من أجل تقدم الانسان العربي ورقيه وتجاوز أزمة الامة الحضارية والتاريخية ينطلق في نضاله الاشتراكي والقومي موقنا أنه رائد انسانية جديدة وخالق عالم تسوده الحرية والمساواة يعم خيره العربي وغير العربي ، وهذه كينونة تاريخية لخلق العالم الجديد ينتقل فيها الانسان من العالم الطبقي الاستلابي الى العالم اللاطبقي العادل والذي تلغى فيه كافة عبوديات العهود الغابرة .

انها مرحلة نضالية تستخدم فيها الثورة لتفجير امكانات الابداع القومي ـ الانساني وتحقيق الوجود العربي في وعيه المرحلي التاريخي وصولا الى حضارة عربية شاملة ذات عطاء ثر وانسانية كاملة .

● هذا التفسير لفكر البعث في رأي العلم هو التفسير الصادق والعلمي ، ذلك ان فهم عناصر الكلية التاريخية للامة وعناصرها ومقوماتها ومتناقضاتها وصراعاتها وعوامل السلب والايجاب فيها والاعتماد على الطبقة العاملة ذات الثقل التاريخي والنضالي في الثورة والتطور ، ووعي المحيط الدولي وما تكتنفه من عوامل ومتغيرات وما تحكم به من أسباب اقتصادية وقومية ومذهبية وسياسية واجتماعية وطبقية وتكنولوجية و ... الخ .

هو تصور للقوانين الجدلية التاريخية التي يمكن لعلم البعث السياسي ـ الاجتماعي أن يطبقها على الامة العربية وعلى التطور الاجتماعي ، دون ان يصبح ذلك العلم مذهبا ، فالمذهب يتسم دائما بالعصوبية ، ومن سمات البعث الانفتاح على التراث العالمي والتوكيد على الحرية .

● والبعث ليس ميكانيكيا حتى يبني نظريته على مذهبية حتمية تابعة لقانون العلم الطبيعي ، فالنظريات التي بنت نفسها على صفة الحتم المذهبي ثبت أن تحليلها غير سليم فالمادة نفسها ليست مستقرة ولا ثابتة • و « لا تنفك المادة الصلبة أن تتحول الى اشعاع لا صلابة فيه ، ولا ينفك الملموس أن يتحول الى غير الملموس »[٦٦] كما أن العلم نفسه قد تغير بفعل النظرية النسبية ثم النظرية الكمية ــ ولذلك فان قوانين المجتمعات تصبح مذهبا براغماتيا اذا اتصفت بالحتمية الميكانيكية ولكنها تصبح قوانين علمية اذا اتسمت بالجدلية واكتسبت تلك الجدلية ليس من اعادة التكرار في القياس ولا من تمثل الجوهر المشترك في فترة تاريخية قديمة ، وانما من مفاهيم تحلل المجتمعات الواقعية ، وافساح المجال للضرورة التاريخية التي تنشئها الشعوب ، فالضرورة التاريخية ليست قائمة بمعزل عن الانسان والامة والقومية ، كما أنها ليست قائمة خارج زمانها ومكانها •

● ولهذا تعتبر الوحدة العربية ضرورة تاريخية والاشتراكية المطبقة على أساس مراعاة الخصائص القومية ، ضرورة تاريخية باعتبارهما متمايزان عن الحتمية الاشتراكية التي يفرضها النموذج الواحد الذي ذهب اليه الخط الستاليني فحول الضرورة التاريخية الى وثوقية لازمنية متجاوزا بذلك تنوع الخصائص وعمليات المضامين الاجتماعية للقوميات المضطهدة والمجزأة وجاعلا من الصيرورة التاريخية الصميمية للشعوب صيرورة مظاهر دولتيه ليس غير وتشكيل بنيات وصيغ منبثقة عنها وكائنة فيها •

« لقد أدرك حزبنا الخصائص للصراع الطبقي في بلادنا وفي كل بلدان اسيا وافريقيا التي خضعت للنظام الاستعماري »[٦٧] فليس فقط الرأسماليون والاقطاعيون هم أعداء الشعب العربي ، بل أيضا هم السياسيون الذين

يتمسكون بالتجزئة لانها تفيدهم شخصيا ، وليس هؤلاء فحسب بل أولئك الذين يسايرون الاستعمار بشكل من الاشكال وأولئك الذين يعادون الفكر والعلم والتطور والتفتح والتسامح والذين يقاومون أو يحولون دون تحرر أمتنا »[٦٨] .

● **ان البعث يعطي للصيرورة التاريخية** بعدا يكتسب قيمته من حاجات الانسان العربي ، ولذلك فالتاريخ عنده ليس سردا للوقائع ، فالتاريخ لديه هي جميع الجوانب ومستويات النشاط الانتاجي والعملي ومستويات العمل القومي وتكون الانسان ضمن هذه المستويات فمصير الانسان ان يمتلك أدوات انتاجه ويمتلك فعله وتاريخه ضمن قوميته وضمن انسانيته « واذا فهمنا القومية فهما ايجابيا سليما ، فاننا لن نراها ولن نقيمها على صورة تعزل الامم بعضها عن بعض وتوجد بينها الحواجز والاحقاد ، بل نراها في سبيل التفاهم والتعاون الواقعي المجدي بين الامم وسبيل التكامل والتنافس الايجابي لكي يكتمل المعنى الانساني بهذا التنوع ، ولكي تكتمل الحضارة الانسانية بهذا التخصص ، فبقاء القوميات لا يعنى تعذر قيام روابط انسانية أعلى وأوسع من الرابطة القومية »[٦٩] .

● ووفقا للبعث فان الوحدة الانسانية لا تقوم فقط بالضرورة الاقتصادية ولا بالترابط الجغرافي والتكتل السياسي أو الديني ، بل انها تقوم أيضا باشاعة روح السلم والتعاون ومناهضة الاستعمار واحترام الجزء للكل واحترام الكل للجزء ــ اضافة الى رابطة الثقافة في عصر السرعة وازالة الحدود وشيوع المعلومات والتكنولوجيا والعلم ،

الى جانب ذلك فان اكتمال الروح الانساني لا يكون بمعزل عن الشخصية القومية ، فأكتمال ذلك الروح يعبر عن نفسه بواسطة الشخصية القومية

التقدمية في الوجود التاريخي ، واذا نظرنا الى المستقبل بدلا من الماضي فاننا سنجد في الافق تجسد هذا الروح الانساني الحضاري القريب من القواعد الاساسية للصيرورة التاريخية وتقدمها الانساني العظيم .

ووحدة و « حرية الامة العربية تحرير للعالم والانسانية واشتراكية الامة العربية تحرير للاشتراكية من سجن التبعية وفقر القالب الواحد واخصاب لها بخصائص الشعوب المتنوعة ، وارواء لها من معين الواقع الحي .

وحدة الامة العربية هي في خدمة رسالتها الى الانسانية وشرط ضروري لاداء تلك الرسالة ، والكلمة الاخيرة في تحقيق ذلك هي في : التجدد ، لأن التجدد هو ارادة الحياة ، وارادة البقاء والارتقاء ، ولأن هذه الارادة اذا انطلقت ملء قدرها ، يجرف سيلها ما تبقى من عوائق ، رجعية وقطرية وعقلية فوقية ، فيكون ذلك هو التعبير الصادق عن اصالتنا وحقيقتنا »[٧٠] .

مصــادر الفصــل السادس

(١) راجع ريتر « تطورة المعرفة التاريخية » ص ٣٨٢ — ٣٨٨ عن كتاب في المعرفة التاريخية أرنست كاسيرر ص ٧٦ .

(٢) ص ٨١ في المعرفة التاريخية .

(٣) ابن خلدون المقدمة ص ٣٤٢ — وما بعدها و ٣٠١ وما بعدها .

(٤) ص ٩٣ في المعرفة التاريخية أرنست كاسيرر .

(٥) ص ٩٨ في المعرفة التاريخية أرنست كاسيرر .

(٦) ص ٩٩ في المعرفة التاريخية المرجع السابق .

(٧) يمكن الاطلاع على آراء توينبي في

Arnold Tonynbee, Historian's Approach to Reifgion London 1965.

(٨) ص ٧٥ في المعرفة التاريخية المرجع السابق .

(٩) راجع : منهاج توينبي التاريخي ، فؤاد احمد شبل ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٩٦٨ .

(١٠) ص ١٠٠ العالم والغرب ، آرنولد توينبي ، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز ط أولى ، ١٩٦٠ ، المكتب التجاري ، بيروت .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) صدام حسين ، نضالنا والسياسة الدولية ص ٩٥ .

(١٣) ص ٧٠ — ٧١ الابعاد الفكرية والنضالية لتأسيس البعث ، د . الياس فرح ، الكلمات بين الاقواس عن سبيل البعث ط ٧ ص ٩ و ٦٥ — ٦٩ و ٧٠ .

(١٤) ص ٢٣ البعث العربي ضرورة تاريخية .

(١٥) راجع معنى اكتشاف البعث للاسلام في ـ ذكرى الرسول العربي والبعث والتراث ١٩٧٦ ط الاولى ، ميشيل عفلق ، وبخاصة الفقرات الخاصة بالدين الاسلامي كثورة ، الصفحات ٨٣ ـ ٨٧ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٧ الى ٣١ ـ ٤٤ الى ٥٤ ـ ٩٠ الى ٩١ .

(١٦) ص ٩٠ صراع العرب خلال العصور ، محمد عبدالغني حسن مؤسسة المطبوعات الحديثة ـ القاهرة .

(١٧) ص ٣٠ العالم والغرب آرنولد توينبي ، المرجع السابق .

(١٨) ص ٩١ صراع العرب خلال العصور ، المرجع السابق .

(١٩) ص ٢٥١ ـ في سبيل البعث ، ميشيل عفلق .

(٢٠) ص ٢٣٦ في سبيل البعث ط ٢ .

(٢١) ص ٣ ـ ٤ ـ الابعاد الفكرية والنضالية لتاسيس البعث ، د . الياس فرح ط الاولى ١٩٧٥ .

(٢٢) الكلام أعلاه لا يعني العلمانية بمفهومها الغربي . اذ أن فهمنا للدين يعتمد على تفسير البعث واحاديث القائد المؤسس وبخاصة ما جاء في البعث والتراث وذكرى الرسول العربي .

(٢٣) ص ٤ ـ ٥ الابعاد الفكرية والنضالية ، المرجع السابق .

(٢٤) ص ٤ ـ ٥ الابعاد الفكرية والنضالية ، المرجع السابق .

(٢٥) ص ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ الابعاد الفكرية ، المرجع السابق .

(٢٦) ص ٢٠٩ في سبيل البعث .

(٢٧) راجع واقعية بلا ضفاف ، روجيه غارودي بالعربية .

(٢٨) ص ١٠١ نضال البعث الجزء التاسع .

(٢٩) ص ٢٥ المنهاج الحزبي ، المرجع السابق .

(٣٠) ص ٣٠ في المركزية الديمقراطية / سلسلة الثقافة الثورية رقم ١١ .

(٣١) ، (٣٢) ص ١٦ وص ١٧ صدام حسين ، نضالنا والسياسة الدولية .

(٣٣) ص ٩٥ تطور الفكر الاشتراكي للبعث ، د . الياس فرح .

(٣٤) ص ٩٧ تطور الفكر الاشتراكي للبعث ، د . الياس فرح ، المرجع السابق.

(٣٥) ص ١٣٢ نقطة البداية ط ٢ ، ميشيل عفلق .

(٣٦) ص ٤٤ الماركسية والمسائل النظرية للحزب السياسي ، لوتشيو ماغرى مجلة دراسات عربية ، العدد الخامس اذار ١٩٧١ .

(٣٧) منعطف الاشتراكية الكبير ـ روجيه غارودي ترجمة اديب اللجمي و د . كمال الغالي .

(٣٨) ص ٦ ـ ٧ في الفكر الاشتراكي ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٣ .

(٣٩) ص ٤٧ لوتشيو ماغرى ، دراسات عربية ، المرجع السابق .

(٤٠) ص ٥٢ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٤١) ص ٣٨ ـ ٦٣ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٤٢) ص ٤١ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٤٣) ، (٤٤) ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٥٥ ـ الثورة العربية جريدة الحزب الداخلية ، العدد التاسع سنة ١٩٦٩ لكي لا يتحول الكادر الحزبي الى طبقة جديدة.

(٤٥) ص ٧٨ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٤٥) عالج كتاب (الحزب القائد في النظرية والتطبيق هذه الجوانب) .

(٤٦) ، (٤٧) نقطة البداية ، ميشيل عفلق عن ، البعث والاشتراكية ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٤٨) ص ٥٧ ثورة الطريق الجديد ، طارق عزيز .

(٤٩) ص ٥١ ثورة الطريق الجديد ، طارق عزيز .

(٥٠) ص ١٨٠ معركة المصير الواحد ط ٧ ميشيل عفلق .

(٥١) ص ٧٣ ثورة الطريق الجديد ط ، ع .

(٥٢) ١٧٦ البعث والاشتراكية ميشيل عفلق .

(٥٣) ، (٥٤) صدام حسين في حديثه الى سفراء الجمهورية العراقية في دول أوربا الغربية واليابان ١٢ـ٦ـ١٩٧٥ .

(٥٥) ص ١٦ صدام حسين ، نضالنا والسياسة الدولية .

(٥٦) ص ١٦ صدام حسين نضالنا والسياسة الدولية .

(٥٧) ص ٦ آفاق عربية العدد ١٠ سنة ١٩٧٨ ، صدام حسين : حول اقامة الاشتراكية في قطر عربي واحد .

(٥٨) ص ٣٥ ـ ٣٦ بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس طبعة ١٩٦٥ .

(٥٩) ص ٤٣ البعث والوحدة ميشيل عفلق ط الثالثة ١٩٧٥ .

(٦٠) ص ٤٢ ـ ٤٣ بعض المنطلقات النظرية ط ١٩٦٥ .

(٦١) ص ٣ عن مواقف الحزب ومواقف الدولة ، صدام حسين .

(٦٢) ص ٨ عن مواقف الحزب ومواقف الدولة ، صدام حسين .

(٦٣) ص ١٤ البعث والوحدة ، ميشيل عفلق ، المرجع السابق .

(٦٤) اليعاقبة جماعة سياسية كانت تجتمع في غدير للآباء اليعقوبيين ـ الدمينكان ابان الثورة الفرنسية ، وقد اشتهرت بالتطرف الثوري اللامحدود مما قربها من العدمية (النهيلستية) وسمى عهدها بعهد الارهاب الثوري ، انتهت سلطة اليعاقبة عام ١٧٩٤ بعد اعدام اشهر زعمائها « روبسبير » .

(٦٥) ص ١٤٣ ـ ١٤٤ معركة المصير الواحد ط ٧ ميشيل عفلق .

(٦٦) ص ١٣٥ الحتم والحرية في القانون العلمي ، أحمد ابراهيم الشريف .

(٦٧) ص ١١ بعض المنطلقات النظرية ط ١٩٧٤ دار الطليعة ، بيروت .

(٦٨) في سبيل البعث ط ٢ ص ٢٢١ .

(٦٩) ص ١٤٤ معركة المصير الواحد ط ٧ سنة ١٩٧٥ .

(٧٠) ميشيل عفلق ، في الذكرى التاسعة والعشرين للمؤتمر الاول ٦ـ٤ـ١٩٧٦ عن البعث والتراث ص ١١٨ ـ ١١٩ .

الفصل السابع

الرمي والقياس

المبحث الاول : ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ مرحلة اختبارية

● يتلخص موضوع هذا الفصل في أربع قضايا ، الاولى : ـ هي ان ثورة تموز حالة اختبارية لمبادىء حزب البعث العربي الاشـــتراكي كأيديولوجية ، فالحالة الاختبارية لا يطلق عليها الاسم من الخارج أي قبل الحدث ولكنه يطلق بعد الحدث ومن داخله ، والحالة الاختبارية كما هو معلوم ذات أهمية كبرى في ميدان العلوم السياسية تعتمد على الوقائع ، أما المحتوى التجريدي وأنماط العمل النظري فوزنها ضمن نطاق المدركات وليست الوقائع ، رغم أن العلوم السياسية لا تعزل الوقائع عن القضـــايا المتعلقة بها من اقتصادية او سكانية أو اجتماعية أو ديموغرافية و ... الخ اضافة الى المعتقدات والافكار المتعلقة بالوقائع .

والحالة الاختبارية بمقياس التاريخ نجاح فعل وحدث وصيغة تجريبية بمعنى أنها تفسير للايديولوجية بشكل من الاشكال وفقا للمقدمات النظرية لأن السياسة في الحالة التطبيقية بحث في طبيعة الاشياء القائمة أو التي ستقوم اجتماعيا واقتصاديا وانسانيا وقوميا ، فالواقعة السياسية تصبح خارج عجلة الزمن اذا لم تكن دليلا على حدث تاريخي ، ولا أقصد بها أن الواقعة السياسية تجريبية بحتة فهذا ما دحضناه سلفا ، وانما أقصد أن الواقعة السياسية الفذة حدث تاريخي اختباري تنطوي على معايير ومقاييس قابلة للتناسق .

الثانية : هي أن البعث في ثورته في القطر العراقي استطاع أن يبني حقيقته الجزئية في صيرورة الهدف الكلي العام ولذلك فهو يعتبر الكلي ليس التزاما نظريا فحسب وانما التزاما عمليا .

الثالثة : ان واقع الوطن العربي خليق بأن يكون متباينا ومغايرا عما عليه حاضرا لولا ثقل القطر العراقي وثورة البعث .

الرابعة : أن ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ كانت منتصرة بزعامة القيادة السياسية وبمجهوداتها التي استطاعت أن تدرك توجهات الجماهير وأزمة الامة العربية الحضارية والتاريخية .

القضية الاولى من الموضوع :

● ان ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ التي حطمت الحكم الرجعي العارفي واتجهت الى ادخال الثورة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القطر العراقي كانت ثورة مخططة ومدروسة ، لكنها في نفس الوقت كانت ضرورة تاريخية ، بمعنى ان الثورة وعي الامة لذاتها . والحزب حدد ذلك الوعي بقدرة الطليعة على الفعالية وقدرة الجماهير على الحركة وبالتالي رسم ستراتيجية قوامها الكادحون والطبقات المسحوقة التي تعترض على المؤسسات الرجعية وتنكرها واقامة سلطة الثورة . وهنا كما يعتقد يطرح السؤال التالي ، كيف كانت ثورة السابع عشر من تموز مخططة ومدروسة ومعدة وهي في ذات الآن ضرورة ومتوقعة تاريخيا ؟.. يمكننا بسهولة ايضاح ما يبدو تناقضا ظاهريا ..

● بينما كانت جميع الاحزاب والفئات والحركات السياسية تدور في حلقة مفرغة لاقامة علاقات حسنة مع النظام العارفي وفي نفس الوقت مناقضته الى حد ما ،... هذا الموقف قد أوقعها في حلقة مفرغة ، فالنظام العارفي الذي لا يمتلك سندا شعبيا كان نظاما أوتوقراطيا . وكان سقوطه متوقعا بين ليلة وأخرى ، نظرا لكونه نظاما رجعيا الى جانب ضعف قدراته وخياناته للقضايا الوطنية والقومية ، الا ان احتمال سقوط النظام كان متوقعا على أيدي فئة عسكرية يحتويها النظام نفسه .. اذ ان امكانات الجماهير الذاتية كانت مبعثرة ومتشرذمة نظرا لمواقع الحركة الوطنية وتاريخ صراعاتها المعلومة للجميع . اضافة الى ما أعقب هزيمة حزيران من عوامل نفسية ساعدت النظام العارفي في

اشاعتها والتعويل عليها ، مما حد من قدرات الجماهير التي أوقعت في أزمة التبرير التي لجأت اليها النظم البورجوازية الصغيرة .

● ان ظاهرة ــ الانكفاء ــ لازمت الجماهير لفترة معينة بعد الهزيمة ، لكن الجماهير كانت تعرف أين تضع ثقتها ؟.

● ورغم ان حزب البعث العربي الاشتراكي كان يعانى من تحالفات عربية ودولية وقطرية معادية له تقودها الرجعية العربية بعد ردة ١٨ تشرين ١٩٦٣ فـ « وصلت الى السلطة أكثر القوى يمينية ودكتاتورية وتخلفا منذ ١٤ تموز ١٩٥٨ وأكثرها ميلا الى مهادنة الاستعمار وفتح المنافذ للتسلسل الرجعي ومعاداة الديمقراطية والافكار والتطبيقات التقدمية »[1] .

اضافة الى نكسة الحزب في ٢٣ شباط ١٩٦٦ عندما « أقدمت الزمرة الشباطية في القطر السوري على تدبير انقلاب عسكري ضد سلطة الحزب المتمثلة بالقيادة القومية »[2] .

الى جانب ذلك كان الشيوعيون في العراق وفي أقطار عربية أخرى يواصلون التشكيك بالحزب ومواقفه وقدراته وجماهيره وتحالفاته ، وقد أثار الكثيرون الضجيج والتزييف والاباطيل بأساليب مفتعلة وملفقة ضد الحزب ودوره التاريخي في وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسورية مثلما أثاروا عاصفة هوجاء ضد تجربة ٨ شباط ١٩٦٣ في القطر العراقي موجهين لها سهام النقد الزائف والافاعيل الكاذبة ، وقد فصلت الابواب الاولى من التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ١٩٧٤ أوضاع الحزب قبل ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ وهي معروفة بداهة ،

● الا أن ما يقال في الظروف والازمات والانشقاقات التي واجهها حزب البعث العربي الاشتراكي أنها كانت قاسية وجارحة وذات وزن تاريخي وتنظيمي مؤذ ، لكن الحزب واجه كافة الظروف مجتمعة ، واستطاع أن يستعيد ثقة الجماهير به ، ويتصدى للانشقاقيين ويواجه السلطة الرجعية في الوقت الذي

استطاع فيه ان يطبق مبادءه وشعاراته في تمكن ثوري واقتدار ذاتي وجماهيري بارع ٠

وفي عام ١٩٦٨ أي بعد مرور سنة واحدة على هزيمة حزيران ١٩٦٧ لم يكن هناك أحد يحلم بالثورة على غرار ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ على أساس أنها ثورة ممكنة واقعيا ، اذ أن غالبية ــ ان لم نقل جميع الاحــزاب الوطنيــة والحركات القومية والتقدمية كانت غارقة في متناقضاتها نفسها تاركة الجماهير وسط المعمعة بدون مرشدين وادلاء ، وظل الامر كذلك حتى قبل حزيــران ١٩٦٧ اذ أن غالبية الاحزاب كانت تفتقر الى الدقة في تمييز ــ اللحظة التاريخية الحرجة ــ وقيادة مهمات الجماهير الوطنية والقومية ٠

أما حزب البعث العربي الاشتراكي فقد طرح على نفسه سؤالا دقيقــا وتاريخيا « ما العمل ٠٠ اذن للخروج من هذه الاوضاع ؟ »[٣] ، وبخاصــة والوضع العارفي المتداعى ينبىء عن الاختنــاق والموت المفاجــيء ٠ وكذلك فالامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة كانت ترشح القطر العراقي لانقلاب رجعي دموي ، يستطيع تصفية أي تحرك جماهيري ومد قومي يساري ، فقد لمست الولايات المتحدة في حينه ان غالبية الجماهير الكادحة في العراق مرشحة لان تكون وسطا أو بيئة صالحة لنمو مد شعبي واسع ، بعد صدمة هزيمــة حزيران وبدء مرحلة تأسيس جديدة للثورة العربية « اضافة الى غيرها مــن الاحتمالات التي كانت تعنى في حالة وقوعها سحق الحزب والحركة الوطنيــة برمتها واعادة العراق الى أوضاع تشبه ما كان عليه قبل ١٤ تمــوز ١٩٥٨ ، وتحويل موازين القوى في الوضــع العــربي لصالح الامبريالية والقــوى الرجعية »[٤] ٠

● عندها قرر الحزب تسلم السلطة في العراق وكان ذلك غير متوقع !٠٠ لماذا ٠٠٠ لأن الوضع النفسي ، والوضع السياسي في خريطة الحركة السياسية لم تدخل ــ الثورة ــ ضمن حساب الوضع الملموس ، اضافة الى كون الثورة خيالا جامحا ، اذ أن العراق كان وسط بحر متلاطم من الرجعيــة وكان المــد

الامبريالي الصهيوني الرجعي في الساحة العربية في أعلى الذرى بعد هزيمة حزيران والسنوات التي سبقتها .

فقد انتكست الوحدة بين مصر وسورية ، وانتكست ثورة ٨ شباط ٦٣ في القطر العراقي واستطاعت الامبريالية احتواء ثورة السودان وتفجير المتناقضات القبلية في اليمن وضربت ثورة ١٩٦٢ ، وبعثرت القوى الجماهيرية في المغرب العربي ، وأخذت الجماهير العربية تشعر بما يمكن تسميته بالقصور الذاتي حسب التعبير السياسي والاجتماعي[٥] .

● لذلك كانت ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ مفاجأة للجميع رغم مداخلاتها وتشابكاتها التي كشف عنها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ص ٢١ الى ٢٧ (ثورة ١٧ تموز التجربة والآفاق) وخططها « الفنية » والملابسات التي اكتنفت بعض الجوانب حتى ٣٠ تموز ١٩٦٨ واقصاء زمرة النايف ـ داود .

● وبهذا كانت ثورة تموز مخططة ومدروسة بدقة ، لكنها وان كانت غير متوقعة ومفاجئة فهي ذات صلات موضوعية بالواقع المحلي ـ القطري، والواقع القومي ـ العربي ، لأن ثورة تموز ١٩٦٨ لم تنزل من علٍ أي لم تنزل من فوق ولم تقم بها مجموعة مغامرة أو مجتثة الجذور اجتماعيا أو سياسيا أو طبقيا أو قوميا ، فهي وان لم تقترن بالاضطراب الثوري التاريخي كالذي ساد الساحة العربية في الاربعينات ابان عهد معاداة ومحاربة الاستعمار وتأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، أو في الخمسينات عندما برزت الثورة المصرية في مواجهة الاستعمار البريطاني ، والتي وجد فيهما البعث مسارا من مساراته مؤقتا وانطلاقة من انطلاقاته فانها ـ أي ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ـ لم تكن بمعزل عن الاضطراب الثوري التاريخي الكبير ، لقد نشأت به وبوساطته وداخله ، فاذا كانت ثورة ٢٣ يوليو ـ تموز ـ ١٩٥٢ في مصر النتيجة الاولى للاضطراب التاريخي والازمة التي تمر بها الامة العربية ، فقد كانت الوحدة بين مصر وسورية النتيجة الثانية ، وثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ النتيجة الثالثة ، وكذلك ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ .

● أما وقد انحرفت وحدة ١٩٥٨ اذ « كانت الطليعة العربية الثورية تعيش أعمق وأعنف أزمة في تاريخ نضالها ، لقد أسهمت في صنع حدث تاريخي عند قيام الوحدة بين مصر وسورية ، واذا هي تصاب بعد زمن قليل بخيبة أمل كبرى نتيجة التشويه والتزييف اللذين دخلا تطبيق هذه الوحدة »(*) .

كما أن ثورة تموز ١٩٥٨ أنحرفت وأصبحت تحت طائلة الحكم العسكري الفردي واغتيلت ثورة ٨ شباط وثورة سورية واكتسح العدو الصهيوني القوات المصرية والسورية والاردنية واحتل الجولان وسيناء والضفة الغربية . فأن الازمة التاريخية للامة العربية قد اشتدت وآن اوان تفجير ثورة في العراق .

● لقد سبق لنا تحليل الازمة التاريخية جزئيا بمعناها الفلسفي والقومي والطبقي ورأينا أن الوضع التاريخي للامة العربية يمثله الاضطراب التاريخي الكبير وكل المتتبعين والدارسين بله غالبية الجماهير تعلم وتعيش أثقال وأبعاد أزمة الامة وواقعها ، ولطالما شعرنا بعمق المأساة التي هي جزء من الحياة اليومية للاجيال السابقة التي عاصرت تمزيق الامة العربية بعد الحرب العالمية الاولى وحلول عصر الانتداب(٦) كما أصبحت جزءا من حياة الاجيال اللاحقة بعد تأسيس الكيان الصهيوني ١٩٤٨ وبلقنة الاقطار العربية وتثبيت تلك البلقنة ودعمها بمقومات سياسية واقتصادية واجتماعية ، اضافة الى تدعيم (الذات القطرية والصراع الطبقي القطري) والبنى الاجتماعية القطرية ــ الاقليمية ومحاولة اقامة خصائص نفسية اقليمية ، ودعم انظمة الحاجة المحلية وأنماط الانتاج الاقليمية المنفصلة قوميا ، والتصنيع والتنمية المنفصلان قوميا ، والحواجز ذات العلاقات الاستمرارية ، والثورات المجهضة والثورات المفتعلة وضرب القوى الثورية العربية ببعضها البعض وأيجاد (قطيعة) في مفاهيم التاريخ والايديولوجيا في كثير من الاقطار العربية .

● هذه الجماهير كانت تخيف الحكومات العميلة ، تقاتل في الشوارع ،

---

* ص ٢١٨ معركة المصير الواحد ــ ميشيل عفلق

وتهتف في السجون ، وتصارع السلطة ، وتهز العروش ، وتحبط مناورات الدول الاستعمارية الكبرى وتسقط الاحلاف وتدفع الاساطيل الحربية الى الجلاء ، كانت تمارس الاضرابات في المدن والثورات المسلحة في الارياف وتقدم الاضاحى تلو الاضاحى هذه الجماهير أدخلت في سلسلة من المناورات ولعب البلف واللف والدوران وكافة أشكال فنون الحيل السياسية(٧) حتى اضمحلت فيها روح المباشرية والحركة والتضحية ، وباتت الجماهير العربية ممزقة الجهود ولم يعد ممكنا توحيدها في ظل أوضاع اقليمية تسبغ على نفسها صفات (الثورية ـ العقائدية ـ والتقدمية والشعبية ، والحرب الطويلة المدى ، والوحدوية ، والتعاونية ، والديمقراطية والعلمية و ... الخ) .

● هذه الجماهير أصبحت تابعة لهذه السلطة أو تلك ، تجد في مؤسسات الدولة وسيطا لها للتعبير عما تستشعره ولما كانت ـ الدول ـ العربية ، تجد ان السفسطة تقتضي أن يكون « الناس على دين ملوكهم » فانها استعملت كل مدخرات الاعلام والتكنيك وفنون وسائل الاتصال بالجماهير في غسل الادمغة، وتعبئة الجماهير في التأييد ، الاجتماعات ، المظاهرات ، البرقيات ، الخطب الشعر ، الادب ، الاحزاب ، الحركات .

● في وسط هذه المظاهر المأساوية جاءت ثورة ١٧ تموز لتعيد الى الواقع العربي حيويته وللجماهير مباشريتها وتدفع ذلك الواقع الى الخروج من الازمة التاريخية والظواهر المرضية التي تعتاش عليها قوى الرجعية والقوى الدكتاتورية بتشجيع من الامبريالية والصهيونية « ان الامبريالية وغيرها من الظواهر التاريخية شأنها شأن الكائنات الحية تزداد شراسة في مراحل التشبث بالحياة والبقاء ، ان امكانيات النهضة العربية وما تعني من سيطرة العرب على زمام مصيرهم وعلى مواردهم الحيوية ، باتت مسألة مركزية في السياسة الامبريالية الامريكية ، ومن هنا سخرت ما تملك من طاقات تآمرية هائلة ومن قدرة على الترغيب والترهيب ومن تحالفات وعملاء لاحتواء النهضة العربية التي اوشكت ان تنطلق لتجميدها واجهاضها بل ولاستخدامها لخدمة أغراضها ومراميها »(٨).

النتيجة الاولى لثورة ١٧ تموز

● ان ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ليست ثورة اعتيادية بالمعنى التقليدي ، أي أنها ليست ثورة داخل نظام ، وانما ثورة ضد نظام ومن هنا أهميتها التاريخية ولما كانت الثورة ــ أية ثورة ــ تكون مجهولة من ناحية امكاناتها وقدراتهـا واتجاه سيرها من قبل الناس الذين لا ينتمـون اليها ، لكنها عندما تجسـد امكاناتها وطاقاتها في الحياة العملية وفي الممارسـة الاجتماعية والاقتصاديـة والثقافية فانها تفصح عن نفسها وعن صيرورتها • وبذا تكون معطى يكشف عن عمقه شيئا فشيئا ، بحيث تتجـاوز الوصف اللفظي والوصف الصوري وصولا الى الجدل الذي لا يعين له حدا في المكتسبات والمنجزات القائمـة او حتى لا يعين له حدا في دولة الثورة القائمة ، اذ أن الثورة عندما تتجمـد أو تتكلس فانما تحطم اكثر افكارها عمقا ، فتغدو الصيرورة فيها ذات آفاق زمنية محدودة ، وثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ تتميز بالقدرة على توزيع فعاليتها والاعلان عن نفسها باعمالها ، فالزمن هو موضوع المعرفة ، والمنجزات والمكتسبات لهما المكان الاول فيه ، لكن الثورة ليست تابعة للزمن ، وانما الزمـن تابع لها ، فقوانين الجدل العلمي ، تشير الى ان النمو في الزمن بعفوية يقود الى النمـو الكمي ، اما النمو في الزمن ، ضمن وضع الزمن في الصيرورة نفسها ، فيؤدى الى النمو الكيفي •

● وهكذا فعلت ثورة ١٧ تموز عندما جنبت نفسها الوقوع في اسـر الزمن اذ ان الزمن التقليدي الرتيب يقود الى التشخيص العياني لحركة الواقع• دون أن يجعل لفعالية التحكم بالزمن دورا بارزا •

● أن ثورة ١٧ تموز استطاعت كنتيجة اولى ان تتحكم بالزمن ، وان تعيد الثقة الى الجماهير العربية بنفسها وامكاناتها وتجعل تلك الجماهير قادرة على المواجهة وصنع الاحداث • وهذه لوحدها قدرة في صنع التاريخ ، ومرحلـة اختبارية اثبتت النجاح فاذا كانت الحكومات او الدول في الوضع العربي قد حلت محل الجماهير ، وان الجماهير قد اممت أو صودرت لمصلحة الدول ، فان

ثورة ١٧ تموز استطاعت ان تخترق هذا الجدار فتعيد للجماهير القــدرة في الحركة والفعالية ، ولهذا السبب اصبحت الجماهير العربية تنظر الى ثورة ١٧ تموز كملاذ وأمل وقلعة للتحرر والانعتاق ، ولا نغرن انفسنا اذا رأينا الجماهير العربية ساكتة في قطر عربي ما ، فان ما تضمره هذه الجماهير ليس مرصودا عن طريق ما تقيمه الحكومات والدول من مظاهرات مؤيدة لها ، وانما الجماهير قوة جبارة لا تستطيع امتلاكها حكومات او دول تضــع الموجــود القومي والانساني والطبقي لتلك الجماهير في رفوفها وملفاتها ومصالحها الخاصة • وكأنها قناع تستثمر به البشر •

ان الجماهير في الاقطــار العربيــة قد تتعرض الى الاضطهاد والعسف وبالنتيجة قد تنتكس مرة وثانية وثالثة ، لكنها لا تضمحل ولا تباد ، فهي تنمو ضمن الواقع المعاش • وتنمو حركتها بأتجاه الوحدة والحرية والاشتراكية ، وتفصح عن نفسها في الوقت الذي تجده مناسبا ، وبخاصة في الاوقات التي تتجسد فيها الازمات وتتجسد فيها المواجهة •• وهذه العفوية الجماهيرية قد تكون عفوية ، غير منتجة لاثر حاسم ، ومن اجل ذلك ،

ولتوحيد العفويــة او المباشرية الجماهيريــة مع التنظيــم الطليعــي ــ الحزب ــ وضع حزب البعث العربي الاشتراكي وثورة ١٧ تموز المعادلــة الصحيحة في الرهان على الجماهير بواسطة الادراك الثوري السليم للواقــع الحسي الملموس والواقع الذاتي للجماهير ، فالواقع المحسوس يتكون مــن مواضعات اقتصادية ــ اجتماعية ــ قومية ــ طبقية ، أما الواقع الذاتي فيتكون من الفعالية الثورية للتغيير ، وهــذه استعادة للجانب المدرك الذي حاولــت الامبريالية والصهيونية والرجعية والحكومات البورجوازية الصغيرة طمسه بل دكه دكــا •

● ان ثورة البعث في القطر العراقي أظهرت بنجاح قدرتها على اناطــة الانسان العربي بتغيير ظروفه ومأساته القومية والتساؤل في ما اذا كان بوسع ثورة ١٧ تموز وحزب البعث بلوغ حقيقة موضوعية بهذا الشأن ؟•

ليس التساؤل هذا تساؤلا نظريا ، فعلى كل ثورة وكل حزب ثوري أن يقيم الدليل على الحقيقة ، على الناحية الواقعية ، واقعية فكره وعمله وقدرته داخل الممارسة الثورية ، ولذلك فهو تساؤل عملي •

النتيجة الثانية

● ان ثورة البعث تجيب على التساؤل اعلاه ، بأن الثورة كمعرفة تاريخية لا تدرك مداها الا بالفعالية العملية ، ولا قيمة للتنسيق الفكري المجرد والحضور النظري والبرهان الايديولوجي ، المنفصل عن الفعالية العملية •

● هذا المعنى الايجابي أكدته ثورة ١٧ تموز بربطها الايديولوجية كبنية نظرية تاريخية بالعمل الفعال ، ولعل ابرز ما أكدته ثورة ١٧ تموز من خلال التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ما يلي :

١ ــ « تحديد سمات المرحلة ومهماتها على الصعيد القطري بانها مرحلة تحرر وطني ديمقراطي تهيء مستلزمات التحويل الاشتراكي •

٢ ــ « الترابط الجدلي القائم بين مهمات النضال الوطني والقومي •

٣ ــ « الترابط الوثيق بين حلقات سلسلة النضال الوطني وعدم الوقوع في خطأ المبالغة في حجم واحد من مهمات هذا النضال وطرحها كبديل او معوض عن المهمات الاخرى •

٤ ــ « العلاقات الاستراتيجية والمبدئية بين الثورة العربية والثورة العالمية »[٩] أن تعيينات الممارسة الثورية من خلال نصوص وأدبيات ثورة ١٧ تموز تربط الستراتيجي بالايديولوجي ، والجماهيري بالتطبيقي ، واخضاع القيمة للحدث سلبا أو ايجابا على ارتباط الحدث نفسه بالجماهير وبقضايا الامة العربية •

● هذه النتيجة الثانية ، أكدت أن اختبار الثورة تاريخيا كان ناجحا ومتفوقا في النجاح ــ وبذا دفعت الثورة برصيد ضخم للجماهير العربية لتقيم

تلك الجماهير الاحداث وتحكم عليها بعلمية وموضوعية ، ولقد ركزت ثورة ١٧ تموز المقاييس العلمية والموضوعية ، وتلك سمة من سمات الثورية الاصيلة الصادقة ، أما فقدان المقاييس والالتهاء بالسياسة وألاعيبها ومناوراتها كمقياس ومعيار ، فهي صفـــة من صفات اليمين البورجوازي ذلك اليمين الذي يقدس الذرائعية والنفعية ويجعل الوسائل المخادعـة فوق الانسان وفــوق القضايا القومية والاجتماعية .

النتيجة الثالثـة

لقد تميزت ثورة ١٧ تموز بالتحليل المركب للاحداث السابقة والحاضرة فهي لم تنشد الى ممارسات واحدية الجانب ، وبذلك تخلصت من الانشداد الى المواقع الذاتية واستطاعت أن تميز بين الموضوعي والذاتي ، وبين الجزئي والكلي ، وبين التناقض الثانوي والتناقض الرئيسي ، وحزب البعث العربي الاشتراكي « كان على الدوام يحلل تجاربه وممارساته بمنظار ثاقب يســتلهم الايجابيات في ذات الوقت الذي يرصد السلبيات والاخطاء ، منطلقا من أن وضع اليد على الخطأ هو أول خطوة على طريق الصواب . وبذلك تجنـب الحزب ـ منذ نشــوئه ـ وعلى امتداد سني نضاله ـ الانحــدار في منزلق تكريس الممارسات الخاطئة الذي يشكل ظاهرة مرضية كثيرا ما تؤدي الى عزلة الحركة الثورية عن الجماهير نتيجة اغفالها تناول تجاربها النضالية بالنقــد والتحليل وبالتالي اغراقها في ترديد شعارات عمومية ومحاولة اظهارها بمصاف النصوص المقدمة التي لا تطالها يد التطور ولا تنالها المتغيرات »[١٠] .

● هذه التناولات النقدية لا تعني الا تقديس المجدي للانسان العربي والمجدي للثورة وقيمها ومقاييسها وتعميق" لقيم الايديولوجية الثورية للبعث فهذه الايديولوجيا تعيد أبعادها وعمقها وشموليتها عندما تنقد الممارسات الخاطئة دون أن تتخلى عن قيمتها ، فالسياســات المرحلية الجزئية ليست الا تقنيات جزئية لا تلبث أن تمر . أما الشمولية للنظرية الثورية فترى أن الواقع

والنتائج يجب أن تفيد المحصلة النهائية دون أن يحصل تأرجح بين الموضوعي والذاتي ، وبين الاختباري والحقيقي ويكون المحذور هنا أن السياسة تعطى للممارسة طابعا براغماتيا ــ ذرائعيا ــ وتعطى للدولة ممارسة بيروقراطية وتكنوقراطية وتسوغهما •

● ولذا فان ثورة ١٧ تموز تعطى الممارسة الثورية للسياسة صفة القيمة الخلاقة لعالم الحقيقة وليست سمة ميكيافيلية تمنح البراغماتية شهادة امتياز في الثورية كما فعل ستالين مثلا ، فالسياسة لدى ثورة تموز تتميز بالذود عن المبادىء والقيم التي تكافح من أجلها الدولة وأجهزتها والحزب وهيئاته وشعبه وفرقه وخلاياه ووسيلتنا للحكم على خصيصة الثورة تقوم قبل كل شيء على ما تساهم به في جوهر السعادة الانسانية لمواطنيها ، ونحن لا نعني بالسعادة الانسانية الرغبات الذاتية ورغبات الاشباع المادي لأن رغبات الاشباع المادي والذاتي لا تقف كلها على قدم المساواة والصحة حتى من جهة شرعيتها •• وعليه فان الثورة تقوم على واقع تحدد فيه نفسها وقيمة أهدافها العليا ومن ثم فان الربط بين السياسة ــ كوسيلة ــ وبين الاهداف يجعل الثورة ترسي نفسها بدعائم واقعها الذي تبنيه •

● وبذا فان مساهمتها في السعادة الانسانية لمواطنيها قائمة بأفعال الثورة المتضمنة وعي الجماهير الكادحة ومصالحها الطبقية ، وهذا لا يتأتى الا بالصدق والاخلاص « للحقيقة والايمان بوحدة الفكر والممارسة »[11] •

● لقد أثبتت أساليب ووسائل ثورة ١٧ تموز المتولدة عن مبادىء البعث ، انها سلوك لانجاز مهمات على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي من خلال منهجية متصلة الحلقات ، ولذلك فالمرحلة الاختبارية ليست قيمة احتمالية بالمعنى الوضعي ، وانما قيمة تستمد مصادرها من قدرة الثورة على التواجد داخل الطبقة العاملة وداخل الشعب والمجتمع وقيادة ذلك المجتمع بواسطة ــ الحزب ــ الطليعة ــ عن طريق جدل عيني استطاعت فيه

الجماهير من خلال حزب البعث أن تتخطى حدود وتناقضات الواقع وحدود وعيها العفوي •

الى هذا الحد فالحالة الاختبارية في المضامير سالفة الذكر قد أوجدت لدى الجماهير حلولا لحاجاتها ومشاغلها الطبقية والقومية ، وان كانت هذه الحلول بالمعنى الشمولي لطموح البعث البعيد الافق ما زالت جزئية الا أنها أرست الاسس وبدأت بأهم حلقات السلسلة الطويلة في المهمات الوطنية والتقدمية والتحول الاشتراكي ومسار الوحدة العربية •

النتيجة الرابعة

ان المنطق التجريبي في تفسيره ـ للحالة الاختبارية ـ في الواقعة السياسية يعتمد على تحديد ـ الاختبار بالمقياس الذي اعتمده جون ديوي[١٢] ولذلك فان تحديده لنجاح الحدث السياسي التاريخي يقاس بمقياس ـ الفائدة ـ والنجاح ، ولهذا فقد تجنبنا هذا المقياس في هذا البحث في ما يخص ثورة ١٧ تموز ، رغم اننا سمينا القضية الاولى بـ ـ الحالية الاختبارية ـ وجعلنا النجاح مقياسا لعملية المبادىء ، جريا وراء المظاهرة العلمية التي تربط النتائج بالمقدمات الا اننا لم نجعل النجاح تبريرا براغماتيا كما تفعل الوضعية السياسية التي تسير عليها مبادىء السياسيات الميكيافيلية ، ولم ننزلق الى ذلك التمذهب الذي يعلق الحقيقة بالنجاح ، فقد شهد تاريخ العالم الكثير من الحركات والثورات التي لم تنجح بينما كانت تمتلك الحقيقة ، في حين نجحت غيرها وهي لا تمتلك سوى المناورة واللف والدوران ، لانها امتلكت قدرة على استيعاب الواقع •

● وعلى أية حال فان قوانين التطور تستلزم دراسة أية ظاهرة بجميع علاقاتها وعناصرها الداخلية والخارجية الاساسية والثانوية والايجابية والسلبية، ولكن النظرة الوضعية البراغماتية تعتمد على اعتبار الظاهرة (معطى) للنجاح•• ويجادل جون ديوي في كتابه (مقالات في المنطق التجريبي) في نظرية (المعطى)

باعتبارها نتاج (الفكر الذي هو أداة للسيطرة على المحيط)[١٣] وهو يؤكد ان التجربة مكتفية بذاتها ولا تستند الى أي شيء ، أما الاختبار فليس (معطى) بل منتزعا بواسطة الوقائع[١٤] ذلك ان العقل هو ما يثبت نفعه ، وبذا تنكر البراغماتية الحقيقة الموضوعية وتنكر قدرة الانسان على تركيب الواقع واعادة صنعه . كما تعتمد الوضعية البراغماتية على أن التجربة النافعة هي نتاج بايولوجي للانسان والنشاطات والعلائق »[١٥] .

وبسبب كون المقياس التجريبي الوضعي معاد للتقدم لم نأت عليه في تحليل تجربة ثورة ١٧ تموز ، أما قولنا بـ ــ الحالة الاختبارية ــ والنجاح فهما لايمتان للوضعية بصلة ، بل ان النقطة المهمة في الموضوع هي أن التجربة في المفهوم الجدلي العلمي الذي طرحه البعث ، هي قياس على المنجز في التاريخ اذ أن « المعرفة لا تكون صحيحة الا اذا امتحنت بالعمل ، فالعمل يغنيها ويصححها »[١٦] .

● ان الطريقة الجدلية في علم الثورة لدى البعث كما رأينا في فصول سابقة هي علم التطبيق الحي ، ولقد نشأت هذه الطريقة وتطورت في النضال ضد كافة أشكال المفاهيم الرجعية المعادية للعلم وضد طرق الافكار الفوقية التي تتجاهل الواقع الموضوعي .

● المهم ان القضية الرابعة هي أن ثورة ١٧ تموز استطاعت تغيير الواقع فانجزت :ــ

١ ــ **مهمة الاستقلال السياسي للقطر العراقي** ، بعدما افرغت تلك المهمة خلال السنوات العشر التي اعقبت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وقد اثبتت ثورة ١٧ تموز أن انجاز الاستقلال السياسي للقطر العراقي يتطلب معالجة جذرية وأساسية لتقديم « النموذج الصحيح والمتكامل في هذا الشأن لحركة الثورة العربية وحركة التحرر في العالم الثالث »[١٧] .

٢ ـ **مهمة الاستقلال الاقتصادي** ، انجزت باقتدار وتمكن ، وذلك ان هـذا الهدف كان هدفا مركزيا « من أهداف الثورة التحررية ويعتبر موازيا في أهميته للاستقلال السياسي ومكمـلا له ، فبدون استقلال اقتصادي حقيقي يفقد الاستقلال السياسي أهم ركائزه ومضامينه ويكون اقتصادي دائما »[١٨] •• ويكتسب الاستقلال الاقتصادي أهميته من كونه مضمونا للسيطرة على الثروات الطبيعية واستثمارها استثمارا تنمويا لصالـح التقدم الصناعي الزراعي والاجتماعي بشكل عام ، اضافة الى كونـه منجزا يضع البلاد في مستوى دولي رفيع بعد تحريرها من عوامل الضغط «وقد احتل هدف الاستقلال الاقتصادي أهمية استثنائية جدا بعد هزيمة حزيران ، وما كشفته من أمراض ونواقص خطيرة في الواقع العربـي ، وحتمته من مهمات نضالية ذات مستوى جذري شامل ، بل أصبح هذا الهدف أحد الشروط المركزية التي لا غنى عنها أبدا لتحريـر الارادة العربية ولتأمين القدرة الذاتية العربية على التصدي للعدو الامبريالـي الصهيوني »[١٩] •

ففي ميدان الاستثمار الوطني للنفط استطاعت ثورة ١٧ تموز أن تتوصل الى اتفاق مع الاتحاد السوفياتي في تموز ١٩٦٩ لاستثمار النفط وطنيا ، وبذا وجهت ضربة قاصمة لشركات النفط الاحتكارية ، ثم وجهت الضربة الكبرى بتأميم النفط عام ١٩٧٢ فأصبحت الدولة تسيطر على ٦٥ بالمائة من انتاج النفط في حينه ، وامتدت سيطرتها على (٩٩٫٧٥ بالمائـة على رقعـة الاراضي التي يستخرج منها النفط في ١ اذار ١٩٧٣ ، وفي أثناء حرب تشرين الاول استخدمت الثورة النفط سلاحا في المعركة فأقدمت على تأميم حصة أمريكا في شركة نفط البصرة • كما أممت حصة كولبنكيان ، وفي السنوات اللاحقة انجزت الثورة السيطرة الكاملة على الثروة النفطية وحققت تقدما منقطع النظير في الصناعـة النفطية وفي تدريب الكوادر وانجاز الخط الستراتيجي وتطوير شركات النفط الوطنية ، وحررت النفط في مجالات التسويق والبيع •

٣ – **انجاز مراحل واسعة من خطط التنمية الاقتصادية القومية** و « بذل جهد كثيف وواسع النطاق لتطوير الزراعة والتقليل ما امكن من استيراد المواد الغذائية وتطوير الصناعة »[٢٠] .

والتنمية لدى حزب البعث ذات حيوية واصالة كامنة ومنطلقة من النظرة الايديولوجية الشاملة ولها مفهوم في الانتاجية يجعل السعادة صيغة اساسية للانسان العربي اذ « ان أي بحث عن صيغة لسعادة الانسان تبقى عديمة الجدوى في بناء سعادته خارج منهج الايمان بأن الاشتراكية هي الطريــق الوحيــد لسعادة الانسان ، الاشتراكية التي تنهي الاستغلال وتفتح الفرص امام الشعب، الاشتراكية التي يزدهر فيها الانتاج كما ونوعا »[٢١] .

وبالنتيجة فأن التنمية بالمفهوم العام للحزب هي جزء من بناء وتنظيــم المجتمع بناءا شموليا يستهدف تحرير الانسان من كامل عوامل الاستغلال بشكل يغطي كافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية وبطريقة تؤدي الى ان يقوم المجتمع بدور فعال في بناء نفسه وارساء دعائم نهضته الحضارية الحديثة.

لقد اكد المنهاج الاستثماري لعام ١٩٧٤ الافق الواسع والشامل للتنمية وكانت التخصيصات « مليار و٦٩ مليون دينار » وارتفــع هذا الرقــم الى « ٥٢٤٠ مليون دينار لعام ١٩٨٠ »[٢٢] .

وقد استهدفت خطط التنمية في القطر العراقي حدوث قفزات نوعية في نمو الدخل للفرد في العراق وفي نفس الوقت كانت الثورة غير غافلة عن الوطن العربي وتفاعل مستوى الاقتصاد في قطرنا مع مستويات الاقتصاد العربي بشكل عام ، ودفع تلك المستويات الى الحد الذي تتصاعد فيه ارقام النمــو الكلي للمواطن العربي مما يجسد في المدى البعيد نموا نوعيا في الناتج القومي .

وهذا النمو في اقتصاد القطر العراقي المتفاعل مع الاقتصاد العربي سيؤدي الى نمو القابلية العربية بطرق متوازنة ولعل التفاوت الحاصل اقتصاديا بــين الاقطار العربية « تتزايد حدته سنة بعد اخرى حيث تشير الدراسات التي كنا قد اجريناها في مجلس الوحدة الاقتصادية العربية الى أن حصة الاقطار النفطية

ستبلغ ٩١٫٨٪ من الناتج العربي سنة ١٩٨٥ مقابل ٤٫٥٪ للاقطار نصف النفطية و ٣٫٧٪ للاقطار غير النفطية »[٢٣] .

ومن هذا المنطلق ولكون فلسفة حزب البعث العربي الاشتراكي تضع الارتفاع بقدرات الامة العربية في المكان الامثل . فقد دعا السيد الرئيس القائد صدام حسين في مؤتمر القمة العربي العاشر في تونس لبحث الوضع العربي الاقتصادي المتفاوت في الوطن العربي من اجل رسم ستراتيجية قومية شاملة للتنمية وكان لدعوته الاثر الكبير في نشر الوعي التنموي للتكامل العربي الاقتصادي .

ومن المؤكد عندما تستدعي الحاجة للتنمية العربية الشاملة فأن القطر العراقي سوف يستخدم كافة العوامل المؤدية لخدمة الاهداف القومية[٢٤] .

« ومن هذه الرؤية تبدو واقعية التوجه العراقي بقدر تعلق الامر بالعمل العربي المشترك على المستوى الرسمي وما يمكن ان يفرزه من حلول تمثل في جوهرها حصيلة الصراع بين ارادات ثورية اشتراكية متقدمة ومقدامة سندها قومية منظورة واحساسها بالهدر الاجتماعي والاقتصادي في مختلف اقطار وطنها والظلم الذي يلحق بالجماهير العربية صاحبة المصلحة في التقدم العربي وبين ارادات محافظة تستمد سندها لا من نظرة قطرية حسب وانما من نظرة ضيقة تمثل مصالح قلة قليلة داخل اقطارها »[٢٥] .

ان القطر العراقي في اعتماده لمناهج الاستثمار يأخذ بعين الاعتبار مسألة الدقة في الحسابات فقد اشار السيد الرئيس القائد « الى ان مسألة حساب قدراتنا الوطنية حسابا دقيقا وعلميا وبأرقام لا تقبل الاجتهادات بمسافات متباعدة او متناقضة هي مسألة في غاية الاهمية في قطرنا »[٢٦] .

« المنهاج الاستثماري لعام ١٩٨٠ « يمثل نسبة نمو ٣٣٫٣ بالمائة عن الذي سبقه ، والميزانية الاعتيادية لعام ١٩٨٠ والبالغة تخصيصاتها ثلاثة آلاف و ٦٥٠ مليون دينار والتي تحقق زيادة في نسبة النمو ١٤ بالمائة عن تخصيصات العام الماضي»[٢٧] .

المسألة الكردية : حالة اختبار ثانية :

● ان حزب البعث العربي وثورة ١٧ تموز في حضورهما الثوري قد استطاعا حل كافة المهام الوطنية حلا ديمقراطيا ثوريا فالمسألة الكردية مثلا بارتباطاتها المحلية والدولية وما شابها من ملابسات كانت من أعقد المسائل حلا ، لكن حزب البعث وثورة تموز استطاعا ايجاد الصيغة النهائية المطلوبة لحل المسألة الكردية بدءا من ١١ اذار ١٩٧٠ . وقد كان طريق حل المسألة الكردية مليئا بالصعوبات والمعوقات والاشواك[٢٨] ومع كل ما اكتنف طريق الحل من مدٍ وجزرٍ وسلبيات وايجابيات فان الثورة كانت قد وضعت المسألة على المطرقة لتجريد العناصر المشبوهة والرجعية والامبريالية وأدواتها من أية مناورة لاستغلال هذه المسألة في تأخير مسيرة الثورة .

ان حل المسألة الكردية يتضمن جوهريا سعة الثورة الانسانية وأيمانها بالمسألة القومية في جانبها الانساني والديمقراطي ، وتفهم « الجوهر الاساسي » للحركة القومية الكردية ، فهي بـ « الاساس حركة قومية تمتلك في حدود مطالبتها بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في اطار الجمهورية العراقية وعلى رأسها الحكم الذاتي مبررات مبدئية وواقعية ، وأنها هذا الاطار جزء من الحركة الوطنية في القطر العراقي »[٢٩] .

● اضافة لذلك جرد الحل زمرة البارزاني من أسلحتها الشعارية ومزايداتها على قضية الشعب الكردي « بعد أن أعلنت عداءها السافر للحكم الذاتي أثر اعلانه وللجبهة الوطنية والقومية التقدمية بعد قيامها »[٣٠] .

● لقد وضعت ثورة ١٧ تموز القضية الكردية في اطارها الملموس آخذة بنظر الاعتبار الظروف الشاذة التي ولدتها الاوضاع السابقة[٣١] عنت الثورة في حالة تطبيق الحكم الذاتي بالتمييز بين مرحلتين أو بين عهدين من الاوضاع السياسية والاقتصادية الاول يضطهد الاكراد ويسير في دائرة الامبريالية ويعتمد على اقتصاد شبه رأسمالي ـ شبه اقطاعي ، وهو ما اتصفت به العهود

السابقة، والثاني يتوجه الى اعطاءالشعب الكردي امكانيات بناء نفسه والتمكن من الحكم الذاتي ضمن بناء المجتمع العراقي في ظل سلطة متحررة ومعادية للامبريالية واقتصاد متوجه نحو البناء الاشتراكي •

ان الثورة استطاعت باقتدار وتمكن ايقاف ـ اللعبة ـ أو ال «ورقة»[٣٢] « تلعب بها الدوائر الاستعمارية وحكام المنطقة الرجعيون والمغامرون والتيارات الاقطاعية والعميلة »[٣٣] وأصبحت هذه القضية الكردية بأيدي الشعب وثورته وجماهيره ، وقد رعى الشعب والثورة والحزب هذه القضية وأعطاها عناية كبرى •

وحل القضية الكردية بالشكل الديمقراطي تميز بما يلي :ـ

أ ـ أن هناك علاقات اقطاعية ـ عشائرية استبدادية تنهار وتضمحل •

ب ـ ان هناك ثورة وشعبا يقفان بوجه الامبريالية والاستعمار والجيوب العميلة •

جـ ـ ان الحركة الثورية في العراق بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي استطاعت جذب جميع الطبقات ذات المصلحة الاجتماعية والطبقية والقومية نحو السياسة الصحيحة المتمثلة في نشوء سلطة تمثل مطامح تلك الطبقات نحو التقدم والازدهار وبناء عراق ديمقراطي •

● وفي الواقع ان حل المسألة الكردية يمثل موقفا جوهريا أزاء مسألة الاقليات فقد أعطى البعث وثورة ١٧ تموز امثولة في المبدئية ومهارة في معرفة المرحلة التاريخية وأكد على الترابط بين وحدة النضال القومي العربي وتاريخيته والنضال الذي تخوضه الاقليات ، وهذان أمران قد لا يختلف فيهما اثنان •

لقد تم حل المسألة القومية الكردية بروح تقرير المصير من وجهة النظر الاشتراكية قاصما ظهر الامبريالية المتاجرة بتقرير المصير ودامغا بأفق تاريخي حركة الملا البارزاني بالعمالة للولايات المتحدة •

ـ فالحكم الذاتي ـ بوصفه حقا عاما للشعوب أعطى تفسيرا اشتراكيا وقوميا انسانيا في قطر عربي فيه تراكيب قومية أخرى ، والثورة بهذا سارت منسجمة مع مبادئها ومع نفسها بسياسة وفرت الفرص للشعب الكردي لكي يضمن نصيبه من التحـولات الاشتراكية والديمقراطية وأن يعصـم هذه التحولات من التشويه الذي حاول الرجعيون والامبرياليون الحاقه بها .

● ان سياسة الثورة في القضية الكردية قد أعطت أعظم مثال ، ما يزال يحتفظ بأهميته حتى الان ولأجيال لاحقة ، ولو لم تقم الثورة بهذا الانجـاز الهائل لظلت « الانتهازية » السياسية تلعب بالقضية ، ولظلت تيارات السياسة تتناولها تناولا مناورا وميكافيليا . الامر الذي يجعل العراق تجارة رابحة في بورصة السياسة الامبريالية .

● ومن الواضح ان ثورة تموز عندما أعلنت الحكم الذاتي ـ فانها انما مارست مبدأ احترام الاقليات القومية ومنحها الحقوق الثقافية والقومية . وقد حاولت زمرة البارزاني التقليل من أهمية بيان ١١ اذار والحكم الذاتي وحاولت المماطلة لكسب الوقت[٣٤] الا أن حنكة القيادة السياسية أثبتت في مجرى كل الاحداث والتفاصيل أنها قادرة على ادارة الدفة الى ما هو ممكن للسير في القضية الكردية نحو الحل الديمقراطي السليم .

● ان الشيء الذي يمكن الاعتداد به هو وضوح الشعارات في هـذه المسألة ونضوجها النظري الى جانب التطبيق العملي للشعار . فبعد أربع سنوات من بيان ١١ اذار لمسنا بصورة مباشرة نتائج سياسة الثورة في تلبية الحقوق المشروعة للجماهير الكردية « وفي تحسين مستوى حياتها في سائر الميادين ، وفي الوقت نفسه فان استمرار حالة السلام خلال السنوات الاربع الماضية قد خلق ظروفا اقتصادية جديدة »[٣٥] .

● والان بعد مرور عشر سنوات على بيان ١١ اذار فان ثورة تمـوز أوجدت للشعب الكردي مجالات رحبة في أن يقود نفسه بنفسه ، بعد أن أثبت الحكم الذاتي اخلاص الثورة لمبادئها .

● ان نقطة انطلاق نضال الثورة ضد زمرة البارزاني والداعين لها هي كون تلك الزمرة لا تمثل الشعب الكردي . وقد مارست الثورة جهودا جبارة في تحرير الاكراد من نير القيادات الاقطاعية والرجعية ، كما استطاعت ايقاف استثمار القوى الدولية للقضية الكردية وأعطت درسا — للبعض — من الذين كانوا يطرحون المسألة الوطنية بشكل يفصل نضال الشعب الكردي عن نضال الشعب العربي في العراق(٣٦) في حينه ، ولقد جاء بوضوح لا مزيد عليه « ان مستقبلا سعيدا ومشرقا ، مستقبلا يقوم على الحرية والرخاء والبناء الديمقراطي الاشتراكي ينتظر العراق في ظل ثورته وقيادته ، وان مستقبلا مشرقا وسعيدا ينتظر شعبنا الكردي في ظل الثورة التي سيذكر التاريخ انها أول من صان حقوقه وكرامته »(٣٧) .

● كان ينبغي على ذلك — البعض — التريث حتى يطلق أحكامه ، لكن من الطبيعي تماما أن يقع الخطأ في التقدير ، طالما أن النظرية لدى ذلك البعض مطبقة في غير ظروفها .

ما هو المهم في الحل الديمقراطي للمسألة الكردية ؟ أنه ثقة أبناء القومية الكردية بثورة ١٧ تموز وقيادتها وبحزب البعث العربي الاشتراكي اذ أن الحكم الذاتي ضمن للقومية الكردية تحقيق مطامحها القومية ضمن عراق متقدم ومتطور ، واشتراكي ، وفي ذات الوقت ضمن للجماهير الكردية حق النضال الطبقي ضمن أفق الثورة فـ « المسألة الجوهرية هي مقدار الايمان بمسيرة البناء التقدمي الذي ننشده واقامة الاشتراكية في هذا القطر »(٣٨) .

وفي اعتقادي أن ذلك لا يتطلب مزيدا من الشرح والتفصيل وفي اعتقادي أيضا ان المثل النموذجي للمسألة الكردية الذي طبقته الثورة لم يوطد الوحدة الوطنية فحسب بل وطد اسس وحدة النضال الطبقي بين الجماهير الكردية الكادحة والجماهير العربية الكادحة وأوجد أساسا تاريخيا ثابتا لوحدة المصير ، بعكس الحلول الشكلية لمسألة القوميات التي تنادي بها والتي طبقتها البورجوازية ، ولنأخذ بعين الاعتبار ان وحدة المصير بين العرب والاكراد في

عصر « الامبريالية » وضمـن النضال المعادي لكل أشكال الاضطهاد القومي والتحوير الكوزموبوليتي لمسألة القوميات ليس دفعا لمكائد الامبريالية فقط وانما أيضا دفعا للمصائر التي ترسمها الامبريالية وعملاؤها في المنطقة للاقليات والقوميات الصغيرة ، كما أن سياسات الدول الكبرى مهما كانت او مهما تقولبت أو تعصرنت أو طليت بميرون أو اتخذت من مبادىء وأفكار ، فهي تظل سياسة تفرضها ستراتيجيات المصالح وآفاق الامن القومي للدول الكبرى ذاتها . وهذا الامر واضح كل الوضوح في سجل التاريخ القديم والحديث وهو من باب تحصيل الحاصل كما يقال .

*** الجبهة الوطنية والقومية التقدمية حالة اختبار مضافة**

« كانت مهمة الجبهة التقدمية من أبرز وأخطر المهمات التي واجهت حزب البعث العربي الاشتراكي منذ الايام الاولى للثورة وطيلة السنوات الماضية ، وكان الحزب ، يجد نفسه مسئولا مسئولية تاريخية عن انجازها »[٣٩] ، ولذا وجدت ثورة ١٧ تموز أن اقامة جبهة وطنية من مستلزمات المرحلة التي يمر بها العراق ولا نريد ان ندخل الى كيفية خلق الارضية المناسبة في مبادرة من الثورة والظروف الموضوعية التي وفرتها فذلك أمر معروف الا أن الذي يهمنا هو أن ثورة تموز وجدت ان الجبهة ضرورة لازمة في القطر العراقي ، وهذا ليس تكتيكا سياسيا فالجبهة صورة ستراتيجية لتحقيق التحـولات الاقتصادية والاجتماعية وقد حدد ميثاق العمل الوطني الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١ المهام الاساسية في المضامير الصناعية والزراعية والاجتماعية والثقافية وفي مجمل السياستين الداخلية والخارجية .

ان هذه المهام « هي بحد ذاتها مسئولية تاريخية تتحملها القوى التقدمية لكونها ذات مساس مباشر بحياة الجماهير»[٤٠] .

أما البعد القومي للجبهة فيغطي ستراتيجية القطر في العمل القومي على أساس وحدة النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية والكفاح

المسلح لتحرير فلسطين اذ أن المرحلة الجديدة التي أعقبت ١٧ ــ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، « تتطلب تصحيحا للعلاقات بين المرحلة الجديدة أعقبت ١٧ ــ ٣٠ تموز الحركة الناصرية ، القوميون العرب ، جبهة التحرير الجزائرية ، الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في المغرب ، الجبهة القومية .. الخ) ثم بين هذه القوى التي تمثل اليسار القومي وبين القوى التقدمية التي تمثل اليسار الاممي وذلك بالعمل على تصفية الاثار السلبية المتبقية من المرحلة السابقة أولا ، ثم بتركيز الجهود نحو الاهداف القومية المشتركة وعدم تحويل الصراع عن التناقض الاساسي الاول الذي يجمع قوى الثورة العربيــة أمام الخطــر الصهيوني الامبريالي »[٤١] .

● ان الجبهة في بعديها الوطني القطري والقومي العربي في نظر البعث مواجهة للازمة التاريخية التي تمر بها الامة العربية ، وقد هيأ الحزب بمنجزاته الثورية وقدرته في الفعل الثوري قطريا الارضية الصالحة للجبهة الوطنية ، وبذا فانه وضع القوى السياسية في داخل القطر العراقي أمام مسئولياتها انطلاقا من فهم متبادل لواقع تلك القوى ودورها في المرحلة الراهنة ، وقد عمقت ثورة ١٧ تموز تلك المسئولية بالانجازات الاقتصادية الثورية الهائلة وتحقيق الشروط اللازمة « للدخول في مرحلة التحويل الاشتراكي »[٤٢] وحل المسألة الكردية بتحقيق أفضل « شروط التعاون والتآزر بين القوميتين العربية والكردية »[٤٣] بعد تأميم النفط والتوجه نحو التصنيع والتنمية ، كما أن الحزب وثورة ١٧ تموز استوعبا المواجهة المصيرية مع العدو وضرورة توفير « صيغــة العمــل الجبهوي التي توفر امكانية تعبئة قوى القطر والتحام الفئات التقدمية والتي تساعد على ممارسة دوره القيادي ممارسة حية وتجنبه مزالق التفرد والتسلط وكبت الفعاليات الجماهيرية التقدمية ، وأن يشمل العمل الجبهــوي مختلف ميادين النشاط العام وأن تكون صيغته صيغة ثورية »[٤٤] .

وقد دلل الحزب على أنه حريص على تعزيز كافة عوامل الجبهة ومتانتها وسد الثغرات بوجه السلبيات التي قد تحدث حتى أنه تجاوز الكثير من مواقف

سلبية اتخذتها بعض أطراف الجبهة « الحزب الشيوعي العراقي مثلا » فانه لم يسمح لهذه السلبية المتفاقمة أن تؤثر على رؤيته ، واذا كانت ــ أدبيات ــ الحزب الشيوعي العراقي ، مملوءة وباستمرار بالتهجم على الثورة وحزبها القائد ، فان حزب الثورة لم يتعرض للشيوعيين لا من قريب أو بعيد ، ولا حتى في أدبياته الخاصة ، مما يبرهن على تطابقة مع ستراتيجية ومنطقه في تعزيز أسباب التحالف وعوامله الايجابية »[٤٥] .

● من الواضح أن منظومة المبادىء الثورية لحزب البعث العربي الاشتراكي وثورة ١٧ تموز ليست مطلقة كأبدية تجريدية، فهي قابلة للاستنتاج والبحث النقدي والاختبارات والتقريبات والاختيارات والسجال الفعلي[٤٦] ولذا وضعت ثورة ١٧ تموز نفسها أمام مواجهة النفس ، وهذه قيمة كبرى في الثورات الصادقة مع نفسها ومع غيرها ، وقد كان قيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية مصداقا لذلك الصدق مع النفس ومع الاخرين . وبذا طلبت الثورة أن تكون المواجهة بين أطراف الجبهة الوطنية صريحة وتعتمد على التقييم الموضوعي فـ « التقييم الموضوعي المكشوف عندما يكون متبادلا بين الاطراف الوطنية وبين الحزب ، فانه يحل الكثير من العوائق ويوجد البداية الصلبة للجبهة »[٤٧] .

والواقع ان ــ الحزب الشيوعي العراقي ــ لا يزال في موقع طوباوي بالنسبة للجبهة وبالنسبة لنفسه ، فهو رغم مرور سنوات عديدة على قيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية ورغم الانجازات الكبيرة في المضمار التنموي وزيادة التوسع في دور الطبقة العاملة ، لا يزال غارقا في الطوباوية[٤٨] فهو يفكر بمقاييس لا وجود لها ولا مكان لها ولا تعتمد على تحليل موضوعي للواقع الملموس ، وطوباوية الحزب الشيوعي العراقي لا تزال ترى أن الوضع كما هو في العهود السابقة ــ وان اعترف للحزب بالتحولات الاقتصادية ــ وقد أفسدت هذه الطوبوية الوعي الاشتراكي لدى ذلك الحزب وجعلته يقف في عنق الزجاجة .

● وعلى أية حال فان مجموعة القرائن تؤكد أن حزب البعث قائد الجبهة وحزب الثورة هو صاحب البرنامج الصحيح والثوري والحقيقي الملموس في مواجهة حاجات ومتلطبات الجماهير الكادحة بمقدار ما هو حزب الثورة العربية، فقد طرح الحزب الجبهة الوطنية والقومية التقدمية على نطاق القطر العراقي مثلما طرحها على نطاق الوطن العربي ، على أساس الكلية الاجتماعية ، ومستويات الفعالية الثورية في مواجهة التحدي الصهيوني الامبريالي ، وهذه ظاهرة تاريخية تمارس على الصعيد السياسي مجمل التغيرات الجزئية وتصبها في ظاهرة الحركة العامة والتاريخية للتوجه التاريخي الجماهيري العربي .

وهكذا تتفهم بمزيد من العمق أن قيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية يعنى تجاوز الموقف النظري الشكلي وصولا الى التركيز على التناقض الاساسي وهذا موقف ثوري يزاوج بين النظرية والممارسة . ويمنح الحزب للممارسة أهمية قصوى لكن هذه الاهمية لا تجعله يقف موقفا ـ ذرائعيا ـ من النظرية فالنظرية كما جاء في السياق السابق هي التي تخول الزمن موقفا علميا وتحتفظ للمفاهيم بالتعريف،فثورة البعث تدرك الظفر وبالممارسة والايديولوجية كمرشد علمي للحقيقة وهذا ما يكفل استرجاع الشفافية في الوعي الثوري ويقي المسيرة العثـرات .

المبحث الثاني : القضايا الثانية والثالثة والرابعة من الموضوع

● في القضية الثانية التي هي بناء الحقيقة الجزئية للبعث في القطر العراقي ضمن صيرورة الهدف العام والتي هي الوحدة العربية والحرية العربية الكاملة للانسان العربي والمجتمع العربي الاشتراكي الديمقراطي الموحد ، في هـــذه القضية الثانية كانت القضية الاولى هي المدخل كستراتيجية سياسية ، وقـد تميز دور الحزب على الاصعدة القومية بالمميزات التالية :ـ

« أولا ـ بتحقيق الربط الكامل بين الاستراتيجية السياسية وبين الاطار الايديولوجي للثورة العربية والتصدي لكل محاولات الانحراف أو الهبوط عن هذا المستوى .

ثانيا ـ اعتبار تحقيق الوحدة بمثابة معيار للانتقال الى مرحلة المواجهة الجدية للعدو الصهيوني الامبريالي ، وهذه الوحدة يجب أن تعنى بالاضافة الى توحيد قوى الثورة العربية ضمن اطار عمل جبهوي قوى يقود الجماهير العربية وفق برنامج سياسي يحدد حاجات المواجهة على كافة المستويات وكذلك توحيد العمل الفدائي »[49] .

وقد دللت الاحداث التي أعقبت هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، أن الخط الستراتيجي الذي ولدته ثورة ١٧ تموز جاء ليؤكد أولوية المواجهة مع العدو الصهيوني والامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة ، وكلنا يتذكر شعار « كل شيء من أجل المعركة » فقد طرح حزب البعث هذا الشعار في ظل أجواء هزيمة حزيران المأسوية محاولا النهوض بالامة من كبوتها وقد ما طلت أنظمة البورجوازية الصغيرة التي سميت بالتقدمية وظلت تدور في محاور ـ أزالة آثار العدوان ـ وصارح الحزب الجماهير بما يدور حولها من مناورات وكشف البعد المسرحي المعد من قبل الامبريالية لتصفية الوجود الفدائي الفلسطيني في مذبحة أيلول الاسود سنة ١٩٧٠ . وقد شكلت ظاهرة مكاشفة الجماهير وأعلامها بالحقائق ظاهرة للتفاعل في المناخ الثوري انذاك .

كما وقف الحزب والثورة ضد مشروع روجرز سيء الصيت ودعا الى عدم ايقاف حرب الاستنزاف المحدودة التي كانت تقوم بها القوات المسلحة المصرية وتنبأ الحزب باحتمال أن تلجأ نظم البورجوازية الصغيرة الى ما يلي :ـ

« أ ـ **الرضوخ لمشاريع الحل السلمي** التي هي في جوهرها تتفق حول نقطة واحدة : القبول «باسرائيل» وبالتالي تحويل المنطقة العربية الى مدى حيوي لاستغلالها الاقتصادي واطماعها السياسية وسلوكها العدواني .

ب ـ خوض حرب شاملة قريبة تؤدي الى هزيمة عسكرية جديدة .
ج ـ خوض حرب استنزاف وحرب الاستنزاف هي الاخرى تحمل باحتمالات يمكن رصدها سلفا على الوجه التالي :ـ

ان تكون حرب استنزاف غير فعالة لاتعرقل مخططات «اسرائيل» في تهديد المنطقة العربية ولا تحد من قدراتها على استثمار انتصارها العسكري في الخامس من حزيران ، وهذا النوع من حرب الاستنزاف يحقق نفس الاغراض المطلوبه من تمرير مشاريع الحل السلمي مع فارق أنه قد يسمح بانقاذ ماء وجه الانظمة العربية »[٥٠] .

وهذا التنبؤ بالاحداث منطلق من نظرية البعث العلمية المعتمدة على القرائن التاريخية والتي هي استقراء موضوعي للواقع العربي .

ومن أجل حشد كافة الطاقات العربية في المعركة قدم العراق مشروعا الى مؤتمر القمة العربي الخامس الذي عقد في الرباط ــ المغرب من ٢٠ الى ٢٣ ك الاول ١٩٦٩ « ولقد جاء المشروع العراقي متكاملا وافيا بكل المتطلبات ومحيطا بكل ما يجب أن تقوم به أية دولة عربية من الاعباء . ولئن قدر لهذا المشروع الايجابي أن يميع وتتنصل بعض الدول من الالتزامات التي نص عليها، فان ذلك لم يفقده ميزته كخطة عمل مرحلية تحقق الحد الادنى من العمل العسكري والسياسي والاقتصادي والاعلامي الموحد الذي لا معدى من وجوده اذا صحت العزائم على تحويل النكسة القومية الى نصر مؤزر تسترد به الارض السليبة والكرامة المهدورة وتقتلع فيه جذور الكيان الصهيوني الامبريالي الفاشي»[٥١] .

« أما مؤتمر قمة الخرطوم المشهور ــ بـ ــ لاءات ــ لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة مع اسرائيل ، فقد كان موقف العراق فيه واضحا ومميزا في تبني شعار حرب التحرير الشعبية ، وقد علقت جريدة الثورة بما يلي :ــ

« في مؤتمر الخرطوم الذي انعقد في نهاية شهر آب عام الكارثة تم الاتفاق على تشديد المنطلقات الاساسية ــ للاستراتيجية العربية الجديدة لمرحلة « ما بعد الهزيمة » وكان شعار « ازالة آثار العدوان » هو البدعة الثورية الجديدة

وكان الهدف الاساسي لهذا الشعار ، هو الاعلان الرسمي أمام العالم ــ لاول مرة ــ عن التخلي عن شعار « تحرير الارض العربية المحتلة في فلسطين وابداء الاستعداد ، للانطلاق في التعامل مع الامبريالية والصهيونية العالميتين من مرحلة ما بعد التسليم بوجود الكيان الاسرائيلي في فلسطين العربية ، ومع تبني « شعار ازالة آثار العدوان » يكون مؤتمر الخرطوم قد أكد نبوءات أبا ايبان وزير خارجية العدو »(٥٢)(*) ٠

وقد خلصت جريدة الثورة الا أن وجهة النظر هذه ستقود الى تمرير المشاريع الاستسلامية والتفريط بحقوق الشعب العربي الفلسطيني وبالتالي عدم التوفيق بين شعار ازالة آثار العدوان واللاءات الثلاث ٠

● ويعتبر هذا التناقض بين لاءات الخرطوم والشعار انف الذكر جزء من أزمة الانظمة العربية تلك الانظمة التي وقعت في « مأزق تاريخي »(٥٣) بالنتيجة لم تستطع الانظمة العربية التوفيق بين الشعارين ، فكان مشروع روجرز الذي ندد به العراق بلسان الاب القائد احمد حسن البكر(٥٤) المحصلة للقبول بشعار ازالة آثار العدوان ٠

وقد كان العراق محقا في طرح شعار « حرب التحرير الشعبية الطويلة المدى » اذ أن الانظمة العربية والوضع العربي بشكل عام لم يكن مستعدا لحرب نظامية أو حرب استنزاف شاملة ، فاذا حدث أي شكل من حرب الاستنزاف المحدودة أو الشاملة أو الحرب المباشرة ، فان الهزيمة ستكون الثمن ، بسبب ضعف الانظمة العربية وعدم استعدادها ، وقد حدد المؤتمر القومي العاشر ذلك(٥٥) ٠

لقد وقف العراق ازاء أي تشويه للنضال العربي الثوري المعادي للامبريالية والصهيونية ودعا الى وحدة النضال العربي والارتفاع بمستوى

(*) ابا ايبان وزير خارجية العدو الصهيوني أبان العدوان عام ١٩٦٧ ٠

ذلك النضال الى الاصعدة الموضوعية وعمد الى تكريس جهود المقاتلين في الجبهة الاردنية مع جهود المنظمات الفدائية الفلسطينية[٥٦] .

● **وفي رد الاب القائد احمد حسن البكر على تقولات بعض الانظمة العربية على « ان العراق يتهرب من مسئولياته في الجبهة الشرقية » العام ١٩٧٠ ، افحام للمتقولين :ـ « اننا نؤكد أن الجبهة الشرقية قائمة بالفعل بالنسبة لنا وهي تقوم بدورها في تعزيز الصمود العربي ، وان مساهمة العراق في هذه الجبهة تفوق مساهمة هذه الاطراف التي ما زالت تزرع الشكوك وتفتعل الازمات المختلفة بقصد تفكيكها ، وبهذه المناسبة فنحن ندعو جميع القادة العرب لزيارة الجبهة الشرقية ليروا الدور القومي والدعم الكبير الذي يقوم به عراق الثورة منذ عامين في تحصين خط النار الطويل في الساحة الشرقية ، في معركة العروبة »[٥٧] .**

● ومثلما وقف العراق ضد مشروع روجرز سيىء الصيت وقف ضد كافة المشاريع الدولية القاضية الى الاعتراف بالكيان الصهيوني وتمكين العدو من استثمار انتصاره العسكري في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، مثال على ذلك المشروع الفرنسي الذي كان يبغي التنسيق مع الجمهورية العربية المتحدة واشراك السوفيت في المشروع اياه[٥٨] .

● وفي غمرة الصراع مع العدو الصهيوني لم يتوقف العراق عن الدعوة الى الوحدة العربية المقاتلة واعداد الوسائل للمعركة ضمن تخطيط نظري سليم بالانسجام مع العوامل الذاتية والموضوعية ، والدعوة الى وحدة القوى العربية الثورية ، ذلك أن الظروف السياسية للواقع العربي بعد هزيمة حزيران كانت تطرح شروط الحياة أو الموت ، وعلى ضوء ذلك كانت الجدية في العمل السياسي من أهم الضرورات الحياتية ، اضافة الى تعميق الجدل الخاص بالتجربة العربية الثورية والذي هو « الربط بين القومي والاجتماعي ، وقد كان الخلل في معادلة الربط بينهما هو السبب الرئيسي لضياع سلم الاوليات ولوضع التناقضات الثانوية قبل التناقضات الرئيسية وفوقها والانحدار بخطى متسارعة نحو الهزيمة »[٥٩] .

● ان الاجوبة الخاطئة على العيوب والنواقص والانحرافات الكامنة في المرحلة السابقة يبقي النضال العربي في نفس المواقع ولا يدفع به الى الامام، فالجواب على القطرية التي تنطلق من التجزئة ومن تعميقها ، هو الموقف القومي الذي يرفضها ويضع الوحدة في البدء ، ان الجواب على اللاوحدة يكون بوحدة ثورية يلتحم فيها القومي بمضمونه الديمقراطي الاشتراكي ، لا بوحدة قائمة على الفردية أو التسلط ولا بوحدة جامعة للتناقض »[٦٠] .

● ومن أجل هذه الغاية السامية أوفد الاب القائد البكر عدة وفود وممثلين عنه الى الاقطار العربية المعنية لوضع النضال العربي على طريق التحرك والممارسة الايجابية[٦١] .

أما في أثناء وبعد حرب تشرين ــ أو أكتوبر ــ ١٩٧٣ فقد أثبت العراق أن موقفه في المساهمة بالحرب كان بطوليا ورائعا ، رغم أن قادة ثورة ١٧ تموز سمعوا بأنباء الحرب من الاذاعات ، فهرعوا الى المساهمة في المعركة القومية دون انتظار في طلب النجدة كما يقال ، وفي خطاب الاب القائد احمد حسن البكر في حفل اقيم لتكريم نخبة من قواتنا المسلحة التي شاركت في حرب تشرين في ١ اذار ١٩٧٤ قال « انني لواثق أشد الثقة بأن كل مقاتل .. وكل مواطن على أرض الوطن كان وما يزال يطمح الى أن تتوفر له فرصة الاستبسال والبذل من أجل تحرير الارض المغتصبة وصيانة حق الامة وشرفها . واضاف السيد الاب القائد ... غير أن من المؤسف أن يسعى البعض من الخائفين على مصالحهم الذاتية وضعيفي الثقة بأمتهم وقدراتها العظيمة الى اطفاء جذوة القتال والنضال وتبديد بطولات الحرب وايجابياتها في دروب التسويات المهينة »[٦٢] .

وابتداءا من مشروع روجرز ومهمة يارنغ ومن ثم اتفاقية الكيلو ١٠١ الى اتفاقية سيناء واتفاقيتي كامب ديفيد ومحادثات بلير هاوس ، كانت مواقف الثورة والحزب مستمدة من الحقائق التاريخية فان القبول بأي شكل من

أشكال الاعتراف بالكيان الصهيوني هو رضوخ لارادة الامبريالية العالميــة ودليل ليس على فشل أنظمة التسوية العربية في تصفية قضية فلسطين فحسب، بل الفشل في تلبية أدنى متطلبات العمل السياسي في حدوده التقليدية ، ناهيك عن حدوده الثورية والكفاحية .

● لقد أكد حزب البعث وثورة ١٧ تمــوز أن التآمــر الاستعماري الصهيوني لا يستهدف فقط توسيع رقعة الكيان الصهيوني (اسرائيل الكبرى) فقط ، وأنما السيطرة على الواقع العربي اقتصاديا ونفسيا وشل كافة مظاهر النهوض الحضاري والقضاء على فكرة الوحدة العربية والثورية العربية «لذلك فان الصراع مع التحالف الصهيوني الاستعماري هو صراع أيديولوجي بقدر ما هو صراع سياسي »(٦٣) .

● وتكشف كافة مظاهر وواقع ذلك الصراع أن الايديولوجية العربية السابقة لهزيمة حزيران بكل كثافتها الفكرية وعقلانيتها السياسية الهشة وثوريتها البورجوازية الصغيرة وأفقها الوحدوي التسلطي الفردي المبنى على النزعــة الزعامية القطرية ونتاجاتها الحضارية وظرفها التأريخي المتمثل بسيادة الذاتي على الموضوعي وفقدان التوازن بين القومي والطبقي وسيادة الحماس على العقل العلمي « تكشف المرحلة السابقة للنكبة أن ما شهدته السنوات الماضية مــن أهمال لهذا الاستعداد الحضاري للتقدم السريع بل ومن تآمر عليه بعد أن بدأت ملامحه تبرز في النضال العربي المعاصر قد كان عاملا أساسيا في الحاق أكبــر مذلة وهزيمة بالعرب ، كما كانت كاشفا لمظهر آخر من مظاهر الصراع العربي الصهيوني وهو أنه صراع حضاري »(٦٤) .

● وبهذا يظهر التاريخ العربي المعاصر لدى البعث كصراع بين الحداثة والمحافظة الرجعية بين الثورة وبين اللاثورة ، بين الايديولوجية الثورية التي تستمد معناها ومبناها من الجماهير وبين الايديولوجية الرجعية التي تستمد مقوماتها من الانطواء على الذات القطرية والمصالح الذاتية وروح وتقاليــد

التجمعات العشائرية والعائلية والطائفية تدعمها بيروقراطيات وتكنوقراطيات ذات رطانة مستحدثة لكنها في أعماقها رجعية لا تؤمن بالجماهير وتعتمد على السلطة ، فهي « النخبة » الحديثة التي زاوج فيها الغرب الاستعماري عناصره القديمة المترهلة ، تقف على يسارها أيديولوجية تركن الى التهميش على الثورية وتتمسك بالشكل دون المحتوى فأصبحت الثورية في أنظمتها غطاءً مثاليا لاخفاء ممارسات لا ثورية ، وأصبحت القومية برقعا لاخفاء تقاطيع سياسة لا قومية ، وهذان الشقان من الايديولوجية في جوهرهما معاديان للشعب وهما يخدمان الايديولوجية الصهيونية الامبريالية •

● ولكن ليست الثقافة السياسية ـ الايديولوجية ـ للرجعية العربية وليس أزمة أيديولوجية أنظمة هزيمة حزيران ، هي التي تفسر فشل الفكـر السابق للهزيمة ، انما الذي يفسر الازمة هو الواقع العملي لتلك النظم ، فبعد أكثر من عقد من الزمان على هزيمة حزيران تبرز تلك الازمة العملية في واقعها الفعلي مجسدة في سياسة السادات التصفوية ، فالسادات كغيره من ـ أزلام ـ الانظمة العربية التقليدية والانظمة العربية (الثورية) أتخذ من الايديولوجية ستارا لتحركاته الاستسلامية في « أزالة آثار العدوان » وفي « الحريـة » والتقدم وبناء « الاشتراكية » !! ورويدا رويدا وصل بمرور الزمن الى اتفاقيتي كامب ديفد والصلح مع العدو الصهيوني والارتماء في احضان امريكـا •

وقد يستعان بمفاهيم ومقولات ونظريات مختلفة ، وهذا ما درج على تسميته بالانتقائية ، وقد أسمته أنظمة الهزيمة زورا بالنظرية ، والقيل اذا لم يشتمل على موضوعات ملموسة عد لغوا سفسطائيا ولذا ليس له حدود في شبكة المفاهيم والنظريات المعرفية •

● « ان تقرير هذه الحقائق الاساسية يعنى جملة من الحقائق الفرعيـة والنتائج المترتبة عنها :ـ

أ ـ ان الشروط الموضوعية الراهنة تفرض الوحدة وترفض القطرية ، تستلزم الاعتماد على الجماهير ، وترفض الفردية والتسلط والبيروقراطية تحتم

وضع التناقض الرئيسي الاول مع العدو فوق التناقضات الداخلية وقبلها، وتؤكد وحدة العلاقة بين الصراع القومي والاجتماعي وترفض التركيز على احدهما على حساب الاخر .

ب ـ ان العوامل الذاتية يجب أن تخدم هذه الشروط الموضوعية في الصراع مع العدو وأن تكون ممارسة النقد البناء والنقد الذاتي عاملا في تسخير العوامل الذاتية لمصلحة الضرورات الموضوعية للمرحلة الراهنة ، وكذلك جعل الظروف الموضوعية عاملا من عوامل تطوير الخواص الذاتية .

جـ ـ ان العقلية العربية العلمية الحديثة تتمثل في المرحلة الراهنة في الرؤية القادرة على الخروج من حدود التجزئة والنظر الى الامكانيات والوسائل العربية ككل ومعرفة كيفية استغلالها وتحريكها ودفعها في طريق الثورة.

د ـ ان المواجهة الجدية مع العدو تحتم الاستناد الى استراتيجية عربية موحدة لقوى الثورة العربية على الصعيدين القطري والقومي وعلى المستويين الرسمي والشعبي »(٦٥) .

● البعث أذن في مدى آفاق ثورته في القطر العراقي استطاع أن يبنى حقيقته الجزئية ضمن تطوير ايديولوجيته في أبعادها القومية اذ أن تلك الابعاد هي أهم مقومات وجودها الفعلي .. وقد أمد ذلك الوجود برافد نظري مميز في أيديولوجيته القومية الثورية في صراعها مع الايديولوجية الصهيونية الامبريالية ..

● اذا عدنا الى الفصول التي عالجنا فيها الايديولوجية والتمييز الذي تتبناه ـ أي تلك الفصول ـ سالفا وبخاصة في ما يتعلق بالملموس ، والنظري ، والعملي ، والتجريبي ، وحاولنا تتبع هذا التمييز في مسيرة البعث النظرية والتطبيقية وجدنا أن التمييز بين النظري والعملي غير قائم ، فالعملية متداخلة في دلالات المفاهيم ووظائفها التطبيقية ، ونفس القياس الفلسفي ينطبق بالمعيار

السياسي على مسيرة ثورة البعث في العراق التي بنت واقعها على خدمة واقع الامة العربية في التزام عملي جاد وتفاعل جدلي بين الحقيقة الذاتية والحقيقة الموضوعية .

● في القضية الثالثة لا نريد استقصاء السببية ولا استقصاء العوامل اذ أن الثورة التي حدثت في القطر العراقي في السابع عشر من تموز ١٩٦٨ كما سبق وعولجت عواملها في أدبيات حزب البعث العربي الاشتراكي والتي استندت عليها فصول هذا الكتاب[٦٦] قد برهنت أن ثقلها في الساحة العربية لا يستهان به بل ان هذا الثقل كان من عوامل احباط بعض المشاريع الامبريالية ، فقد ساهم العراق منذ ١٧ تموز ٦٨ بجميع الاحداث القومية التي أجتاحت الوطن العربي وبخاصة فيما يتعلق بقضية العرب الكبرى ـ فلسطين ـ .

فعلى الرغم أن هزيمة حزيران قد ولدت المقاومة الفلسطينية الا أن المقاومة كانت تحمل أزمة الواقع العربي مع ولادتها التاريخية اذ أن المقاومة كانت تكتنفها العوامل التالية :ـ

١ ـ ان حركة المقاومة جاءت بعد هزيمة كبرى للانظمة العربية وما رافق ذلك من تدهور المعنويات وفقدان المبررات التاريخية والفكرية لتلك الانظمة الامر الذي جعل الانظمة المهزومة تبحث عن « منقذ » مرحلي ، وعندما انبثقت المقاومة حملتها أوصابها وادرانها .

٢ ـ كانت ولادة المقاومة الفلسطينية ولادة تحمل كل ما تزخر به مشيمة رحم الواقع العربي المحمل بالدمل والقيح والامراض الوبائية ـ اذ استعرنا لغة الطب ـ فكان على المقاومة أن تخوض غمار الوحل لكي تصل الى التيار النظيف .

٣ ـ حاولت الانظمة العربية المهزومة من ناحيتها تحميل المقاومة بعض الاثقال التي تنوء بها من أجل تمرير مشاريع الحل السلمي واستعمال المقاومة كورقة رابحة للضغط على الكيان الصهيوني والولايات المتحدة ، هذا

من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، انعكست مجموعة التناقضات بين الانظمة العربية على المقاومة بحيث بات الخطر يأتي من الداخل ، مذبحة أيلول ١٩٧٠ وأحداث لبنان ٢٣ نيسان ــ ابريل ــ ١٩٦٩ ، وأحداث لبنان التي انفجرت في ١٩٧٦ ولا زالت مستمرة لحد الان ، أضافة الى هذا فان التركيبة الذاتية للمقاومة كبنية تنظيمية ولدت مجموعة من التناقضات مما زاد في طغيان الذاتي على الموضوعي ، وبالنتيجة أفرزت حركات تنادي بمشروع الدولة الفلسطينية[٦٧] .

ولا نريد أن نتعرض لمفاهيم المقاومة الايجابية أو السلبية فالذي يهمنا ان الولادة الجديدة للعمل التاريخي العربي بعد هزيمة حزيران تمثلت في المقاومة الفلسطينية ولكن عندما داهمنا ــ كجماهير ــ مصطلح أزمة المقاومة وقعنا في الحرج التاريخي وقد كانت الاحداث التي توالت منذ مذبحة أيلول ومذابح تل الزعتر ، تطرح مشكلة ودليلا بل ادلة ملموسة على ان الامة العربية بعد حرب تشرين ١٩٧٣ بدل أن ترتفع قواها وامكاناتها ، تهالكت فيها بعض النظم على التسوية ومؤتمر جنيف واندفع السادات الى حد الاعتراف بالكيان الصهيوني والقبول باقامة علاقات دبلوماسية معه[٦٨] والاستهانة بالامة وقواها والجماهير وامكاناتها .

ضمن هذا السياق كانت الولادة الجديدة للبعث العربي الاشتراكي بعد هزيمة حزيران ، تطرح نفسها بما يؤكد كونها ولادة غير جاهزة مسبقا لكنها قابلة للكينونة عبر الافعال الملموسة التي يقوم بها البعث كتنظيم والبعث كثورة في القطر العراقي .

ان منظومة من الافكار المجسمة والمجسدة خلال الافعال الثورية والقيم التي انطوت عليها أو التي أظهرتها ، هذه المنظومة من الافكار التي ابرزها البعث في ساحة المجابهة مع العدو الصهيوني الامبريالي كانت متزامنة مع نفسها عبر سيرورة الحدث ، لكنها غير ذائبة في الحدث أو متحجرة فيه ، فهي تتنامى

في الزمن الحاضر والزمن المستقبلي ، أذ أن الزمن المستقبلي القريب هو امتداد للزمن وان اختلف في اللحظات الانعطافية من تطور الاحداث •

● ولعلنا الآن نستطيع أن تتبين دلالة أولية لما نعنيه « ان واقع الوطـن العربي خليق بأن يكون متباينا ومغايرا عما هو عليه حاضرا ، لو لا ثقل القطر العراقي وثورة البعث » وهذه الدلالة تتفرع الى ما يلي :ـ

أ ـ لان اللحظة التاريخية الثورية في واقع الامة العربية لولا ثقل البعث وثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز لاصبحت لحظـة استسلام بأيدي دعاة ـ التسوية ـ فالبعث يرى أن الحدث التاريخي يتزامن مع الثقة بطاقات الأمة والتفاؤل بمستقبلها وهذا ما جعل البعث يرى أن خاصية هزيمة حزيران قد أعطت للنضال العربي امكانات اللحظة التاريخية الثورية •

ب ـ طرح البعث وثورة ١٧ تموز فكرة الوحدة العربية المقاتلة كبديل للاوضاع المتفككة ازاء التحدي الصهيوني الامبريالي ، وهذا بحد ذاته « تغيير في السائد » ووضع للمشكلة في نطاقها التاريخي واخراج للوضع العربي من حالة الانفعال الى حالة « الفاعل » فلا يمكن احداث التصدع في جبهة العدو والوضع العربي في حالة الترهل ، فلابد اذن من النضال •

جـ ـ « ان الافق القومي للمواجهة العربيـة والغـزو الصهيوني والتحالف الصهيوني ـ الامبريالي ، لا يمكن أن يعزل عن محتـواه الاجتماعي الثوري كشرط أساسي من شروط تعميق هذا النضال وترسيخ طابعـه التقدمي ولا عن ابعاده الاممية كجزء لا يتجزأ من حركة التحرر والتطور الاشتراكي في العالم ، وكعامل هام وخطير في دعم الثورة العالمية وتثبيت قيمتها الانسانية »(٦٩) •

د ـ ثقل الثورة على اعطاء التحالف مع المعسكر الاشتراكي سمة ستراتيجية وفي نفس الوقت اعطاء المثال على الاستقلالية الكاملة عن الدول الكبرى •

وفي هذه النقطة وجدنا عراق ثورة ١٧ تموز قد غير في موازين القوى لصالح القوى الثورية في المنطقة العربية وغير في مفاهيم الجماهير بدحضه النظرة المتساوية للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، ولكن في نفس الوقت تحتفظ النظرة الاستقلالية التي طرحها البعث بـ « عدم التطابق « ولا تشترطه » ونحن لا نقبل ولا نفرض على أحد في علاقة الصداقة معه ، التطابق في وجهات النظر ، ومن البديهي طبقا لهذه المبادىء ، أن تكون هناك اختلافات بيننا وبين أي من أصدقائنا حول هذه المشكلة أو تلك ، في هذه المرحلة أو تلك ،وفي هذا الزمان أو ذاك ، ولكن المنهج الاجمالي في المحصلة يؤشر بالضرورة التاريخية لعلاقات الصداقة بيننا وبين الاصدقاء الذين اخترناهم أو الذين سنختارهم»(٧١) .

هـ ــ الوقوف بوجه « السلام الامريكي ــ الصهيوني » والاسهام في احباط مشاريعه من خلال عدة نقاط .

- النقطة الاولى الاعتماد على الجماهير العربية والثقة بطاقاتها .
- النقطة الثانية الربط بين الوحدة والتحرير .
- النقطة الثالثة عدم القبول بالامر الواقع الذي تبشر به أو تعتمد عليه قوى التسوية العالمية والعربية .
- النقطة الرابعة : دحض الامر الواقع بالثورة عليه ورفضه .
- النقطة الخامسة : تحويل الرفض للموقف التصفوي والاستسلامي الى واقع ايجابي ملموس من خلال دعم الكفاح الفلسطيني المسلح وتحويل الحزب وفروعه في أقطار الوطن العربي الى جبهة قتالية ضد العدو الصهيوني من خلال تشكيلات « جبهة التحرير العربية »(٧٢) .

٤ ــ تحويل التنمية القطرية الى آفاق التنمية العربية ، وقد أتينا على هذا الجانب ، ونضيف اليه أن البعث لم يجعل التنمية بديلا عن النهضة

الحضارية ، فقد جعل التنمية طريقا الى النهوض الحضاري العربي ، وفوق كل هذا فان البعث لم يتبن التنمية كأيديولوجيا فكرية كما فعلت بعض البلدان حينما هرولت الى التنمية متبنية الشكل الايديولوجي أيضا ، فتسلطت في مراكـز التوجيه قوى بيروقراطية وتكنوقراطية واستمدت السلطة من ــ انجيلها ــ فكرانية التحديث ــ ، ان رؤية حزب البعث العربي الاشتراكي للتنمية ، تخضع كافة أشكال التطـور الاقتصادي وطرائق النهوض التنموي للايديولوجية الثورية والنظرة العلمية المؤمنة بالجماهير ، وهذه الايديولوجية تخضع الاقتصاد والتنمية للحاجـة الاجتماعية والقومية والانسانية ولا تجعل العلم الواقعي الوضعي يستبد بالانسان في فعاليته وحركته ، بل تجعل الانسان هو المتحكم بالعلـم والاقتصاد ،

● ان هذه النظرية بقدر نهوضها بالطاقات العربية التنموية من تصنيع وانتاج و « تراكم » وسلع وتجـارة وتوسيع القـدرة العربية في مضمـار التكنولوجيا ، بقدر ضبطها للنهوض التنموي في اطاره الاقتصادي وعـدم تحويله الى أيديولوجيا وتكون قد اوجدت القاعدة والقياس ، ولقد تم ذلـك بالقياس الى ما قدمته ثورة ١٧ــ٣٠ تموز فيالسنوات الماضية والمثال النموذجي هو أن الثورة وقفت أمام الغزو الثقافي الاجنبي الذي يرافق غالبا اسـتيراد التنمية ، اذ ان نقل أيديولوجيا التنمية وما يرافقها من أفكار مستوردة يؤدي الى ارتباط أوضاع البلاد بايديولوجيا الدول المتقدمة •

● ولقد كانت مهمة الفكر الثوري في جدل البعث أن يصوغ للتنمية بعدا وافيا ضمن مكونات النظرية العلمية التي تقود الحزب والثورة ، وبذا تقدا الحزب والثورة مفهوم « الانسان الاقتصادي » وتجديدات هـذا المفهوم القانونية والاخلاقية ، واعتقد أننا عالجنا ذلك سابقا ، والذي نأتي عليه الان هو أن البعد التنموي من الناحية الاقتصادية للقطر العراقي وآفاق ذلك البعد القومية ، قد ساهم في قدرة الامة العربية على الصمود والتطور •

● وعلى هذا الاساس « ترتكز سياستنا الاقتصادية في منهجها العام ليس على أساس حساب الاحتياجات ضمن القطر العراقي ، وانما على أساس حساب دورنا في سد جانب من الاحتياجات المتوقعة للشعب العربي والوطن العربي ، وعلى أساس ربط حلقات التطور ، عبر شمولية الحياة العراقية عموما ومن بينها الحياة الاقتصادية ومن ربطها ربطا محكما بتصوراتنا القومية لبناء دولة العرب الكبرى ، ودور حزبنا ــ حزب البعث العربي الاشتراكي في ذلــك .

واضعين في الحساب أن الدولة الاكثر اقتدارا في بناء الحلقات المركزية لتطور دولة العرب الكبرى يجب أن لاتتردد في هــذا وتنتظر ريثما تتوفــر الفرصة لاقطار عربية أخرى في الوطن العربي »[٧٣] .

● هكذا فان ثقل العراق الاقتصادي والسياسي والعسكري بعد ثورة ١٧ تموز غير الواقع ولولا ثورة ١٧ــ٣٠ تموز لكان الواقع العربي على غير ماكان عليه.

في هذة القضية قد يطرح التساؤل :ــ هل معنى هذا أن الامة العربيــة عاجزة لولا البعث وثورة تموز ؟ . . الجواب بالنفي قطعا اذ أن الامة أكبر من أي حزب مهما كان عمره وتجربتة ونضاله ونظريته والانتماء الحزبي في أي أمة مهما تعاظم فهو يظل قطرة من بحر ، والامثلة على ذلك عديدة من ذلك الحزب الشيوعي السوفياتي الذي يمتد عمره الى بداية هذا القرن[٧٤] وقد حكم منذ العام ١٩١٧ ولحد الان لا زال اعضاءه بالقياس الى الجماهير قطــرة من بحر فحسب احصائية جرت منذ سنوات خلت كان عدد المنتمين للحزب لا يتعدى ١٢ مليون نسمة ، وفي الصين ، وفي كوريا ، وفي كوبا وكثير من دول العالم .

وبالنسبة للاوضاع العربية السياسية التي تعاقبت حكمت احزاب وحركات وسلطات وكان عدد المنتمين اليها مهما عظم لا يرقى بل لا يصل الى عدد الجماهير الهائل ، هذه حقيقة أولية ، أما الحقيقة الثانية ، فهي أن الامة هي التي تخلق الحزب وليس الحزب هو الذي يخلق الامة وقد جئنا على أدبيات حزب البعث حول هذه النقطة بصورة غير مباشرة .

● لكن الامة المبعثرة الممزقة والتي تعيش في أزمة تاريخية كبرى قابلة لفهم نفسها من خلال حزب يمثل ارادتها وطبقاتها الكادحة التي يقع عليها عبء التغيير التاريخي ، وعلى ذلك فان امتنا بحاجة الى تجسيد ارادتها وهي « انما تحتاج الى حزب الى حركة ، تمثل بالدرجة الاولى عنصر الروح .. والحياة ، لتشع منها فيما بعد على المجموع الاكبر ، والحزب الحقيقي ، الحزب الحي الذي يمكن أن يؤدى رسالة في هذا العصر للامة العربية هو الذي يجعل هدفه خلق أمة أو بعثها شريطة ان يحقق هذا الشرط في نفسه اولا »[٧٥] .

ولا نريد أن نعود الى مفهوم الطليعة والحزب في المدارس والتيارات السياسية وحدود مساهمة النظريات والتطبيقات ومواصفات كل نظرية أو ممارسة ومسائل العفوية والتنظيم ، فهذه أمور لا تتعلق بالموضوع الذي نبحثه، وقد كان لها مجال للمناقشة فيما مضى من سطور .

والمهم لدينا أن حزب البعث العربي الاشتراكي ، وجد نفسه كحزب طليعي ،.. هو اذن حزب من نوع جديد ، انه واقع الامة يمثل فكريا نزوعها وطموحها في الثورة والتغيير ، وهو في ذات الوقت منظمة الطليعة والطبقة الفاعلة في التاريخ ، فهو يجند معظم كوادره من هذه الطبقة ويؤقلم نفسه باستمرار لاستيعاب حركة الامة التاريخية .

وبذا وجد البعث أنه « الاقدر » على تحقيق ثورة الامة العربية ووحدتها والبعث حزب كوادر تتمتع بمستوى مرتفع من الوعي والانضباط ، والذي عزز هذا المستوى طابع الطليعة والاختيار الصارم والتجارب الصعبة التي مر بها الحزب ، وكان الحزب هو « الاقدر » أيضا في اختيار اللحظة التاريخية وفي تصور الازمة التاريخية وضرورة الثورة ، لكن ثورةالامة العربية كانت ستتحقق لو لم يوجد البعث لأن الامة العربية والشعب العربي سيخلفان غيره بيد ان هناك تحفظا ازاء هذه النقطة وهو :ـ هل سيكون ذلك الحزب البديل في فعالية الوعي مطابقا للبعث ؟. وهل يستطيع ملاحظة السياق التاريخي للثورة العربية ؟. وهل منظومة الافعال فيه مباينة او مطابقة لافعال البعث ؟.

● بالطبع لا يمكننا الاستنتاج اذ أن سيرورة الحدوث والافعال تظل مجرد حدس نظري ، وكما سبق وأشرنا فان حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب الوحيد في الوطن العربي الذي استعمل طرق تركيب المنطق الجدلي في نظرته للواقع العربي ، ، كل قطر على حدة وفي النظرة القومية العامة ، وبناء على تلك النظرية فانه وصل الى مقولة فلسفية بعدم امكان بناء النظرية بشكلها المتكامل قبل البدء بالممارسة النظرية[٧٦] .

واذا استعرنا منطق المفكر الاشتراكي شارل بتلهايم في قوله « لا يمكن اعادة خلق المحدد بواسطة جمع التجريدات ، ولكن المطلوب هو عملية انعكاس Repoduire وذلك باستعمال الجدلية سبيل الوصول الى الواقع ، بهذه الطريقة يعني ضرورة التوسط باعادة تركيب مفهومية Conceptuelle للكل العضوي ، لتركيب اقتصادي ، اجتماعي معين ، وهذا مستحيل دون أن تأخذ بنظر الاعتبار الاوقات ــ المراحل ــ التي تتكون منها هذه الكلية»[٧٧] .

● ان البعث وثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز استعملا الممارسة لتغيير الوضع العربي ولذلك فان صياغة « الكلية » العامة للمجتمع العربي في أفقه المستقبلي وتكامله الوحدوي الاشتراكي قد تحددت ملامحها في الممارسة الاقتصادية ــ الاجتماعية والبناء الثوري كما أنها ستغتنى بآفاق الممارسات الثورية للثورة العربية في كل أقطارها وأية ثورة يقودها حزب البعث في الاقطار العربية ، ذلك أن التماس مع الممارسة والتعمق بها من خلال هدى نظرية البعث في الامة والوحدة والاشتراكية أخذا بنظر الاعتبار مستوى تطور المجتمع وقواه الانتاجية ومستوى وعي الطليعة فيه .

● وبديهي أن نظرية البعث هي النظرية الوحيدة في الوطن العربي التي تربط بين النظرية والممارسة ولا تجعل ــ المقولات ــ نهائية ابدا ، اذ ان مسألة تحليل الواقع تتطلب معرفة ما هو التناقض الرئيسي في مرحلة ما وقد حدد المؤتمر القومي العاشر جملة من التناقضات الرئيسية في مرحلة الاربعينات

والخمسينات والستينات والسبعينات[٧٨] وهذا ما دفع بالوضع العربي في مستواه الثوري الى تمثل التناقض الرئيسي طبقا لفعالية البعث في جوانب ذلك الوضع وبقدر حجم تأثيره الجماهيري الامر الذي رجح كفة الوعي الجماهيري ازاء مسيرة النظم الاستسلامية .

● ان الواقع السياسي الراهن في الاقطار العربية كما هو معروف نتيجة لعدة عوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية وحضارية واستعمارية وسيطرة اقتصادية وعسكرية وتلاقى عدة أسباب وتيارات ، من استقلالية وقومية تحررية اشتراكية وشيوعية ، وليبرالية ، وديمقراطية بنزعتيها الانكلو سكسونية والانكلو امريكية ، كما أن الوضع السياسي فيه مر بعدة مراحل وشاهد وعاصر قيام التحالفات العالمية والنزعة الستالينية وانفكاك امبراطوريات عثمانية وبريطانية ، والمانية وتكون امبراطوريت ومراكز قوى عالمية جديدة . وعاصر دولا حليفة لبعضها البعض تصبح متعادية في المقام الاول بعد افول مرحلة التحالف . وقيام دول وسقوط أخرى .

والوطن العربي مارس نضالا من أجل الاماني الوطنية ــ القومية ضد التناقض الامبريالي الصهيوني ، وهو الان أمام النكبات والمحن والخيانات الداخلية ينهض بمجموعه لمقاومة التناقض الرئيسي .

● من هنا فان حزب البعث العربي الاشتراكي يزج بكل امكاناته ضد العدو الامبريالي الصهيوني ، وقد عقد مؤتمر قمة بغداد ١٩٧٨ من أجل هذا الهدف .

ومع أن الطابع القومي للبعث هو السمة المميزة له ؛ الا انه يوازن بين الجانب القومي التحرري والجانب الاجتماعي . وعلى هذا الاساس يتخذ الجانب النضالي للبعث سماته الرئيسية ، ويمكن اعتبار ما يلي :ــ

١ ــ صيانة وحدة التربة الوطنية في القطر العراقي بحل المسألة الكردية ديمقراطيا .

٣ ـ انجاز الجبهة الوطنية والقومية التقدمية .

٤ ـ الدخول في مرحلة التحويل الاشتراكي .

٥ ـ الوقوف ضد المشاريع الاستعمارية .

٦ ـ المشاركة الفعالة في حرب ٦ تشرين ١٩٧٣ .

٧ ـ صب قوى الحزب وفروعه في العمل الفدائي .

٨ ـ جذب بعض مراكز الاستقطاب الدولية نحو الاقتراب الى مواقع الثورة العربيـة .

٩ ـ الوقوف بوجه الدول الكبرى في مسائل تحويل التنمية من جانب تلك الدول الى أيديولوجيا ، وجعل التنمية خاضعة لاطروحات الايديولوجيا العربية الثورية للحزب .

١٠ـ « التفاعل بالاطار الانساني المشروع مع التيارات الفكرية العالمية عموما واتجاهاتها الصحيحة ، حسبما تقدم من خدمة للامـة العربية وكذلك نفترض ان الامة العربية قادرة على أن تغنى التيارات الانسانية الموضوعية في خدمة البشرية ولاغراض التطور ، من خلال عطائها الانساني الخاص والمستقل والمتفاعل »[٧٩] .

١١ـ السعي لتحقيق الوحدة العربية ووضع هذه الوحدة في مستوى التصدي للعدو الصهيوني الامبريالي .

● يمكن اعتبار ذلك دليلا على أن صورة الواقع العربي بشكلها العيني المشاهد لم تكن على ما هي عليه لولا ثقل القطر العراقي وثورة البعث وهذا يبين الاهمية الحاسمة لثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز وقيادتها التاريخية .

ان هذا يوصلنا الى القضية الرابعة التي هي « ان ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ كانت منتصرة بزعامة القيادة السياسية وبمجهوداتها التي استطاعت ان تدرك توجهات الجماهير وأزمة الامة العربية الحضارية والتاريخية » .

● ان توكيد دور القيادة يدفعنا الى التوكيد على الدور القيادي في الحزب « وهذه القيادة لكي تكون بمستوى مهامها المطروحة في موضوع القيادة العامة والخاصة تتوفر فيها المستلزمات التالية :ـ

١ ـ تستند سياستها الثورية الى العلم وذلك بالتمسك بالنهج العلمي في ميدان الفكر والتطبيق »[٨٠] وقد أثبتنا هذا الجانب في الفصول السابقة، لكن الذي نؤكد عليه هنا أن قيادة ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز قد لاحظت ضمن الاحداث التي توجت بانتزاع السلطة من الطغمة العارفية الرجعية ، ان القيادة المحنكة المستوعبة لدروس وتجارب النضال هي القادرة على اكتشاف لحظة الحسم وقد لاحظت القيادة السياسية للثورة أن الارتياب وعدم الثقة الذي أبرزته تيارات انتهازية في مسيرة حركة الثورة العربية ، قد يستثارا في الحزب والجماهير لعرقلة دور الحزب ذاته فبادرت بانتباه علمي لا يغفل التفرعات الضرورية والاحتمالات المتوقعة لا سيما في فترة استلام السلطة من قبل حزب ثوري ، وابتدأت بالحزب نفسه ، أي بتجديد بنيته الذاتية ، وقد ورد في تقرير استراتيجية المرحلة للمؤتمر القومي التاسع التركيز على النقاط التالية : « اقامة بنيان الحزب التنظيمي على أساس ثوري عن طريق التزام قواعد ثورية لا تكتفي من العضو بمجرد الايمان بفكرة الحزب بل تتطلب منه التزاما كليا »[٨١] .

وتجديد بنية الحزب الطبقية « بتركيز العمل الحزبي في الاوساط العمالية والفلاحية ، وكذلك تجديد الاطارات الحزبية والاهتمام بالنوعية والدقة في الاختيار والعناية الفائقة بالتربية الحزبية »[٨٢] .

● في هذه النقطة كان للقيادة الدور الاساسي في تبني موقف الفعل الثوري العلمي والعقلاني في تجديد البنية الذاتية (لأداة الثورة وصانعها) الحزب ... ومعرفة الذات كما يقال فلسفيا هي فهم للواقع واحاطة به .

٢ ــ ان القيادة السياسية للبعث وثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز لم تتخذ موقفا دفاعيا في موقفها من الرجعية والامبريالية ، بل على العكس اتخذت موقفا هجوميا فلم يعرقلها التشويش أو المؤامرات أو الاشاعات ولا حتى الاعتداءات المسلحة لدولة مجاورة في حينه ولا حرب الجيب العميل في شمال العراق ولا مناورات وضغوط شركات النفط الاحتكارية ، وهذا الموقف وفر للجماهير المبادهة والمباشرية ووفر للحزب النمو والنهوض والتوسع •

٣ ــ أعطت الثورة وحزب البعث العمل القومي بعده التاريخي وقد جاء ذلك بـ « اعطاء مفهوم القيادة القومية صيغة عملية »[٨٣] •

٤ ــ تشخيص المراحل التاريخية صفة مميزة للقيادة الناضجة والناجحة سواء في الحزب أو الدولة ، ومن خلال التشخيص الدقيق الذي قامت به قيادة البعث وثورة ١٧ تموز أمكن تسليح الحزب والجماهير بمجموعة من الاهداف المرحلية تقاس الحقيقة بها آنيا ، وهذا التشخيص ينطوي على ــ المرونة ــ التي تخدم الهدف ، والحسم الذي ينجز الاعمال •

٥ ــ تحديد « الهدف » في حالة الازمة ، وهذا مبدأ قامت عليه ثورة ١٧ تموز وهناك مثل يقول : « اذا أطلق أحد ما ناره على الملك فعليه الا ، يخطئه »[٨٤] •

● وكل هدف حددته ثورة ١٧ تموز أصابته الجماهير بدقة ولم تخطئه فالثورة المميزة تاريخيا تصارع قوى امبريالية ذات طاقات وامكانات هائلة لا يمكن التهاون معها عند اصابة الهدف ، هذه الثورة لا يمكن أن تزج قواها كلها حتى لا تستدرج الى « الكمين » ولا تخطىء الهدف المرحلي حتى لا تضيع المرحلة التاريخية ، فاستعجال الموعد قبل أوانه قد يعطي الامبريالية فرصة ثمينة في زج احتياطياتها ، ولكن لا يمكن

اضاعة الهدف المرحلي لصالح المرونة « وهذا الانتقال المرحلي في التاريخ قد يضع الى الستراتيجية العامة ستراتيجية مرحلية وهذه الستراتيجية المرحلية تحتوي على مجموعة اجراءات تكتيكية وتخطيطات ومنجزات »[٨٥] .

٦ ـ تحويل القطر العراقي الى ـ بؤرة ـ ومركز اشعاع للثورة العربية عن طريق بناء العراق موضوعيا وجعل مبادىء الحزب في أصعدتها الاقتصادية والاجتماعية مسألة حياتية يومية ، ولكي تصبح الايديولوجيا كلا جماعيا، وكما يقول الرئيس القائد صدام حسين « فما لم نكون وطنية صميمية ، وما لم نرفع الظلم والاستغلال في العراق فاننا لن نكون قادرين على ايصال مبادىء الحزب الى ابعد من العراق بل حتى في داخل العراق ، فان دعواتنا ستتحول الى مثل ما مرت به التجارب الفاشلة في بلدان العالم الثالث حيث يتحدث المعنيون من قادة التغييرات الوطنية عند بداية التغييرات السياسية في تلك البلدان عن الوطنية والاشتراكية وغيرها من الشعارات وبعد أن يغادر أولئك الساسة مواقعهم الامامية لأي سبب من الاسباب نجد القوى المضادة تعود لتسلم مسئوليات الدولة بدون عقبات كأداء لأن القوانين التي كانت سائدة عندما وقعت تلك التغييرات تبقى ذاتها سائدة ، ولأن الشخوص في الصفوف الثانية لم يبدلوا أو يغيروا تغييرا ثوريا ، ولم تخلق عرف وتقاليد ثورية راسخة وجديدة في المجتمع ومؤسسات الدولة الرسمية »[٨٦] .

٧ ـ ومن أهم مزايا القيادة السياسية لثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز والبعث ، العبقرية التنظيمية ، فالقوة التنظيمية للحزب ولقوى الثورة ، أعطت القيادة السياسية امكانية التأثير في الاحداث منذ اليوم الاول للثورة ،

وقد تجلى ذلك « في الالتزام الكامل بمبادىء الديمقراطية المركزية الخمسة :ــ

أ ــ مشاركة قاعدة الحزب عن طريق حق الانتخاب وحق النقد داخل المنظمة في رسم سياسة الحزب وخططه ، فبممارسة حق النقد تصل آراء القاعدة لأعلى قيادة وبممارسة حق الانتخاب يصل ممثلوها لأعلى مؤتمر حزبي يقرر سياسة الحزب ويخطط له .

ب ــ خضوع القيادات الدنيا للقيادة العليا .

جـ ــ التزام الاقلية برأي الاكثرية .

د ــ الصفة الالزامية غير المشروطة للقرارات التي تتخذها القيادة .

هـ ــ قيام القيادات بتقديم تقرير عن أعمالها التي انتجتها توضح خططها وتشرح سلوكها وتعترف بأخطائها »[٨٧] .

٨ ــ القدرة الخلاقة في الرد على التحدي الداخلي ، المتمثل بالرجعية والجواسيس والتفكك الاجتماعي بوساطة تجنيد قوى الحزب وقوى المجتمع ومنذ بدء ثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز استطاعت القيادة السياسية ابراز قوى خلاقة ومبدعة في العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وقد تجلى ذلك :

أ ــ في تفجير طاقات الحزب والشعب بواسطة العمل الشعبي .

ب ــ في تحويل المجتمع سياسيا واقتصاديا .

جـ ــ في الاعتماد على طاقات الجماهير .

د ــ في جعل الوحدة الوطنية قوة متراصة ــ رغم كل الثغرات ــ أداة لتحقيق أوسع الطاقات للرد على الرجعية واستئصالها ،

هـ ـ تنقية المجتمع وتطوره من شوائب أمراض التحلل والكسل والفهلوية ـ البهلوانية ـ السياسية ، والمغامرة ، والانتهازية التي تصيب عادة المجتمعات الانتقالية او المجتمعات التي تشكو من علل وأمراض التدهور •

و ـ دفع المجتمع في القطر العراقي الى الثقة بنفسه من خلال القدرة في بعث امكاناته الخلاقة ووضع الاسس في بدء الثورة ـ لنهضته وانطلاقته الجديدة •

٩ ـ وقد شكل هذا عاملا تاريخيا لابراز الذات الثورية للانسان من أجل الرد على التحدي الخارجي ، المتمثل بالامبريالية والصهيونية ، ففي العلاقة الفعلية بين العمل الثوري وتفرعاته الاقتصادية والاجتماعية والانسان في العراق ، تولد شعور بالثقة بالنفس ، وفي هذه العلاقة برزت معاني الشعارات ومراميها في المدلول الاجتماعي العام ، الا أن الثورة التي ورثت واقعا يتمثل في تدني الانتاج وقوى الانتاج لم يكن بمقدورها ابراز الذات الثورية للمجتمع في القطر العراقي الا اذا حولت الانتاج وقواه تحويلا ثوريا وقد فعلت ذلك ، وكان نقل الواقع الاجتماعي الى المستوى الثوري يتطلب زمنا وتضحيات ويقظة مستمرة أزاء الرجعية والمؤامرات الخارجية الاستعمارية ، وتجميع قدرات الحزب والجماهير في تيار حركة الثورة ومراميها ، وكان هذا الطريق طويلا وشاقا ، لكنه طريق الثورة التي تصنع التاريخ •

١٠ـ ثمة خاصة مميزة في ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز وأعني بها عدم نقل الواقع الاجتماعي الى التضحيات الواقعية ، وتعويضه بشعارات مثالية رمزية تعطى تلك التضحيات معنى الفداء في الوقت الذي تغلف الحياة الواقعية بغلاف لا انساني كما فعلت الستالينية التي ذهب فيها الكادحون ، المعذبون في الارض ضحية الطغاة ، وذهب مجد ستالين بعدئذ ضحية

الاسباب التي أوجدها بنفسه ، فثورة ١٧ تموز وحزب البعث العربي الاشتراكي أوجدا المعاني في التضحيات الواقعية تعويضا في الاعمال والآثار وقد جنى المجتمع تطورا اقتصاديا كبيرا • وامتلك فوائض وفوائد أعماله •

ومن هنا كان الشعب في القطر العراقي يشعر أن ثورته وحزبه وقيادته تمده بروافد الحياة ليصنع التاريخ ويجنى ثمار تطور قوى الانتاج في الازدهار وارتفاع مستوى المعيشة ، والانتاج الاشتراكي •

١١- الخاصة المضافة أو المباشرية البديهية في ثورة تموز وحزب البعث ، هي الوقوف بوجه أي جنوح نحو تحويل الايديولوجيا الثورية والاحتراف الثوري ، الى تعالى بنيوي على الشعب ، من خلال تحويل الفكر الى تبرير رمزي استعلائي للفئات المتميزة ، والضرب بقوة لتصفية مثل هذا التوجه • ولذا كانت القيادة السياسية تفقه الافرازات التي تحملها المسيرة ولذلك ربطت بين الايديولوجيا الثورية وبين الممارسة وربطت بين الممارسة والتضحية ، وبين الايمان كمسلمة عملية نضالية والايمان كأمر روحي •

ومهما اطلنا البحث والتنقيب في ثورة ١٧ تموز وحزب البعث العربي الاشتراكي وقيادته السياسية،نظل قاصرين ، ذلك ان الحقيقة كالعبقرية القيادية من العسير الوصول اليها وان كانت واضحة وغير مغلفة كالشمس في ضحى النهار ، بيد اننا نقول ان ثورة ١٧ تموز هي نتاج الامة العربية وواقعها التاريخي واحساسها بذاتها وقدراتها في النهوض الحضاري •

وعلينا الان ان نحاول تقصي ملامح وسمات العبقرية القيادية للقيادة السياسية للثورة والحزب ، وهذا فضول مشروع اذ ان رجال الاحداث ليسوا ملكا لانفسهم فهم ملك للامة وجماهيرها وملك للتاريخ العربي •• وهذا ما تحتويه صفحات كتابنا القادم •

مصـادر الفصـل السابع

(١) ص ٥ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ١٩٧٤ ، ثورة ١٧ تموز التجربة والآفاق .

(٢) ص ٩ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، المرجع السابق .

(٣) ص ١٦ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، المرجع السابق .

(٤) ص ٢٠ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، المرجع السابق .

(٥) راجع بهذا الصدد (مركب النقص) عقدة أوديب في الاسطورة وعلم النفس ص ١٥٥ ــ ١٨٧ نظريات س . ج ، يونغ ، راجع النفس الجماعية عند يونغ ، يؤكد يونغ أن النفس الجماعية بصيرورتها تمثل عقلا جماعيـا فالاولى تمثل الفكر الجماعي والثانية تمثل الشعور الجماعي ص ٤١٦ عقدة أوديب في الاسطورة وعلم النفس ترجمة جميل سعيد ، مكتبـة المعارف ، بيروت ١٩٦٢ ، راجع أيضا حول علم النفس العنمي وتطبيق علم النفس في مجالات الانتاج والبنية الاقتصادية خارج اطار الفرويدية الجنسية ، (ويلهم رايش) « تطبيق التحليل النفسي في البحث التاريخي» دراسات عربية شباط ١٩٧٢ العدد الرابع ٤ ــ ٢٥ .

(٦) راجع بهذا الصدد ، امين سعيد ــ الثورة العربية ج ٢ ص ٢٨ و ص ١٣٣ و ص ٨٣ ــ ٩٣ و ج ٢ ص ٣٨ و ص ١١١ و ص ١٢٢ نص مشروع فيصل كلمنصو و ج ٢ ص ١٣٠ ــ ١٣٢ وج ٣ ص ٢٣٣ وراجع أيضـا العقلية العربية بين الحربين (علي حاج بكري) نبيه امين فارس ، مطبعة الترقى ، دمشــق .

(٧) يقول غروت Grote « ان جهاز الحيلة الذي كان يؤدى الى خداع الناس وحملهم على الاذعان والخنوع مؤقتا كمقدمة لاستعمال القوة التي تفرض الاذعان قسرا ، كان الاداة التي استعملها الطغاة ، الاغـريق » ص ٩٩ السلطان برتراند راسل وهذه الحيل استخدمت وطبقت عـلى الجماهير العربية ، اذن أن أصل الحيلة واحد وأهدافها واضحة تاريخيا. سبق لنا الاستشهاد بغروت في هامش سابق . وقد كررنا المقولة للتوكيد. في موضوع السفسطة راجع ص ١٦٩ ص ١٧٠ ــ ١٧١ و ١٧٢ من كتاب فلاسفة يونانيون ــ العصر الاول . د. جعفر آل ياسين ط أولى ١٩٧١ .

(٨) ص ١٩ العرب والامبريالية ، د . عبدالوهاب الكيالي .

(٩) ص ٧ ــ ٨ في ضوء التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامـن ، آراء ومناقشات ، وزارة الاعلام سلسلة الكتب الاعلامية ٥٩ سنة ١٩٧٤ .

(١٠) ص ٢٥ ، في ضوء التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن .

(١١) ص ٤٦ تطور الفكر الاشتراكي في الحزب المرجع السابق .

(١٢) جون ديوى :ـ راجع شرح فلسفته في كتاب ول ديورانت ـ قصة الفلسفة
(١٣) جون ديوى ، مقالات في المنطق التجريبي ص ٢٣ عن ول ديورانت ، المرجع السابق .
(١٤) جون ديوى ـ البحث عن اليقين ، الفصل الرابع ، المرجع السابق .
(١٥) ديوى ، المنطق التجريبي ص ٢٥ عن المرجع السابق ول ديورانت .
(١٦) ص ٥٢ تطور الفكر الاشتراكي للبعث ، د . الياس فرح ، نقله عن في سبيل البعث ص ٣٠٣ .
(١٧) ص ٤٧ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن
(١٨) ص ٥١ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن
(١٩) ص ٥٤ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن
(٢٠) ص٥٢ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن .
(٢١) جريدة الثورة ٢٠ كانون الاول ١٩٧٩ ، صدام حسين ، الاشتراكية طريق لاسعاد الشعب .
(٢٢) جريدة الثورة ٣ ك ٢ ١٩٨٠
(٢٣) د . عبدالعال الصكبان .
(٢٤) جريدة الثورة المصدر السابق .
(٢٥) جريدة الثورة ٣ كانون الثاني ١٩٨٠ ، صدام حسين،العراق سيد نفسه.
(٢٦) المصدر السابق ٣ كانون الثاني ١٩٨٠ .
(٢٧) للافاضة راجع أحاديث في القضايا الراهنة ، صدام حسين ص ٣٧ وما بعدها .
(٢٨) ص ٦٨ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ثورة ١٧ تموز التجربة والآفاق .
(٢٩) ص ٢٣ المسألة الكردية الوضع الراهن وآفاق المستقبلمنشورات الثورة.
(٣٠) راجع ص ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٥ صدام حسين ، أحاديث في القضايا الراهنة .
(٣١) ، (٣٢) ص ٤٦ ـ ٤٧ المسألة الكردية الوضع الراهن وآفاق المستقبل .
(٣٣) للاستزادة راجع صدام حسين ، أحاديث في القضايا الراهنة ، ولادة بيان ٢١ اذار ١٩٧٤ . في اجتماع موسع للشخصيات الوطنية والقومية التقدمية في القطر ، عقد في قاعة الخلد ببغداد .
(٣٤) ص ٧٣ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، ثورة ١٧ تموز التجربة والافاق .
(٣٥) ص ٤٨ المسألة الكردية الوضع الراهن وآفاق المسقبل .

(٣٦) ص ٦١ أحاديث في القضايا الراهنة ــ صدام حسين .

(٣٧) ص ٧٥ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، المرجع السابق .

(٣٨) ص ٢٣ في ضوء التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن .

(٣٩) ص ٧٨ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر ، المكتب الثقافي القومي.

(٤٠) ، (٤١) ، (٤٢) ص ٧٠ ــ ٧١ ــ ٧٢ ــ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٤٣) ص ٥ الشروط في تحقيق الجبهة الوطنية التقدمية ، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ، السلسلة الوثائقية رقم ٤ ــ بين الثورة والجماهير .

(٤٤) راجع حول هذه المسألة ص ٥٩ ــ ٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢ ــ ٦٣ ــ ٦٤ استراتيجية المرحلة الراهنة الطبعة الثانية ايار ــ مايو ــ ١٩٧٣ دار ، الطليعة .

(٤٥) ص ٧ الشروط في تحقيق الجبهة الوطنية التقدمية .

(٤٦) Utopia يوتبيا أو طوباوية كلمة مشتقة من اليونانية ، من كلمتين (أو) وتعنى ــ لا ــ وطوبوس ــ وتعنى مكان ، والطوبوية في السياسة تعني ضرب من الاشياء لا أصل لها او اشياء مختلقة ، أو أمنية بعيدة عن الواقع الاجتماعي ، وهي لا تتوطد بالواقع الملموس ، بقدر ما تكثر الافكار المسبقة ويقل الوعي ويكثر الجنوح نحو الخيال ، بقدر ما تنبثق الطوباوية.

(٤٧) ص ٥١ استراتيجية المرحلة الراهنة ، المرجع السابق .

(٤٨) ص ٣١ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر ، المكتب الثقافي القومي.

(٤٩) جريدة الجمهورية البغدادية ٢٩ كانون الاول ١٩٦٩ .

(٥٠) جريدة الثورة البغدادية ٧ــ٨ــ١٩٧٠ .

(٥١) ص ١٣٢ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٥٢) راجع نص تصريحات الاب القائد احمد حسن البكر في جريدة الثورة ٧ــ٨ــ١٩٧٠ .

(٥٣) راجع التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر الصفحات ١١ الى ٣٥ .

(٥٤) راجع جريدة الثورة البغدادية ٦ تشرين الثاني ١٩٦٨ .

(٥٥) جريدة الثورة ٢١ــ٧ــ١٩٧٠ مؤتمر صحفي للاب القائد احمد حسن البكر في مبنى المجلس الوطني .

(٥٦) راجع نص المشروع في جريدة الكفاح اللبنانية ٢٥ اذار ١٩٧١ ص١ وص٨.

(٥٧) ص ٤٠ ــ ٤١ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٥٨) راجع حول هذا الموضوع جريدة الثورة البغدادية ٤ تشرين الثاني ١٩٦٨ المقال الافتتاحي ــ رسل الوحدة والالتزام القومي .

(٦٥) انباء ليلة ٩ـ١٠/١/١٩٧٩ التي اذاعتها الوكالات العالمية ـ انصات .

(٦٦) ٦٤ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٦٧) مجلة الاحرار ١٠/١١/١٩٧٣ ، د . الياس فرح ، العرب والاتحاد السوفياتي .

(٦٨) ص ٧١ معركة الاستقلالية والسياسة الدولية صدام حسين .

(٦٩) راجع تفاصيل أخرى في التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٥٩) جريدة الجمهورية ٢ اذار ١٩٧٤ العدد ١٩٥٦ وحول موقف ثورة ١٧ تموز وحزب البعث من حرب تشرين راجع ، تقرير حرب تشرين الصادر عن

(٦٠) ص ٦٤ ـ ٦٥ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٦١) ص ٦٥ ـ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٦٢) ص ٦٥ ـ ٦٦ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٦٣) راجع الصفحات ٣ الى ص ٢٩ التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن

(٦٤) المقصود الجبهة الديمقراطية .

ـ ثورة ١٧ تموز التجربة والافاق .

(٧٠) ص ٣٩ ـ ٤٠ معركة الاستقلالية والسياسة الدولية ، صدام حسين .

(٧١) راجع ـ الثورة الروسية ، عمر عبدالعزيز ١٩٥٩ القاهرة .

(٧٢) ص ٣٣٩ في سبيل البعث ط ٢ .

(٧٣) لاحظ الفصل الثاني والثالث من هذا الكتاب .

(٧٤) ص ١٠ دراسات عربية العدد ٣ ك الثاني ١٩٦٧ بناء الاشتراكية مشكلات الاقتصاد الانتقالي شارل بتلهايم ، ترجمة فواز طرابلسي .

(٧٥) راجع الصفحات ١٤ الى ص ٣٠ وص ٣٣ الى ص ٤٣ وص ٦٣ الى ٨٢ من التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر .

(٧٦) ص ٧٦ ـ ٧٧ معركة الاستقلالية والسياسية الدولية ، صدام حسين .

(٧٧) ص ٢٤ الحزب القائد في النظرية والتطبيق .

(٧٨) ، (٧٩) ص ٤٧ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر، الهوامش المضافة .

(٨٠) ص ٤٨ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر ، الهوامش .

(٨١) ص ٤٨ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر، الهوامش .

(٨٢) ص ٢٠٣ البطل في التاريخ ، سدني هوك ، مصدر سابق .

(٨٣) ص ٢٦ الحزب القائد في النظرية والتطبيق مصدر سابق .

(٨٤) ص ٤٨ التقرير السياسي للمؤتمر القومي العاشر ، الهوامش .

مراجع التوثيق

اسماء المصادر والمراجع التي استعنا بها للمقارنة ولم نقطف منها شيئًا ، اعتمدناها للمراجعة والتوكيد والاستقراء ، لما ورد في الكتاب

١ ــ هيغل

أ ــ مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيغل ، جان هيبوليت ــ ترجمة انطوان الحمصي ، دمشق ١٩٦٩ .

ب ــ أصول الفكر الماركسي ، أوغست كورنو ، ترجمة ، مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، دار الاداب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ايار ١٩٧٠ .

جـ ــ هيغل حياته ، ومذهبه ، مجلة الطليعة ، القاهرة ، العدد (٩) سبتمبر ١٩٧٠ .

د ــ هيغل يتحصن خلف قلاع الحرية ، مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، مجلة الطليعة ، العدد ٩ ، ص ٤٢ ــ ١٤٧ .

هـ ــ مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة ، العدد ٦٧ ايلول ١٩٧٠ ، عدد خاص عن هيغل .

و ــ الفكر الالماني من لوثر الى نيتشه ، تأليف جان ادوارد سبنله ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي دمشق ١٩٦٨ .

ز ــ المثالية الالمانية ، د . عبدالرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

ح ــ موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال ١٩٦٨ ، القاهرة .

٢ ــ جون لوك

أ ــ جون لوك وفلسفته السياسية ، د . مجاهد فخري ، اللجنة الدولية للكتاب لترجمة الروائع ــ الاونيسكو ــ بيروت ١٩٥٩ .

ب ــ علم السياسة ، د . حسن صعب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ .

جـ ــ أصول السياسة ، هارولد لاسكي ، ترجمة ابراهيم لطفي عمر ومحمود فتحي عمر ، الجزء الاول ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣ ــ ميكيافيلــي

أ ــ نيقولا ميكيافيلي ، نص كتاب الامير ودراسة تحليلية ، محمد مختار الزقزوقي ، مكتبة الانكلو المصرية ، القاهرة .

ب ــ الامير ــ ميكيافيلي ، فاروق سعد ، منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ، الطبعة السابقة ١٩٧٧ .

٤ ــ افلاطــون

أ ــ أفلاطون : طيماوس : ترجمة الاب فؤاد جرجي بربارة ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ١٩٦٨ .

ب ــ اعلام الفكر السياسي : افلاطون : تأليف موريس كرانستون ، بقلم انطوني فلو ، دار النهار ، بيروت ١٩٧٠ .

جـ ــ دراسة لجمهورية أفلاطون ، د . فؤاد زكريا ، دار الكاتب العربي ، القاهــرة .

د ــ النظرية السياسية عند اليونان ، ترجمة ، لويس اسكندر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦ ، تأليف سير ارنست باركر .

هـ ــ محاورات لافلاطون ، بوتاغوراس ، ترجمة محمد كامل الدين علي يوسف سلسلة مذاهب وشخصيات ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

و ــ العرب والفلسفة اليونانية ، د . عمر فروخ ، المكتب التجــاري بيروت ١٩٦٠ .

ز ــ مدخل الى الفلسفة ، جون لويس ، ترجمة ، أنور عبدالملك ، الطبعة الثانية ، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٣ .

٥ ــ ارســطو

أ ــ السياسات ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية ــ الاونيسكو ترجمة ، الاب أوغسطينس برباره البولسي ، بيروت ١٩٥٧ .

ب ــ عبدالرحمن بدوي ، ارسطو ، دار النهضة ، القاهرة .

جـ ــ قصة الفلسفة من سقراط الى جون ديوى ، ول ديورانت ، ترجمة احمد الشيباني ، المكتبة الاهلية ، بيروت .

٦ ــ الفارابــي

أ ــ الفارابيات ، د . عمر فروخ ، مكتبة منيمة ، بيروت ١٩٥٠ .

ب ــ رسالة في العقل ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٨ .

٧ ــ توينبــي

أ ــ منهج التاريخ وفلسفة التاريخ ، محي الدين اسماعيل ، وزارة الاعلام بغداد ، دار الحرية للطباعة ١٩٧٧ .

٨ ــ ابن ابى الربيع

أ ــ نظرية نشوء الدولة والمجتمع عند ابن ابى الربيع ، من تاريخ الفكــر السياسي عند العرب ، مجلة الفكر الجديد بيروت العدد الاول ١٩٦٨ .

٩ ــ متفرقــــات

أ ــ نشأة النظرية الاجتماعية ، ترجمة ، د . فؤاد زكريا ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٧٠ .

ب ــ علم السياسة ، مارسيل بريلو ، ترجمة احمد حسيب عباس دار نهضة مصر ، العام ١٩٦٥ .

الفهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـداد

« ٨٨١ لسـنة ١٩٨٠ »

دار الحرية للطباعة ـ بغـداد

١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

تصميم الغلاف : سلسبيل ناجي

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر

«عن هذا الكتاب...»

دراسة منهجية لمفهوم القيادة كما طرحها البعث كمفهوم جدلي ثوري تأريخي، من خلال تحليل منهجي لتفاعل هذا المفهوم مع واقع قيادة البعث التأريخية والمتجلية بالرئيس القائد صدام حسين ورفاقه.. ومعالجة موضوعية لـ: النظرية والاسلوب، الاطار وخصائص التجربة، الايديولوجية، الديمقراطية.. القيادة الحزبية وجدلية الحزب والقيادة وتركيب الثورة، نظرية البعث في الدولة، في استقراء مقارن مع نظرية العقد الاجتماعي، وميكيافيلي، وجون لوك وروسو...

ومنهجية الكتاب اذ تكتمل عند طرح مسألة «الامة والازمة» كما يراها حزب البعث العربي الاشتراكي، فانها تستقرىء البعث علما وممارسة وواقعا.. وتستقرىء مسألة القيادة والازمة، تأريخاً وفكراً وعملا...



السعر ٣٥٠ فلساً

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

دار الحرية للطباعة - بغداد

١٩٨٠